نظرية الماريونيت

اســـم الكتـــاب: نظريـــــــة الماريونيـــــت
التـأليـــــــف: يســــــرا النـــــوبي
نـــوع العمـــــل: روايـــــــــــــــــــة
إخــــراج فنـــي: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)
مصـــمم الغـــلاف: شـادي يسـري محمـد عبـد القـادر
رقـــم الإيـــداع: 2021 / 25957
الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-267-2
الناشـــــــــــر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر


دار زحمة كتاب للنشر
 Facebook
 Email
za7ma-kotab@gmail.com
 Tel
002 01205100596
002 01100662595



نظرية الماريونيت

رواية

الكاتبة

يسرا النوبي

"بين مطرقة الكمالية وسندان الخوف"

"لا تدع خيوطك بين أصابعهم"

"الكمالية"

"كل ما لا يقتلني، يجعلني أقوى"

الفيلسوف "فريدريك نيتشه"

"لا تخافوا من الكمال، فلن تصلوا إليه قط"

"سيلفادور دالي"

أبرز نقاط قوتك الكامنة رغم نقصـــانك وأعلم أن الكمال لم يخلق للبشر

يسرا النوبي

المثاليون!!!!

من فضلكم تنحوا جانبًا فتلك الرواية ستزعجكم...

المتعافون!!!!

رجاءً تصالحوا مع أخطائكم السابقة ولا يرهبكم صنع أخطاء جديدة ما دمنا نحاول لصنع الأفضل.... فنحن نستحق تلك السكينة ولا شيء يدوم على الإطلاق.

يسرا النوبي

perfectionism

(١)

"استهلال"

أيهم أشد قسوة:
أن يتوقف قلبك أم أن يتوقف عقلك؟
الأولى ستفقدك حياتك أما الأخرى فستفقدك التحكم في حياتك.

***

منتصف أغسطس ٢٠١٤
منتصف الصدمة

وقفا الطبيب وزوجته في غرفة العمليات على جانبي الفراش الذي ترقد عليه المريضة وهما يخبراها بقسوة ارتسمت على وجهيهما قبل نبرة صوتهما بحتمية الإجهاض، كيف لجنين بعمر الستة أشهر أن ينجو بعالمنا؟! إنه ناقص غير مكتمل ... هل تعلمي يا عزيزتي معنى أن يكون مكتمل؟!

هو أن يخلق مثلنا نحن كما نحن خلقنا بنفس نموذجنا المثالي دون نقص .. لكن هذا لا ينتمي لنا، حتمًا لن ينجو ومن المؤكد أننا لن نضيع وقتنا الثمين في محاولات عبثية لانقاذه، أنت تعلمين أن هذا الجنين لا يصلح للحياة فهو لم يسر وفقًا للمعايير المطلوبة فحتمية إجهاضه لا جدال فيها.. هل تريدين جنين ناقص تعاني معه جراء نقصانه نحن ننقذك من هذا الألم. قبلنا به على مضض ومصمصنا شفاهنا بحنق وفي النهاية هو من أوقع نفسه بنفسه وقطع الحبل السري بأسنانه اللبنية التي لم تخلق بعد، أعطيناه الفرصة وأبادها ببلاهة لم نعهدها من قبل.

انظري معاييرنا واضحة كقرص الشمس كيف تجاهلها ولم يكترث بها؟!

في الواقع هو أقل من إن يراها في الأساس.. أخذ فرصة لم تكن من نصيبه ولم يكن هو جدير بها وأنت من أرغمتنا على ذلك فأغمضنا أعيننا وقبلنا بطلبك

رغم إخلاله بشروطنا المطلوبة، كيف الآن ترغبين في بقائه بعد ما حدث؟ ستظل فعلته وصمة عار في تاريخنا ستلاحقنا في حاضرنا ومستقبلنا هل هذا ما تريدينه حقًا لنا؟! هل هذا سيرضيكى؟

توسلت لهما الأم بدموع منهمرة بأن يرحما جنينها ولكن خوفها يمنعها وهو قابع فوق ثغرها يحاول أن يخرس توسلاتها وينذرها بجدية:

_ لا تحاولي أن تتفوهي بكلمة واحدة، لقد تركتك حين أرغمتني على الرحيل وها أنتِ الآن تجنين ثمرة غيابي.. عدت اليوم لأساندك فلا ملجأ لك سواي ربما الآن ستعين قيمة وجودي بجوارك.

نظرت له بحزن دفين وأمالت برأسها على صدره باستسلام ولازالت دموعها تظهر توسلاتها ببعض الأمل في بقائه....

فانزعجت الأم من نظراتها الآملة في رحمتهما بجنينها وصرخت في وجهها قائلةً:

_ أهذا خيارك؟ أهذا أقصى طموحك؟! جنين بائس يائس فقير معدم انظري إلى وزنه وراقبي إنه يتضاءل في وقت ننتظر به الزيادة والوفرة، بالتأكيد لم يتغذى جيدًا كيف سيتغذى وأبويه فقيران معدمان وأدنى من أن يحصلا سوى على لقيمات صغيرة تصله عبر الحبل السري هما أفقر من أن ينجبا سوى البؤس والكمد.. لا مجال للنقاش اليوم ولا عليك سوى الخضوع والامتثال لأمرنا... نحن دومًا على صواب ولا نرغب سوى بالصالح للعائلة ولنا وبالطبع لكي.

لا زالت حائرة بين بقائه وقتله ترى في بقائه عالمها الخاص وفرحتها وحياة بأكملها رسمتها على جدران منزل الأحلام بألوان زيتية براقةً، وترى في قتله فقد كل شيء ماعدا إرضائهم وسمعتهم وسمعة العائلة هل ستستسلم كعادتها المتأصلة والتي تتفوق دومًا في اختباراتها بجدارة نظرًا لسهولتها أم ستختار الأصعب؟

***

على الرغم من حرارة أغسطس وشمسها اللاسعة التي تراها من وراء زجاج نافذة غرفة نومها وهي تحاول أن تخترق فواصلها وثنايا الستارة بفضول قاتل لتراقب فتاة الغرفة الثلجية وتسأل باستنكار:

_أرأيت يوما ثلجًا لا يذوب بحرارتي؟! حرارتي التي باستطاعتها أن تحول كوكب ثلجي إلى كوكب عامر بالدفيء... ثم صرخت غاضبة

هل رأيت.... أجبني؟!

_نعم رأيت.. ها هنا قابع أمامك على حافة الفراش... نعم هي فتاة الغرفة.

كانت تجلس على حافة فراشها بعد أن اجتاح كيانها عاصفة ثلجية أرغمتها على الركض والركض إلى أن اكتظت رئتيها بالهواء المثلج وكادت تنفجر ترى شمسها ساطعة ولكن سطوعها اليوم على استحياء يبدو مألوف لها، ولكنه لم يعد كذلك منذ شهور فماذا حدث؟! من أعاد ذلك الشعور البغيض... شعورها بالوحدة والنبذ والانصياع والخوف؟

هل الخوف حضر بالفعل؟!!!

ربما لم يغادر منذ البداية هو فقط تخفى ولم يعلن ظهوره.. وها قد ظهر.

لما شمسها تغيرت وشروق يومها تبدد اليوم وعادت تلك الأحاسيس بداخلها تؤرقها؟!، لم تعد تشعر بدفئها بعد تلك العاصفة التي أثلجت عالمها بالكامل وجمدته.. تشعر ببرودة قلبها وروحها وهي تحمل الصدمة وخيبة الأمل، قرار الطبيب وزوجته وقع عليها كالشهب قضى على كل أحلامها في لحظة.

مهلًا لِمَ لم يكن بناء الأحلام بتلك البساطة في لحظة أيضا كهدمها؟؟.. لما البناء أصعب دومًا من الهدم؟!

أين ذهب الطائر المغرد الذي كان يتغنى في السماء منذ سويعات قليلة يصنع عشه بعيدان من القش الملونة وهو يغرد ويطرب من حوله بألحانه ليجد فجأة حائط صخري يتوسط عالمه فيصطدم به ويسقط أرضًا وهو يتلوى مكسور الجناح... وعيدان عش أحلامها تناثرت من حولها وتحطمت.

كيف بين اللحظة والأخرى أن يتبدل كل شيء؟ تنتقل من حال لآخر، قدرك،

حاضرك، مستقبلك، أحلامك وحتى الأشخاص من حولك.. تسحب أحدًا وتدفع أحدًا رغمًا عنك وما عليك سوى المشاهدة مسلوب الإرادة ليأتي القبول بالاستسلام في النهاية.

ما هي سوى لحظة تسقطك بينما أنت محلق في السماء لتطرحك أرضًا مكسور العنق، الآن صدر قرارها المصيري الذي سيغير مجرى حياتها وحياة من تعلق قلبها به وهو قرار وأد جنينها الذي لم يكمل سوى الستة أشهر كان الأمر كالصفعة التي أذابت نصف رأسها بالكامل.

تحسست بيدها قلبها المتألم والذي يكمن بداخله جنينها الغير مكتمل وهو ينازع الموت فانسابت على جفنها دمعة فجعة.

يريدون وأد حبها لأنه غير مكتمل؟!

تساءلت مغتمة:

_ ما الذي اقترفته ليسحق القدر أحلامها بتلك القسوة؟

كان حلمها بسيط لم يختلف عن حلم الباقيات فقط فتى أحلامها وحب يروى أرضها المتصحرة وينزعها من تلك الوحدة وسخط كل من حولها عليها هل هذا بالكثير؟!

بحثت عن بعض الدفء بعد أن عجزت شمس أغسطس أن تذيب ثلوجها.. بحثت ثم بحثت ربما لو تمكنت من الحصول على البعض ستستعيد قدرتها على اتخاذ القرار.

جلست القرفصاء تناجي عقلها وتتوسله:

أرجوك فكر وتروى في قرارك..

لكنه صخرة عاطلة عن العمل.. ترجته أن يعود لوعيه ليجد لها حلا ينقذها وينقذ جنينها من الضياع لكن دون جدوى.

الخوف عم أرجاء الغرفة وفرض سلطته، دقات الساعة في أذنها تذكرها بالعد التنازلي لتلاشي كل شيء.. تشتت ذهنها بأشعة الشمس التي تثير حنقها لعجزها عن المساعدة، نهضت وتوجهت نحو النافذة وأسدلت الستارة الداكنة

المعتمة كمستقبلها لتظلم الغرفة وتدفع التشتت بعيدًا عنها.

هيا أيها الشارد اعمل.. لو كنت إلكترونيًا لأعدت ضبطك مرة أخرى... هل أصابك لعنة أم أنا اللعنة بذاتها كما تقول والدتي؟

تكومت متخذة وضع الجنين على فراشها وضمت قدميها إلى صدرها وأسدلت جفونها فرأت ظلمة من نوعًا آخر أكثر هدوءًا ثم ذاب من حولها كل الضجيج والأحلام والأمنيات والصدمات.. العقل يرغب ببعض الراحة ربما الأمر برمته كابوس يعكر صفو أحلامها الوردية.

غطت في نومها وهي تبحث بين طيات اللاوعي على وعيها المفقود لينتشلها من هذا الكابوس البشع، لساعات ولا زال الكابوس يلاحقها ترى جنينها راقد في دمائه بعد أن قتلوه وأرغموه على تسليم روحه فانتفضت في ذعر لتجد الصمت يعم المكان والوعي ما زال مفقود.. أضاءت غرفتها ونهضت جالسة متسائلة:

ماذا حدث؟

فمرت الأحداث الأخيرة تباعًا أمام عينها.. صرخت بلسان حالها متسائلة مرة أخرى:

ماذا سأفعل؟

أجبني!!!!!!..

ما زال عقلها صامتًا، مصدومًا، متوقف.

نهضت وتوجهت إلى المرحاض لا تعبأ بالأشباح الهائمة حولها وهي تصرخ بوجهها وتثور بغضب، أصواتهم صاخبة تكاد تثقب أذنها ولكنها تجاهلتهم وأكملت طريقها دون استسلام لينتهي بها المطاف أسفل الصنبور وهي تضع رأسها لتسقط عليها المياه وتجرى بين ثنايا شعرها ربما تذيب تلك الكتلة الثلجية ويعود عقلها لوعيه؟

مرت ثلاث ليالي على هذا النحو دون جديد صمت، عزلة، فراغ، استغاثات جنينها، ثورة الأشباح، لامبالاة، عقل متوقف وقلب متألم وذكريات سعيدة ومشهد مدمر

وفي النهاية!

قرار هادم وصادم قلب كل الموازين وأعادها لزنزانتها القديمة لتعاني بمفردها وهي تبتلع رذاذ بخاختها بنهم لعلها تجد بصدرها متسع يحتويها.

أخيرًا برق عقلها بضوء خافت من الأمل، ربما تلك الفكرة هي التي ستنقذها وتعيد حق جنينها في الحياة هذا هو أملها الوحيد المتبقي... رجاءً لا تعبثي بها فهى طريق النجاة الأخير.. التقطت هاتفها الصامت منذ أربعة أيام وتخطت كل المكالمات الفائتة دون اهتمام وتوجهت مباشرة صوب رقم محدد.. ثواني.. صوت رنين.. ثم جاء صوته الدافيء في النهاية

_ والد الجنين؟

_ نعم أنا.

حادثته في أقل من دقيقة ثم أغلقت الهاتف ونهضت مسرعة نحو خزانتها، ثم بدلت ملابسها وغادرت.

*****

"الصعود للقمة"

(٢)

قبل ستة أشهر

السبت ٢٢ فبراير ٢٠١٤

دفعت إيناس الباب الزجاجي المعلق عليه لافتة بيضاء كتب عليه بالإنجليزية "push" وتوجهت إلى داخل الصيدلية بحذر كانت تلك الصيدلية المقابلة لمسكنها الجديد الذي انتقلت إليه مع عائلتها بالأمس بفرمان من والدتها لا نقاش فيه، خطت نحو المكتب الذي يتوسط الصيدلية بهدوء والجالس على رأسه شاب كان يضع بداخل أذنيه سماعات متصلة بهاتفه، كان يستمع إلى أحد برامجه الإذاعية الأجنبية المفضلة والتي تناولت موضوع الخيانة اليوم.. أنهى المذيع محادثته الهاتفية مع فتاة ثم أذاع أغنية (Rolling in Deep) Adele وبينما هو مندمج بعالمه شعرت هي وكأنها وسط غرفة فارغة أو ربما غير مرئية بعد أن لم يعرها الشاب أي انتباه من الأساس فتنحنحت بصوت عالي وبادرت:

_لو سمحت!!!!.

في تلك الأثناء كان مصطفى يريح رأسه إلى الخلف مغمض العينين وهو يستمع للأغنية باندماج وفجأة جاء صوت تداخل مع كلمات الأغنية في أذنه ففتح عينه بسرعة ليجد فتاة تقف أمام المكتب، فاتضح أن مكان عمله لا يصلح للراحة من مجهود المذاكرة الذي بذله طوال الليل واغتصب منه ساعات نومه، كان مصطفى شاب في الثامنة والعشرون من عمره ببشرة سمراء وشعر قصير أسود، وجهه مستدير وعيون ضيقه، طوله تعدى المائة وخمسة وثمانون سنتيمتر وكتفيه عريضين جسد يليق بالصاعقة ولكنه تخرج من كلية العلوم منذ بضع أعوام ويعمل في تلك الصيدلية كعمل مؤقت وكأنه يخطو عتبة من عتبات سلم طموحه إلى أن ينهي دراساته العليا ويحقق حلمه، أزال السماعات بعجالة في حرج ونهض من مكانه وعلي الرغم من صغر حجم السماعات إلا أن صوتها دوي وأصبح مسموعًا للفتاة فأعجبت بذوقه حين التقطت أذنيها كلمات الأغنية

You had my heart inside your hand

And you played it , to the beat

حينها اقترب مصطفي نحو الأمام خطوة ليستمع لطلبها وقد استشعرت خجله الواضح عليه فارتبكت أكثر كأنها أخطأت حين فاجأته بدخولها فقطع ارتباكها وبادر قائلًا:

_ أنا آسف معلش... حضرتك تؤمري بإيه؟

زاد ارتباكها بعد سؤاله بعد أن تذكرت طلبها المراد فتفوهت بتردد وصوت بالكاد يسمع:

_أنا.. كنت عايزة....

صمتت والتفت فجأة وولته ظهرها فأعاد السؤال:

_ حضرتك عايزة حاجة معينة؟

لم تجبه

ماذا تريد هذه الفتاة وما الذي يشعرها بكل هذا الارتباك؟ سؤال طارده في صمت.

ربما طلبها يتمثل في الأغراض النسائية فالكثيرات يخجلن من الذكور عند طلب تلك المنتجات ولكنها في النهاية ستظل منتج كسائر المنتجات، رغب في أن يقدم يد العون بإعادة السؤال مرة أخرى ولكن توجس في رغبته أنها ستزيد إحراجها فربما تأتى المساعدة في هذه المواقف بأن لا نساعد.. مرت ثواني قليلة بدت طويلة يراقب توترها بينما هي تلعن ارتباكها وأغراضها النسائية والأمر كله متضمنة سكنها الجديد الذي جاء الآن كلعنة حلت على رأسها... فلقد جاء بحياة جديدة بالكامل وأشخاص وأماكن يجب أن تعتاد عليهم.

فيلا جديدة بمدينة حديثة العهد وأيضًا صيدلية جديدة بطبيب مجهول الهوية وذهبت تلك الطبيبة صديقتها وجارتها في الصيدلية التي اعتادت عليها وعاشت معها ذكريات تعدت الربع قرن مع الريح، كل ما يتوجب عليها الآن أن تعتاد على تلك الأشياء وتعيش معهم البدايات مرة أخرى إلى أن تألفهم.

تيقنت بأنها لا بد من أن تنهي تلك اللحظة الحرجة بأقل الأضرار فاستدارت تجاهه وهي تواري خجلها خلف خصلة انسابت قرب عينها لتعيدها خلف أذنها وتساءلت:

_ هو ما فيش دكتورة هنا؟

أيقن بسؤالها صحة أفكاره فأجابها:

_ الدكتورة سلمى خرجت في مشوار ثم لمحها خارجًا من وراء الباب الزجاجي تعبر الشارع في طريقها للصيدلية فأكمل:

_ عمومًا هي وصلت أهي وثواني وتبقى مع حضرتك.

وصلت سلمى الصيدلية فدلفت وألقت التحية:

_ مساء الخير.

فأومأ إليها مصطفى على الفور بحركة تفهمها بأن تلك الفتاة تريدها فتوجهت لها إيناس وهي تشكر الله على إنقاذها من هذا الموقف وهمست لسلمى بمرادها كمن يبتاع أدوية مخدرة.

ظل مصطفى يراقبها بطرف عينه وهو يتصنع انشغاله بترتيب المكتب أمامه وقد وضع إحدى السماعات بأذنه وترك الأخرى حرة لعلها تلتقط شيئًا مهمًا، كان الفضول يلاحقه ويدفعه نحوها ولم ينتهي عند معرفة طلبها بل واصل طريقه نحو صاحبة الطلب التي شغلت باله.

وجه جديد غير مألوف يطرأ عليه للمرة الأولى فمنذ انتقاله لفرع الصيدلية الجديد في تلك المنطقة منذ عام ونصف وهو يعي جيدًا المنطقة والوجوه التي تطرأ عليه لأنه حين جاء إليها كانت في بداية تعميرها ولم ينتقل إليها فردًا أو أسرة إلا وقد مروا على صيدليته نظرًا لقلة عددهم في تلك المنطقة الحديثة وبات يحفظ عناوينهم التي يسجلها في حاله طلب إيصال طلباتهم للمنازل.

ولكن تلك الفتاة كانت كالنبتة الجديدة في حقله فدفعته لوضعها تحت عدسة مجهرية ليتفحصها ويستخرج كينونتها المجهولة حتى الآن، لكن لصاحبة الوجه الجديد وقع مغاير وقع بلمسة سحرية جذابة منذ الوهلة الأولى لمسة

كومضة مترقرقة.... تتبعها تتبع المسير لا المخير.

حين ذهبت سلمى لإحضار طلبها تلاقت نظراتهما رغمًا عنها وعنه فأشاحت بوجهها بعيدًا عن نظراته وهي تلقيه أرضًا محاولة أن تدفن خجلها في جوف الأرض، كم تمنت في تلك اللحظة أن تلقى عليه بتعويذة تفقده ذاكرته المؤقتة وكأنه لم يراها أو أن تحمل آلة الزمن وتعود للخلف بضع دقائق متفادية ذلك السخف الذي بدر منها لتلقى سلمى منذ البداية، ثواني وتأكدت هواجسه الخفية حين أتت سلمى بطلبها وهي تضعه في حقيبة بلاستيكية فالتقطت إيناس الحقيبة ودفعت المقابل للطبيبة وهرولت إلى الخارج كالهاربة.

أمسك هاتفه وأستأذن سلمى الخروج لعمل مكالمة هاتفية ولكي يتسنى له الإلحاق بها فلحق بها بالفعل أخيرًا قبل أن توشك على الاختفاء، وضع هاتفه على أذنه اليمنى وتصنع محادثته مع أحدهم وهو يراقب خطاها وهي تعبر الشارع إلى الجهة الأخرى إلى أن وصلت إلى أعتاب الفيلا المواجهة للصيدلية في الجهة الأخرى ثم توارت خلف البوابة الأمامية فتوجه صوب اللوحة المعلقة عند البوابة بنظره وقرأ

فيلا الدكتور "زاهر عبد الستار"

كيف غاب عن ذاكرته ضجيج العمال في تلك الفيلا لأشهر كاملة والشاحنات التي تنقل الأثاث لمدة ثلاث أيام ماضية، حتمًا قد انتقلوا بالأمس في يوم عطلته لذلك لم يتمكن من التعرف على الوجوه الجديدة.

الساعة أصبحت الخامسة مساءً

قرص الشمس بدأ يخبو تاركًا الساحة لظلمة الليل تكسوها رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وصلت رانيا بسيارتها أمام بوابة الفيلا وبدأت تطلق بوق سيارتها بطريقة جنونية أزعجت كلب ضال بدأ ينبح نحوها بجنون لحظات وظهرت إيناس وصعدت بجوارها في السيارة الميني كوبر الحمراء، أدارت رانيا السيارة لتتأهب لرحلة البحث عن فستان عقد القرآن وقد امتلأت بالحماس بينما إيناس كعادتها الأزلية حماستها لم تخرج من جوفها كأي مشاعر أخرى تخشى البوح بها، فمشاعرها لابد

من أن تظل بالداخل يحيطها هالة من الخوف حتى لو كانت تملك من الحماس ما يفوق العروس بذاتها.

فلم تكن رانيا بالنسبة لها ابنة خالتها فقط بل شغلت مكانة أعلى، فقد كانت تعني لها أكثر من صلة قرابة تجمعهما، فمنذ أن وضعت بين يديها في لفتها الوردية وإيناس تبلغ الأربعة أعوام واجتاح صدرها شعور الأمومة كأنها وليدتها هي.. رأتها كإحدى الدمى الخاصة بها صغيرة بكف رقيق ولكن بإحساس مختلف عن الأخريات فقد كانت حقيقية بين يديها تضحك وتلعب وتشعر ليست كمثلهن، وحدة إيناس دون أخت أو رفيق غذت محبتها وعواطفها تجاه رانيا فزاد تقربها لها وباتت علاقتهما بنكهة مختلفة تحمل بين طياتها علاقة الأخت بأختها وعلاقة الأم بابنتها وعلاقة الفتاة بصديقتها وحتى عندما جاءها أخيها مراد لم يغير من مكانة رانيا البتة في حياتها والتي اعتلتها منذ اللحظة الأولى دون منازع.

قالت رانيا بحماس:

_ اتأخرتي ليه يابنتي، إحنا هنلف كتير أوي إنهارده وياعالم هلاقي حاجة تعجبني ولا لا.

_ماتقلقيش هنلحق وإن شاء الله نلاقي.

_ مرعوبة إني ملاقيش فستان يعجبني ساعتها مش عارفة هتصرف إزاي الوقت مش هيكفي أشتري من بره مصر.

_ إهدي بس إنتي وكل حاجة هتتحل.

_ مش عارفة الهدوء ده جيباه منين يابنتي؟!

ضحكت إيناس على كلماتها وأجابت:

_ دى حكمة لما تكبري هتعرفيها.

_ طيب ياحكيمة يارب حكمتك دي تنفع إنهارده رغم إني أشك لأني عارفة ذوقك غيري خالص.

_ ربنا يستر يا نونه.

في تلك الأثناء كان مصطفى قد أنهى وردية عمله وفي طريقه للمغادرة فلمح مشهد صعود إيناس لسيارة رانيا من الجهة الأخرى للصيدلية هو يعرف تلك السيارة جيدًا ويعرف صاحبتها تلك الفتاة التي انتقلت منذ شهرين للسكن في هذا الكومباوند في إحدى الفيلات في الحي المجاور، ولكن لا يزال فضوله ينبش عن أي معلومة تغذيه وهو يسعى وراء الأخرى، حديثة العهد ذات الوجه الجديد، ليجد السيارة تغادر تاركة ورائها غبار يدور في الهواء كما تدور علامات الاستفهام في عقله.

أكمل بعدها مصطفى طريقه وهو يتحدث مع نادر صديقه في الهاتف وقد اتفقا على موعد للقاء في المساء لكي يحتفلوا بخطبة صديقهما مينا معًا.

***

تجولتا بين المحلات ذات العلامات التجارية العالمية والماركات الشهيرة وإيناس تدور في دوائر من الحيرة والتشتت حول المانيكانات المرتديات الفساتين بأشكالها وألوانها وطرزها المتعددة كانت تدقق النظر بتمعن وهي تبحث عن مرادها الذي سيتواءم مع الحدث الجلل المنتظر وكذلك مكانتها الرفيعة في العائلة، لا بد من أن يكون شيء لا يقل عن سابقه في الخطوبة والذي كان حديث الفتيات وسيدات العائلة بأكملها فستان يعبر عن أناقتها وحيويتها وروحها المرحة.. كانت إيناس تدور معها وحولها بعين متفحصة وبحس عشقها لتصميم الأزياء ومواكبتها لأحدث صيحات الموضة ولكنها لم تنجذب سوى للونها المفضل الذي كان يخطف نظرها رغمًا عنها وهو الأسود الظافر دومًا على مر العصور لا يقهره عصر ولا صيحة موضة متوج دائمًا بتاج الملك بين الألوان ولكنها ما إن ترشح أحدهم لرانيا لا تجد سوى الاندهاش بالتأكيد لن ترتدي الأسود في عقد قرآنها كما أنه لا يشبهها البتة.. ما هذا الهراء؟!!!

كانت رانيا فتاة بوهيمية خارجة عن المألوف، مرحة، أنيقة بصيحات معاصرة، لامعة كقرص الشمس تنشر أشعتها على الجميع لا أحد يتوقعها ولا

أحد يستطيع أن يتخطاها، تعشق المفاجآت ولها بريق من نوع خاص.. تغرم بها بمجرد أن تقع عينك عليها وتأسر القلوب بضحكاتها الصاخبة حتى أنها لقبت بلؤلؤة العائلة..... هي فقط تسير وهن خلفها، تفعل فيفعلن، تضع القواعد وهن يسرن على خطاها ويتبعن وقع أقدامها، هي الوحيدة من تملك حق كسر قواعد العائلة وخلق ما هو جديد دون أن يعارضها أحد وكيف يجرؤ أحد على معارضتها؟!

ورغم جمالها المتواضع والذي تفوقت عليه إيناس بإجماع عائلتها إلا أن ضوء كاريزمتها وطلتها يثقب قرنية من يراها بشعاعه، كانت رانيا قصيرة بعض الشيء ببشرة سمراء وشعر أسود كيرلي طويل، عيونها متسعة كالمها ووزنها زائد بعض الشيء يتضح أكثر عند خصرها وأردافها وتضع مقوم أسنان يعدل اعوجاج بعض أسنانها لكن روحها المرحة وضحكتها وقوة شخصيتها جعلوها تعتلي عرش الملكة بجدارة استحقتها...

فقوي الشخصية هو من يضع القوانين دومًا والتابعون يسيرون على منهجها لذلك أوكلن إليها وضع القوانين وهن يسرن عليها كما وضعت وأصبحت هي النموذج المثالي لفتيات العائلة الذي يجب أن يحتذى به.

أحبت إيناس تلك الهالة التي تحيطها وطلتها القوية والتي تخطتها بمقدار المسافة بين السماوات والأرض لتغتنم لنفسها ألوان الربيع وجماله وتترك لباقي الفتيات بقية الفصول لتحظى إيناس من بينهم بصفرة الخريف بجدارة واستحقاق.

مرت سويعات وهي لا زالت تبحث بين الفساتين إلى أن وصلت في النهاية إلى اختيار مبدأي بين بعضهم وبدأت في المفاضلة بينهم في غرفة البروفة وهي تتناقش مع إيناس متخذة من خبراتها الضئيلة كما تظن في مجال الأزياء والموضة بعض النصائح، ظلتا يتبادلتان الآراء إلى أن توصلت رانيا في النهاية إلى أفضلهم ثم حان دور إيناس لتختار الزي الذي سترتديه في تلك المناسبة.. حينها سارت إيناس على توجيهات والدتها دون أي التواء بعد أن أمرتها بأن تقتل ذوقها البائس

بخنجر مسموم وتتبع تعليمات الملكة فريدة فقط.

ألوان مبهجة وبراقة تخطف الأنظار، يبرز المفاتن دون أن يعريها بتعمد فيثير الاشمئزاز يفضل أن يكون طويلًا، يعجب الآخرين أكثر من أن ينال انتقادهم أو بالأحرى يعجب الجميع حتى لو لم يعجبها..... فاليندفن ذوقها في تابوت حجري بسابع أرض!!

جمعت إيناس بعض الفساتين منتهجة رؤية والدتها ومنصاعة للأوامر دون أي إخلال ثم أجرت محادثة فيديو مع والدتها كما أوصتها لتدلي بكلمتها الأخيرة ولا تنسى أن تستشير رانيا فرأيها مهم ويؤخذ في عين الاعتبار، ظلت لما يقارب الساعتين وهي تبدل بين الفساتين ووالدتها تارة توبخ وتنتقد وتارة تثنى وتحب ورغم الحنق والضيق الذي ملأ صدر إيناس وفاض إلا أن كعادتها صامتة بوجه خالي من أي تعبير، رغم أنها لا تحمل في نفسها ذرة إعجاب لأي فستان اختارته ولكن ما الجديد فهي دومًا ترتدي ما يعجب العائلة وخاصة والدتها.. ظلت فريدة تناقش رانيا حول الخيارات المتاحة إلى أن اتفقتا على أحدهم وقبلت به إيناس دون إبداء أي رأي وذهبت لدفع ثمنه رغم شعورها بالاعتراض على سعره المبالغ فيه، وذوقه المنفر لها.

***

اجتمعوا الأصدقاء على طاولتهم المفضلة في المقهى المعتاد لهم في مصر الجديدة وعلى رأس المقهى وضعت لافتة مضيئة تحمل اسم " شيشة " بالفرانكو بعد أن كانت تحمل اسم المعلم منير وأبنائه لعقود ماضية فلولا لمسة الحداثة التي طبعت على أحفاده لما تغير شيء.

اجتمعوا ليحتفلوا بخطبة مينا على حبيبته ماريا فؤاد أخيرًا بعد صبر سحب من عمرهما عشرة سنوات كاملة.

وبينما هم مجتمعون سقط على رأسهم فتى المقهى المدعى عسيلي ذو العشرون عامًا وسأل:

_ تشربوا إيه يا بهوات؟

رد مصطفى مبتهج:

_ إنهارده يوم خاص يا عسيلي، مش هنطلب نفس الطلبات هاتلنا طقم حاجة ساقعة علشان نحتفل بخطوبة مينا عقبال عندك.

تهلل وجه العسيلي وهو يهنيء مينا:

_ ألف مبروك يا أستاذ مينا.

فرد مينا: الله يبارك فيك ياعسيلي عبالك قريب بس بقولك إيه فكك من حوار الحاجة الساقعة وهاتلي أنا شاي بحليب.

انزعج نادر وهب في وجه مينا:

_ شاي بحليب إيه يابني هو وراك مدرسة الصبح، روح ياعسيلي الله يهديك هاتلنا الحاجة الساقعة. فانسحب عسيلي ليحضر الطلب ليستطرد مينا قائلًا:

_ بقولكوا إيه أنا مش معايا فلوس للدلع بتاعكوا ده أنا دلوقتي راجل ملتزم وعندي خططي ومسؤلياتي.

رد مصطفى: يابني فك الكيس شوية البنت هتهرب منك.

_ ما هو في جواز ودراسة ومشاريع لازم تكمل يا مصطفى... لم إيدك شوية عايزين ننجز بقى.

فيقول نادر بأريحية:

_والله يابني ما فيش أحلى من السنجلة وتصرف فلوسك براحتك من غير مسؤوليات وقرف.

يأس مينا من حوارهما بعد أن أفقدوه حماسته فقال بنفاد صبر وهو ينفخ أفكارهم السلبية في الهواء:

_يا جماعة أنا حر وبردو مش دافع تمن الحاجة الساقعة.

فقال مصطفى:

_خلاص يا عم الليلة دي كلها عندي علشان خاطر عيونك أنت وماريا..... بس إبقى إفتكرها ها.

***

مضى بضعة أيام في زوبعة تجهيزات حفل عقد القرآن وها قد حل اليوم المنتظر يوم الخميس المحدد لعقد القرآن، العائلة كلها تقف على قدم وساق لا مجال للتهاون فاليوم هو المنشود يجب أن يكون كما خطط له دون شائبة واحدة تعكر صفوه أو صفو العائلة الكريمة.

استقبلت رانيا " خبير التجميل " خاصتها ومصففة الشعر بحفاوة وحماس في فيلتهم ولم تتركها إيناس بل ظلت تقدم لها يد العون في التجهيزات بنفس الحماس، المنزل مكتظ بالأقارب في كل مكان يثرثرون بأحاديث جانبية يشغلون بها دقائق انتظارهم إلى أن وصل العريس وأهله وسط نظرات العائلة الثاقبة يتمعنون في تفاصيلهم بانبهار، اصطحب آسر رانيا لعمل جلسة تصوير نهارية في حديقة الفيلا وسط تجهيزات منسقة الحفلة والمصور فاستغلت إيناس فرصة انشغال الجميع وهرعت لمنزلها لإعداد نفسها في سلام دون إزعاج وفضول الفتيات من حولها يحاوطها بعدما رفضت أن تستعد للحفل في منزل رانيا بحجة الازدحام.

وضعت القليل من مساحيق التجميل الهادئة ورفعت شعرها في تسريحة تلائم وجهها الناعم تاركة غرتها فوق حاجبيها ثم ارتدت فستانها الأحمر المطرز باللون البيج ووضعت حول عنقها عقد اختارته رانيا بعناية بعد أن أضافت عليه لمساتها الخاصة وقرطان في أذنيها ثم أطلت على والدتها في غرفة نومها لتدلي بكلمتها الأخيرة على مظهرها فوافقت فريدة على مضض بشعور داخلي يؤكد بأن إيناس لا تجيد عمل أي شيء.... فلا شيء تفعله إيناس يعجبها على الإطلاق ما دام بذوقها ولولا ذوق رانيا لما قبلت بحلي زائفة أبدًا في زمن فضلن فيه الفتيات ذلك الذوق البخس على المجوهرات الأصلية.

***

الساعة الرابعة والنصف

خرجت إيناس بصحبة الدكتور زاهر ووالدتها وأخيها مراد من بوابة الفيلا متجهين صوب السيارة، وهنا لمحهم مصطفى من وراء زجاج أبواب الصيدلية البراقة بفضل أوراق الجرائد التي تهدر على لمعتها فخرج مسرعًا إلى خارج الصيدلية وقد شكر خلوها من الزوار وتصنع بأنه يجري مكالمة هاتفية وهو يضع هاتفه على أذنه ثم استحضر صوت الفراغ من حوله وقذفه في حنجرة اللا شخص الذي يحادثه الآن في مخيلته والذي من الواضح أنه سيكون مساعده في الأيام المقبلة ليتثنى له تأمل البدر في أبهى لحظاته.

لمحها في ثوبها الأحمر البراق عاري الكتفين وهي تخطو خلف والدها ببطيء وحذر من غدر كعب حذائها العالي، كانت جميلة ومتألقة تخطف الأنظار، وشعرها الذي جمعته فوق رأسها بتسريحة هادئة زادتها قسامة وبهاء، وقد كشفت عن رقبة بيضاء طويلة أضافت حسن فوق حسنها.

رأى فيها قمر ليل منتصف الشهور العربية إلا من شيء واحد شعر به ولكن يجهله، شيء زائد أو ناقص لا يناسبها يكاد يصرخ قائلًا "أنت لا تناسبيني إطلاقًا " ظل يبحث عن ذلك الشيء فلم يدركه فاكتفى بتأملها باستمتاع حتى لا يهدر تلك اللحظة الثمينة، ترك بصره يتبع آثار أقدامها باستسلام وهو لا يزال يحادث اللاشخص إلى أن لمح نظرتها له حينها جمع شتاته وأشاح بوجه في خجل وانسحب في تقهقر إلى داخل الصيدلية.

وقفت إيناس وسط الحديقة بين أضواء الاحتفال والورود البيضاء التي ملأت الحديقة والتي اتضح من خلالها مجهود منسقة الحفلة دون تهاون في إظهار لمستها الفنية لتظفر بتلك الحفلة بفخر تضيفه كمجد من أمجاد تاريخها في تنظيم الحفلات.

تصنعت إيناس ابتسامه واسعة أوصتها أو بالأحرى أمرتها بها والدتها في السيارة قبل بلوغ الحفل قائلةً:

_ عيزاكي مبتسمة على طول، وتتفاعلي مع الناس مش عايزه حد يتكلم

علينا، أنتي فاهمة؟
_ حاضر... فهمت.
قالتها باستسلام طفلة لم تتعدى السابعة من عمرها، باتت البسمة جزء من شفتيها ومع ذلك لم تستطع أن تخفي ارتباكها المسيطر عليها، وعلى الرغم من فرحتها العارمة لرانيا إلا أن هناك شعور مزعج يخالجها يفسد لحظاتها السعيدة وبعض الانقباض الذي يجعل تنفسها مهمة صعبة كَاللَّهَثِ، جهلت سبب هذا الشعور البغيض ولكنها أرجحته غالبًا لمظهرها اللافت وفستانها المضيء حتى بات الجميع يحملق بها بشكل مزعج تكرهه فكم يزعجها أن تكون تحت الضوء مباشرة والكل يلتفت لها كأنها مانيكان تتوسط فاترينة عرض، وعلى الرغم من عدم ارتياحها لتلك النظرات إلا أن هذا هو مراد والدتها دومًا أن تسرق هي الاهتمام والأنظار من الجميع كما اعتادت على هذا منذ الصغر لتورث هذا الشعور لإبنتها بإرادتها او رغمًا عنها لا يهم.... ، تمنت إيناس في تلك اللحظة أن تسكن كوكب بمفردها لتحيا على سجيتها وتتخلى عن كل تلك المظاهر والنظرات الخادعة ستتجرد حينها من كل شيء تتصنعه.. ستتجرد حتى من هذا الفستان البشع ستخلعه وتلقيه أرضًا وستلقي بحذائها ذو الكعب العالي بعيدًا وتحل تسريحتها لتطلق شعرها يتطاير في الهواء وتسير بمفردها عارية من كل شيء سوى الحرية... هي فقط من ستصحبها معها هناك، لا أحد غيرها.

ظلت حاضرة بجوار رانيا وآسر أثناء عقد القرآن والذي شهد عليه والدها أيضًا حتى انتهى وسط تصفيق حار وتهليل المدعويين والكل يبارك ويهنيء، الجميع منبهر بتألق العروس في فستانها السيموني القصير المنفوش بدون أكتاف الذي بارك بشرتها السمراء وأضفى عليها أنوثة ناعمة بلمسة مرحة تحبها، فقد كان مظهرها كما يجب أن يكون يليق بها ويشبهها تمامًا، بينما آسر اقتطف اللون السيموني ووضعه في ربطة عنق حول عنقه وقد إرتدى بدلة باللون الكحلي وقميص أبيض.

وما إن انتهى عقد القرآن حتى باغتهما فتى الدي جي برقصة "سلو" فهدأت الأصوات فجأة والتف الجميع حولهما في دائرة يمسكون بهواتفهم ليوثقوا تلك اللحظة الرومانسية ثم خفتت الأضواء وحل محلها أضواء الفلاش لتزيد المشهد جمالًا.

على عزف نغمات أغنية

(A thousand years)

تلاقت الأعين وتلامست الأيادي ثم اقترب آسر نحو رانيا أكثر وضمها إلى صدره وهما يتمايلان بنعومة على ألحان وكلمات الأغنية في انسجام

Heart beats fast.. colors and promises

How to be brave.. how can I love when iam afraid to fall

But watching you stand alone

All of my doubt, suddenly goes away somehow

One step closer

I have died everyday , waiting for you

Darling , don't be afraid, I have loved you for a thousand years

I loved you for a thousand more.

هنا ظهرت ابتسامة إيناس الحقيقية دافعة المزيفة للخلف لتقع تحت تأثير كلمات الأغنية وتهيم بها بسعادة، وعلى الرغم من أنها لم تكن بطلة قصة حب من قبل إلا أن تلك الأغنية قادرة بأن تجرفها في بحر من احاسيس الحب لتجد قلبها ينبض به، كان هذا يكفيها لتروي ظمأ مشاعرها حتى لو كانت لحظات قليلة لسعادة مزيفة ستنتهي بانتهاء لحن الأغنية قريبًا، لهذا عشقت تلك الأغنية ولهذا اقترحتها لرانيا لتكون رقصتهما على أنغامها فتعجب رانيا على الفور بها وتدونها بجدولها.

تغافل عنها الارتباك وهي تهيم بكلمات الأغنية وكخشوع الموج للقمر خشعت أنفاسها للهدوء لتذهب وتأتي في هوادة وارتياح وهي تنفرد بلحظتها الخاصة اليوم.

ولكن السعادة لحظة... واللحظات لا تدوم!!!

لتشعر فجأة بتقهقر سعادتها دون سابق انذار عندما تلاقت عينيها بأعين والدتها ليحل الضيق والارتباك على الفور محل سعادتها.. شزرت إحداهما وارتبكت الأخرى، واحدة تلوم... تسخط... وتثور والأخرى تتألم... تهرب... وتبرر فشلها بعجز.

هنا فقط أدركت سبب شعورها بالانقباض الذى يجتاح صدرها.. نعم لم يولد من باطن الفراغ إنما كان ينذرها بما سيحدث هذه الليلة.. لتجد نفسها تتوسط ساحة الحرب التي ولدت بداخلها ليزداد الأمر سوءًا بقدوم رانيا وبالتالي تزداد حدة المنافسة التى لا تنتهي، وعلى الرغم من حبها الشديد لرانيا إلا أنها مقتت تلك الحرب وتلك المقارنات التي تدور حولها في دوائر مغلقة خانقة، بغضت دفع والدتها المستمر لها لتكون مثل رانيا تخطو على خطاها وتحزو حزوها لتضع على وجهها قناع لا يمثلها متخذة من شخصية رانيا رداءً لتصبح فجأة محض أنظار وأفواه الجميع... لا يتحاكون سوى عليها فتتمنى الفتيات أن يصبحن مثلها.... ويتمنى الرجال نظرة رضا منها.

استاءت من عجزها في تصنع أفعال لا تشبهها، حاولت مرارًا وتكرارًا ولكن ظل الفشل حليفها دومًا ليلاحقها باستماتة، لم تعش يومًا على طبيعتها حتى كادت ملامحها تنتهي وتختفي معها معالم شخصيتها لتجد شبح رانيا يحل محل شخصيتها تدريجيًا وهي تسير على نهجه بكل حرف.

ترى كيف يتحول الشيء لنقيضه مرة واحدة.. هل يجمعهما طريق واحد من الأساس؟!

فرغم جهودها المبذولة لإرضاء والدتها في هذا التحول لم تنل سوى شهادة الفشل بامتياز، لتلتقط والدتها تلك الشهادة بتقزز وسخط يشعلن سعارها وهي

تصرخ بوجه إيناس قائلة:

" عمرك ما عملتي حاجة صح.. دايمًا فاشلة في كل حاجة أنتي عمرك ماهتنجحي أبدًا"

ها هي ترتدي الملفت والمضيء، تبتسم في وجه الجميع حتى باتت كالبلهاء.. تتصنع الود والسعادة تضحك كما يضحكون وتثرثر مثلهم، تشاركهم أحاديثهم التي لا تحمل سوى الحقد والضغينة في باطنها والسطحية في ظاهرها، ترتدي أقنعتهم، تمثل مثلهم ولكن كعادتها لعبت دور لم يكتب لها في مسرحية عبثية، فلا تستطع إجادة الدور كما يجب أن يكون لتحظى بالفشل بشهادة والدتها.

مهما فعلت لن تكون رانيا، لن تكون تلك الفتاة التي يحسدها الجميع وتغار منها فتيات العائلة بأكملها، بينما يتمنى الفتيان نظرة رضا منها، لن تكون تلك الفتاة الناجحة بكل شيء في نظرهم حتى باتت دون نقيصة واحدة، ولن تكون تلك العروس التي حظت بشاب بهذا الجمال وعلو المنصب ورقي العائلة.

كانت فريدة ترى أن ابنتها هي الأجدر بهذا العريس كونها أكبر من رانيا وابنة فريدة هما سببان كافيان بالنسبة لها لتحصل عليه، ولكن هل تلك الأسباب كافية بالفعل ليغدق عليها القدر بما تتمنى؟! لماذا كل شيء ينجرف بعيدًا عنها دومًا ليجري في مجرى أختها ثم تأتي ابنتها لتسلب باقي الحظ من إيناس، لما كل مخططاتها تفسد بهذه الحرفية، لماذا تحظى بكل التعاسة بينما أختها تحظى بكل السعادة لتأتيا ابنتيهما ويعيدا التاريخ مرة أخرى بتفاصيله ولكن هذا لايبرر فشل ابنتها.

انتهت الأغنية وسطعت الأضواء مرة أخرى فاستغلت إيناس صخب المدعووين حول العروسان وزاغت عن أعين والدتها متجهة نحو المرحاض، وقفت أمام المرآة وهي تتأمل لمعة الدموع التى تملأ عينيها ثم حدثت نفسها بهمس لا أحد يسمعه سواها:

_ليه كل ده بيحصلي؟ ليه أنا؟!!! ليه مش عارفة أنجح زيها في أي حاجة،

ليه دايمًا هي بتعمل كل حاجة صح وأنا كل اللي بعمله غلط؟

حينها طرقت إحدى المدعوات الباب فشتت ذهن إيناس فجأة، فوارت لمعة دموعها بسرعة ودستها وهي تستبدل تهجم وجهها ببسمة متفادية إيضاح أي لمحة حزن لن تفسر سوى بغيرتها من العروس ثم خرجت ملقية التحية بنصف ابتسامة وغادرت.

انتهت حفله عقد القرآن بسرور العروسان بعقد قرآنهما وقرب موعد الفرح، ثم يقررا استكمال سهرتهما في أحد الملاهي الليلية بصحبة أصدقائهما فتقرر إيناس الانسحاب متعللة بالتعب والإرهاق من تجهيزات الحفلة.... فيزداد تهجم وجه والدتها، كم كرهت عزلة ابنتها عن العالم فيقرر هو الآخر أن يثأر لنفسه ويعزل نفسه عنها فتبقى وحيدة منبوذة في جزيرة نائية مهجورة.

عادت إيناس بصحبة عائلتها إلى المنزل ولا تزال مخالب الضيق تنهش صدرها وغضب والدتها الدائم كالمشنقة حول عنقها تشتد أكثر لتضيق عليها وتزيدها خنقًا، لاذت بالصمت طوال الطريق وقد شعرت بنفاد الأكسجين من حولها وبدأ صدرها بالثقل فبحثت عن بخاخة التنفس التي وصفها لها الطبيب ذات مرة بعد أن أخبرها بأن مرضها نفسي وليس عضوي وأنها مصابة ب" ضيق التنفس النفسي " وأن علاجها لن يكون في تلك البخاخة ولكنها هي حل مؤقت فقط سيساعدها في تلك اللحظات كالمهدئات إلى أن تلقى طبيب نفسي فقررت اقتناء تلك البخاخة لتصبح بصحبتها دومًا بدلًا من فكرة الطبيب النفسي التي كرهتها بعد سابقة زيارة أحدهم منذ سبعة أعوام لم تنل منها سوى بغض العلاج النفسي وأطبائه.

بعثرت محتويات حقيبتها الصغيرة بجنون كأنها تلفظ آخر أنفاسها فلم تجد سوى هاتفها ومرآة صغيرة وأحمر شفاه، أشفقت على صغر حجم الحقيبة التي عجزت على حمل الكثير ثم تذكرت حجم الكارثة التي كانت ستحدث إذا ما رآها أحد في الحفلة وبيدها ذلك الشيء حينها سيتناقل خبر مرضها حتى لو لم يكن موجود من الأساس وتنتشر الإشاعات كالنار في الهشيم لتصبح كارثة تغلب إعصار

تسونامي لن تخرج منه والدتها على قيد الحياة أو أقلها ستخرج بشلل رباعي فهي تعي أهمية مظهر والدتها أمام العائلة فهو في المقام الأول دائمًا حتى لو كان على حساب ابنتها.

حاولت تنظيم أنفاسها بصعوبة بعد أن فشلت في إيجاد بخاخة التنفس خاصتها وأخذت شهيق عميق يعقبه زفير ببطء لتجد والدها ينظر نحوها في المرآة الأمامية وهو يقول بابتسامة ودودة:

_عبالك يا إيناس يا حبيبتي.

_إن شاء الله يابابا.

قالتها وهي تحاول أن تظهر ابتسامة بائسة... ثم نظرت إلى الطريق دون أن تنطق فهي تحاول أن تحافظ على هدوء تنفسها لتنجو إلى حين وصولها للمنزل.... في تلك الأثناء بدأ مراد محادثة مع والده عن تفاصيل الحفلة وعائلة آسر وسيارته موديل العام وماركة البدلة العالمية والساعة، وبينما هما يتحدثان كانت فريدة تصغى إليهما وهي ترمق ابنتها بإزدراء.

كم مقتت فشل ابنتها ولعنت حظها الذي لطالما رأته فقير معدم، مهما حاولت رفعه لأعلى يسقط في النهاية أرضًا منصاع للجاذبية ليس لها، ذلك حظها هي... الأعسر الذي يلاحقها لعقود كأسد يلاحق فريسته الرعناء، فأهداها بسخرية فتاة لا تصلح بالمقارنة مع رانيا كما لم يصلح حظها هي بالمقارنة مع حظ أختها عزة، تلك الأخرى المميزة في كل شيء عنها دون استثناء تتركه للفقيرة فريدة، عيوبها لا ترى بالعين المجردة إذا وجدت!!!!! كم حسدت أختها منذ الصغر والآن تحسدها على ابنتها رانيا التي تشبهها كثيرًا لتحظى بحظ أمها الوافر ألم تكن رانيا الأحق بأن تكون ابنة فريدة وليست إيناس التي تشبه حظ أمها التعس أو كما تراه تعس رغم جمالها الذي تراه قد تفوق على عزة أضعافًا مضعفة وكذلك ابنتها التي تفوقت بجمالها على رانيا كما تراها ولكن يبدو أن الذوق العام من حولها يزداد سوءًا!!!!.

كانت تحمل إيناس على ظهرها كالحدبة التي تزيدها كربًا كأنها سقم لا شفاء منه لتجد نفسها تتساءل بصوت خافت ولكن ليس خافتًا بشكل كافي لخرق أذن إيناس:

_ ليه أنا؟!

وهنا ضغط زاهر على فرامل سيارته ثم سحب فرامل اليد بعد أن صفها في زاوية خصصت للركن تحت مظلة أمام فيلته، وعلى الفور هبطت إيناس وأغلقت خلفها الباب بعنف بعد أن إلتقطت أذنها سؤال والدتها الأخير وهرعت نحو غرفتها... ألقت الحقيبة على الفراش وراحت تبحث عن البخاخة باستماتة كمن يرى الموت على بعد خطوات منه إلى أن وجدتها في الدرج العلوي للكومود فسحبتها على الفور ونزعت غطائها لتبتلع رذاذها بنهم المدمن على جرعته ثم استلقت على الفراش وهي تلفظ أنفاسها ببعض الراحة.

هدأت أنفاسها قليلًا أو كما هُيأ لها، وبدأت تنتظم فنهضت وخلعت حذائها وسحبت سحاب فستانها لأسفل ثم نزعته وتركته ملقى على الفراش ووضعت على جسدها منامة خفيفة ثم جلست أمام المرآة، نزعت الرموش الصناعية فلمحت انعكاس الفستان أمامها في المرآة وهو ملقى على الفراش لونه أشعرها بنفور لم يعجبها كيف وافقت على هذا اللون الذي لا يشبهها على الإطلاق؟!!!، بللت قطعة قطن من زجاجة مزيل الميكب وبدأت تمسح جفونها المطبقة وما إن فتحتهما مجددًا حتى وجدت رانيا تقف بجوارها! نعم هي بابتسامتها المعهودة وطلتها المنيرة تمد يدها نحو إيناس وتربت على كتفها بود فتبتسم لها إيناس لتجد صورة رانيا تبخرت بجوارها كالدخان ولم يعد لها وجود نظرت حولها بارتباك فلم تجد سواها في الغرفة.

تناقضت بداخلها كل المفاهيم لتصبح بازل يستحيل ترتيبه، تاهت بين كل شيء ونقيضه حتى فقدت وجهتها الأصلية، فتصبح رانيا بالنسبة لها كل شيء ونقيضه أيضًا، منافستها ومحفزتها، الداء والدواء، السلبية والإجابية كل هذا في آن واحد.

أحبتها إيناس وكرهت منافستها، أحبتها وكرهت أن تتخلى عن نفسها وتنتهج نهجها كرهت أن تصبغ حياتها بصبغة لا تمثلها، أحبتها وكرهت كونها جزء من حرب أشعلتها والدتها منذ ولادة رانيا، أحبتها وكرهت نفسها حين عجزت عن تحقيق النصر لوالدتها وحين عجزت عن أن تكون رانيا.

وعلى الرغم من اشتعال ألسنة الغضب والكيد في صدرها فلم تتردد يومًا عن كتمهما رافضة خروجهما للعلن وهي تلف حول فم الكلب المسعور المسجون بداخلها عصابة تكتم نباحه الدائم... وقد وقفت أمامه مروضة وهي تحمل بيدها السوط ليذعن لها بانصياع فتغلق عليه في النهاية أبواب زنزانته وتغادر.... ، فمهما شقت عليها الأمور وتعاظمت المنافسة التي دفعتها إليها الظروف فلن تكرهها أبدًا.

*****

(٣)

ما بين شروق شمس وغروب يعقبها كانت الأيام تمضي في نظام سرمدي لا يكن ولا يئن يحمل معهما الكثير من الفضول ليسكبه فوق رأس مصطفى، فضول نحو تلك الفتاة التي يستقبل طلتها الصباحية كشروق شمسه ويودعها هو في الغروب رغمًا عنه.

يوميًا كان يلمحها تخرج من الثامنة صباحًا وتعود في الثالثة عصرًا ثم تخرج أحيانًا مرة أخرى بعدها بساعة لتكون هذه آخر إطلالة يحصل عليها في يومه قبل أن ينتهي عمله ويذهب للمنزل أو يذهب لرؤية صديقيه، كان يراقب من وراء الزجاج أو بصحبة هاتفه بوقع فضوله المحبب إلى النفس، نعم يجهل سببه ولكنه يسير خلفه مغمض العينين دون سبب واضح على أمل أنه يومًا ما سيهمس في أذنه بالحقيقة وراء فضوله وسيأتيه بالخبر اليقين هل هو فضول نحو مجهول أم أن هناك مخطط ما يخفى عنه؟!

أما بالنسبة لإيناس لا يحدث في حياتها أي جديد سوى أنها انجرفت في وحل من تجهيزات زفاف رانيا بكل طاقتها التي بالكاد تجدها، فلم يعد يتبقى سوى بضع أسابيع تقل عن الستة على موعد الزفاف الذي حدد ليفصل بينه وبين عقد القرآن شهر ونصف مما ضاق على العروسين وشق عليهما في التجهيزات ليدخلوا في دوامة من القوائم المدون بها مهام لا تنتهي هنا وهناك، لولا ضغوط عمل آسر وتلك الإجازة التي حصل عليها بشق الأنفس لما تعجلوا في إتمام الزيجة فهو يعي أن تلك الفرصة لن تتكرر في عمله مرة أخرى ولن يرضى عنه أحد زملائه مرة أخرى ليتولى مكانه في العمل إلى أن ينهي إجازة عرسه لذلك قبل الجميع بهذا الوضع، وانخرطت العائلة بأكملها في التجهيزات وترتيب التفاصيل ومن بينهم إيناس، بينما رانيا اتبعت حمية جديدة من بين كثير قد مرت عليهم مرور الكرام من قبل لبضعة أيام أقصاها لم يتخطى الأسبوعين ثم تعود بشهية نهمة لتعوض ساعات جوعها وحرمانها بسعرات تفجر المحيط، ولكن تلك المرة غير

السابقون.... تلك المرة إما تكون أو لا تكون.... فلا احتمالية لإفساد عرس ينتظره الكون بأسره بفستان مزري وجسد عروس ممتلئة الردفين، أجبرتها الحمية على أن تخاصم كل عزيز على القلب والأمعاء لديها فودعتهم وهي تلوح بمنديل أبيض وقلب منفطر وتصالحت على مضض مع كل ما يخرس شهيتها ويحرق تكتلات الدهون التي تزعجها واضطرت للذهاب إلى الصالة الرياضية متعكرة الصفو بحثًا عن نتائج ترضيها تطل بها في يومها المنتظر، فيجب أن تكون طلتها كالماسة المتلألئة تسلبهم عقولهم وتثقب أنظارهم بلمعتها وكأن الشمس أشرقت للتو على بعد بضعة أمتار، وبجسد ملفوف ورشاقة عارضات الأزياء تتبختر بينهن بتعال وتشعل في النفوس الغيرة، فانكفأت معها إيناس لتحقق أدق تفاصيل أحلامها وطلباتها التي لا حصر لها من بين عش الزوجية وقاعة الأفراح والديكورات ودعوات الفرح والكثير الذي لا ينتهي.. ولن ينتهي إلى أن تصل للكمال.

***

جلست إيناس بجوار رانيا المضجعة بعرض فراشها في غرفة نومها ومن حولهن تتناثر مجلات الموضة وبعض المأكولات الخفيفة يحدقن في الشاشات ويتنقلن من بين صفحات الموضة ومصممين الأزياء من جميع أنحاء العالم في حيرة وتشتت، كانت إيناس تتأملهم بشغف حلم تمنت يومًا تحقيقه كمن يحدق لقمة جبل عال من قاعه، فكم تمنت أن تصبح واحدة من بين هؤلاء في عالم الأزياء، لديها نجاحاتهم وشهرتهم ويتهافت الجميع ليرتدي ثوب قد صممته بنفسها، تتذكر نضالها مع والدتها وهي تقنعها بدراسة الأزياء في فرنسا ولكن لأن رانيا لم تهتم بهذا المجال فلا يجب على ابنتها أن تفعل.

ثارت عليها فريدة في إحدى المرات بينما إيناس تحاول إقناعها ثم مزقت تصاميم إيناس ونثرتها في أرجاء الغرفة وهي تنظر لها في تحدي وتقول بتهكم:

_ويقولوا بنتي بقت خياطة، لا إنسي.. مصممين الأزياء دول إحنا اللي

بنعملهم ونشهرهم لما يقولوا إننا إشترينا منهم حاجة، ... ومابنفعش بنت فريدة تبقى خياطة إحنا ننفعهم أه لكن نبقى زيهم لا هو طب أسنان يعني طب أسنان.

فتبدد حلمها في الهواء وتبخر ليصبح فقط موهبة تخرجها على أوراق بيضاء وقت فراغها تؤنس وحدتها وتلون خيالات حلمها الساكن بعيد الغير مكتمل كهلال شهر لا ينتصف أبدًا.

سحبتها رانيا من غرقها في صندوق ذكرياتها الأسود وهي تقول بضيق:

_ أنا محتارة جدًا، كان لازم يعني آسر يستعجل الفرح شكلي مش هلحق.

_ هو الصراحة الوقت ضيق أوي وحجز wedding dress بيبقى قبلها بشهور، بس ماتقلقيش أكيد هنلاقي.

_ إزاي ما أنا بدور أهو ومش لاقيه أي حاجة مبهرة تشدني خالص كلهم عاديين، أنا بفكر أشتريه من برا وخلاص هسافر أسبوع أسهل وأسرع وأجيبه معايا.

_ مش هنلحق يارانيا دوري بس كويس وأكيد هنلاقي السفر هيضيع منك وقت كتير وأظن مافيش وقت.

كانت إيناس تعي جيدًا مفهوم الانبهار في قاموس رانيا والذي يعني بأن يغزل الكون من نجومه وكواكبه ومجراته أعجوبة العالم الثامنة فيها لتصنع مالم يصنعه أحد وتفوق كل التوقعات التي يمكن لبشري تخيلها، أحبت إيناس بهجة وطيبة رانيا وكرهت فيها جينات العائلة التي دنست طبيعتها الجميلة لتصوغ منها واحدة مثلهم تخرج من نفس القالب تعشق المظاهر والمغالاة والتباهي وأحيانًا التعالي إذا رغبت، ولكن من المؤسف أن ترى إيناس فقط تلك الطباع سيئة وربما هذا ما جعل منها شخصًا غير مرغوب بهم في العائلة لأنها لم تشبههم في قناعاتهم، فتلك الطباع كانت دومًا الحد الفاصل بين إيناس ورانيا وهي النقرة التي يختلفا دومًا عليها فإحداهما تعشق البساطة والأخرى تجد معنى الحياة في حب المظاهر والطلة بأفضلها فتنجرف في بحور عمقها لا ينتهي.

قرر هاتفها دون سابق انذار تعكير صفو أحلامها فأطلق صافرة النهاية وأظلم شاشته فجأة، حاولت رانيا بشتى الطرق إعادته للحياة وسط علامات الاندهاش التي إعتلت وجهها ووجه إيناس، نهضت وصعقته بالشاحن فلم يجب ضغطت على زر الفتح فلم يحرك ساكنًا ظلت تحاول مرارًا حتى أنها جربت شاحن هاتف إيناس ولكن لم تجدي المحاولة نفعًا إلى أن سئمت المحاولة وقررت الاتصال بأحد فروع الصيانة فنصحوها بالتوجه إلى أقرب فرع وستتضطر لتركه بضعه أيام لحين إصلاح العطل، مما إضطرها أن تكمل رحلة بحثها على اللاب توب.

في اليوم التالي بعد انتهاء عمل إيناس وعودتها للمنزل وجدت رانيا في انتظارها أمام البوابة وفجأة صعدت بجوارها وهي تقول:

_يلا بسرعة علشان نلحق الفرع قبل ما يقفل إنتي مش عارفة أنا عاملة إزاي من إمبارح، هتجنن من غير الفون بتاعي وآسر مش عارف يكلمني لازم أصلحه بسرعه.

_طب يا بنتي أنا هموت من الجوع إستني شوية نطلع ناكل أي حاجة ونروح.

_إنتي بتهزري بقولك هتجنن هناكل في أي مطعم يا إيناس بس المهم ألحق إنجزي بقى.

أدارت إيناس المحرك بقلة حيلة وانطلقت وراء وصف رانيا لأقرب فرع لصيانة الهاتف، تركت رانيا هاتفها في الصيانة على أمل أن يعود لأحضانها في أقرب وقت لتعود في خلال يومين لاستلامه.... وفي طريق العودة توقفتا عند أحد المطاعم وابتعتا وجبتين سريعتين ثم انطلقتا للبيت وعند مرور إيناس من أمام الصيدلية صاحت رانيا على الفور:

_ وقفي العربية بليز يا إيناس عايز أسال على السيرم بتاع شعري بقالي فترة بدور عليه ومش لقياه في السوق خالص، وتعالي يلا معايا علشان لو كان في بديل آخد رأيك فيه.

هبطت إيناس من السيارة بثقل فلم تترك لها رانيا مساحة للرفض، التساؤلات تدور بعقلها والمخاوف تراوغها..... لماذا تلك الصيدلية؟ لعله بالداخل... بالتأكيد سيتذكر موقفها السابق؟ الشعور بالقلق ينازعها خطت خلف رانيا وهي تحاول أن تتوارى عن الأنظار خوفًا من أن يلحظها ذلك الشاب.

كان مصطفى في تلك الأثناء يجمع مقتنياته ويغلق حقيبة حاسوبه ويتأهب للمغادرة بعد انتهاء ساعات عمله لتبدأ وردية الدكتورة سلمى والتي تقطن في نفس البناية الموجودة بها الصيدلية وتتولى باقي ساعات الليل في العمل بمفردها... داهمتا الصيدلية فجأة ليجدهن مصطفى فوق رأسه كالغارة المفاجئة زعزعت سكونه.... وكأنهن حططن على رأسه من العدم لا يعلم لما شعر بتلك الرجفة حين لمحها تسير خلف رانيا فوقف مكانه ثابت كالتمثال وسط الميدان، بينما هي تحاول أن تتجاهل النظر له ولحسن حظها وجدت الدكتورة سلمى فتوجهت رانيا نحو الدكتورة على الفور وبادرت بابتسامة خفيفة:

_ مساء الخير.

_ مساء الفل..... بابتسامة أكثر اتساعًا.

_ هو "سيرم" ثم أطلقت اسمه بالإنجليزية.. موجود علشان بقالي فترة مش لقياه خالص؟

_ توجهت الطبيبة على الفور إلى جهاز الكمبيوتر وبدأت في تدوين اسمه في خانة البحث.. لحظة ثم أجابت:

_ للأسف هو ناقص، بس أنا ممكن أطلبه لحضرتك وخلال يومين بإذن الله يكون وصل.

_ ياريت أنا محتجاه جدًّا وده الوحيد اللي بيناسب شعري.

_ فعلًا هو نوع ممتاز مع الكيرلي، طب أنا هحتاج من حضرتك الإسم ورقم التليفون وأول ما يوصل هنبلغ حضرتك على طول وتيجي علشان تستلميه ثم سحبت كارت من علبة أمامها وناولتها إياه وهو يحمل أرقام الصيدلية والواتس آب ولينك صفحة الصيدلية على الفيس بوك.

التقطت إيناس الكارت وهي تقول:

_ شكرًا.. بس الحقيقة إن الفون بتاعي في الصيانة ثم نظرت نحو إيناس المتوارية خلفها تقف في صمت تام وأكملت إديها يا إيناس رقمك إنتي وتابعي معاهم بلييز علشان إنتي عارفة الفون بتاعي في الصيانة ومش عارفة هيخلص إمتى.

باغتها طلب رانيا إذا سمي طلب من الأساس فما هو إلا أمر مهذب ارتدى عباءة الطلب الحتمي الذي لا يحتمل الرفض، فإرتبكت إيناس وخطفت نظرة سريعة على المتربص بها في الجهة الأخرى فرأته منكفأ على هاتفه بعد أن عدل وضعية جموده التي كان عليها حين رأها في البداية، ناداها هاجس داخلي بأنه منصت جيدًا لحديثهن فهي تشعر منذ فترة بنظراته تلاحقها ولكنها تكذب تلك الأحاسيس المخادعة التي تطالب دومًا بجذب الاهتمام، وفي النهاية ألقت على الطبيبة الرقم بعجالة واستسلام.. فلا جدوى من الفرار الآن.

لم يكذب مصطفى هواجسها الخفية فكان بالفعل ينصت للحوار بإصغاء وما إن ذكرت سلمى الرقم وطلبت رانيا أن تسجل رقم قرينتها حتى شعر بقلبه يتراقص.

دونت الطبيبة الرقم ثم سألت الاسم إيه يافندم:

فبادرت رانيا على الفور قبل أن تنطق الأخرى:

_ إيناس زاهر.

خرجت إيناس من الصيدلية ولازالت الهواجس تنازع بعقلها، شعرت بأنها للتو فقدت شيء حالما خرجت من الصيدلية بعد أن أودعت رقم هاتفها هناك وكأنها تركت قطعة منها... حتى شعرت أنها أشعلت فتيل عواقب تجهل نتيجتها.

وفي طريق عودتهما للمنزل سألت رانيا بحماس:

_ صحيح هتلبسي إيه بكره في الحفلة؟

_ حفلة إيه؟! قالتها إيناس باندهاش

_ يابنتي بكره حفلة عيد ميلاد مامت آسر وعزمانا كلنا وخالتو عارفة من

زمان؟

_ إنتي بتهزري أنا أول مرة أسمع الحوار ده... لا طبعًا أنا مش رايحة...

_ إزاي العيلة متفقة كلنا هنروح إنتي عايزة خالتو تعتذر دلوقتي!!! دي الحفلة بكره؟

_ أنا مش جاهزة للحفلة دي وأول مرة أعرف منك ممكن ماما تروح عادي لوحدها أنا لا.

_ بقولك إيه إتفقي مع خالتو وبلغيني بس ياريت تيجي معايا يا إيناس وماتبقيش سخيفة....

_ هحاول بس ماوعدكيش..

قلقها لم يبرح مكانه بل إزداد... مقابلة عائلية تعني لها الكثير من الارتباك والأخطاء وربما تفشل بها كالعادة..... ماذا عن جلد الذات وتأنيب الضمير؟؟؟ حتمًا قبلوا الدعوة أيضًا!!.

***

في تلك الأثناء اقترب مصطفى نحو الدكتورة وهو يتصنع انشغاله بتنظيم أحد الأرفف المنظم بالفعل وقد تناسى موعد مغادرته، بينما سلمى كانت تدون بعض أسماء الأدوية التي يجب أن تطلبها لنقصها، انتظر بتلهف حتى تخبره الدكتورة بطلب إيناس نعم إسمها إيناس وأخيرًا حظى بإسم فتاته المبهمة صاحبة اللغز والسحر فأهداه القدر اليوم أجمل هدية وكأنه ضغط زر الكرم فجأة لينعم عليه بالإسم وأيضا نعمة أخرى!!!..

_ مصطفى.. نادت سلمى وعينها لازلت على المفكرة التي بين يديها.

_ نعم يا دكتورة؟

_ الآنسة اللي مشيت من شوية طلبت السيرم المستورد اللي ناقص وحجزته دلوقتي ليها من الشركة، أنا عوزاك أول ما الطلبية بتاعته توصل تكلمها على الرقم اللي مسجلاه هنا بإسم إيناس زاهر، دي قريبتها ثم أشارت بسبابتها للخارج

عند الجهة الأخرى وهي تكمل.. وقالتلي أنها ساكنة في الفيلا اللي قصادنا هناك.

_ أه عارفها..... .. قالها ثم شعر بتسرعه وبعض الحرج.

_ نعم!

_ أقصد إني أكلمها لما السيرم يوصل حاضر... أنا همشي بقى دلوقتي.

ثم قاطعهما دخول أحد الزبائن فتفرقا واتجهت سلمى صوب الزبون، بينما مصطفى ما زال ممسكًا بالمفكرة باسم الثغر بعد أن شعر بهدية القدر الثانية بعد اسمها وهو رقم هاتفها... وكمن وجد عود ثقاب في ظلمة حالكة ماعليه سوى حكه بصلب ليشتعل وينير ما حوله فالآن فتحت أمامه الأبواب وبات الدرب سالكًا ولكنه لا يزال مجهولًا... ترى لأي وجهة ستقودني أيُها المجهول؟!

سجل الرقم خلسة على هاتفه، بينما سلمى تحضر للزبون وصفته الدوائية المدونة على الروشتة، ثم ألقى السلام وغادر ليستكمل حيرته نحو هبة القدر الجديدة ويبدأ استكشافها.

بعد أن أنهت إيناس حديثها مع رانيا حول الحفلة صعدت بتأفف لمنزلها.. كم تكره تلك المفاجآت حفلة لم تكن في الحسبان لم تجهز نفسها لها... ومنذ متى كانت هي جاهزة لشيء؟!! فدومًا ترغب في تأجيل أي لقاء لكونها غير جاهزة له، دخلت المنزل وأغلقت الباب فوجدت والدتها تجلس أمام التلفاز في الرسيبشن، جلست بجوارها وسألت:

_ هو صحيح بكره حفلة عيد ميلاد مدام عصمت؟

_ آه.. قالتها باقتضاب دون أن تحرك ساكنًا.

_ وحضرتك ماقولتيش ليه قبلها، رانيا بتقول إنك عارفة بقالك كتير؟

_ آه عزمتنا كلنا يوم كتب كتاب رانيا... وأنا نسيت... ولو قولتلك هتفرق في ايه؟!

_ أبقى مجهزة نفسي وعارفة؟

_ أنا جهزت لبسك وهتلاقيه عندك في الدولاب وحجزتلك في البيوتي سنتر بكره تروحي تظبطي نفسك قبل ميعاد الحفلة وبس كده أهو كل حاجة جاهزة.

_ بس أنا مش حابه أروح أصلًا.

_ هو بمزاجك؟! قالتها بحدة ووجه متهجم ثم أكملت

ومش حابه ليه أصلًا... إنتى عايزة تحرجيني ولا إيه.. وبعدين دي عيلة كبيرة أوي ومكانتهم عالية وأنا مش هبوظ علاقاتي علشانك ومافيش أعذار.

_ أوك... قالتها إيناس مستسلمة وسحبت نفسها وغادرت لغرفتها بعد أن أيقنت بعدم تحقيق المستحيل.

فرمقتها فريدة باشمئزاز وهي تغادر دون تعقيب.

***

في اليوم التالي اجتمعت العائلة في أمسية جميلة يملؤها رائحة الربيع المنتظر، ومشارف ليلة زفاف يترقبها الجميع بدأت تقترب، التفوا حول مائدة مستطيلة تسع الجميع حولها في الحديقة، كان هذا التجمع في فيلا والد آسر التي يسكنها مع والدته بمفردهما، ترأست الجلسة والدة آسر والتي أقامت الدعوة على شرفها وقامت بدعوة عائلة رانيا وعائلة آسر للاحتفال بعيد ميلادها وكذلك مدعية توطيد العلاقات العائلية أكثر وزيادة الألفة والتقارب بينهم.

خلفهم كانت هناك مائدة أكبر وضع عليها كل ما لذ وطاب من أصناف مأكولات وحلويات تتوسطها قالب من الحلوى كبير وضع عليه اسم "عصمت"... والخدم حول المائدة يقدمون الأطباق للمدعوين، تجمعوا الضيوف حول المائدة واحتفلوا بالتهليل والأغاني بالسيدة عصمت ثم قدموا هداياهم الثمينة التي تليق بها وسط الكثير من القبلات والكلمات المنمقة المختارة بعناية والمبالغ فيها.. أعطت إيناس هديتها التي عرفت بمكنونها في طريقها للحفلة والتي كانت عبارة عن ساعة ماركة عالمية جهزتها والدتها من قبل وقد أحضرت ما يليق بمقامها هي قبل ابنتها.

جلست "عصمت" بعظمة تعتلي كتفيها وتدلى بقدميها وكأنها الملكة على عرش الحكم، وعلى الرغم من كونها أرملة دون رجل في عقدها السادس، إلا أنها

حين تطل تراها وكأن جيش من الرجال يتبعها فهي مكتملة بنفسها تقف دومًا بجوار ابنها كحائط خرساني لا يهتز... يكفيك فقط رؤية عنقها المرفوع دومًا في شموخ تنحني له الرؤوس على الفور، أما باقي الجمع فقط إلتف حولها على الجانبين ومن بينهم إيناس ووالدتها فريدة التي لم تقل في شموخها عن عصمت والدة آسر حتى لا تدعها تظفر بالطلة دون بعض المنافسة الشريفة، اصطحبت إيناس الملل ليكون جليسها الذي حضر بالإكراه ولكن دونه لن تكتمل الجلسة وجلس بجوارها بكرشه المتهدل وعينيه الناعستين ينصت لأحاديثهم وهو يتثائب بثقل جبال ترقد على جفونه فيزيحها بأعجوبة ليكمل معهم الجلسة، تبادلوا الكثير من كم الأحاديث التي تحمل عنوانًا واحدًا وهو العنجهية والتعالي، يتنافسوا على الرفاهية والترف وكأن الكون خلق على أرض جولف ليركلوا الكرات أينما وكيفما ابتغوا، بالغوا واختلقوا بطولاتهم ليسحق كلًا منهما الآخر ويفوز بالقمة في اجتماع أشبه بمناظرة بين أسد يصطاد غزالة وغزالة يصطادها أسد، لا جديد بينهم سوى أن كلًا منهم ممسكًا برأيه بطريقة "شيك" في ظاهرها "تستعر" في باطنها، لتجد أقصى معاناتهم هو تقصف أظافرهم، وظهور علامات تقدم العمر على وجوههم قبل أن يخفوها في عيادات التجميل بحقن الفيلرو البوتكس.

جلسة يملؤها الثرثرة والتراهات ولكن إذا ما تمعنت في جوفها لن تجد سوى فراغ مظلم وصمت يعم المكان وكأنهم غير موجودين فقط سراب صحراوي مخادع، لا شيء لتستمع إليه بإصغاء وتجد فيه نفعًا وإنما حقول مقفرة يعلوها سرب من الغربان يحلقون فوق بقايا أشجارها المتحجرة بداخل نفوس غلبها مرض حب المظاهر.

جلست رانيا بجوار آسر محتضنة كفه بكفها أسفل المنضدة بعيدًا عن أعين والدته المصابة بحب التملك تصغى لأحديثها دون أن تتجرأ على التعقيب وهي تؤيد كل كلامها وتهز رأسها إيجابًا طواعية كنقار خشب مثابر لتكسب ودها الذي كلما لحقته ابتعد أكثر فهو ليس بتلك السهولة، كبلوغها قمة إفرست التي

سيستحال بلوغها دون أن تستميت جاهدة، ولم تستطع أن تتخلى عن إرضاء والدتها أيضًا من حين لآخر لتوازن الأمور دون خسارة.

أشفقت على حالها إيناس الجالسة بجوارها صامتة تستمع لثرثرتهم وقد كان شعورها بالضيق قد بلغ ذروته منذ أن قررت والدتها اصطحابها لذلك التجمع، تتبع تعاليمهم والتي تحفظها وباتت معلقة كالحلقة في أذنها.. إبتسمي.. شاركي في الحديث بلباقة... كوني اجتماعية.. مرحة... لا بأس ببعض الدعابات من حين لآخر.. شاركي نفس الاهتمامات.... وكأنها مطالب جماهيرية توجب عليها فعلها..... ولكن لن تصمد صفاتهم المحدثة أمام طبيعتها التي نشأت عليها، فلم تجد سوى صديقها الذي نشأت معه وبات يفهمها عن ظهر قلب وهو "الخوف" ليظل بجوارها وهو يحاول أن يسيطر على الموقف دون اقتراف أخطاء فينصحها بالصمت والابتسامة فقط فهما الأفضل لها حتى لا تقع في الوحل الذي لطالما تتعثر به..... وهي على يقين بأن تلك الجلسة لن يكفيها مائة بخاخة تنفس لكي يتسع صدرها لهذا الكم من العبث.

نظرت نحوها مدام عصمت صاحبة الدعوة ومترأسة الجلسة فجأة ثم توجهت لفريدة وببعض التعالي المسيطر على نغمة صوتها الفاترة البطيئة مصحوبة بإيماءة رأس تجاه إيناس وهي تسأل:

_بنتك دي يا فريدة؟ وكأنها تراها للمرة الأولى!!!!

تركت إيناس هاتفها الذي كانت تعبث به بتثاقل وقد أدركت بأن قاعدة الزجاجة قد دارت لتقف في وجهها بينما رأسها تملكه عصمت فتجد نفسها بطلة الحوار الآن، ابتسمت بنصف وجه مرتبك لتجد والدتها تجيب:

_ آه بنتي الدكتورة إيناس.

قالتها فريدة ببعض الفخر وهي تؤكد على لقب دكتورة الذي سيضفي عليها بريق المكانة الاجتماعية وأيضًا لتبرز ماتفوقت به ابنتها على رانيا التي اكتفت بدراسة التجارة الخارجية فقط، وعلى الرغم من ما تكنه فريدة تجاه ابنتها من لوم وغضب إلا أنها مثلت دور الأم الفخور بحرفية دون ذلة لسان واحدة.

سألت عصمت تلك المرة موجهة سؤالها لإيناس:

_تخصصك إيه؟

_أسنان.

_جميل أوي تخصصك.. والعيادة بتاعتك فين؟

_لا الحقيقة أنا بشتغل دلوقتي في مركز الدكتور توفيق كمساعد.. يعني علشان أكتسب خبرة أكتر في المجال تساعدني إني أفتح عيادتي الخاصة.

قالتها إيناس وهي تواري حقيقة كذبها بشأن العيادة فاستطردت عصمت:

_ ربنا يوفقك ياحبيبتي قالتها وهي تدقق النظر في يد إيناس تبحث عن خاتم زيجة أو خطبة فلم تصل لمرادها بسهولة فاضطرت للسؤال:

_وإنتي بقى مخطوبة ولا متجوزة؟

وقع السؤال على رأسها كالماء المثلج فأجابتها ببعض التعلثم:

_لا مش مرتبطة الحقيقة.

_لا إزاي مش مرتبطة! إنتي باين على شكلك كبيرة مش صغيرة إزاي لسه مارتبطيش هو إنتي عندك كام سنة؟

_٢٧... قالتها بصوت خفيض مطأطأة الرأس...

_يعنى إنتي أكبر من رانيا كمان! لا أكيد في مشكلة... يمكن لأنك هادية طول الوقت إنتي تقريبًا من ساعة ما وصلتي ماقولتيش كلمة واحدة.... علشان كده محدش بياخد باله منك.

_آه.... ممكن...

_لا كده ماينفعش خالص لازم تتكلمي شوية وتشاركي اللي حواليكي في الحوار وتبقي اجتماعية علشان تعرفي تلاقي عريس ماهو كده العريس مش هيشوفك أصلًا ثم أطلقت ضحكة ساخرة منفرة.

_هحاول أكيد.. قالتها الأخيرة باستسلام وهي تخفي خجلها وسط هذا الجمع الذي بات يحملق بها الآن كأنها آفة وسط حديقتهم البعض يشفق عليها والبعض ينفر منها.

لم تكن تدرك عاقبة قبولها لهذه الدعوة.. ولم تدرك أن الزجاجة ستدور عليها لتلعب معهم لعبة الصراحة المتوجة بالوقاحة وخاصة على لسان تلك السيدة السليط معدوم الرحمة، والتي فتحت عليها أبواب تعاني لتوصدها، حاولت أن تتفادى شزرات والدتها بنظرات الخزي والعار التي لا تملك سواها، فما هي إلا وصمة عار للعائلة... كيف تصاب والدتها بتلك اللعنة المدعوة ابنتها وهي التي تبحث عن الكمال دائمًا وخاصةً في مكانتها الاجتماعية وتسعى جاهدة لتنال الفوز بجميع المقارنات بجدارة تحسب في تاريخها وهي تحافظ على ثوبها الأبيض حتى لا تطأه ذرة سواد واحدة... فيهديها القدر بسخرية ابنتها لتفسد كل مجدها وتشعرها دومًا بنقصها وأنها لم تعد كاملة كما كانت تظن فتصاب بلعنة الخذلان، فلم تكن تلك الفتاة تشبه أمها أو حتى تساعدها في تحقيق أحلامها كما رسمتها وإنما هي مفسدة لكل شيء جاهدت فريدة لتحقيقه، هي العاجزة، الصامتة، الكئيبة، الضعيفة، كلها صفات تراها مندرجة في قائمة وليدتها الوحيدة وماخفي كان أعظم. لم تعد تدري هل غضبها ينبع في الحقيقة من كونها لا تشبهها أم كونها تشببها بشكل كبير؟ يا ليت لديها أخريات مختلفات يزلن تلك الوصمة... ياليت!!! لتجد نفسها تنطق بصوت لا يسمعه سوى إيناس صوت يخترق أذانها هي فقط وينبع من داخلها قائلًا: أنت لست بفتاتي.. إنما أنت معاناتي.

مازالت سهام نظرات فريدة المشتعلة باللوم والقهر تلاحق إيناس باستماتة من يثأر لروحه حتى حثتها نفسها للهروب فنهضت بتوتر بدى ظاهر غير مخفي وإعتذرت للجمع بصوت يختلط ببعض الضيق وهي تهرول نحو جانب مظلم بعض الشيء يحوى على أشجار كثيفة زادت من حولها العتمة والهدوء إلا من صوت نقيق الضفادع، نظرت حولها لتتأكد من وحدتها ثم انزوت بنفسها بين الأشجار بعيدًا عن سهام والدتها التي تخيفها أكثر من الظلمة الآن، ولم تشعر بالحجر المتخفى في الظلام تحت قدميها فتعثرت به ساقطة على ركبتها ويدها اليسرى فاستندت على الفور على جذع شجرة بجوارها وحاولت النهوض رغم ألم

ركبتها حتى وقفت على قدميها من جديد ثم بدأت في تنظيف فستانها المزركش بألوان الربيع والذي رسمت عليه الأتربة دائرة من البقعة مكان سقوط ركبتها.. حاولت دعكها حتى تزول ولكن لم تستجب البقعة العنيدة لطلبها، وركبتها باتت تؤلمها أكثر.... فلم تتمالك نفسها وانفجرت حينها على الفور في البكاء بحرقة قلب فاق ألمه ألم سقطتها وبقعتها، عجزت عن كتم تأوهاتها وصوتها الذي يشق حنجرتها الآن وهو ينازع ليصرخ بأعلى صوته ليخرج كل ما كبته بداخله.. فلم يكن تعثرها سوى القشة التي قسمت ظهرها وأشعلت فتيل الانفجار... لم تكذب خبرًا في أن تلوم نفسها أو أن تترك الخوف يلومها بل ويعاقبها فربطت له يديها حول الجذع وتركته يخرج سوطه ليبدأ في جلدها إلى حين يهدأ وينفس عن غضبه أو يقتلها ويرتاح من لعنتها، هو جلادها الذي لا يكل أبدًا يجلدها لساعات وساعات.. وأيام وأيام إلى أن وصلت الأيام لأسابيع ثم لأشهر ثم لسنون ليست قليلة، لعلها تدرك خيبتها وتتحرك بخطاهم المرسومة نحو النجاح الذي لطالما رغبوه.. ربما ستتغير للأفضل وترحم ظهرها وقلبها من تلك الندوب التي لا تشفى، ترحم نفسها من الجلد المستمر الذي تناله جراء تصحيح أخطائها وتمحو وشم العار والفشل الذي يعتلي جبهتها...

ظلت تبكي في الظلام بحرقة لدقائق جهلت عددها ولم تبالي، شعرت حينها رانيا بما أصاب إيناس من ألم بعد أن تقيأت حماتها أسئلتها بوقاحة تعهدها معها كثيرًا فلسانها دومًا كالمبرد الحاد... تعلم أنها تفتقد لكل معاني الذوق الذي يتصنعونه طوال الوقت لكنها للأسف لا تملك أن تتصدى لحماتها فانتقادها لا يعني سوى حرب تشتعل وتفتح عليها أبواب من الجحيم هي في غنى عنها خاصة مع اقتراب موعد الزفاف والأجواء لم تعد تحتمل فلجأت للصمت كعادة المغلوب، ولم تستطع أن تتجرأ عليها فرضاها جنة الخلد وغضبها نيران السعير.

أنهت إيناس جلد ذاتها وانتهت الأمسية بكل ما تحمله من سخافات وهراء ليعود كلًا منهم لعالمه، لم تسنح الفرصة لرانيا بأن تنفرد بإيناس لكي تطمئن عليها سوى في طريقها إلى جراج السيارات حينها انعطفت نحوها خلسة ومالت عليها

هامسة بصوت خفيض حتى لا يسمعها أحد:

_أنا آسفة يا إيناس بليز ماتزعليش منها إنتي عارفة هي أكيد ماتقصدش حاجة.

اعتذرت نيابة عن والدة خطيبها.. عذر أقبح من ذنب كمن يهمس بأسفه في أذن الذبيحة نيابة عن الناحر، كانت تعلم بأن أسئلة عصمت لامست جرح إيناس بطريقة ما ولكن كيف لإيناس أن تقبل اعتذار ماجاء سوى لمواساتها.. جاء دون علم صاحب الذنب ودون حتى أن يعترف بما اقترفه لسانه من حماقة بغيضة وقبيحة كفيلة أن تردى متلقيها قتيلًا.... كيف تقبله؟!!!

هزت إيناس رأسها إيجابًا بابتسامة تشق عبوسها بالكاد تظهر على ملامحها ودون أن تخرج حرفًا واحدًا من بين شفتيها بعد أن فرت الكلمات من قاموسها، ثم أكلمت طريقها نحو سيارة والدتها والسائق بداخلها في انتظارهم وما إن وصلت لها حتى ألقت بجسدها على الكنبة الخلفية وقد لاذت بالصمت الذي لطالما كان حليفها في تلك المواقف وبجوارها جلست فريدة والتي كانت تعيد المشهد في ذاكرتها دون توقف ومعها يزداد الغضب حتى بات الأكسجين الذي تستنشقه يشعل نيرانها أكثر وأكثر ليصبح وجهها بحمرة جمرة من النار.

كشرت عن أنياب باتت مرئية ترغب في نهش ابنتها القابعة بجوارها، وحاجبيها كادا يتقاطعان من شدة عبوسها... كيف لها أن تمس نرجستيها بذلك الشكل العبثي؟!!!!... تلك الجوهرة الثمينة التي دونت عليها ممنوع اللمس لتأتي تلك الصغيرة وتلوثها هكذا.. كيف استغلت صلة القرابة؟! هل هذا سبب كافي يسمح لها بهذا الإهمال؟! أيكفي كونها تحمل دمها واسمها وجزءًا منها أن تضعها في هذا الموقف المحرج وتتركها تتلقى نظرات الشفقة من الجميع لتصنع من والدتها مصيدة للحشرات الطائرة.

ليس لها الحق في ذلك.. ليس لها الحق في كونها صامتة، كئيبة، منطفئة، انطوائية، عانس، وأخيرًا مختلفة لا تمت لهم بصلة لتصبح ابتلاء ابتليت به فريدة تمثلت في ابنتها التي تمنت لوسنحت لها الفرصة الآن لنسلت من لحمها تنسيلًا،

تلك التي أنجبتها لتصنع منها سلاح تحارب به في معاركها ضد منافسيها فلم تجده سوى سلاح نكسة فاسد ما إن أطلقت منه رصاصة حتى ترتد في صدرها وتمزقه فتسقط هي لا هم...

***

(٤)

حملق في رقمها الساطع أمامه على شاشة هاتفه وبيده الأخرى يمسك قلمًا يطرق به سطح المكتب بطرقات منتظمة تخرج من عقله قبل يده وبتمعن خطف من وقته بضع دقائق غاب عنه عددها راح يرسم ويلون أمامه أعدادًا لا نهائية من السيناريوهات لتلك المحادثة المنتظرة... لا يهمه سوى كيف سيبدأ الحديث وكيف سيختمه وما فحواه؟

كيف ستجيبه؟ هل هذا الشيء سيسعدها كما سيسعده؟ هل تلاحظ نظراته لها من وراء الزجاج كل صباح وأصيل؟؟ هل لاحظت إعجابه بها؟ هل ظهر هذا القدر من الاهتمام الذي يكنه بداخله على وجهه أمامها؟ ولكن وسط هل هذه الأسئلة كان هناك واحدًا حاز على انتباهه بالكامل ما إن طرق عقله فجأة وهو.. كيف سيجعل من تلك المحادثة الأولى وليست الأخيرة؟

تلك هي المعضلة الأكثر صعوبة.. كيف سيغير مسار الأمور من كونها اتصال بأحد الزبائن إلى اتصال بفتاة تسرق نظراته كلما طلت عليه ويجد قلبه يرتج في صدره بفضول وإعجاب لم يشعر به من قبل تجاه أنثى.... فتاة تجعله يمارس أمور صبي في الخامسة عشر وهو يتلصص على فتاة تعجبه من وراء الزجاج وخلف النوافذ والأبواب ويختلق أعذار فقط ليراها في دقائق ظهورها القليلة.

يجب أن يحظى من تلك الفرصة الوحيدة بفرص أكثر لا أن تسلبه كل شيء ولكن كيف؟ لم يكن بالفتى القادر على بدأ محادثات مع فتيات خارجة عن نطاق الزمالة في العمل أو الدراسة أجوائها جدية أغلب الوقت... فهو ذلك الشاب الذي نشأ بحلم يلاحقه منذ أعوام بأن يصل إلى أعلى درجة في عمله ودراسته وأن يصنع حلم مركز التحاليل الذي يلاحقه هو وصديقه مينا منذ التخرج ويسعى خلفه منذ أن حظى بلقب خريج كليه العلوم قسم الكيمياء الحيوية.. فلم يعد لديه الوقت لغير حلمه ودراسته وترك الباقى لوقت لا يعلمه حتى خرجت تلك الفتاة أمامه وقد قلبت الموازين وسلبته لب عقله وتركيزه وبات

يسعى خلفها دون سبب يعلمه لتجعل من يوم عمله الممل يومًا منتظر في فترة قصيرة..

كيف من بضع كلمات محددة كصباح الخير أو مساء الخير ثم يكمل برسمية "السيرم اللي حضرتك طلبتيه وصل ممكن حضرتك تستلميه في أي وقت أو نوصله لحضرتك على عنوانك "..... ماذا؟!! لا، توصيل لا هذا سيبدد اللقاء وسيحرمه من كل شيء نلغي التوصيل من القائمة ونعيد الصياغة مرة أخرى.. لابد أن يكون اللقاء أثناء فترة دوامه ليس بعده... ظل يحذف أجزاء ويضيف أخرى يصيغ ويصيغ ثم يعيد الصياغة لا يكل من المحاولة، فلابد من تلك الفرصة أن يغتنم منها فرص المستقبل أيضًا، تفاصيل المحادثة تؤرقه هل تناسب صباح الخير أكثر أم سلام عليكم هي الأفضل أليس كذلك؟؟؟.. هل يدعوها آنسة إيناس؟ هل هي آنسة بالفعل؟ نعم لم يتذكر أي رؤية لخاتم زفاف يعانق خنصرها أيسر كان أم أيمن.. بالتأكيد فهي تعيش مع أسرتها ولم يرى وجه شاب يصطحبها منذ أن انتقلت للسكن في تلك المنطقة سوى ذلك الشاب أخيها والذي يشبه والدته بنسبة تعدت السبعون في المائة كما يبدو عليه صغر سنه رغم طوله الذي تعدى أخته.

ماذا لو سأل عن أحوالها... أخبارها... غايتها... أحلامها؟؟؟؟؟

هل ستعتبره تطفل من غريب؟!

عزيزتي لست أنا بغريب فقلبي يخفق لرؤياك كأنه لم يخفق من قبل... كلما لمحتك والعيون تتبعك كأنها للتو أبصرت على خطى شعاع من الضوء، ألم يتضح قريبي بعد؟!.. أشعر بذلك الرابط بيننا كل يوم وصار يزداد ألا تشعرين؟!

أجرى الكثير من الحوارات الخيالية اللانهائية إلى أن فقد نقطتي البداية والنهاية، رسم مقدمة ونص وخاتمة في لوحة محيطها ألف كلمة وكلمة.. حول محادثة لن تتخطى العشر كلمات لحوار يدون في رواية بأكملها تخطت المائة صفحة، اقتطعت المحادثة من تفكيره الثلثي ليستيقظ الثلث المتبقي من غفوته على غرض المحادثة الأساسي الذي بوجوده سيحظى على تلك اللحظة... المنتج

الذي لولاه لن ينعم بصوتها على الهاتف فهو طوق نجاته الآن.

بحث في سجل الأسماء على الهاتف ليصل لرقم الشركة المستوردة للمنتج ويرسل لمندوبها رسالة يسأل على موعد استلام الطلبية التي طلبتها الدكتورة سلمى اليوم ليأتيه الرد خلال دقيقة في رسالة أخرى:

_هتوصل لحضرتك في خلال أربع أيام وإحنا هنتواصل مع حضرتك قبل وصولها ونبلغك بموعد الاستلام.

استقبل رسالته كالصاعقة على رأسه هل سيظل في تلك الحيرة لمدة أربعة أيام هكذا؟!

عديم الدم لا يدري عن لوعة انتظاري شيء....

يكاد القلق والتفكير يأكل رأسه وها هو مقدر له أن ينتظر أكثر كأنه يخُتبر في صبره وقوة تحمله، فالترقب والانتظار ماهما إلا نيران مشتعلة لا تنطفئ... أما انتظار لحظات مصيرية هو الجحيم بذاته والموت بسم بطئ يقتل خلاياك واحدة تلو الأخرى وهو يتلذذ بأنفاس سيجارة يدخنها ويراقب موتك بسلام نفسي.

بينما كان يتأمل رد المندوب المدعو إيهاب لمح أعلى اسمه اسم جديد للتو أضافه لهاتفه بالفعل... اسمها!!!.. "إيناس" تهلل وجه أكثر حين لمح صورتها "whatsAPP" نعم إنها هي وقد دونت على حالتها على

I have died everyday waiting for you

ضرب بكفه على رأسه على الفور أي حماقة أصابته؟ سب غبائه مرارًا وهو يبتسم ويراقب القدر وهو يفتح له المزيد من الأبواب ليجد في ممره المظلم بصيص من الضوء ومن ثم بدأت المصابيح على الجانبين تشع ضوئها مع كل خطوة يخطوها للأمام نحوها وكأنها تدفعه نحو فضوله أكثر ولا تثنيه... فقط سير خلفه دون توقف ونحن سننير لك الدرب.. لا تخف.. واتبعني...

كيف يكون في الألفية الثالثة ومحاط بالشبكات العنكبوتية في كل اتجاه ويدور بين مواقع من التواصل الاجتماعي لا حصر لها وهو مازال يتأمل رقمها بهذا الكم من الغباء ما الشيء الذي في حياتك الآن ليس مرتبط برقم هاتفك؟!

ليصبح هاتفك مقبرة لكل أسرارك ويومياتك وأحلامك، وأنت تنظر له مكتوف الأيدي كالخائب وكأن لا درب لك سوى التطلع لرنين هاتفها ربما قد يفشل في طلب الاستجابة، انظر رقم هاتفها هذا كـ

"MASTER KEY"

يمكنه أن يفتح لك جميع أبوابها المغلقة لتتطلع على عالمها عن قرب. ذهب على الفور نحو محرك البحث في صفحة الفيس بوك وأدخل رقمها ثم ضغط على العدسة وماهي إلا بضع ثواني وظهرت صفحتها الشخصية أمامه وصورتها تتوسط الصفحة فضغط على صفحتها على الفور بحماسة متقدة

Enas Zaher

Dentist

single

10/9/1987

Cairo

Interested in fashion designer

Favourite color black

لم تلتقط عينه من كل تلك البيانات سوى كونها عازبة لتتهلل أساريره مؤكدة إحساسه ومبددة كل الشكوك التي ساورته... فيبدو أن الساحة فارغة وفي انتظاره.

تأمل صورة الغلاف ذات الجمال البصري الممزوج بالأريج لباقة من زهور الياسمين البيضاء التي تشعرك براحة كأنك تستنشق شذا عطرها الآن، أما صورتها الشخصية والتي أكدت له امتلاكها لهذا الحساب هي صورة لوجهها في بورتريه رسم بالرصاص ببراعة وهي تظهرملامحها بجاذبية خاصة.

ضغط على صورتها للتكبير إلى أن ملأت شاشته ليتسنى له تأمل كل تفاصيلها بتمعن وهو يخبئها بين تجويف قلبه... لا عجب في حبها لزهرة الياسمين العربى بالتأكيد فحين تراها ستعرف جيدًا الرابط بينهما فملامح وجهها أقرب في الشبه

لأهل شرق آسيا وكأنها سقطت من عائلة فليبينية أو كورية على أرضنا.. كانت تحفظ ملامحهم عن جدارة ولولا لسانها الناطق للعربية لما تردد بأنها آسيوية وليست أفريقية بعينها الصغيرة الضيقة ووجهها المستدير وبشرتها البيضاء وأنفها الرفيعة وشفتيها المنمقة وشعرها الأسود الناعم وغرتها التي تعلو الجبين.. مصرية الجنسية آسيوية الملامح هجين غريب لكن يعجبه... وهنا أدرك سبب حبها لزهرة الياسمين التي تضعها على غلافها فزهرة الياسمين هي الزهرة الوطنية للفلبين من يشبهوها.

حفظ صورتها في هاتفه ثم ذهب ليتصفح قائمة أصدقائها فوصل إلى حساب رانيا ليجد بجوارها مدون

cousin

(ابنة خالة)

كانت صورة رانيا الشخصية مبهجة مقتطفة من ألبوم جلسة تصوير عقد قرآنها وهي تحتضن آسر.

ترك قائمة الأصدقاء ذات العدد القليل والذي طغى عليها غالبية الإناث والأقارب وانتقل إلى الصور وهو يتجول بينهم بانبهار ولم ينس أن يحتفظ بجميعهم، كانت في أغلبهم تجتمع برانيا والقلة الباقية بمفردها فاستنتج من خلالها قربها من رانيا بما تخطى مجرد صلة قرابة وكذلك عشقها للون الأسود الذي تسيد أغلب ملابسها والقليل هو من أضافت عليه لون آخر بلمسة جمالية تدل على ذوقٍ عالٍ في الأزياء، إلى أن وصل إلى صورة لها وهي ترتدي الرداء الأبيض في عيادة الأسنان ثم الكثير من الصور حول أزياء عالمية وتصاميم لموديلات بالقلم الرصاص تشاركها على صفحتها يبدو أنها بصنع يدها.. بحث عن مربع إرسال طلب صداقة فلم يجده إذًا هي متحفظة بعض الشيء في قبول طلب الصداقات فلم يجد أمامه سوى مربع إرسال رسالة!!!.

سحب على الفور دفتره الصغير الذي يدون به ملاحظاته المهمة وما يرغب في تذكره وفتحه على صفحة بيضاء لم يمسسها حبر قلمه وبدأ يدون كل المعلومات التي جمعها عنها دون أن يغفل عن واحدة.

اسمها، عملها، سنها، تاريخ ميلادها، لونها المفضل، مكان عملها، عدد أصدقائها، والبرج الخاص بها حتى أبرز منشوراتها التي اعتبرها مادة علمية خصبة يمكن من ورائها تحقيق الكثير، فيجب أن يدرس أدق تفاصيلها دون تهاون فلا مجال للمخاطرة والرسوب، ثم سجل صفحتها في قائمة الحفظ ليصل إليها سريعًا كلما أراد..

بعد أن انتهى من تدوين ملاحظاته شعر ببعض الراحة وتنفس الصعداء أخيرًا فمراقبته لصفحتها سيهون عليه انتظار لقائها وسيفتح له باب آخر يدخل منه لعالمها، فمن اليوم وصاعدًا لن يتنفس سوى شذا عطرها الياسميني ولن ينتظر سوى لقائها.

***

في صباح اليوم التالي استيقظ مصطفى على جرس تنبيه هاتفه، فتح عينه وكذلك ذاكرته فتحت عينها على الفور على أهم الأحداث وبدأت في بث سلسلة من أهم مشاهد دونها بها، صورتها التي لم تغادره، ودفتره الذي دون به كل تفصيلة حصل عليها تخصها وهو يبقن بأن تدوينها ماهو إلا شيء روتيني يحفظ به تلك المعلومات التي يرغب في تذكرها حتى لا يفقد منها شيئًا واحدًا لكن حذاري لعقله وقلبه أن يفعلا هذا ويغفلا عن واحدة.. كيف وقد تشعبت في عالمه وغاصت في ذاكرته مطلقة جذورها في ثنايا أرضه المتشققة التي يسقيها بفضوله وإعجابه وهي تنبت بداخله شجرة ضخمة من زهور الياسمين لتجذبه بعطرها بينما زهورها تنمو وتزداد كشعوره الكامن بداخل قلبه نحوها وعلى قمتها اسم إيناس يتوهج بينما فروعها الكثيفة تحمل أوراقًا دون على كل ورقة منها تفصيلة لتلك الفتاة، تذكر موعد الطلبية ثم صفحتها الشخصية.. مسح

وجهه بكفيه مستدعيًا روح الإفاقة وأمسك هاتفه، ضغط على زر إيقاف التنبيه ليخرس صوته المزعج، ثم توجه على الفور لصفحتها ليتصفح أحدث منشوراتها.. لا جديد.. تأمل الياسمين للحظات سرح بها قليلًا ثم توجه نحو اسم صديقه نادر وأرسل له رسالة:

" هعدي عليك إنهارده الساعة ٦عند البيت علشان عايزك في مشوار"

فأجابه الآخر على الفور

" أوك هستناك "

أزاح عن جسده الغطاء وحاول النهوض فتعثر في بعض الأوراق المبعثرة حوله الخاصة برسالة الماجستير والتي يبدو أنه غفل عنها بالأمس أثناء مطالعتها، نهض وجمعها بعناية تعادل أهميتها ثم بدأ في الاستعداد ليوم عمله، بدا استعداد اليوم مختلف عن سابقه وهو متقد بالحماس، يحسب وقته بالثانية حتى لا يفوته لقائها الصباحي.. حبه لعمله أصبح مفاجيء على غير عادته تنافى مع قبوله لذلك العمل على مضض وتفكيره كل صباح في تركه لينجو من فيضان السأم الذي يغرقه فلولا حاجته للخبرة والمال لما قبل بتلك الوظيفة، فما هي سوى محطة ترانزيت يتوقف بها قليلًا لحين انتهائه من دراسته وتحقيق حلمه الذي يسعى خلفه بمثابرة، تعجبت والدته من عجالته التي لم تعتد عليها فهو بالكاد يستيقظ كل صباح وينهض بكل تكاسل حتى وجبة الإفطار التي كان يتناولها على السفرة وفر وقتها اليوم وطلب من والدته أن تعد له ساندوتش يتناوله في المصعد وما إن حصل عليه حتى غادر على الفور وهو يراقب عقارب ساعته حتى لا تخونه وتلدغه.. تمنى حينها أن يصل أمام الصيدلية في لمح البصر حتى لا يفقد لحظته اليومية الخاصة، موعد خروجها الساعة الثامنة يحفظه بكل دقيقة وثانية فليس عسيرًا عليه أن يعرف موعد خروجها للعمل وهو يراقبها كل صباح لتخرج في الثامنة وتعود في الثالثة ماعدا يوم الجمعة إجازته.

لهفته لرؤيتها المدفوعة بوقود فضوله وإعجابه بها جعلته يبكر في موعد استيقاظه نصف ساعة رغم تأخر نومه بسبب الدراسة والمذاكرة وكم الأبحاث

التي يعمل عليها ليلحق فقط برؤيتها الصباحية التي يبدو أنها أصبحت عادة.. ورغم كونه يعلم عنها القليل ولم يلقاها عن قرب سوى مرتين يتخللهما بضع كلمات وأغلبهم نظرات إلا أنها حركت بداخله جانب لم يتخيل يومًا أنه يمتلكه ليجد نفسه ولأول مرة منقاد خلف إعجابه بها فجأة كمن ندهته النداهة... أهي نداهته؟!!

***

الساعة الثامنة خرجت إيناس تسير على هوادة نحو سيارتها الميني كوبر السوداء المصطفة بجانب الرصيف، ترتدي بنطال أسود وكنزة بيضاء وحول عنقها إسكارف مزركش يغلب عليه اللون الأصفر وتضع على عينها نظارة شمس سوداء ماركة

Ray-Ban

تنظر من خلف عدساتها البنية نحو الصيدلية، تلمحه يقف في الخارج أمام الباب يعبث بهاتفه، تلمح نظراته التي يسرقها من حين لآخر، تشيح بنظرها نحو سيارتها بسرعة خوفًا من أن يلحظها وهي تلتفت إليه وقد تناست أمر النظارة، أربكتها نظراته كثيرًا ووجدت القلق يلحق بها ليوقظ أفكارها الساكنة فأسرعت نحوالسيارة بخطى أسرع وهي تسأل القلق في استنكار لم تلاحقني دومًا كالمتطفل في أوقات أرغب في أن أكون على سجيتي بها؟!

في تلك الأثناء كان مصطفى يتأملها ويتأمل تفاصيلها ويدون كل منهما على أوراق الشجرة التي انبثقت بداخله معلنة عن بدء فجر جديد في حياته، لم يلحظ ارتباكها وخطواتها السريعه نحو السيارة، فكل شيء يسير على نمطه المعتاد ورغم أن تلك اللحظات المتكررة يوميًا لا تتعدى الدقيقة إلا أنها كانت بالنسبة له عبارة عن فيلم يحمل الكثير من المشاهد والتفاصيل.

مر يومه سريعًا بين العمل ومراقبة صفحتها الشخصية ينقب عن أي جديد يضيفه في دفتره إلى أن انتهى يومه بمشهد عودتها ثم انتهاء ساعات العمل، استقل بعدها الأوتوبيس وتوجه نحو منزل نادر الواقع على بعد شارعين من

منزله ليلقاه في الموعد الذي اتفق عليه مسبقًا وما إن وصل حتى وقف أسفل البناية وأمسك هاتفه وضغط على اسم نادر... اتصال... لكي يعلمه بوصوله.. ثواني وأجاب نادر بصوت ناعس:

_ألو.. أيوة يا مصطفى.

_ أنت بتهزر؟!!!! يابني إحنا مش متفقين على الميعاد وقولتلك هعدي عليك.

_يووووه نسيت والله يامصطفى أنت عارف الشغل طب ثواني هنزلك.

مرت بضع دقائق على مصطفى وهو ينتظر صديقه إلى أن خرج نادر وهو يرتدي بيجامة رمادية وشعره مبعثر، ظل يتثائب من مدخل البناية إلى أن وقف بجوار مصطفى بوجهه الناعس فنظر له الآخر باندهاش وقال:

_ أنت كمان نازل بالبيجامة... إحنا مش متفقين على الميعاد ده يا نادر هو أنا معرفش أخد منك كلمة جد أبدًا.

_ ياعم بقولك نسيت وورايا شغل كتير وبعدين ألبس ليه أصلًا أنت قولت هتعدي عليا وبس وكفاية إنك ضيعتلي الساعتين اللي هنامهم قبل الشغل التاني.

_ ماهو أنا عايزك في مشوار كده.

_ خير؟

_ عايز أروح عند قريبك اللي عنده مشتل.

_ مين؟! عم داوود.

_ آه عمك داوود.. عايز أشتري ياسمين.

_ وده من إيه بقى إن شاء الله، أومال فين حلم الكلاب والبيتبول والجولدن وكل الأنواع اللي هريتني بيها وبصفاتها وحسستني إنك صلاح سليم في زمانه ده أنا حسيت إني الماجستير بتاعك في الكلاب يا جدع.

_ أمي بقى الله يسامحها وأدت الحلم من قبل ما يتولد.

_ والله الست عندها حق.. أنت عارف تربي نفسك علشان تربي كلب وتنجس البيت يا نجس.

_ آه والله على رأيك ده أنا لو جبتلها الإمام مالك ذات نفسه علشان يقنعها مش هتقتنع بردو... شكلها كده مافيش كلاب ولا حتى هامستر.

_ فأنت بقى قررت تغير الاتجاه وتعمر الصحراء مش كده؟ ودي بقى عايزها إمتى إن شاء الله؟

_ دلوقتي.

_ نعم ياخويا؟!.. بقولك عندي شغل بعد ساعتين فكك مني إنهارده وتعالى نروح بكره إن شاء الله.

_ ياعم بقولك دلوقتي.. في السريع كده يا ندوره ومش هتتأخر على شغلك ماتقلقش.

_ ماشي يا أسطى هعديها المرة دي يلا بينا نتوكل على الله.

_ أنت هتروح كده ولا إيه... مش هتغير القرف ده؟!!!

تقدم نادر أمامه بخطوات في لا مبالاة وهو يقول:

_ يا عم إخلص هو أنا رايح أخطب.

ذهبا سويًا وأشترى مصطفى أصيص زرع أصفر مستطيل اللون يحوى على نبتة صغيرة من الياسمين وقد أنبتت بعض الزهور البيضاء العطرة، لمح وجه إيناس من بينهم وهي تستمتع بشذاهم.

فتح مصطفى باب الشقة ودخل ثم تبعه نادر الذي يحمل الأصيص بين يديه وتوجها نحو الشرفة على الفور فوجد مصطفى والدته تمر في طريقه وهي تنظر له بتعجب بينما نادر يلقي عليها التحية:

_ إزيك يا طنط؟

_ أهلا يا نادر.. إيه ده اللي معاكوا؟! سألت في دهشة

_ ده ياسمين يا طنط..... قالها وهو يلهث من ثقل الأصيص.

_ ياسمين؟!

_ آه يا ماما وأهو أحسن من الكلب يا ست الكل ويجملنا البلكونة... قالها مصطفى بسعادة.

فهزت رأسها إيجابًا دون فهم وغادرت لغرفة نومها.

وضعا الأصيص سويًا في الشرفة ثم غادر نادر في عجالة ليلحق بعمله على وعد بلقاء في أقرب وقت، ليعود بعدها مصطفى لنبتته الصغيرة ويقف أمامها وهو يستحضر صاحبة الإلهام ليخبرها بفرحته العارمة لمجرد حصوله على شيء تحبه ويعجبها ورغم كونه ليس على يقين بذلك وربما هي مجرد صورة أعجبتها لا أكثر إلا أن مجرد تخيله بأن الياسمين يعجبها أصبح يعجبه هو أيضًا فما يعجب من أُعجب بها يعجبه هو أيضًا.

ليقتطف في النهاية زهرة بيضاء ويستنشق عبيرها بتلذذ وهو يتصفح صفحتها الشخصية بسرور.

***

بعد مرور يومين أوقف مصطفى الأتوبيس وهو في طريقه لمنزله بعد يوم عمل، وبينما هو يبحث بعينيه على أحد المقاعد الشاغرة وقبل أن يصاب بدوار من حركة الأتوبيس لمح واحدًا في اليسار، وهنا ارتعش هاتفه في جيبه يصحبه نغمة رسالة بينما هو يستند على المقاعد بحرص لم يعتد عليه رغم كثرة ركوبه للأتوبيس... وما إن وصل إلى المقعد وجلس حتى أخرجه من جيبه، ليجدها رسالة من المندوب الخاص بالمنتج المنتظر كتب بها

" عربية الشحن في الطريق دلوقتي يافندم وهتكون عندكم الساعة ٨ ".

احتقن وجه بالدماء فجأة وتضاربت الأفكار في عقله، كيف بتلك السرعة؟! فلم يمر سوى ثلاثة أيام وليست أربعة كما إنه أنهى يوم عمله وهو الآن في طريقه للبيت، سبه في سره بكل اللغات في غضب، كيف يجرؤ بأن يدمر كل مخططاته بتلك السهولة، فلم يمر على مغادرته سوى بضع دقائق، هل سيعود مرة أخرى وبأي حجة سيلقيها على الدكتورة سلمى؟

أحمق كيف تقدم على تلك الخطوة وتسلبني فرصتي الذهبية؟ أعلم بأن مايهمك هو سرعة تلبية طلبات العملاء وأنا كل مايهمني ليس منتجك العزيز

إنما من ستستلمه لذلك لن أضيع فرصتي التي ربما لن تتكرر هكذا كان يحادث نفسه....... وبالطبع لن يتركه يفسد مخططاته ويترك حلمه على ذيل بالون يطيح به الهواء، سيفسد هذا الأحمق كل شيء فقد أخبره سابقًا بأن الشحنة ستصل بعد أربعة أيام وليست بعد انتهائه من وردية عمله، الآن ستتسلم الشحنة الدكتورة سلمى وهي أيضًا التي ستتصل بإيناس وتبلغها بوصول الأوردر ثم تذهب إيناس وتستلمه وتخرج ثم النهاية.....

ولكن لحظة واحدة، توقف بها عقله وتركه يبحث عن ذاته بداخل هذا السيناريو ليسأل أي دور سيلعبه؟!!! أين هو من الأساس؟!! فلم يجد لذاته أي وجود فقط المندوب والدكتورة سلمى وإيناس، حينها تلفظ بصوت غاضب وصل لآذان من حوله دون قصد

_ غبي...

إلتفت الرؤوس حوله فجأة فشعر ببعض الحرج وهو يرفع يده معتذرًا:

_ أنا آسف.

فعاد الجميع إلى عوالهم في رتابة وتعجب منه، ثم بدأ هو سريعًا بكتابة رسالة للمندوب:

" للأسف مش هينفع نستلم الأوردر إنهارده، حصلت ظروف وإضطرينا نقفل الصيدلية بدري، ياريت تبعته بكره الصبح وأنا هكون في انتظارك ".

ثم ضغط إرسال ليأتيه الرد في خلال ثواني

" أوك بكره الساعة ١٠ الصبح يناسب حضرتك؟ "

" آه حلو أوي هستناك بإذن الله الساعه ١٠ ".

" أوك ".

كذبة صغيرة هي التي أنقذت حياته لولاها لفقد كل شيء فهي بمثابة طوق نجاة رحمته من عذاب الغرق.

إلتقط مصطفى أنفاسه ببعض الطمأنينة بعد أن خدعته الرياح الهوجاء وحاولت العبث بأحلامه وتخريبها فظل يلاحقها وهو يلهث إلى أن طوحت بها

أمامه وهربت بعد أن لعبت بأعصابه، ..... الآن عاد الحلم بين يديه مرة أخرى ولازلت الفرصة أمامه ليلقاها.

***

الساعة الخامسة صباحًا أطلق المنبه صفيره المزعج دومًا ولكن تلك المرة بالتحديد كان منتظر كإطلاق صافرة السباق للمتسابقين التي رغم كونها تقلق الأذهان إلا أنها تسمح بتدفق الأدرينالين بالشرايين وتطلق الحماسة في الصدور ومعها استيقظ مصطفى مبكرًا بساعتين ليس كعادته، وكأن عينيه لاقا النوم في تلك الليلة من الأساس!!!

فهو بالكاد سرق نصف ساعة غفا بها قليلًا ليجد نفسه بالصيدلية يتأملها من وراء الزجاج كعادته الصباحية... لتصير إيناس هي بطلة أحلامه الوحيدة بلا منازع، بعدها قضى باقي ليلته يحملق في سقف حجرته الأبيض الفارغ وهو ملقى على فراشه، عقله ومخيلته تذهب وتجيء، يستحضر صوتها الناعم ويجري حوارًا بشفتيها ولسانها... يرسم ابتسامات ويبدي إعجابه بها بوضوح ثم يلون وجهها بحمرة الخجل فيزداد إعجابه بها ويغرقها أكثر بكلمات الغزل التي لا تناسب غيرها.

ليلة بأكملها انقضت على هذا الحال، يرسم ويلون، يختلق المواقف وينشيء حوارات حتى أبت عيناه النوم.... تخشى أن تفقد حماستها فظلت يقظة تتأمل لوحاته التي يرسمها على سقف غرفته لساعات بترقب، فرحته باقتراب لقائها سرقت عقله واستحوذت على كيانه بأكمله، سلبته وعيه فشرد.... وطاقته فخمدت ونومه فجفاه طواعية.... كمن ارتعب من فقدان صورتها بين طيات سباته.

ولكن مازال الوقت لئيمًا يجتر ذيوله ببطء سلحفاة كهلة تخطت القرن، لماذا لم يصنعوا جهاز تحكم بالوقت حتى الآن؟!!!... نسرع ونبطأ كما نريد ونتحكم به كما نشاء ولكن سيظل في النهاية وقت الانتظار دومًا طويلًا حتى لو

كان ثانية، فدقيقة الانتظار تملك ستمائة ثانية أو أكثر.

ذهب إلى الحمام على الفور ليأخذ حمام ساخن سريع ينعشه لم يستغرق سوى عشرة دقائق لينهيه، ثم ذهب على الفور إلى غرفته وتوجه نحو الخزانة، فتحها ثم تأمل متعلقاتها بتردد اليوم فقط شعر لأول مرة بشعور الأنثى حين تقول " ليس لدى ما أرتديه " رغم أن خزانتها تعج بالملابس، اليوم ليس يومًا عاديًا فلا يجب أن يستهان به ولولا ضيق الوقت لابتاع ملابس تليق به.

ظل يحرك في المشاجب يتفحص ما تحمله بعناية ويدور بعينيه قرابة الخمس دقائق بحيرة إلى أن وصل في النهاية لمراده فإلتقطه وهو يقول بسرور:

_ أيوه هو ده..

كانت الحماسة تدب في أوصاله وفرحته بانتظار لقياها كالشعور بدغدغة الهواء البارد في شتاء يناير وعلى الرغم من برودته إلا أنه يتلذذ به.

قميص زهري اللون وسروال باللون الكاكي الفاتح وفوق القميص كنزة زرقاء، كم تعشق والدته تلك القطع عليه حين يرتديها، تراها تبرز به الوسامة والوقار معًا ويتلألأ بهم كحجرالفيروز اللامع في الضوء..... يذكرها دومًا بأناقة والده في الصبا فهو يشبه والده المهندس محمد مدبولي كثيرًا في شبابه، طوله الذي تعدى المائة وثمانون، جسده الرياضي، أكتافه العريضة، بشرته السمراء وشعره الأسود.

أكمل ملابسه بحذاء كاجوال أبيض اللون ليضيف لمسته الأخيرة، سرح شعره، تعطر بكرم دون أن يشفق على زجاجة عطره الغالي تلك المرة ثم سحب مفاتيحه وهاتفه وساعته وغادر.

رفض أن يستقل الأتوبيس المعتاد وكيف له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة ويهدر كل هذا المجهود في المواصلات العامة؟!! فبالتأكيد لن يترك حذائه الأبيض للأقدام المتسخة لتطبع على وجهه نعالها، فلم يجد أمامه حل سوى أن يذهب بتاكسي رغم أجرته الباهظة إلا أنه الحل الأمثل لمظهره دون أيادى تجذب وتشد وروائح عرق تصيبه بالدوار وأقدام تهرسه أسفلها دون اكتراث.

وصل الصيدلية باكرًا عن موعده بساعة إلا ربع، قلبه مضطرب وعقله يتصارع مع تصوراته اللا نهائية ظل هكذا حتى حانت لحظه خروجها للعمل فتأملها كعادته وهي في طريقها للسيارة.

دومًا أنيقة...... دومًا رقيقة..... دومًا تأسر أنظاره بنعومتها وخطواتها الهادئة.... ولكن مع الأسف دومًا لا تلحظه ولا تبدي تجاه نظراته أي اهتمام، ولكن لا يهم فكل مايشغله الآن هو محادثتها الهاتفية المنتظرة، كيف ستمضي، وما فحواها؟ وكيف سيخفي حماسة ورجفة صوته؟ كان يشعر بأن قلبه هو من سينطق أولًا في تلك المحادثة، وهو يندفع نحوها ليخبرها بكل ما يحمله لها خلال تلك الأيام القليلة منذ رؤيتها في المرة الأولى، ولكن لا يجب عليه أن يندفع ويتسرع في أي شيء خلال المحادثة الأولى حتى لا يفسد الأمر برمته وحتى لا يدهس قطاره المتسرع كل شيء وتصبح خطته هباءً منثورًا.

نزعت إيناس نظارتها الشمسية بعد أن صعدت بداخل سيارتها وهي تبتسم في تعجب بعد أن خطفت نظرة لتأكد مايدور في ذهنها، فكل يوم يمر تزداد معه نظراته لها ومراقبته خلف الزجاج بينما هي تختلس نظرة من وراء ستارتها المعتمة التي ما إن طرأت على ذهنها ذات يوم حتى استخدمتها على الفور لأن تلك الحيلة ستمكنها من النظر بدون أن يلحظ هو، وبالتالي لن تشعر بالخجل ليصبح هذا حلًا يرضي جميع الأطراف.

راقب مصطفى سيارتها وهي تغادر وهو لايزال ساكنًا في مكانه يراقب وما إن انتبه لرحيلها حتى نفض رأسه وعاد لوعيه وهو يذكر نفسه بموعد الشحنة، أمسك هاتفه وأرسل للمندوب:

" الشحنة هتوصل إمتى؟ "

" إحنا في الطريق، ساعة ونكون عندك إن شاء الله ".

مرت ساعتين ونصف حتى وصلت السيارة بالشحنة وهبط المندوب وهو يلقي التحية على مصطفى بود:

_ صباح الخير.

_ صباح الخير يا إيهاب أخيرًا وصلت.

ابتسم الآخر وهو يدور حول السيارة ويفتح الأبواب الخلفية للصندوق ويتبعه مصطفى، ثم نقل الشحنة للداخل مع مصطفى وانهى إجراءات الاستلام وغادر ليعود مصطفى على الفور لخطته، وضع الشحنة جانبًا وهرع نحو هاتفه يستحضر رقمها المسجل لديه وليس على هاتف الصيدلية..... ودقات قلبه تتسارع حتى بات يشعر بخبطاتها على صدره وهو يضغطت اتصال ويضع الهاتف على أذنه ويستمع للرنين.... بينما حبات العرق تنشع على جبهته من التوتر، وفجأة خفتت حماسته بعد أن سمع صافرة انتهاء الاتصال دون إجابة.

لم تكن من عادة إيناس الرد على الأرقام الغير مسجلة على هاتفها إلا بإلحاح من صاحبها لذلك تجاهلت رنينه دون اهتمام حتى ظهر مرة أخرى فدققت النظر به لعلها تتذكر صاحبه ولكنها لم تتذكر أحد ينتمي لهذا الرقم من قبل، انتهى الرنين للمرة الثانية دون أن تجيب فازدادت حبات العرق لتصبح شلالات على جبينه هل سينتهي الأمر هنا ولن يسمع صوتها؟ هل ستؤول خطته بالفشل ولن يراها؟ لا بالطبع لن يترك الأمر ينتهي بتلك السرعة وضغط على اتصال للمرة الثالثة وأنصت في ترقب ربما كان الهاتف بعيدًا عنها أو صامت، ربما تلك المرة ستجيبه. حينها استأذنت إيناس الدكتور توفيق بعد أن تركته ينخر في ضرس أحد المرضى ثم توجهت إلى ركن هادئ بعيدًا عن صوت المثقب بعد أن كلفت إحدى الممرضات لتتولى المساعدة وأجابت:

_ ألو.

_ أخيرًا.

_ نعم!

تنفس مصطفى الصعداء وهو يحاول أن يتمالك أعصابه ليدير حوار جيد دون هفوات ثم تحدث بجدية:

_ مدام إيناس؟

_ نعم!

حينها سب نفسه بصوت هامس بتوتر وصل لسمعها بسهولة وهو يقول:
_ يا غبي هتبوظ الدنيا... أقصد الآنسة إيناس؟
_ أيوه يافندم مين حضرتك؟
_ أنا مصطفى.... مصطفى... صيدلية الدكتورة سلمى.. حضرتك فكراني؟!
صوته بدأ يرتجف وكلماته أصبحت متقطعة وبالكاد يخرجها بينما هي تبعثرت أمامها الكلمات وغاب صوتها فجأة بعد أن عرفت من يكون فقاطع صمتها بإلحاحه:
_ ألو.. ألو حضرتك معايا؟
_ أيوه.
_ الأوردر اللي حضرتك كنتي طلباه وصل يافندم وأنا.. أقصد إحنا في انتظار حضرتك علشان تيجي تستلميه.
لم يكن في الأصل طلبها هي ولكن لا يهم فلا بأس بخدمة رانيا اليوم أيضًا.
أجابته بعد ثواني من التفكير:
_ ممكن أستلمه إنهارده الساعة ٣ ونص؟
تهلل وجهه وقال بسرور:
_ أكيد يافندم.
_ أوك.
ثم أغلقت الهاتف فجأة دون أي خاتمة، بينما هو لا يزال يضع الهاتف على أذنه ليصطدم بانقطاع الخط، ورغم سقوط سقف توقعاته فوق رأسه وتهشم كل آماله في نهاية سعيدة للمحادثة إلا أن فرحته لم تقل بل ازدادت حين سار مخططه كما يجب وحددت موعدها اليوم ليتسنى له رؤيتها عن قرب... وربما ينعم معها بحديث وجهًا لوجه من يدري؟؟؟؟

*****

(٥)

لم يهدأ قلبها عن الخفقان بشدة منذ أن أنهت المحادثة معه، شفتيها ترتعشان وأنفاسها بدأت في التثاقل ولكن تلك المرة لم تكن هناك حاجة إلى بخاختها، كان الثقل من نوع آخر لا يوذيها ولكن فقط يدغدغ حواسها ويربكها، اقتربت أصابعها من حاجبها بتوتر فأبعدتها على الفور، لماذا كل هذا التوتر؟!

أكملت ساعات عملها مع الطبيب بعقل شارد وأذن مصمومة يثرثر بجوارها كعادته بتفاخر عن حالاته وعلاجه لها ليثقل خبرتها في المهنة وهي لا تملك سوى أن تهز رأسها إيجابًا مع كل كلمة دون أن تخترق أذنها كلمة واحدة من أحاديثه، لو فقط تستطيع أن تضغط على الزر وتخرسه لتريح رأسها قليلًا لما ترددت، من قال إنها ترغب في التعلم؟ من قال أنها تحب طب الأسنان من الأساس؟!!

بالطبع هم وليست هي، لولا كونه صديق والدها لصرخت في وجهه الآن ليكف عن ثرثرته بأذنها طوال النهار، فإن كان هو طبيب ماهر فهي ليست بالطالبة النجيبة التي ترغب في التعلم وأن تسير على خطاه وتصنع الأمجاد في عالم طب الأسنان، فجلوسها بجواره غايتهم وليست غايتها هي فقط تحققها حتى لا تفشل وتحصد لوم الفشل، ولكن محادثة مصطفى اليوم زادت الأمر ارتباكًا وشوشت الذهن أكثر، وبددت طاقة تحملها اليومية لذلك الثرثار.

***

جلس مصطفى في الصيدلية على عرش البهجة وهو يبحث في قائمة الأغاني، ورغم حبه لأغاني البوب الغربي إلا أن تلك المرة أراد كوكب الشرق أن تشاركه تلك اللحظات وجلس يستمع لصوتها العذب باستمتاع وهي تنشد ماينشده القلب أيضًا.

وسيبني أحلم سيبني، وسيبني أحلم سيبني

ياريت زماني ياريت زماني مايصحنيش مايصحنيش مايصحنيش

اليوم سيلقاها عن قرب، لم يذكر أنه انجذب لفتاة من قبل كانجذابه نحو إيناس...... يتعجب من نداء قلبه دون سبب ولكن لا بأس فجمال الشعور يطغى على كل علامات التعجب بداخله.

راقب دقات الساعة إلى أن وصلت للثانية ونصف ظهرًا فوثب على الفور ليهيأ نفسه، ويهندم ملابسه، ثم يعيد ترتيب شعره وهو يستعد لرؤيتها.

في تلك الأثناء كانت إيناس تصعد سيارتها بتوتر ويزداد كلما اقترب الموعد، لتفاجأ بصديقها المخلص دومًا الخوف في انتظارها يجلس على الكرسي المجاور ويبتسم فنظرت له ممتنة كمن جاء في وقته، كم هي بحاجته الآن.

سألها:

_ متوترة من إيه؟

_ مش عارف بس كويس إنك جيت مكنتش هعرف أبقى لوحدي.. محتجالك.

_ ماتقلقيش أنا دايمًا معاكي وكل حاجة هتعدي بهدوء من غير غلطات، بس إنتي أوعي تندفعي قدامه أو تبيني أي اهتمام، لو فتحتي الباب هتدفعي التمن غالي.. التجربة دايمًا بتفشل ومش هتنولي غير التوبيخ منها فياريت بلاش.

_ حاضر..

تعلم أنه سيجد ما يزعجه بها وسيفر هاربًا، كل ما يدور في ذهنها الآن مجرد أوهام منذ متى وأحدًا يهتم لأمرها؟!!! ترى بماذا اختلفت؟ هي كما هي بائسة.. منفرة.. إذًا لماذا هو سيفعل؟!

ما زالت تلك المملة البغيضة لم يتغير بها شيء، إذا انجرفت نحوه لن تنال سوى نهاية مخزية ووشم الفشل الذي لم تنزعه من صدرها أبدًا... كل تلك الأصوات في رأسها... تلكأت في القيادة هربًا من الموقف وهي تحاول أن تهدأ صوت الخوف في رأسها وهي تعده بأنها ستكون مقابلة عادية بين بائع ومشتري، كما أنها لم تلاحقه بنظراتها من قبل بل هو من يفعل، هكذا بررت له ولنفسها تخبط مشاعرها.

الساعة تخطت الثالثة والنصف وكلاهما يراقبان الساعة ويتصببان عرقًا، هو يخشى الخذلان وهي تخشى المواجهة ولكن لا مجال للهرب، وصلت بسيارتها أمام منزلها وصفتها، ثم ترجلت منها ببطء وعبرت الشارع للجهة المقابلة حيث ينتظرها مصطفى الذي تهلل وجه بوصول السيارة، دخلت تجرجر قدميها والخوف يتبعها بحذر، عينيها تهرب من النظر إليه إلى أن وقفت أمامه ونظرت لتجده مبتسم ابتسامة واسعة تمنت أنها تكون عادته مع كل الزبائن وليست لها فقط.... بادر هو بالحديث وقال:

_ إزي حضرتك يا دكتورة إيناس؟

_ الحمدلله.

ازداد التوتر

هي لا تدري ماذا تفعل وهو لا يرغب في إنهاء هذا اللقاء بهذه السرعة، لابد أن يجد شيء ما يمنحه بعض الدقائق معها، نظر حوله يبحث عن مقعد لها وهو يقول:

_ ثواني وأجيب لحضرتك كرسي.

فرفضت على الفور:

_ لا شكرًا مافيش داعي، من فضلك عايزة الأوردر اللي كنت طلباه.

_ ثواني يا فندم ويكون جاهز لحضرتك، ثم تابع.. في أنواع تانية كتير عندنا ومستوردة كمان، تحبي أوريها لحضرتك؟

_لا شكرًا... وهي تشيح بنظرها بعيدًا محاولة أن تسيطر على رعشة شفتيها التي باتت ظاهرة ثم أكملت في عجالة.. ممكن بسرعة علشان ورايا ميعاد.

سحبت بجملتها الأخيرة باقي آماله في الإطالة معها في أي حديث تمناه، تناول السيرم من الرف في صمت ووضعه في حقيبة ثم ناولها إياه وهو يقول:

_ اتفضلي.

_ شكرًا، ياريت الحساب.

ذكر لها السعر فناولته النقود وسحبت منه الفاتورة ثم أسرعت بالمغادرة وهي تركض للخارج تاركه إياه خلفها بخيبة أمله.

صعدت إيناس سيارتها مرة أخرى واتجهت نحو منزل خالتها لتعطي السيرم لرانيا، لازالت مرتبكة، أنفاسها متقطعة وشفتيها ترتعشان، نظراته تمر أمامها في مشهد لا ينتهي، رغبته في إطالة الحديث معها، وجهه يفصح بشيء يقلقها تخشى حتى أن تفكر به.. لا بأس كل شيء قد مضى الآن لا تقلقي قالتها لنفسها لتطمئن وتنسى.

***

لا يعلم أي خيبة طلت بوجهها المزعج في يومه هذا؟! اللقاء بأكمله لم يثمر بأي شيء، ترى كيف سيلقاها مرة أخرى؟!... كيف سيتحدث معها مرة أخرى؟!

هل سينتظر لحين إشعار آخر منها... سينتظر زيارة لا يعلم موعدها وربما أو غالبًا ستكون كهذه المرة غير مثمرة، جملتين لا أكثر.. بائع ومشتري.. دون جديد ودون مزيد، في النهاية أنهى وردية عمله وسحب خيبته خلفه وغادر للمنزل.

***

رغم انتهاء اللقاء بأكمله ومحاولتها لطمئنة نفسها إلا أن شعورها بالتشويش لم يبرح مكانه ظل يتوسط صدرها راقصًا يخبرها بلغة كيدية بأنه لا يزال هناك.... يتخلل تفكيرها ويزعجها بل لم ولن يذهب إلى أي مكان.. ولا تدري لماذا؟!

جلست على فراش رانيا مستندة على ظهره وهي تحتضن الوسادة بين يديها بعد أن أعطت الحقيبة لرانيا، في تلك الأثناء كانت الأخرى تثرثر دون توقف وهي تقص عليها تفاصيل لقائها مع آسر الأخير وتستعرض لذة الارتباط وشعوره بالغيرة الشديدة عليها دومًا من نظرات الشباب حوله، وكأنهم يحسدونه على امتلاكه لتلك الفتاة التي لا مثيل لها، وصفت لها ضجره حينها والذي أسعدها للغاية إلا أنه أغضبها أيضا لتصف كم من تناقض المشاعر العجيب، كيف كانت سعيدة

بغيرته إلا أنها شعرت بتحكمة وهذا ما أثار غضبها ليبدأ التحكم في حركتها ولبسها ونظراتها وضحكاتها أيضًا وهذا ما لم تعتد عليه من قبل بل ولم تقبله أيضًا، كانت تمقت هذا الشعور وتريده بذات الوقت تناقض لا تفهمه، تحب تحكمه وتخشى سيطرته ولكن كل ماتفوهت به لم يحرك ساكنًا لإيناس، بل كانت هي الساكن بذاته ظلت تستمع بآذان صمتها الشموع اللزجة دون أن تحرك شفتيها فهي بالكاد هدأت من رعشتها... فالتتركها تسترح قليلًا، كانت قابعة على الفراش تراقب حركة رانيا في الغرفة وهي تصف سعادتها وانفعالها بعينين ترى ولا تبصر، عقلها شارد... الصورة أمامها تحمل رغبة الحب والارتباط وصديقها المخلص " الخوف " معًا في إطار واحد يعلق بذهنها، الأسود والبنفسج معًا في إطار واحد!! تساءلت كثيرًا عن سبب تلك الصورة ولكنها لم تجد سوى أصوات صفير الرياح وهي تعصف حاملة حبات الرمال في صحراء لا أول لها ولا آخر... نعم، وحيدة شريدة في صحراء اللامنتهى.... لتجد نفسها تتساءل في حيرة لما تلك الرهبة؟

هل هذه المرة الأولى التي تشعر بها بالارتباك أمام الذكور.. حتمًا لا.. أليس هذا الشعور يلازمك دومًا حين تلمحين أمامك أي شاب بل ويزداد حين ينظرهو نحوك، ألا تتذكري ولادة هذا الشعور في عامك الثاني عشر حين نظر نحوك أحد زملائك نظرة إعجاب أيقظت القشعريرة بجسدك، فمنذ تلك اللحظة وهو يلازمك، يكبر يومًا بعد يوم بين يديكي وأنت تطعميه ليصبح اليوم بهذا القدر من القوة والتحكم، أنت من غذيتي هذا الحيوان الضاري إلى الآن ولازلتي تغذيه وتزيدي حصته من الطعام... لذلك لا تسألي عن أسباب وجوده الآن؟

ربكتها أنستها تحذيرات طبيبها الذي تخلت عنه منذ سبعة أعوام بعدم لمس حاجبيها والعبث بهما ونتفهما بطريقة مؤذية أثناء توترها وبدأت في شدهما بقوة ولم تتوقف سوى على صرخة رانيا بوجهها وهي تخبرها بأن تتوقف عن تلك الحركة "المتخلفة" كما تدعوها:

_ بس كفاية شد في حواجبك.... مالك فيه إيه؟

فهي تعلم جيدًا من خالتها أن تلك العادة وليدة توتر أصابها، هكذا أخبرها الطبيب النفسي، لتفاجأ بنهوض إيناس فجأة في عجالة وهي تحمل حقيبتها وتزدرد ريقها كأنها تبتلع الكلمات في جوفها وهي تتجه نحو باب الغرفة قائلة:

_ أنا ماشية..

فعاجلتها رانيا باندهاش:

_ليه؟

_ معلش بقى هشوفك بعدين.. باي.

آثرت الصمت وكتمت أسبابها بداخلها بإحكام وهي تأبى البوح بها على عكس عادتها مع رانيا خصيصًا..... فقط أرادت أن تخفيه دون سبب تعلمه.

***

اتخذ مصطفى طريقه إلى المنزل بعد أن تهرب من لقاء نادر بحجة شعوره ببعض التوعك ورغبته في نيل قسطًا من الراحة، يعلم أن حجته كذبة ولكن عقله متوقف عن العمل بعد تلك المقابلة، لم تكن تلك النهاية التي رسمها بمخيلته بل في الحقيقة هو أبرع في رسم البدايات فقط وترك النهايات مفتوحة، ربما لأنه لم يتخيل أن المقابلة لها نهاية ويعود كلًا منهما أدراجه ويتلاشى كل شيء، ستفتح باب الصيدلية وتتركه وتغادر بينما هو يقف مكانه هناك خلف المكتب حيث يجب أن يكون.. لماذا أنت مقيد؟!! سأل نفسه بتعجب.... أين اندفاعك المعهود؟!!! كيف انتهى اللقاء دون تحديد آخر؟!! وكيف ستحدده من الأساس؟ هل كل من يدلف من أبواب الصيدلية يعدك بالعودة؟

بالطبع لا..

إذًا هل سيظل يحيا على الذكرى وعلى طلتها كل يوم ورؤيتها من خلف الزجاج؟!! لم يعد يبدو كلوح زجاج فاصل بينهما وإنما يراه الآن كالجبل الزجاجي الضخم الذي يحول بينهما، عائق صلب لا يعلم كيف سيجتازه.

وكلما جال هذا السؤال بخاطره شعر بانقباض صدره أكثر، يجب أن يبحث على حل حتى لا يصبح كالصائم وهو يراقب كوبًا من الماء عن بعد دون موعد ليروي به ظمأه...

نعم، فهو كمن لا مغرب له سيظل حبيس شروق لا ينتهي.

فرؤيتها كل يوم خلف الزجاج لن تروي ظمأ الفضول نحو المزيد ولن يشبع عقله المشغول بها، وصل إلى باب شقته وأولج المفتاح ودخل ليتجه على الفور نحو الشرفة، أمسك هاتفه وتصفح صفحتها الشخصية بفضول ربما يجد بعض الفتات ليسد رمقه قليلًا ويعدل من مزاجه السيء بعد أن انتهت الجولة معلنة هزيمته.. ترى كيف سيحصل على جولة أخرى؟ وأين ذهبت حماسته التي سيبدأ بها أخرى تلك التي استيقظ بها صباحًا، خفت ضوئها تدريجيًا حتى كاد يختفي فيجد نفسه يهمس باستياء... ليتني أجلت اللقاء وتركت شعلة الحماسة مشتعلة بداخلي...

عاجلًا أم آجلًا كانت ستنتهي فموجة الحماس مهما عليت ستصل لقاعها يومًا ما.

لمح الياسمين أمامه فتذكر نبتته التي لم يرويها اليوم فأسرع بإحضار الماء لريها فمن المؤكد أنه لن يتركها تموت وهي معطرة بعطر إيناس، فما يكنه الآن تجاه إيناس كالنبتة في قلبه إذا أهملها ماتت، لذلك يجب أن يسقيها دومًا بالأمل والمحاولة، وهو لم يبدأ سوى جولة واحدة فكيف ينال لقب الهزيمة دون أن يعيد المحاولة مرات أخرى... فلا يمكن أن تعلن نتيجة مباراة لم تبدأ بعد فربما أحد اللاعبين لديه ما يفاجئ به الآخر.

***

في اليوم التالي خرج مصطفى مبكرًا نصف ساعة ليلحق بموعد خروجها وقد اقتطف من نبتته زهرة صغيرة تؤنسه في الطريق، لا يزال عقله يصارع أمواج حيرته وأفكاره المتضاربة، ولكن ما إن وصل إلى مكان عمله ولمح سيارتها توقف الصراع بأكمله في عقله وحضر صوت يهمس بأذنه قائلًا " حطها على العربية يمكن تشوفها ".

جال بنظره في حيرة بين السيارة والزهرة ثم توجه سريعًا نحوها وحشر الزهرة في الزجاج الأمامي بشكل تلحظه وهو يلتفت حوله ليطمئن بأن ليس هناك من يراه وإلا سيتهمه بالسرقة وحينها ستكتب لمحاولته نهاية مخزية وتموت قبل أن تبدأ.

وضعها وهرول نحو الصيدلية قبل موعد خروجها ببضع دقائق وقد أنارت حماسته ضوئها من جديد في ترقب وفضول، بينما هو خلف الزجاج يذهب ويجيء منتظرًا لحظة خروجها.... حتى جاء الموعد وخرجت متوجهة نحو سيارتها وهي ترتدي نظارتها الشمسية التي أصبحت عينها الثالثة في المراقبة، فوجدته يقف خلف الزجاج وهو يعبث بهاتفه كالعادة وما إن وصلت أمام سيارتها حتى لمحت الزهرة اقتربت منها بتعجب وأمسكتها بأنامل حذرة وهي تنظر حولها بتساؤل لعلها تجد صاحبها أو صاحبتها، ولكنها لم تجد أحد فتلك المنطقة حديثة العهد لا يسكنها سوى القليل، كيف وضعت تلك الزهرة هنا؟ ومن وضعها؟ ومن أين أتت؟!!حتى أن ليس هناك أشجار ياسمين هنا؟ ولماذا الياسمين تحديدًا على سيارتي؟!! كل تلك الأسئلة دارت بعقلها فجأة، ربما صدفة وربما من وضعها يعرفها ويعرف حبها للياسمين، ظلت في مكانها حائرة لما يقارب الخمسة دقائق وهي تدور في حلقات مفرغة إلى أن توقفت نظراتها نحو الصيدلية، فلم تجده كعادته خلف الزجاج وكأنه تبخر.

في تلك الأثناء كان مصطفى يراقبها من موضع آخر بعد أن غير زاوية مشاهدته ليتسنى له المراقبة بحرية دون أن يقع في دائرة الشك، لا يدري سببًا واضحًا لتخفيه ربما من الأفضل أن يظهر لها إعجابه وأنه صاحب الزهرة ولكن

لا، تملكه الخوف من المجازفة والتسرع حتى لا يخسر تلك المحاولة أيضًا، ابتهج قلبه وكاد يفلق صدره فرحًا حين رآها تأخذ الزهرة وتصعد لسيارتها بعد أن عجزت عن معرفة صاحبها ولكن لا يزال عقلها في ذهول، أهي صدفة أم مقصودة؟!

وإذا مقصودة من يقصدها؟! نظرت نحو صديقها الخفي بتساؤل فرفع كتفيه وزم شفتيه ببعض البلاهة.

لم تكن تدري لماذا بين كل هذه التساؤلات بداخلها لازالت صورته عالقة بذهنها لم تغادر لتضيف على التساؤلات تساؤل آخر، لازال ارتباكها أمامه يحيرها، نظراته ابتساماته، قلبها الذي يزعجها بصريخه حين يراه كل هذا تجهل أسبابه، تخاف وتجهل سبب خوفها من تلك الأحاسيس ولسبب لا تدريه أيضًا أخفت هذا الأمر عن رانيا حين سألتها عن سبب ارتباكها، لماذا هذا الأمر بالتحديد لم تستطع البوح به؟ ما المختلف به؟ ربما كونه ليس مختلفًا تلك الإجابة... فقط سئمت أن تسمع اعتراف رانيا لها بتلك الحقيقة السوداء التي تمقتها دومًا " أنت منعزلة وغير اجتماعية وهذا مايسببلك البؤس أنت فقط ترغبين ببعض الاهتمام وتحاولين البحث عنه في الآخرين ".

كانت تعرف أن طريقها لن يختلف عن طريق عبد الحليم حافظ حين أخبرته قارئة الفنجان بطريقة فجة بأن هي أيضًا "طريقها مسدود مسدود يا بنتي".

فطريقها هي الأخرى مسدود بحائط فولاذي لا ينكسر فجميع من حاولوا فشلوا في تحملها بعضهم فر من اللقاء الأول وآخرون ذوو الأنفس الطويلة لم يتخطوا اللقاء الثاني حتى رفعوا راية الاستسلام وهم يهرولون مسرعين كمن يتبعهم بعبع، صوتها الداخلي يخبرها بأنها لعنة على كل من حولها حتى من لم يقروا بذلك على عكس والدتها العزيزة، كلها أوهام زرعتها بداخلها بدافع افتقادها للاهتمام ربما نظراته عادية وهي من تبحث بداخلها عن إعجاب، ولكن لازلت تشعر نحوه ببعض الاختلاف وهذا ما يخيفها.

انتهت إيناس من فحص أحد المرضى تحت إشراف أستاذها بعد أن طلبت منه عمل أشعة وإحضارها لتتأكد من تشخيصها وجلست على المكتب تتأمل الزهرة، حينها رن هاتفها معلنًا عن وصول إحدى الإشعارات على صفحتها التقطته على الفور وتتبعت الإشارة لتجدها من رانيا في منشور يحمل صورة لفيلم رومانسي سيعرض في السينما ومدونة أعلاه.

" ماتنسوش ميعاد الحفلة إنهارده الساعة ٩ " ثم قلوب حمراء، تفاجأت إيناس بتلك السهرة التي لا تعلم عنها شيء ولكنها مدعوة!!! متى وأين وكيف؟.. لا تدري!!! ربما أخبرتها رانيا بالأمس وهي غارقة في تساؤلاتها، .... في جميع الأحوال لن تستطع أن ترفض طلبًا لرانيا، ومنذ متى نطقت ب " لا " في وجهها فكتبت لها على الفور في تعليق:

" أوك، بس ابعتيلى اللوكيشن بليز".

فأرسلت لها رانيا العنوان في رسالة.

ورغم كونه فيلم رومانسي إلا أن السهرة لم تقتصر على رانيا وآسر الذي يبدو أنه من رتب لتلك السهرة بل امتدت للأصدقاء المقربون وبالطبع إيناس مدعوة رغم كونها تكره هذا النوع من السهرات الجماعية وضجيجها، ولكن لابد أن تقبل لتقضي على فيروس العزلة الذي تعاني منه، فوافقت على الفور وكأن حرف اللام مصحوبًا بالألف لم يخلق لها البته.

***

الساعة الثامنة والنصف مساءً رن هاتف مصطفى الراقد بجواره على الفراش فنهض وهو يتثائب ليجد اسم نادر على الشاشة فيجيب:

_أيوه يابني.

_إيه ده أنت نايم؟! إلبس وانزل ياعم يلا مستنيك على القهوة بسرعة.

_لا فاكس إنهارده، ورايا مذاكرة وأبحاث كتير مع مينا لازم تخلص.

_اشطه، لما تخلص كلمني أعدي عليكوا.

_أوك.

ثم أغلق الهاتف وألقاه بجواره، لحظات وأمسكه مرة أخرى وهو يستحضر صورتها، دخل ليتصفح الجديد في صفحتها فيجد أمامه المنشور الذي أشارت به رانيا لإيناس.. المنشور منذ بضع ساعات وموعد الحفلة الساعة التاسعة نظر للساعة ليجدها الثامنة والأربعون دقيقة... تبقى عشرون دقيقة فقط، كيف سيلحق بها، انتفض من فراشه مسرعًا كمن لدغته حية وقد تناسى أمر أبحاثه، ضغط على الفور على اسم نادر ليتصل به وما هي إلا ثواني وجاءه صوت الآخر:

_ أيوه ياأسطى.

_ قابلني بسرعة عند سينما بلازا عارفها؟

_ لا بس مش مشكلة ابعتلي عنوانها.. بس ليه؟

_ هبعتهولك دلوقتي في رسالة.. استناني هناك الساعة ٩.

_ ٩ إزاي يابني مش هلحق طبعًا.. هو حصل حاجة ولا إيه أنت كويس؟!

_ يا سيدي تمام.. إنجز بس وقابلني هناك في أسرع وقت ومتتأخرش.

_ تمام.

أغلق الهاتف على الفور وأرسل العنوان لنادر ثم شرع في تبديل ملابسه.

وصل نادر أمام السينما الساعة التاسعة والنصف ليجد حفلة التاسعة قد بدأت بالفعل وفقد من الفيلم جزء ليس بالقليل، انتظر في الشارع وهو يترقب وصول مصطفى إلى أن وجده أمامه بالفعل وعلى الرغم من سرعته إلا أنه لم يلحق أيضًا فعاجله نادر عند رؤيته بتوتر:

_ إيه ياعم.. جبتني على ملا وشي ليه؟!

_ مش كنت عايز تشوفني؟

_ أيوه وأنت قولت أنك هتذاكر مع مينا، إيه بقى اللي حصل جديد؟!

_ يوووووه مينا نسيت أكلمه أصلًا.. ثم أخرج هاتفه وأرسل له رسالة اعتذار عن تغيبه اليوم لظروف طارئة وأنه سوف يقابله في الغد.

_ ماهو أنا عايز أعرف إيه اللي إتغير فجأة بردو؟ سأل نادر باندهاش

_ ياعم أنا زهقان وعايز أخرج بس.

_ يا سلام فجأة كده وطلبت معاك سينما كمان... أنت بقيت غريب اليومين دول ومش مستريحلك.

_ قولي بس إحنا كده ضيعنا الحفلة دي هنعمل إيه؟

_ استنى بقى اللي بعدها.

_طب امشي خلينا نقعد على الكافتيريا لحد ما تبدأ اللي بعدها.

مضى على وصولهما عشرون دقيقة ليحل حينها موعد الاستراحة فلمح فوج من الشباب يخرج من قاعة السينما ولكنها لم تكن من بينهم، ظل يبحث بين الوجوه كمن يبحث عن ضالته ولكن دون فائدة... وحين عثر على قريبتها رانيا اطمأن قليلًا، كان بجواره يجلس نادر وهو لا يكف عن الثرثرة حول ذلك الفيلم الذي قرأ عنه في صفحات الفيسبوك وهو يخبره بأراء المشاهدين وتقييمات الفيلم، بينما هو يستمع لثرثرته دون اهتمام، الوقت بطيء للغاية لا يمر، وهو يرغب في رؤياها فصبره ينفد في الانتظار ولم يعد يطيق انتظار الصباح لرؤيتها غدًا.. الصباح غدًا!!!

غدًا يوم الجمعة وفجأة توترت ملامحه أكثر وهو يسأل نادر بفزع:

_ هو بكره الجمعة؟

_ أه يا اسطى الجمعة.. هو في إيه؟!

_ مافيش.. مافيش خلاص فكك.

نظر له نادر بتعجب وصمت بينما مصطفى زادت رغبته برؤيتها أكثر فسوف يحرم منها لمدة يوم كامل، كيف سيتحمله وكيف سيمر الوقت.. غدًا لن تشرق شمسه.. سيهجره الضوء والدفء بدونها.

***

جلست إيناس بجوار رانيا التي يجاورها آسر ومعهم بعض الأصدقاء من قبلوا الدعوة بالحضور يجلسون في أوضاع ثنائية أيضًا إلا من الكرسي الشاغر بجوار إيناس، جميعهم في حالة ارتباط وهي الوحيدة من بينهم ذات اليد الواحدة الموضوعة على جانبي المقعد دون يد أخرى تحتضنها، يد تقبض على

ذراع الكرسى وهي خاوية من الدفء وكأنها جزيرة نائية مهجورة عزفت عنها الشمس لذلك لن تستطع أي قدم أن تطأ أرضها المغمورة الباردة المظلمة، شاركتهم وهي على يقين بأن لو لمحتها الآن الملكة فريدة لما ترددت ثانية في تعليق رقبتها على باب زويلة لكي تشفي غليلها، جلست من بينهم بضيق وصمت تتساءل.. لماذا فيلم رومانسي؟. لماذا لم يكن نوعًا آخر يناسب كوني وحيدة تعيسة؟. أكشن لا بأس به ربما الرعب يناسبني أكثر إلا أنه سيزيد خوفي من وحدتي.. دراما لا أظن أن هناك دراما أكثر من حياتي المزرية.

ولماذا لا يكون رومانسي؟!!! وجميعهم يعيشون تلك المشاعر، وينبض قلبهم بما ينبض به قلب البطل والبطلة، وهم يشعرون بنفس مشاعرهم...... أما أنا فلا شيء سوى كوني وحيدة كبطل فيلم تائه في الدروب وهو يتحدث مع نفسه، حينها أضيئت القاعة فجأة وحانت فترة الاستراحة لترى مشهد احتضان أيادى المحبين والرؤوس الملقاة على الأكتاف كأنهم جميعًا وجدوا عوالمهم التي ينتمون إليها وهي فقط المشردة التائهة من بينهم، نهض بعضهم لأخذ قسطًا من الراحة في الخارج وخرجت معهم رانيا وآسر بينما هي فضلت البقاء دون داعي للخروج.

مرت دقائق الاستراحة سريعًا وبدأ النصف الآخر في العرض ومعه عاد العشاق لأوضاعهم السابقة بين تشابك الأيدي والهمسات وهي تراقب في وجع..... ... ... أيحل لهم ويحرم عليها؟!

تفرقا البطلان بعد أن صفعتهم الحياة صفعة توقظهم من نشوة الحب فبدأت دموعها بالانهمار كمن حولها، فتلك اللحظة التي تسحق قلوب العاشقين سحقًا وتتركهم كالركام يتطاير في الهواء بعد حريق حول أرواحهم لرماد، كانت دموعها تنساب في ظاهرها مثلهم والأكثر مثلهن لكن لا تحمل نفس أسبابهن، لم تكن دموعها تحمل نفس الألم... و تشكو من فراق الأحباء وقسوة الظروف ولكنها جاءت تقص حال قلبها المغتم المهموم البائس الوحيد، تحكي عن تلك الغصة التي باتت تستكين بجدران قلبها وكأن لا مأوى لها غيره، لماذا لم تستطع أن تصنع جزءًا من كماليتهم وأن تنال الحب كما نالوه؟؟؟؟ أخيرًا سنحت لها

الفرصة أن تئن قليلًا على الملأ وتخرج دموعها المسجونة بداخلها أمام الآخرين، فلا بأس أن تخرجها الآن فهذا هو الوقت الأمثل للألم، ستتظاهر كمثلهم متعاطفة مع الأبطال بينما يسهل لها مواساة نفسها المهزومة، لن يلومها أحد أو تجذب الأنظار نحوها وتتلقى شفقتهم إنما هي الآن ترتدي نفس القناع، كفكفت دموعها بعد أن ذرفت منها ما يكفي بؤسها وبؤس مشاهد الفراق دون أن تبالغ... و في النهاية عاد الحبيب لحبيبته وانتهى الفيلم بنهاية سعيدة معتادة تريح المشاهد.

انطفأت الشاشة وهم الجمهور بالنهوض للمغادرة وهم يتبادلون الأحاديث والضحكات فنهضت معهم إيناس وتبعت جماعتها للخارج بعد أن تركت لهم الأسبقية وهي تقلب في هاتفها بين الصور التي التقطتها رانيا لتلك السهرة وعلى الفور نشرتها على الأنستجرام.

في تلك الأثناء لمح مصطفى خروج الجمهور من صالة العرض فنهض سريعًا واصطف جانبًا وهو يتأهب للقياها فتبعه نادر وهو يقول بحماس:

_ العرض خلص يلا بقى نحجز الحفلة الجاية.

فأجابه مصطفى دون أن ينظر له:

_ ثواني بس.

مرت ثواني وهو يراقب الوجوه الخارجة إلى أن لمح ذلك الشاب الذي شاهده بصحبة رانيا في الصور وتتبعه رانيا من خلفه وهما يتبادلان الهمسات، زادت ضربات قلبه، ها قد أوشك على رؤيتها وبالفعل لمحها خلفهم تعبث بهاتفها، أخيرًا وجدها، ليتها تترك هاتفها وتنظر نحوه، يرغب في أن يشعرها بوجوده أيضًا، من فضلك ارفعي نظرك أنا هنا أراقبك عن قرب، عزيزتي سيظل الهاتف بحوزتك أما أنا فلا.. ظل ينظر نحوها بترقب يأمل في تلاقي الأعين بينما نادر بجواره يقف كالأبله لا يعي شيء من هذا الانتظار المبهم.

وأخيرًا وعلى بعد خطوات قليلة منه سألت رانيا إيناس بصوت مسموع:

_إيه رأيك في الفيلم؟

فقطعت إيناس خلوتها بالهاتف ورفعت عينيها نحو رانيا وهنا لمحت مصطفى يقف على بعد خطوتين وهو ينظر نحوها فهزت رأسها إيجابًا واكتفت بكلمة "حلو" ثم أشاحت بوجهها بعيدًا على الفور وكأنها تتهرب من نظراته التي تبدو وكأنها تنتظرها هي...... هي فقط لاغيرها!!!...... لا تعلم من أين سقط عليها ولما التوتر يتراقص على كتفيها الآن، لتجد نفسها فجأة أصبحت أول الخارجين بعد أن كانت آخرهم.

أفاق مصطفى من شروده بها على صوت نادر بعد أن خرج آخر فرد من الحفلة: مش يلا بينا نحجز بقى التذاكر؟

فقال له مصطفى وعلى شفتيه ابتسامة ارتياح:

_ لا خلاص فكك، الوقت إتأخر.

فصرخ الآخر في وجهه ورذاذ لعابه يتطاير كالشهب:

_ نعم ياخويا!!!!!! بعد كل الانتظار ده.. أنت هتستهبل أنا يوم إجازتي كله طار بسببك؟!

_ ياعم أنت عارف قصة الفيلم كلها ووجعت دماغي بيها وفر بقى فلوسك ويلا نروح، وأنا علشان أرضيك هعشيك يا سيدي بره أهو.... بس يلا نخلع.

وهو يدفع نادر للخارج بينما الآخر يسبه بغضب.

***

صعدت إيناس السيارة بعد أن ودعت رانيا التي يبدو أنها ستكمل سهرتها مع آسر وغادرت وقد فتحت الراديو ورفعت الصوت لأقصاه، وعلى بعد بضع أمتار لمحت الخوف يلوح لها فوقفت وفتحت له الباب الآخر ليجلس بجوارها ثم أكملت طريقها، كانت صورته أمامها مباشرةً على الزجاج، لم تكن تراقب الشارع من حولها بل كانت تراقبها والتي عصف عقلها بها دون مقدمات... ظلت تذهب وتجيء بسرعة حتى باتت ظاهرة بوضوح... تأملت عينيه التي تبوح بأشياء تخشاها.... هنا حذرها الخوف على الفور من أن تستمع لأصواتها الداخلية وهو يخبرها بأن كل هذه الأشياء عبثية خلقها خيالك ليوهمك، كل

ظهوره صدفة إما مكان عمله الذي من الطبيعي أن يتواجد به كل يوم.... أو السينما التي تبدو مكان عام مسموح للجميع أن يذهبوا إليه ولكن ماذا عن الزهرة؟!

هل يمكن لخيالها أن يصور لها كل تلك الأوهام؟ هل يمكنه أن يخلق لها سلمًا تصعده لتصل إلى أعلى قمة في أحلامها وفي النهاية تجده سحابًا مخادعًا يتركها تسقط أرضًا بعد أن ينزع السلم من تحت أقدامها فيتحطم قلبها قبل عقلها.

نعم فكل شيء وارد بعد أن بات كيانها بأكمله يدور حول كونها وحيدة منبوذة كما أخبرتها والدتها فكيف لا يتوهم عقلها؟!! فلا شيء بها كامل ولم تستطع أن تحقق جزءًا منه مثل رانيا التي حققته بأكمله بجدارة وبراعة تبرأت منها.

بات كل شيء مفزعًا يبعث الرعشة والرهبة بصديقها الجالس بجوارها، والتساؤلات تدور وتدور في ذهنها حتى صارت بأعداد النجوم المعلقة بسمائها المظلمة، فلم تجد سوى أن تقنع عقلها أن يكف عن التوهم فكل هذا صنيع حرمانه العاطفي ورغبته في صنع ما يرضي العائلة لكي يكفوا عن لومهم الذي أصبح كالأمواج التي تسقطها وتسحقها كلما حاولت أن تقف على قدميها، هذا كله صدفة جمعها القدر بحرفية ليتلاعب بك ويثير أعصابك... هكذا همست لنفسها... نعم، الزهرة صدفة، ولقائه صدفة، ونظراته المتلهفة ذات الحديث الخفي...... ماهي إلا صدفة؟!

لا لا بل خرافة.. تعلم أن لسان عقلها سيخبرها تلك المرة بما سيقتل أوهامها جميعًا.. سيخبرها بالحقيقة... سيخبرها بأن نظراته نحوها بدأت تعجبها، نعم بدأت تعجبها تلك الصدفة... ولن يردد كلمة صدفة التي تكررها عليه كالبغبغاء لتزعزع رؤيته بكذبة اختلقتها، لكنها لن تبالي به وظلت ترددها وترددها بلا هوادة وهي تحاول تهدئة صديقها بجوارها الذي شحبت بشرته فجأة بعد أن سأل صوت عقلها بخبث: ألن تعترفي بإعجابك بتلك الصدف؟!

(٦)

في صباح يوم عطلتهما استيقظت إيناس كعادتها اليومية مبكرًا بعد أن حاولت كثيرًا أن تنعم ببضع ساعات إضافية في النوم ولكن وجدت نفسها تتأرجح على جانبي الفراش بقلق، ومن ثم قررت النهوض وصنع كوب من القهوة الصباحية ثم عادت لغرفتها وجلست على المكتب، فوجدت تلك الزهرة في انتظارها راقدة عليه تنظر نحوها، داعبتها إيناس بأصابعها والتقطت من جوارها كوب ماء ووضعتها به بعد أن بدا عليها بعض الضعف والشحوب، لا تدري لم يساورها الفضول نحو صاحب الزهرة وهل هناك واحدة أخرى اليوم أم كانت صدفة ليوم واحد لا أكثر، لا زالت الشكوك تحيط بشخص واحد لا تنكر بأنه اقتطع جزءًا كبيرًا من تفكيرها.... وهي تبحث عن إجابات الأسئلة التي تملأ رأسها حول نظراته وظهوره في السينما وحول كل هذه الصدف، حاولت طرد أصوات عقلها وأخرجت من الدرج أسكتش رسم ثم بدأت في رسم باترون لفستان قصير بخطوط رفيعة بقلمها الرصاص بطريقة مبعثرة كأفكارها، يبدو بأنه سيصبح أسود أيضًا ولكنها ستجعله لائق لأفضل السهرات، أصواتها الداخلية لا تكف عن الثرثرة..... تثرثر وتثرثر دون انقطاع متساءلة حول وجود زهرة أخرى اليوم أم لا؟

ولا تكف عن سخريتها حين سألت بتهكم لما لا ترسمين زهرة ياسمين؟؟. أو ربما زهرتين؟!! وقد بدأت الأصوات في التعالي وكلما تعالت أكثر تطرق إيناس بالقلم على رأسها لتخرسها فتتعالى الأصوات أكثر وأكثر بطريقة مثيرة للأعصاب، بينما هي تتتجاهلها مرة وتحاول إخراسها مرة أخرى إلى أن قررت أن تريح رأسها من الأصوات المزعجة وتذهب إلى رانيا أو بالأحرى تذهب لرؤية ما إن كانت هناك ياسمين أخرى تنتظرها اليوم أم لا؟؟؟

بدلت ملابسها وخرجت فوجدت والدتها تجلس في الشرفة تحتسي الشاي فذهبت إليها وقالت بخفوت دومًا ما يزعج والدتها:

_ أنا هروح لرانيا.

فهزت والدتها رأسها بالموافقة دون تعقيب ثم قلبت وجهها بعيدًا عنها، لم تتفاجئ إيناس من أفعال والدتها أو صمتها فتلك عادتها معها، ستتفاجئ بحق إن تغيرت..

خرجت إيناس مسرعة تهرول نحو سيارتها تبحث عن شيء تتمنى وجوده وغيابه معًا، وما إن وصلت للسيارة حتى تفاجأت بغيابه، حينها انتابها شعور ببعض الارتياح بعد أن هدأ الخوف قليلًا... ولكن لن تنكر شعورها بالخذلان والإحباط دون أن تعي سببًا لوجودهما ولكنهما ظهرا للتو فجأة وتشعر بهما.... نظرت على الفور نحو الصيدلية لتجدها مغلقة... إذًا هو لم يظهر اليوم!!!

جانب بداخلها يؤكد هواجسها وجانب آخر يخبرها بأنها موهومة، في النهاية استجمعت أفكارها وذهبت لرانيا لتكمل معها بعض ترتيبات يوم العرس.

***

وبينما هي بصحبة رانيا كان مصطفى يقضي يوم عطلته بصحبة مينا الذي أصر على اللقاء للعمل على أبحاث مؤجلة قد تأخرا في إعدادهم بسبب انشغالهما وخصوصًا انشغال مصطفى في الآونة الأخيرة، ورغم تركيزه بالأبحاث إلا أن صورتها لم تغادر ذاكرته، يتلصص من حين لآخر على صفحتها الشخصية التي باتت بيته الثاني ينظر بعين نحو أبحاثه وبأخرى نحو صفحتها ربما نشرت شيئاً جديدًا عليها، فلولا ضيق الوقت ونفاد صبر مينا لما تردد في تأجيل تلك المهام بل كان يمكنه أن يلغي يوم عطلته بعد أن أصبح يشتاق لعمله كثيرًا، ولأول مرة يشعر بأن يوم عطلته يمر ببطء ورتابة، فمنذ زمن لم يشعر هكذا... فهو اعتاد أن ينتظر يوم العطلة بفارغ الصبر ولولا احتياجه للأموال لما تردد في أخذ الأسبوع بأكمله عطلة.

***

انتهت العطلة وعادت حماسته ليوم العمل باشتياق، في ذلك الصباح انتزع مصطفى زهرتين وليست واحدة بعد أن أعجبته فكرة إهدائها كل يوم زهرة ياسمين فسيهديها اليوم واحدة وواحدة أخرى تعويضًا ليوم عطلته بالأمس،

فيكفيه أنها اصطحبتها معها في المرة الأولى، فليعطر صباحها كل يوم بواحدة أخرى لعلها يومًا ما تلتفت إليه وتستيقظ من غفوتها وتعلم أن هناك شخصًا يقف على الجانب الآخر يتأملها بإعجاب.

أبكر كعادته في الذهاب وما إن وصل حتى راقب الشارع بعين جاسوس فار من العدالة حتى تأكد من خلوه فذهب على الفور ووضع زهرتيه موضع السابقة وعاد للصيدلية، وحين اقترب موعد خروجها سقطت على رأسه زبونة أوقفت سيارتها السوداء أمام الصيدلية مباشرةً فحجبت عنه أي رؤية ليجد نفسه أمام خسوف شمس عظيم محاط بالظلمة من كل جانب بعد أن كانت شمسه على وشك الشروق، ظلت الزبونة تلقي عليه قائمة من الأدوية ومستلزمات حديثي الولادة من خوافض حرارة وأدوية تقلصات ومقياس حرارة وحفاضات وكريم للتسلخات، بينما هو يدور في الصيدلية بمنتهى النشاط ليجد نفسه يعمل بأداء سرب من النمل يستعد لبياته الشتوي في الثانية الواحدة ولكنها لا تنتهي!!.. هل هذه هي اللحظة المناسبة لولادة طفل يأتي على حساب لحظته الخاصة؟!

ظل يذهب ويجيء بين الأرفف وهي تلقي عليه رغباتها ببطء شديد وتضغط على رأسها لكي تتذكر البعض المفقود وسط الزحام ربما يعود لذاكرتها الهشة.

مرت عشرة دقائق كاملة إلي أن اكتفت الزبونة من إلقاء الطلبات عليه وحصولها على ما استطاعت تذكره وطلبت الحساب ثم دفعت ثمنهم وغادرت ساحبة معها خسوفها المظلم فجرى نحو الخارج فور ذهابها ليفاجئ بمغادرة إيناس أيضًا فعاد للداخل يتأفف في حسرة وهو يتساءل حول مصير الزهرتين ترى هل رأتهما؟ وهل اصطحبتهما كالسابقة؟ هل بحثت عنه بينما هو يعاني مع زبونة فاقدة للذاكرة؟

كم تمنى ذلك...

***

للياسمين عطر يقلل من القلق ويشعرك ببعض الهدوء والاسترخاء، لذلك لم تستطع إيناس أن تتركها من بين يديها وهي تستمتع بعطرها، تبحث من بين شذاه على مسكن لتلك الأصوات التي بدأ في الهياج مرة أخرى، كما أن عدم رؤية ظله المراقب من خلف الزجاج يثير بداخلها بعض الغضب بعد أن أعاقت تلك السحابة السوداء رؤيتها له.

***

أول أمس زهرة واليوم زهرتين بدا الأمر كمعادلة حسابية معقدة، نظرت نحو صديقها الوفي وهي تخبره بأنه محق الأمر مخطط له وليس صدفة، أي صدفة تضع الزهرة كل يوم في نفس المكان على نفس السيارة وتعوض يوم عطلتها بزهرتين في اليوم التالي، لم تنكر محاولتها في البحث عن صاحبها كما فعلت في المرة السابقة وهي تتجول بين الأشجار والأسطح والشرفات بنظرها لعلها تلقى صاحبها مختبئ في أي مكان متجاهلة صوتها الخفي الذي يشير دومًا إلى صاحب النظرات والمصادفات، تلكأت قليلًا لعل صاحب السيارة يغادر وتتأكد من صحة ظنونها لكنه كان متشبث بمكانه فاضطرت للمغادرة بخيبة أمل وحيرة أكثر.

***

مر النهار ثقيلًا لزجًا عليهما، مصطفى بين أن يلبي طلبات الزوار ويشبع لهفته عليها من حين لآخر بمراقبة صفحاتها الشخصية بعد أن أضاف الأنستجرام أيضًا لتتسع دائرته أكثر ويتجول كما يحلو له، بينما هي فقضته بصحبة أستاذها تلبي طلباته وتستمع لإنجازاته التي يمليها عليها كل يوم دون انقطاع، ومهما تعددت مرات ذكره للحدث ستظل كل مرة هي الأولى التي يقص بها ذلك الأمر الجلل، بينما هي تتصنع الإصغاء والانبهار والاستفادة كما طلبوا منها مسبقًا أن تفعل.... فها هي تحاول أن تسير عكس طبيعتها حتى بات الأمر أداء تمثيلي لا أكثر.... كم كانت تكره مجال طب الأسنان بأكمله بعدده وأدواته وكرسيه ورائحة كونترا الأسنان وهي تنخر قواطع وطواحن مرضاهم، إلا أنها كان مقرر لها من

البداية أن تصبح طبيبة كوالدها على عكس رغبتها في تعلم تصميم الأزياء التي تجاهلتها والدتها دومًا، وحين فشلت في تحقيق مجموع الطب قبلوا بالجامعات الخاصة وطب الأسنان على مضض، ولم تكف والدتها في تلك الأيام عن لومها لإيناس بفشلها كالعادة حتى باتت مقولة " إنتي فاشلة ومش عارفة تنجحي في حاجة " جزءًا لا يتجزء من مفهومها عن نفسها، لذلك حاولت بشتى الطرق أن تغير هذا المفهوم في دراستها وتنسى شغفها بالأزياء والموضة.... وتبقي هذه الموهبة طي الصفحات البيضاء المختبئة في درج مكتبها تنفرد بها متى شاءت في الخفاء كمن يختلس الشغف المحرم.

ظلت تناضل في الدراسة كل عام لتنهي ذلك الكابوس المؤرق ولن تنكر اعتمادها على أموال والدها التي تنقذها في التعثرات وهي لازالت تسمع " إنتي فاشلة ومش عارفة تنجحي في أي حاجة " بجمود وهي متيقنة أن لولا تلك الأموال لبقيت على قيد الطلبة لعقود... فتنتهي الأعوام أخيرًا وتحصد لقب الخريج وقد حققت رغبتهم بأقصى طاقتها وتفانت لتصل على أعتاب التخرج، لتجد رأسها تصطدم بحائط آخر أشد قسوة وهو عملها، نعم ياعزيزتي لن تنتهي مأساتك مع طب الأسنان بانتهاء الدراسة فقط بل ستلاحقك باقي عمرك في عملك، فهناك من يجب أن يوظف ذلك اللقب في العمل أيتها الطبيبة هكذا صارحتها الحياة مع عائلتها بضحكة خبيثة.

حاول معها والدها أن تقبل بمنصب معيدة في الكلية بعد أن عُرض عليها مقابل أموال أبيها السخية ولكنها رفضت بشدة، فيوم آخر في تلك الكلية يعني لها قطع شرايين معصمها بالتأكيد، أرادت أن تتفادى سلخ والدتها لروحها وجسدها بدم بارد والذي لا ينتهي فكلما مرت أمامها اقتطعت جزءًا من جلدها بذلك السوط المخبأ في فمها لذلك قررت أن تخبرها أنها ستنال بعض التدريب الذي سوف يؤهلها لإنشاء عيادتها الخاصة التي لم يكفوا عن إلحاحهم حولها، فيلبي والدها على الفور رغبتها بنفوذه ومعارفه ويوصلها لصديقه الدكتور توفيق ليصبح أستاذها... وتبدأ تدريبها على يديه تحت تذمر والدتها التي لا

يعجبها شيء تفعله إيناس على الإطلاق وها هي تعاني في التدريب منذ التخرج ليوم لا تعلم معالمه.

***

شارف موعد عودة إيناس من العمل فتأهب مصطفى مسرعًا ولم يستطع أن يخفي لهفته نحوها وذهب على الفور خارج الصيدلية ليشهد عودتها منذ البداية، وقد قلب اللافتة المعلقة على الباب الزجاجي من مفتوح لمغلق لكي يتسنى له رؤيتها كما يحلو له دون أن يقطع خلوته أحد متطلب فاقد للذاكرة، وظل مكانه يراقب ولحسن حظه لم يظهر أحد إلى أن رأى سيارتها قادمة، نظراته تلاحقها دون توقف فلم يعد باستطاعته إخفائها أكثر من ذلك ولم يعد يبالي بصراحته... لاحقها حتى هبطت منها وتوارت خلف الأبواب وقلبه يتراقص فرحًا بعد أشبع بعضًا من شوقه لرؤياها.

كم فاجأها ظهوره ونظراته الصريحة نحوها وكم تاقت لها أيضًا في الخفاء، فكم من الجيد أن يعيرها أحد بعض الانتباه ويشعرها ببعض الإعجاب الذي تفتقده لتدرك بأنها ليست مسخ مشوه متحرك ينفر منه الجميع.

في المساء قدم القدر لمصطفى فرصة أخرى للقياها بعد العمل على طبق من ذهب ليعيد لعبة التتبع مرة أخرى بعد أن وجدها قد تلقت إشارة ثانية من رانيا بزيارة إحدى المراكز التجارية التي تم افتتاحها حديثًا، وبالفعل التقطها مصطفى بسرعة البرق ولم يحتج لمعرفة عنوانه فهو على دراية به من قبل منذ بداية انشائه، فاستعد على الفور لتتبعها مرة أخرى وإن وصلت للقمر فلن يبالي المسافات، فهي الآن أصبحت كل شغله الشاغل، سيلحق بها ولو شقت طريقها نحو الشمس سيحترق بأشعتها مادام سيلقى إيناس هناك، كيف تتغير أولوياتنا في لحظة ونعيد ترتيب الأمور التي بعثرها الإعجاب بمجرد طرقة واحدة من قبضته على أبوابنا لنجد أنفسنا ننصاع له ونتضرع في خشية ونزور المقامات ونذكر الأدعية والابتهالات وننذر النذور لتتلاقى القلوب ونقرأ المكتوب.

أين ذهب حلمه بالدراسات العليا ومعمل التحاليل الذي قرر انشائه فور تخرجه بعد أن خسر معركته في الحصول على منصب معيد... بعد أن قام رئيس القسم باختيار ابنه على الفور ليتولى الدفة، فابن الوز لابد أن يكون عوام، فكيف يترك لغريب أن يسبح في بركته ولو ولد سباحًا؟!!!!

ولكن منذ رؤيتها وقد تغير كل شيء لتأخذ حظًا وافر من اهتمامه وتسلبه لب تفكيره في أحلامه الأخرى ليجد نفسه ينجذب لقطبها على الفور مسلوب الإرادة.

***

ذهب مصطفى في الموعد الذي حددته رانيا من قبل لإيناس في منشورها، ثم لمح سيارتها تقف في الخارج فوثب قلبه في فرحة عارمة واتجه على الفور نحو بوابة الدخول ليبحث عنها دون أن يعبأ بمساحة المركز التجاري الواسعة.

وجد رجل أمن هزيل يجلس في رتابة عند البوابة الإلكترونية يرتدي زى موحد لرجال الأمن نظر له ببعض الشفقة متساءل لم يختارون رجال حراسة يمكن تثبيتهم بكلمة واحدة دون سلاح؟!

اجتازه دون أن يعبأ لأمره كثيرًا ومر وهو يسمع صوت الصافرة في البوابة فلم يبالي رجل الأمن أيضًا وتركه وسط الزحام ليمضي وهو يتمنى أن يكون فردًا من عصابة ستضفي على عمله الممل بعض الإثارة، ظل مصطفى هناك يتجول تاركًا بوصلة قلبه توجهه وهو يسير كما تخبره، يتأمل المحلات من هنا وهناك لعله يراها في أحدهم ولكن دون جدوى، المساحة كبيرة وبوابات الخروج متشعبة كيف سيصل لها دون أن يفقدها؟

مرت نصف ساعة وهو ينظر خلف الزجاج ويبحث عنها في كل ركن ومحل ولا زال الطابق الأول لم ينتهي بعد، يخشى فقدانها ولا يملك حيلة أخرى فظل يبحث في الأرجاء مانعًا صوته من نداء اسمها بصوت عالي وسط الجمع فيكفيه نداء عينيه، صعد الدور الثانى وظل يتجول في أرجائه إلى أن انتهى ليصعد الثالث بنفاد صبر وأمل، مرت ساعتين ولم تظهر بعد، بدأ يفقد حماسته.. لعلها غادرت

بالفعل دون أن يراها، المركز واسع ومزدحم ربما فقدها وسط الزحام، صوت هاجسه ينذره باحتمالية خروجها...... واستمراره ماهو سوى مضيعة للوقت.... عزيزي حظ سعيد في المرة القادمة هكذا همس صوت عقله في أذنه.

سحب نفسه وتوجه صوب بوابة الخروج ثم توجه على الفور لمكان اصطفاف سيارتها ليتأكد من فشل محاولاته فيجدها مازالت تقف في مكانها لم تتزحزح فتعود السعادة لمكانها وتتربع بعد أن انتشلت الضيق الذي احتل عرشها عنوة، نعم هو لم يفقدها فلا تزال الفرصة قائمة أمامه، سيراها ولكن لن يضيع وقته في المركز التجاري وإنما سيظل هنا أمام سيارتها حتى لا تغيب عن نظره.

وجد أمامها شجرة صغيرة فاتكأ عليها لحين قدومها وهو على بعد عدة خطوات من السيارة وظل ينتظر، تأمل المارة من حوله وهم يحملون الكثير من الحقائب ويصعدون سياراتهم ثم يغادرون وهو لايزال يقف هناك حتى أن صاحب السيارة التي تجاور سيارتها عاد بأسرته المكونة من زوجة وطفلين وقد انهى جولته وأخذ سيارته وغادر ليجد نفسه أصبح عاري أكثر أمام سيارتها ولا يوجد سوى ظل الشجرة التى يستند عليها، طال الانتظار ومرت ساعة أخرى، لا يدري هل يعود للداخل ويبحث عنها أم يظل مكانه؟

ظل يفاضل بين الأمرين وهو يراقب ساعته، في تلك اللحظة لمحها تخرج بصحبة رانيا وخطيبها وهم يحملون الكثير من الحقائب، تهللت أساريره وهو يراقبها في حماس بينما هي تقبل رانيا وتودعهما لتذهب إلى سيارتها والآخران يرحلا سويًا، انزوى مصطفى خلف الشجرة حتى لا يخيفها فبات الآن يراقبها كقاتل متسلل، ولكنها حين وصلت أمام سيارتها لمحته هناك يشاهدها تلك المرة وحيدًا يقف أمام سيارتها هي بالتحديد ويتأملها هي أيضًا بالتحديد!!!.... وجدت كلمة صدفة قد تبددت الآن بانهزامية وكأنها كلمة كتبت على رمال الشاطيء لتأتي موجة الحقائق وتمحيها، بل في الحقيقة لم تكن موجودة منذ البداية وإنما عجزك عن التصديق هو من اختلق تلك الأكذوبة بداخلك لتنزعي أوهامك وتريحي صديقك الخائف دومًا من الفشل.

تظاهرت بعدم رؤيتها له رغم أنها تراقبه كما يراقبها وأخفت ابتسامة تسارع نحو شفتيها وهي تضع الحقائب في الجهة المجاورة لها وتغادر وهي في غاية السعادة..... لأول مرة تشعر بتلك السعادة في حياتها، لتجد شعورها بالإعجاب قد بدأ ينمو بداخلها نحوه هو الآخر.

أحبت أن أحدًا يراها... نعم هي مرئية! يراقبها ويلحق بها أينما ذهبت ويبدو أنه صاحب الياسمين أيضًا..... كل الشكوك تدور حوله هو ولكن كيف عرف كل هذا؟!!... الياسمين؟. .. السينما؟. .... المول؟ يبدو أنها مراقبة بأعين تحيطها من كل اتجاه.... ثم تذكرت على الفور رقم هاتفها الذي سيقوده بسهولة لصفحتها الشخصية على الفيسبوك والأنستجرام لتجد كل شيء يخصها قد ظهر على الفور بضغطة زر، يبدو أنه يراقبها بالفعل ولكن يكفيها السعادة الآن، سعادتها بوجوده حولها... إذًا هناك من يهتم..... .. في النهاية قررت أن تشارك لحظتها السعيدة بأغنيتها المفضلة فاختارتها على الفور من قائمة هاتفها وقادت لمنزلها وقلبها يتراقص على أنغامها

Watching you stand alone …. All of my adopts suddenly goes away somehow.

One step closer

***

(٧)

ازدادت شروخ اللوح الزجاجي الذي يفصل بينهما إلى أن تكسر كليًا وسقطت أجزاءه أرضًا منثورة في الأرجاء، ها قد وضحت الرؤية دون أي أغشية تعيق بينهما وبين الحقيقة.

الحقيقة بأن كل شيء أصبح مدبر عقب الصدفة الثانية لها معه حين ذهبت بصحبة رانيا وتركت رقم هاتفها هي، هنا استطاع مصطفى أن يقلب هذه الصدفة لصالحه ويستغلها الاستغلال الأمثل ليعرف عنها المزيد، أحبت استغلاله هذا دون سبب واضح، يكفيها هذا القدر من الاهتمام وأن هناك من يلاحظها ويتقبلها بل ويلحق بها أينما تذهب.

الرؤية الآن باتت ساطعة كشمس منتصف النهار كلاهما يعجب بالآخر، كلاهما سعيد بهذا والياسمين يشهد على ذلك أيضًا والذي بات عادة كل صباح، يصحبها نظرات واضحة خلف الزجاج ونظارة الشمس وابتسامات خفية سعيدة إلا من يوم العطلة الذي كان ينتظر بفارغ الصبر من قبل.... بات الآن يمر ثقيلًا كالدهر.

***

شعر مصطفى بأن اللحظة قد حانت ليقرب المسافات أكثر ويبني مركب صغير يعبر به محيطها الشاسع، فلو ظل على هذا البر يراقبها من الجهة الأخرى دائمًا فلن يصل إليها أبدًا، ماذا إن تقدم نحوها خطوة أخرى؟. .. هنا اشتعل قلبه بالإثارة، نعم ولم لا؟!

أهناك حب بدون إثارة أقلها تداعب المشاعر الراكدة المشتاقة؟!، شيئًا يخبره بأن لا يطيل الصمت أكثر من ذلك، الصدف التي يصنعها باتت قليلة والنفس تميل للطمع في قربها، ماذا إذا انتظرها هي لتبدأ بالحديث؟ وماذا عن خجل الفتيات يا أبله؟ ربما لو انتظر بدأ حديثها على الطرف الآخر لقضي عمره منتظرًا، الرجل من يبادر غالبًا، وأخيرًا قرر بأنه لن يترك نفسه يموت ظمًا منتظرًا قطراتها لترويه حتى لو كانت تنعم بمذاق يذيب العقل والقلب معًا، بل سيأخذ درب

المخاطرة مرة أخرى ويقذف بنفسه في منتصف الطريق فالإناث يعشقن من يخاطر بنفسه من أجلهن... من لديه القدرة على المجازفة، ولو وصلت لروحه لقدمها لها تحت قدميها... لا يراقب من بعيد فقط صامتًا حتى وإن تحدثت نظراته لها فلن تكفي، فلا يشبع الإناث سوى أن يشبع الأذن أولًا فتلك هي الموصولة بقلبها مباشرةً، فالأذن بالنسبة للأنثى بوابة للروح تعشق الطرب والدندنة بكلمات العشق والهوى، تخيل لو كنت مكانها ووجدت من يراقبك ويلحق بك أينما ذهبت حينها لن تنظر لحديث عينه بل ستراه كالأسد حين يراقب غزالة، فمن المؤكد أنها غذائه وليس بسبب إعجابه بها، لابد من فعل آخر يقتحم به أبوابها، ولكن ماهو منحنى المخاطر التالي؟

جلس على مكتبه ووضع سماعة الأذن بأذنيه وفتح إذاعته المفضلة وبدأ يسمع صوت مذيع الراديو دون وعي فمازال عقله مشغول بخطوته التالية، كل ما يشغله إيناس، كيف سيتقرب لها؟ وكيف سيعلن لها عن إعجابه بها؟

في الحقيقة لم يعد إعجاب فقط بل تخطى هذا بكثير ليصبح مفتون بها فتنة آدم بحواء كأنها الأنثى الوحيدة على الأرض لا سواها لم يرى قبلها ولن يرى بعدها، أفقدته رشده بخمرها وأثملته بجمالها، جمال من نوع خاص لم يعهده على أحد سواها، ظل يتجول بين صورها التي سرقها من صفحتها الشخصية وحفظها بهاتفه وهو يتأمل تفاصيلها الناعمة وعطر الياسمين يحاوطه.....

ماذا سأفعل؟؟؟؟

الحيرة تأكله، في تلك الأثناء أعلن المذيع عن الأغنية التالية

Dark horse

ومن ثم بدأت على الفور، ظل يستمع لها بنصف أذن ونصف عقل إلى أن صاحت قائلة

It’s in the palm of your hand now, baby

نعم الأمر كله بين يديك الآن

هل يرسل لها طلب صداقة على صفحتها؟

ثم ماذا؟

هل سيكتفى بالطلب وينتظر؟ ماذا لو تركته معلق؟ ماذا أيضًا لو رفضت؟ حينها ستصبح كارثة كنيزك سقط على رأسه فجره، أتدري ما هو أسوأ من أن تعلق الطلب أو ترفضه هو أن تصيبك لعنة الحظر وتطردك كإبليس من جنتها للأبد لتخرج منها مذمومًا مدحورًا، لتظل تعيش على ذكراها وماحفظته ذاكرة هاتفك من صورها بقلب مكسور.. شعر برجفة قلبه لمجرد تخيله فشل المحاولة أو لعنة الحظر الذي باتت تهدد أماله...

ماذا سيفعل الآن؟

It's a yes or a no, no maybe

الحياة تعاش مرة واحدة فقط إما نعم أو لا، لابد أن يتخذ قرار حاسم الآن، وكلمات الأغنية تدفعه لهذا بجنون، والأمر يستحق بعض المجازفة فلن يظل هكذا يراقب من بعيد لحين قدوم من لديه الجرأة ليأتي ويخطفها من أمام عينيه... وهمس لنفسه مستنكرًا " من إمتى وأنت متردد كده ده حتى معروف عنك إنك مندفع دايمًا، هتيجي هنا وتقف؟ "

Are you ready for, ready for

A perfect storm, perfect storm

'Cause once you're mine, once you're mine

There's no going back

***

استدعى روح المجازفة على الفور بنصفها الإيجابي متجاهلًا ذلك النصف الأسود البائس المتردد بإحباطه وهو يفكر بفكرة مراسلتها مباشرةً دون طلب مسبق حينها ستعرف من صاحب الرسالة من صورته الشخصية على الفور وهو يعلم كما أخبرته كلمات الأغنية بعدم وجود مجال للعودة بعد خطوته التي سيخطوها، وبينما هو يتوجه لصفحتها ويفتح صندوق الرسالة ويعبث بالحروف بحيرة لا يدري ماذا سيرسل لها وصوت عقله يردد عليه لابد أن تكون حذر، لابد

أن تكون حذر، بدأت أغنية أخرى على إذاعة الراديو أغنية يبدو أنها مألوفة وأيضًا لها علاقة بإيناس فهي مقتبسة منها بضع كلمات على حالتها في الواتس آب، حلت الأغنية فجأة وقد مزقت حيرته الداخلية وباغتت عقله دون انذار، نعم هي..... ..

لأول مرة يغوص في لحنها وكلماتها هكذا، جاءت لتريح عقله من ذلك التيه، وترشده لخطوة أكثر ثباتًا لا يترنح بعدها وكأنها تقرأه بكلماتها، نعم كلماتها... سيرسل كلماتها في رسالته الأولى هي التي ستخبرها بكل ما يخبئه بصدره نحوها وإن فاجأته بالحظر سيكتفي بأن تلك الأغنية ستذكرها به دومًا كلما سمعتها، وإذا أجابته بالغضب واتهامه بالتعدي ربما حينها سيحصل على فرصة للاعتذار وإيضاح حقيقة مشاعره نحوها...

إرتاح لهذه الفكرة بعد أن قتلت تردده بالكامل، فوضع كلمات الأغنية بأكملها في صندوق الرسائل وترك اندفاعه المعهود يقوده وهو ينظر بتحفز لزر إرسال، ضغط بإصبعه فورًا عليه مرسلًا لها رسالته الأولى، ثم عاد بظهره للخلف منتظرًا عواقب فعلته.

***

على الجانب الآخر كانت إيناس تجلس على فراشها أمام شاشة الهاتف تتنقل بين رواد مصممي الأزياء وتتابع آخر تصاميمهم باهتمام وهي تراقب التفاصيل في كل موديل وتحاول أن تأخذ منهم ما يفيدها لتصلح الأخطاء التي تقع بها في تصاميمها التي تملأ الإسكتش الراقد أمامها وغيره الذين يحتشدون بداخل أدراج مكتبها، كانت ترسم تصاميمها بشغف رغم كلمات والدتها التي تتردد على مسامعها دومًا

" مش هبقى في النهاية والدة الخياطة "... ، فهي تعرف أن حلمها مدفون منذ عمر الثامنة عشر حين أمسكت والدتها ببعض تصاميها ومزقتها أمامها ونثرت قطعها في أرجاء الغرفة محذرة بأنها لن تسمح لها بأن تحقق هذا الحلم المبتذل، وهي تلقي تحذيراتها للمرة الألف بأنها لن تسمح لها بأن تدنس سمعتها أو

تخذلها أمام عائلتها، ولن تسمح لتلك الموهبة بالخروج للنور، فلن تتركها تصبح في نهاية المطاف خياطة!!..

رغم أن إيناس شرحت لها مرارًا أنها ستصبح مصممة أزياء ولن يقتصر الأمر على حياكة بعض الفساتين إنما يمكنها صنع علامة تجارية تخصها بتصميماتها ومن ثم تملك تحت يدها شركات كبرى ومصانع أزياء تخصها، ولكن كل تصوراتها المستقبلية لم تعجب الملكة فريدة، فكيف تقارن بين مكانتها الاجتماعية وهي طبيبة ومكانتها وهي خياطة؟!! يجب أن تقتل تلك الموهبة قبل أن تولد، لن تترك للعائلة مجالًا للسخرية منها كما حدث سابقًا وهي تعلم في قرارة نفسها أن جل ما يشغلها إطلالاتهم أمام الناس ومكانتهم الاجتماعية، فحادثتها الشخصية جعلتها تدرس كل خطوة تخطوها في حياتها بعناية متبعة قوانين العائلة ونظرتهم للأمور لتصل لأعلى تقييم بينهم، فمن خطيئتها تعلمت حين كانت في شبابها وأصرت على أن تدرس الضيافة الجوية وتعمل كمضيفة طيران، وفي إحدى رحلات عملها تعدى أحد الركاب عليها لفظيًا ونعتها بالخادمة له، ومنذ تلك اللحظة سقط كل شيء أمامها وتلاشى الحلم، لتجد العائلة بأكملها تلومها وتوبخها على ذلك المجال الذي أصرت على العمل به وعلى رأسهم والدتها التي كانت تراها كما ترى ابنتها الآن.

ومنذ تلك اللحظة تركت عملها ولم تعد لوظيفتها قط، وبالتأكيد لن تترك ابنتها تقع في نفس الفخ، أو تشرب من هذا المستنقع العكر، فليس كل الأحلام يجب تحقيقها فهناك ما يكون مجرد أضغاث أحلام زائفة تخسف بصاحبها الأرض.

ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك الموهبة وليدة الظلمة والخفاء لا يراها أو يسمع بها أحد سوى رانيا من آن لآخر لتبدي رأيها الهام في التصميم، وظلت تخبئ تصاميمها في الأدراج بعيدًا عن أعين والدتها على أمل في يوم ما يمكنها أن تحول أحدهم إلى باترون على أرض الواقع وتلمسه في الحقيقة.

وعلى الرغم من أملها المفقود دون رجعة لا تزال تخرج شغفها في الحياة

على أوراق بيضاء فتلك الموهبة هي موطنها الوحيد..... لعله يومًا ما يلمس جسد حقيقي ويخرج من بين صفحاتها البيضاء ذات الأسوار الحديدية التي صنعتها فريدة بنرجسيتها.

وبينما هي مستغرقة في عالمها الصغير وصلت أمامها رسالة من غريب، ضغطت على الفور على الرسالة لتظهر المحتوى، لتفاجأ بكلمات أغنيتها المفضلة أمامها تتجه على الفور نحو صاحب الرسالة فتجد صورته!!!!

نعم هو نظرت له بدهشة بينما الارتباك يحتضنها في ذعر، شفتاها ترتعش وصديقها بدأ يذهب ويجيء في الغرفة بتوتر، ضغطت على صفحته الشخصية بأصابع ثلجية لتتأكد من صاحب الرسالة، لتجد نفسها أمامه مباشرةً بصورته التي اختارها بعناية، تحطمت كل الشكوك والظنون والأوهام وتهاوت، قفزت من مقعدها فجأة وعقلها بات مشلول وظلت تدور كما يدور صديقها في الغرفة دون وعي.... أنفاسها منقبضة، ومعدتها بدأت تتقلص، بحثت عن بخاختها هنا وهناك في ذهول رغم أنها كانت تمسك بها منذ قليل ولكن لم تجدها، حاولت تمالك أعصابها وممارسة تمارين التنفس ببطء إلى أن هدأت بعدها ببضع دقائق، لتجد نفسها تذهب إلى هاتفها مرة أخرى لتتأكد من صاحب الرسالة فلا زال عقلها يرفض استيعاب تلك الخطوة الجريئة التي اقتحم بها أسوارها بجسارة.

تفحصت صفحته الشخصية وذهبت إلى المعلومات على الفور:

خريج كلية العلوم، حاصل على دبلومة الكيمياء الحيوية، يعمل في صيدلية الدكتورة سلمى، يبلغ من العمر ٢٨ برج السرطان تاريخ ميلاده ١٩٨٦/٧/٩، يدرس الماجستير.... ظلت تجمع معلوماته بتوتر ثم ذهبت إلى الصور لتجد صوره مع أصدقائه وصوره بداخل الصيدلية وأخرى وهو يدرس، الآن لم يعد الأمر يحمل أي أوهام كل شيء واضح أمامها، كل علامات الاستفهام وجدت أجوبتها فتلك الرسالة أجابت كل شيء، إذًا هو معجب بالفعل.... نعم هي لديها معجب!..... جاء دون نداء عائلي!!! كيف ومتى وأين لا تدري؟!!

لتجد صديقها الأسود يميل على أذنها ويهمس:

_ أنا مش مطمن لمشاعرك دي حاسس إني نهايتها وحشة زي كل اللي حاولوا من قبلوا.

لم تجبه فذلك يبدو عليه الاختلاف، تركته في عدم ارتياحه وهامت هي سعيدة برسالته، لم تجب على رسالته ولكن تركت الباب مفتوحًا دون أن تركله بعيدًا وتغلق الأبواب في وجهه، بل جعلت صمتها اختبارًا لصبره بعد أن أرادت تهدئة صديقها الذي يخشى التسرع والسقوط.... وظلت تراقب خطواته التي تقترب منها يومًا بعد يوم بهدوء يعجبها... ترى كيف سيفسر صمتها؟؟؟ وكم تبلغ قوة تحمله لهذا الصمت لا تدري؟

هو الوحيد القادر على إجابة تلك الأسئلة... لتقضي باقي ليلتها في سعادة وقد تناست تصاميمها وأحزانها وصديقها البائس.... وقد ذهب كل شيء ولم يبقى معها سوى رسالته وأغنيتها المفضلة التي تتكرر بوجدانها وبين يديها صورته تتأملها بابتسامة لم تعهدها من قبل.

***

بينما مصطفى اكتفى بفضلها في استقبال رسالته دون أن تدفعه بعيدًا أو تضع البلوك حول رقبته وتخنقه وإنما آثرت الصمت فقط، لا يهم يكفيه بلوغه لتلك المرحلة فصمتها من المؤكد نابع من خجلها هكذا برره لينعم بسعادة تفوق جرأة خطوته.

***

وافق كلاهما على قواعد اللعبة، ستلعب هي دور نشر الأماكن التي ستذهب لها بعد عملها وسيلعب هو دوره بتتبعها أينما ذهبت ليتبادلا النظرات والابتسامات الخفية، أما في الصباح سيضع هو كل يوم زهرة الياسمين لتلتقطها هي في طريقها للعمل، أصبحت تلك عادات يومية لهما بينما رسائله لم تنقطع يرسل لها من حين لآخر أغنية أو بيت شعر وأحيانًا بعض الدعابات التي تضحكها كثيرًا حتى تكاد تدمع.

بينما هي لا تزال صامتة تستقبل رسائله دون رد، لم ترسل له شيء قط

مكتفية بالمشاهدة فقط لتستمتع بتلك اللحظات، وما زال الاختبار قائم... وما زال مصطفى يدهشها بصبره وتحمله ومثابرته، لم يمل أو يفر كسابقيه من عائلتها الكريمة أو معارفهم إنما اقترب منها أكثر.. باتت رؤيته ورسائله محتلة يومها بأكمله، ذاقت طعم آخر للسعادة، وتعلم وجهها نوعًا آخر من الابتسامة، كلما أرسل لها أغنية استمعت لها مرارًا دون سأم بل وتضيفها لقائمتها المفضلة، ولكن ستظل الأولى هي الأفضل دومًا ليس لأنها المفضلة لديها فقط بل لأنها رسالته الأولى أيضًا.

أحبت إحساس الإعجاب، أحبت كونها مرغوبة من شخص ما، ذاقت أخيرًا طعم الاهتمام وذابت بداخله، تغيرت الألوان من حولها فلم يعد الأسود والرمادي من يحتلا كامل لوحتها بل لمحت بزوغ شمس ألوان أخرى تضفي على عالمها جمالًا افتقدته كثيرًا، جمال يخبرها بأن هناك من يهواها ويهوى لونها، يقبلها بصمتها وهدوئها، لم يهرب ولم يسأم منها بل اقترب أكثر محطمًا كل توقعاتها وتوقعات صديقها القلوق، أنساها كل لحظة سيئة مرت بها، كل كلمة سوداء صبغت قلبها، كل طعنة باغتتها من ظهرها حتى بخاخة تنفسها لم تعد تتذكرها ونادرًا ما تلجأ لها فهي ليست بحاجتها الآن، فما يصيبها الآن من ارتباك وتوتر أصبح مختلف بطعم حلو ونبضة خفيفة تداعب قلبها وتهبط لترتطم بمعدتها محدثة رجة ناعمة ما إن تجده أمامها في أي مكان، عشقت هذا الأحساس واستلذت به ومن ثم شرعت في ممارسة موهبتها بشراهة أكثر...... وبدأت سعادتها تظهر أكثر وأكثر في تلك التصاميم وزخرفتها.

ورغم ملاحظة رانيا لبعض التغيرات البادرة على إيناس واتهامها الدائم لها بأنها تخبىء شيء عنها، إلا أن إيناس أصرت على عدم إفصاحها بشيء مكتفية بردها بأنها سعيدة بقرب موعد الفرح، فهي تعلم أن مازال مركبها يقاوم الأمواج والعواصف ولا تدري بأي أرض سيكون مرساها، لذلك فضلت إبقاء الأمر سرًا لتسبح ببحره دون أن يعكر صفو مياهها أو يجدف معها أحد، تريد فقط أن تنعم برحلتها الخاصة بمفردها وبراحة.

(٨)

يوم الاثنين

منتصف الأسبوع.. يوم عمل آخر بشذا الياسمين

رن جرس التنبيه في غرفة إيناس ومع صوته بدأت تستيقظ من أحلامها معه.... ليصبح هو أسير أحلامها السعيدة بزهرته ورسائله التي لا تنقطع، فيلاحقها أينما ذهبت حلمًا كان أم واقع وما أجمل من تلك الملاحقة؟!

ظلت تتأمله بنصف عين مفتوحة وهي تبتسم إلى أن تلاشت صورته من أحلامها.. فنهضت بنشاط لتستعد لاستقبال صورته الحقيقية وزهرة جديدة ستضمها لمجموعتها التي وضعتها جميعًا في صندوق خاص في خزانتها، انهت حمامها الصباحي واستعدت بعد أن إرتدت فستان طويل باللون الوردى يشبه ربيعها الآن، لم تنس نظارتها الشمسية بعد أن أضافت لمسات الميكب الخفيفة ثم أمسكت بحقيبتها وغادرت، سارت نحو السيارة وكعادتها تنظر إلى موضع زهرتها ولكنها تفاجأت بعدم وجودها مالت برأسها لأسفل لعل رياح الخماسين أسقطتها ولكن لم تجد شيء، توجهت بنظرها صوب الصيدلية على الفور فلم تلمحه، قلبت يدها ونظرت للساعة لتجدها الثامنة وخمس دقائق، أين ذهب؟. ولماذا تأخر؟ لم تكن من عادته الغياب فهو دومًا من يظهر أولًا!!!

صعدت سيارتها بحنق ونيران تأكل عقلها بعد أن تعكر صفوها بغيابه، غيرت مسار سيارتها المعتاد واستدارت حول ميدان وضع في المنتصف لتلاقي الاتجاهات ودارت من حوله لتمر من أمام الصيدلية مباشرةً لعلها تلمحه بداخلها، ربما مشغول بأحد الزبائن وهو من حرمه عن وضع زهرتها في مكانها... لتفاجأ بأن بابها الزجاجي مغلق بالقفل والظلمة تبتلع داخله، لا يبدو أن هناك أحدًا بداخلها، فازداد حنقها... وشعرت بأنفاسها تتثاقل فسحبت حقيبتها وأخرجت بخاختها، أخذت منها بعض الرذاذ محاولة تهدئة هذا الانقباض الذي طرأ عليها قليلًا، تبددت لديها رغبة الذهاب إلى العمل اليوم بعد أن توغلت هواجس القلق بداخلها وهو يطرح ملايين من الأسئلة التي لاتنتهي، نظرت

بهاتفها ربما أرسل لها رسالة فلم تجد سوى رسالته الأخيرة أمس" تصبحى على خير" والتي كان يدونها مؤخرًا قبل أن يذهب للنوم دون أن ينتظر منها رد، وجدت أصوات رأسها تصرخ والخوف يجلس على الكنبة الخلفية وهو يتأمل الشارع خلف الزجاج ويقول " الظاهر كان عندي حق "... نظرت له دون أن تجبه، فلم يعد لديها الآن سوى التساؤلات فبماذا ستجيبه؟!!

قررت العودة لمنزلها ثم عدلت عن رأيها فجأة بعد أن تخيلت ما ستواجهه من إلحاح والدتها ورانيا في معرفة سبب عودتها الفجائي رغم خروجها للعمل، ستخبرهم أنها شعرت ببعض التعب، هنا سيصروا على إحضار الطبيب فبماذا ستخبره هو الآخر، ما أعراض مرضها؟ هل ستخبره أنها لم تحصل على زهرتها الصباحية اليوم؟ أم إنه اختفى دون سابق انذار.... إلى أن وجدت أنه لا داعي للعودة وأكملت طريقها للعمل وهي تتمنى أن لا يكون قد سلك مسار الآخرين وأقلع عنها وقد رفع راية الاستسلام!!!.

***

تأهبت فاطمة والدة مصطفى للخروج إلى عملها وهمت نحو باب المنزل، وفي أثناء طريقها استوقفها سماع جرس التنبيه في غرفة مصطفى، نظرت للساعة على الحائط لتتأكد من الوقت الذي تعرفه لتجدها بالفعل الثامنة صباحًا، لقد تأخر في استيقاظه على غير عادته بينما نظام التنبيه على هاتفه يصر على الرنين لإيقاظه، طرقت على باب غرفته فلم يرح قلبها بصوته، طرقت مرة أخرى فلم يجبها، هنا أمسكت بالمقبض وأدارته لتدخل إلى غرفته على الفور وقد ساورها بعض القلق فوجدته أمامها نائمًا وحبات العرق تنشع على جبينه، ألقت حقيبتها على الفور وهرولت نحوه تتحسس جسده وتحاول إيقاظه وهي تضع يدها على جبهته لتجد حرارته مرتفعة بالفعل وأكدتها بعد أن لامستها بشفتيها، وجهه صارخ بالحمرة ويداه مشتعله من الحرارة يسمعها وهي توقظه لكن استجابته ضئيلة، إنه ينازع الحمى ويتأوه وبينما هي تتفحصه بقلق رن هاتفه بغفوة أخرى أفزعتها فالتقطت الهاتف وضغطت الزر لتخرسه، لتجد بعدها اسم

الدكتورة سلمى ينير على هاتفه فأجابت:

_ صباح الخير يا مصطفى.

_ صباح النور يا دكتورة أنا والدته، معلش مصطفى تعبان إنهارده ومش عارفة ماله أنا اتفاجأت أنه سخن في أوضته بعد ماسمعت المنبه بالصدفة وأنا رايحه الشغل.

_ ألف سلامة عليه يا طنط أنا اتصلت أشوفه اتأخر ليه إنهارده، طب حضرتك محتاجة دكتور أبعتهولك البيت؟

_ لا يا حبيبتي شكرًا أنا أعرف دكتور قريب هكلمه دلوقتي يجي يكشف عليه.

_ أوك، ولو حضرتك احتاجتي أي حاجة يا طنط يا ريت تبلغيني، وأنا هبقى اتصل اطمن عليه تاني.

_ تسلمي يا حبيبتي شكرًا.

أغلقت المحادثة وخرجت من الغرفة مسرعة نحو الشرفة الجالس بها زوجها المهندس محمد، مهندس الكهرباء المتقاعد وطلبت منه بصوت مرتجف أن يحضر الطبيب لمصطفى، فانتفض الآخر في فزع وترك كوب الشاي على المنضدة وذهب ليتصل بالطبيب على الفور.

مرت ما يقارب الساعة ولازال والديه بجواره في انتظار وصول الطبيب... بينما والدته تحاول أن تقيس حرارته من آن لآخر لتجدها تخطت الواحد وأربعون فيزداد قلقها، كان مصطفى طريح الفراش يهذي من حين لآخر بالصيدلية وبعض مسميات الأدوية وبعض الكلمات التي تخرج مبهمة لا معنى لها، ذكر أبحاثه ورسالة الماجستير وأصدقائه ثم ظل يهذي باسمها دون انقطاع وهو يقول في جملة يكررها " لازم أدي الياسمين لإيناس" هنا قرع الطبيب جرس المنزل فذهب المهندس محمد ليفتح له الباب.

الطبيب مبتسمًا وهو يبادر قائلًا:

_السلام عليكم يا باشمهندس محمد.

_وعليكم السلام يا دكتور هاشم اتفضل حضرتك جوه.
تقدم الطبيب للداخل وهو يقول ببعض الأسى:
_ألف سلامة على مصطفى.
فأجابه محمد وهو يرشده إلى الغرفة:
_الله يسلمك يا دكتور، اتفضل حضرتك الأوضة من هنا.
انهى الطبيب فحصه ومصطفى لازال يهذي بفقدان وعي ثم أخرج من حقيبته دفتر وفتحه على ورقة بيضاء تحمل اسمه وتخصصه سجل بها اسم المريض وعمره وتاريخ اليوم ودون بعض أسماء العقاقير التي سيتناولها مصطفى ثم قطع طرفها من الدفتر وناولها لوالده وهو يقول:
_ عدوى بكتيرية في الجهاز التنفسي عملتله حمى، ممكن يكون عدوى من أي زبون عنده في الصيدلية، للأسف هي الحمى ممكن تقعد معاه يومين ثلاثة بس بالعلاج هيبقى أحسن بإذن الله لازم ياخده في مواعيده ويرتاح اليومين دول أفضل.
شكر المهندس محمد الدكتور وقاده للخارج ثم بدل ملابسه على الفور وذهب ليحضر الدواء بينما والدته عدلت عن فكرة الخروج لعملها وهاتفتهم معتذرة بسبب ظرف قهري.... ثم أعدت الكمادات كما أوصاها الطبيب وجلست بجواره تحاول تهدئة حرارته المشتعلة.

***

الغياب المفاجئ دون سابق انذار يقع على حياتك وقع الغيبوبة، لا تموت ولا تحيا فقط تظل معلق في المنتصف تقاتل هواجسك المخيفة، ستموت عما قريب أو بعيد حسبما تسأم روحك منك ولكن ستظل متألمًا ومعلقًا طوال فترة انتظارك، وهذا ما كان يقتلها بالفعل أنها لا تدري متى ستنتهي فترة انتظارها المؤلمة تلك، أضناها التفكير في سبب غيابه وصمت هاتفها الذي يفتقد رسائله هو الآخر، وأطلق صديقها عقاربه لتجوب عقلها وهي تلدغها وتصب في شرايينها السموم التي تزيد من أنينها حتى باتت تتلوى أمامها إيناس من الألم فزدادت

الأخرى قسوتها وضاعفت لدغاتها ولم ترحمها، هكذا يجب أن يكون اللوم وتأنيب النفس فمن لا تصغى لحديث صديقها الوفي الذي يخشى عليها الهواء يحل عليها هذا الألم جراء ما اقترفته من صمت وقبولها بإعجابه، بل وسقطت هي الأخرى ببلاهة في ذلك الفخ وأعجبت هي الأخرى به، ماذا عن تحذيراته التي ألقت بها عرض الحائط؟!!

ها هو هرب كالآخرين يا بائسة، حتمًا ستموتين وحيدة وتفنى جثتك دون أن يشعر بوجودك أحد أو يفتقدك أحد لتصبحي أنتي والدود الذي ينهشك بمفردكما ولن يقودهم إليك سوى رائحتك العفنة.

كان اليوم أثقل يوم تقضيه بعملها منذ أن ظهر بحياتها، بأثقل كلمات وهواجس تدور بعقلها وأثقل تنفس، لايزال غائب دون مبرر بحثت في صفحته فوجدت عنوانه المدون به مصر الجديدة دون عنوان مفصل، ولو كان مفصلًا هل سيكون لديها الجرأة على الذهاب إليه؟!!!

قادت في طريق عودتها إلى المنزل وسلكت طريقًا آخر يمكنها من المرور من أمام الصيدلية مباشرةً وهي تأمل في وجوده لعل فترته أصبحت مسائية أو أنه تأخر في استيقاظه، أي مبرر لا يهم... أي سبب يريح قلبها المجهد وعقلها الضال، وما إن وصلت إلى الصيدلية حتى وجدت الدكتورة سلمى بمفردها خلف الزجاج...... سحبت من بخاختها رشفة أخرى بعد أن تعدت في ساعات قليلة الحد المسموح لها من بخاختها في اليوم الواحد ثم قادت للمنزل والخيبه تدفعها من خلف.

في المساء هاتفتها رانيا تطلب منها الخروج لاستكمال باقي الأغراض التي تنقصها فلم يعد هناك الكثير من الوقت على يوم الزفاف ولكن الأغراض لا تنتهي مع الأيام، فرفضت إيناس معللة بأنها مصابة ببداية إنفلونزا وتخشى عليها العدوى كما أنها لاتقوى على الخروج ووعدتها بأنها ستذهب معها حين تتعافى..

تتعافى!!! نعم، فغيابه علة مميتة...

***

انقضى اليوم الأول بغياب تام وعذاب نام..

ليلها ممتلئ بأحلام متقطعة.... فهي أيضًا بطلها غائب تبحث عنه في الظلمة بينما صديقها يتظاهر بأنه يبحث معها وهو صامت يأبى أن يخرج اسمه ويردده بصوت مسموع... يبحث ويبحث وفي الوقت ذاته يخشى أن يصل له في الجهة الأخرى ويعلم بأنها تفتقده... كما أبى أن ترسل له رسالة تسأله عن سبب غيابه بحجة حفظها لكرامتها، وعلى الرغم من ثقل صديقها وكلماته اللائمة إلا أنه الأوفى لها دومًا.... هو من يضمها إليه الآن ولا يغيب عنها مطلقًا لذلك استمعت لنصيحته رغم قلقها.

رأت نفسها تتجول بين الطرقات المظلمة تبحث عنه فتلمح أمامها الصيدلية، تذهب إليها ركضًا كمن فقد وطنه ولمحه فجأة منارًا في الفراغ الشاسع المظلم، تقتحمها وتبحث عنه في الأرجاء ولكنها خاوية.. تخرج وتهرول نحو سيارتها باحثة عن زهرتها فلا شيء لتجد نفسها غائبة منذ غيابة... ظلت تدور في مكانها وهي تبحث وتستيقظ... وتغفو وتدور وتبحث وتستيقظ... وتغفو وتدور وتبحث وتستيقظ إلى أن رن جرس المنبه فنهضت من رنته الأولى على غير عادتها لتجد الحقيقة أمامها......

لايزال مفقودًا!..... ...

***

نهضت بفتور، زاد ثقل عضلاتها كأنها تحمل طن فوق وزنها، حال الحزن بياض عينيها إلى سواد وسرعان ما انطفأ ضوئهما، أمسكت هاتفها بثقل الطن وبحثت عن جديد يطمئنها فلم تجد، فزاد الطن أطنان، سحبت جرعة أخرى من بخاختها ثم ضاعفتها وهي تيقن بأنها لن تريح صدرها مهما ضاعفت، تهيأت للخروج وقد اتشحت بفستان أسود وشال رمادي، وخرجت متجهة لسيارتها لعل القدر يفاجئها بزهرتها اليوم بعد يوم من الحرمان وتنزاح الغمة، ولكن ما هي سوى لحظات وسقطت أوراق شجرة آمالها أرضًا بعد أن حال لونها من الخضرة للإصفرار المشحوب لترتطم بالأرض وتتهشم وقد تناثرت بقاياها في كل مكان

بغياب الزهرة لليوم التالي على التوالي، يوم آخر بدونه وبدون زهرته، يوم آخر ستعاني من ظمأ غيابه دون قطرة واحدة ترويها، مرت أمام الصيدلية مرة أخرى لعله يكون بالداخل فلم تجد سوى الدكتورة سلمى، هل تذهب وتسألها عن سبب غيابه؟ وما إن حل السؤال برأسها حتى وجدت وجه الخوف بدأ يتقلص وعينه تطلق شرار الغضب وهو يقبض على معصمها بقوة ويقول بحزم" إنتي إتجننتي ولا إيه تروحي فين؟!

لتعدل عن تلك الفكرة على الفور وتكمل طريقها باستسلام ملقية رأسها على صدره في خشوع.

***

منعت الحمى تناوله للطعام إلا من بعض السوائل التي كانت فاطمة ترغمه على تناولها مع الدواء ليغوص مرة أخرى في نوم لا ينتهي، يهذي بهلاوسه الكثيرة وباسمها بطريقة مبهمة لم تستطع والدته تفسيرها، هاتف والده الطبيب ليخبره بأنه لم يتناول شيئًا منذ يومين متواصلين فيقرر الطبيب الاستعانة بالمحاليل وأرسل مساعده ليقوم بما أوصى به الطبيب.

أغلقت والدته هاتفه بعد أن أصبح ضجيج رنينه وإشعاراته يزعجها، وهي تضغطت على الزر الجانبي مطولًا ثم اختارت إغلاق فلبت الشاشة أمرها على الفور وانطفأت، بينما مصطفى كلما استعاد بعضًا من وعيه جراء خوافض الحرارة حاول أن يبحث عن هاتفه بجواره ليرسل لها رسالة يفسر لها غيابه الذي لم يعد يعرف عدد أيامه ليجد والدته قد حلت على رأسه بالأقراص والسوائل... وما إن يذهب مفعول الخوافض حتى يسقط في مستنقع الهذيان مرة أخرى.

ظلت طاقتها تخبو وتخبو ولم يعد لشمعة صبرها طاقة فقد انطفأت وتطاير دخانها في الهواء، هاتفت رانيا بعد عودتها على الفور والتأكد من عدم ظهوره...... رن هاتفها ثواني ليأتي صوت رانيا في الجهة الأخرى:

_ إزيك يا إيناس.

_ الحمدلله، إنتي خارجة إنهارده بردو؟

_ أه، إنتى عارفة الحاجات مش بتخلص والوقت أزف ولازم أجهز الشقه في أقرب وقت.

_ طيب خلاص أنا هاجي معاكي.

_ يا بنتي إنتي مش كنتي بتقولي إنك تعبانة؟!

_ لا خلاص أنا حاسة بتحسن وممكن أخرج، هقابلك الساعة سبعة تحت البيت.

_ أوك يا قلبي.

أنهت المحادثة وبدأت تستعد للخروج..... تقلصت خياراتها وماعاد لديها حيلة لتلقاه سوى لعبتهما في التتبع، فلجأت لها ربما حينها سيأتي وينتظرها ويخبرها بتبريرًا لغيابه ومهما كان تبريره يكفيها أنه أتى.

لتجد نفسها لأول مرة تصنع هي المنشور الذي يحوى على مكان خروجها بصحبة رانيا كما اتفقت معها في رسالة أرسلتها لها رانيا عقب المحادثة والذي كان نفس المركز التجاري الذي ذهب إليه من قبل، كانت تلك المرة هي من تشارك رانيا بهذا المنشور وكأن صوتها الداخلي يستدعيه، لتنقضي في النهاية خروجتها دون ظهوره أيضًا..... .. فتجد عالمها قد أصبح مرعى للبؤس والحزن وبات كل شيء حولها مدنس بالآلام.

***

اليوم الثالث

وطأت للتو قدماها كوكب فضائي بعيد منبوذ من الجميع خارج المجموعة الشمسية والكون بأكمله لا يحبه أحد ولا يرغب في حبه أحد فقط وحيد تسكنه الوحشة لا غير حتى الهواء نبذه فلم يعد في عالمها ذرة أكسجين واحدة تستطيع أن تنجو بها، ضاق عالمها وضاق معه صدرها ولم يعد بمقدورها التحمل.... عقلها ينفطر، بينما جسدها ينازع بصوت مبحوح كطائر نحر عنقه ولم يكتمل نحره ليظل هكذا ينازع الموت ببطء، كانت ملقاة على فراشها كالمعلق بين الحياة والموت على أحد أسرة العناية المركزة، لا هو مفارق ولا هو باقٍ فقط عالق

بنضاله بين العالمين.

لم تستطع الذهاب لعملها اليوم فلم تعد تقوى على فعل شيء واحد، ملقاة على الفراش تتأمل سقف غرفتها لتجد صديقها يهبط عليها من السقف بأجنحته السوداء ويستلقي بجوارها محاولًا طمأنتها، فنظرت له في حيرة بوجه حزين تتوسل إليه بأن يسمح لها تلك المرة بالمجازفة فيمتعض على الفور مؤكدًا رفضه وهو يصرخ في لوم:

_ كل اللي إنتي فيه ده بسبب إهمال كام يوم، مابالك بقى لو كلمتيه ولقيتي الرفض في وشك، إنتي ليه مش بتتعلمي أبدًا وتبطلي محاولات فاشلة؟!

تعلم أنه غاضب من أفعالها الهوجاء حد السماء ولكن ما عاد بيدها حيلة سوى ذلك الخيار وهو أن ترد على رسائله أخيرًا وتبحث عنه بشكل مباشر فطاقة صبرها نفدت ولم تعد قادرة على صخب علامات الاستفهام بداخلها لتجد نفسها تجيبه بتوسل:

_ المحاولة دي بس، أنا عارفة إنك خايف عليا زي كل مرة، بس أنا حاسة إنه مختلف ومش زي اللي قبله ويستحق المجازفة، محاولة واحدة بس ولو فشلت أوعدك مش هكررها.

أدار لها ظهره ولم يجبها وتركها تفعل ماتريد فأمسكت هاتفها على الفور وأرسلت له رسالة

(إزيك؟

إنت فين؟

أنا قلقانة عليك، ممكن تطمني؟؟)

وضغطت زر الإرسال سريعًا قبل أن يوقفها صوت صديقها الخيالي اللحوح المتشائم.

مرت ساعة، اثنين، ثلاثة، أربعة

دون رد، بل لم يقرأها من الأساس تحول بعضًا من حزنها لغضب مشتعل هل تجاهل رسالتها بالفعل؟ كيف تجرأ؟!

تعلم بأنها قللت من مكانتها بتلك الحماقة، وتستحق كل كلمة لوم تسمعها الآن، نهضت على الفور قبل أن تفقد عقلها وقررت الخروج، إلى أين؟ لا تعلم هي فقط تريد بعض الهواء بعد أن نفد في غرفتها.

***

الساعة الثانية ظهرًا

إتكأ مصطفى على الوسادة محاولًا النهوض من رقدته التي دامت لساعات طويلة، شعرت والدته بحركته فتوجهت نحو غرفته على الفور لتجده قد استعاد بعضًا من وعيه وهدأت حرارته قليلًا، سألها بصوت خافت وهو ينازع وجع رأسه ودورانها:

_ أنا نمت قد إيه؟

_ يعني بقالك يومين وأدينا في التالت، أنت حاسس بإيه دلوقتي؟

_ كويس بس دماغي تقيله ومصدع شوية، هو موبايلي فين مش لاقيه؟

حينها فتحت فاطمة أحد أدراج الكومود بجاوره وأخذت الهاتف وأعطته إياه

_ أهو، بس أنا قفلاه.. رن كتير أوي وأنا زهقت منه فقفلته، وعمومًا أنا كلمت دكتورة سلمى وبلغتها بحالتك وهي كتر خيرها قدرت ظروفك ونزلت الشغل مكانك.

لا زال وعيه مهتزًا يستمع لكلمة ويفوت الكثير، كل ما استنبطه من حديثها هو أنه مريض وهاتفه مغلق.

أمسك الهاتف وضغط زر الفتح فأضاءت شاشته على الفور وبدأ في هيكلة بياناته في ثواني حتى أصبح جاهزًا للاستخدام.... وما إن التقط الهاتف شبكة الواي فاي حتى تلقى صفير الرسائل الواردة فضغط ليجد الكثير من الرسائل أمامه التي سيتجاهلها الآن لحين وقت آخر إلا من اسمها، عندها لم يتمالك نفسه.... كاد يطير فرحًا ففتح رسالتها على الفور

(إزيك؟

إنت فين؟
أنا قلقانة عليك، ممكن تطمني؟)
توجه إلى أمه يسألها سؤال قد أجابته من قبل ولكنه لم يدركه
_ هو أنا تعبان ونايم من أمتى؟
_ ماقولتلك يومين وإنهارده التالت.
_ يا نهار أبيض تلات أيام من غير ياسمين!!!!
_ صحيح هي مين ياسمين دى بقالك يومين بتهلوس بيها؟
_ مش مهم.
نهض سريعًا تاركًا الفراش وقد نسي ألم رأسه ودورانها وكأنها غير موجودة من الأساس فقد أفقدته رسالتها رأسه بأكملها وأنسته كل شيء ليجد نفسه يقفز على الأرض من فرحته كفؤاد المهندس وهو يقول " المكنة طلعت قماش ".
نعم أخيرًا أفصحت عن وجودها، بل وقلقت عليه كاد عقله لا يصدق، ظل يقرأ رسالتها كثيرًا ليتأكد من حقيقة وجودها، هي بالفعل.... أخيرًا خرجت عن صمتها وأجابته، شكر مرضه كثيرًا كم هو ممتن له، لولاه لظلت إيناس تراقب في الطرف الآخر صامتة، فرسالتها لم تنبع سوى من قلقها بسبب غيابه، شكرًا أيها القلق يا محرك الساكن.. أخذ حمام بارد سريع ينعشه ويقلل من حرارته المتبقية وابتلع أدويته بأكملها وسحب ثلاثة زهور من الياسمين بين تعجب والدته والتي حاولت منعه من الخروج حتى لا ينتكس فطمأنها بأنه لن يغيب كثيرًا، سيقوم فقط بشيء هام ويعود على الفور، أجابها وهو يمسك بهاتفه ويرسل رسالة لإيناس....

***

كانت إيناس تدور في الشوارع بسيارتها دون وجهة حقيقية تبلغها، وكأنها تدور في دوائر مفرغة تنظر إلى هاتفها الساكن وتزداد غضبًا، ذلك الغضب النابع من فشل محاولتها التي أصرت عليها رغم تحذيرات صديقها، لم يغضبها غيابه بقدر فشلها هذا، وهنا رن هاتفها بوصول رسالة فاصطفت جانبًا لتفاجأ باسمه

على الرسالة فتحتها على الفور لتجد

(أنا آسف

كنت تعبان وعندي حمى

وحشتيني أوي).

وقع حروف رسالته كانت كالقنبلة التي فجرت كل مشاعرها المضطربة والمنزعجة والغاضبة والمشتاقة والمعجبة والصامتة والصارخة والمتيمة بياسمين الصباح.

عجز لسانها عن النطق، ظلت ساكنة والدهشة تحاوطها وتحاوط صديقها الذي اختلج صدره فجأة وكأن الميت قد عاد نبضه للحياة مرة أخرى.

هي لحظة واحدة ووجدت نفسها على كوكب الأرض بصحبته مرة أخرى وقد انقشعت تلك السحب السوداء وذهب الإعصار المدمر لحياتها طي النسيان، نبضات قلبها تتراقص على أوتار سعادتها، رسالته أنستها ساعات القلق التي مرت بها إثر اختفائه، في الحقيقة وجوده أنساها كل شيء مرت به.

لم تكن تحلم بأن يومًا ما سيخبرها أحد بأنه افتقدها، كانت تتمنى فقط من يتقبلها، الآن شعرت بالاختلاف، أزهرت شجرتها العطنة الفاسدة واستنشقت نسمات الربيع، لتجد نفسها لأول مرة تشعر بجمال تغريد العصافير من حولها.

نظرت للمقعد المجاور لها بفخر وهي تقول للخوف:

_ عليك واحد...

دقائق ووصلت إيناس إلى منزلها، وأطفأت المحرك ثم هبطت.... وفجأة باغتها مصطفى من خلفها بعد أن تخفى بين الأشجار في انتظار عودتها، فأجفل قلبها بوجوده لتجد بين يديه ثلاثة زهور ياسمين وهو يقول بصوت رقيق يشفي علتها " وحشتيني " فالتقطتهم على الفور منه بوجه خجول ولم تعقب ثم هرولت للداخل بعد أن امتلكت العالم بأسره في ثلاثة أزهار ياسمين معطره بعطره الآسر.

(٩)

على الرغم من أنهما لم يصبحا صديقين على الفيسبوك بعد.... إلا أن صندوق الرسائل يخبأ الكثير، أكثرها من مصطفى أما إيناس فكانت تكتفي بالقليل من الكلمات والكثير من الوجوه التعبيرية التي تضعها موضع الردود على رسائله، كان الخوف ينازع ببسالة على العرش ولم يتركها تفلت من بين يديه لذلك سمح لها بالقليل من الردود فقط حتى لا تسوء سمعته ويلقب " بالمتسلط " وحينها ستنجذب لغريمه الحديث وتهرب منه، لذلك أخرج بعض الكروت من حوزته ليخدعها وهو يظهر سلامة نيته أمامها.

أما مصطفى فلم يتوانَ في الحديث معها مكتفيًا وراضيًا بردودها القليلة، يكفيه ما وصل إليه من تقدم حتى الآن بعد أن باتت تجيب رسائله بعد صمت طال أيام ولم تقذفه بسهم الحظر حتى الآن!.... بل قبلت بدعوته وتركته يغرق في بحر إعجابه إلى أن وصل حد الصبو.

إيناس الآن تعيش أبهج لحظات حياتها محاطة بحلم تخطى سقف أمانيها، بينما كابوس جسدها الهرم الملقى على الأرض بين حوائط من العزلة يتلاشى، فلم تعد وحيدة بعد الآن بل هناك من استطاع اختراق حوائطها... نعم، بطلها المغوار الذي يصارع وينازع من أجلها، ليس كالمحاربين الكسالى الذين رأتهم وهم يفروا من أمامها خلف الثرثارات مدعيات الكمال .

أصبحت منشورات الخرائط التي تحوى خروجاتها مع رانيا مؤخرًا توضع في صندوق الرسائل وليست على العام، لتصبح دعوة مباشرة بلقائه في تلك اللعبة التي صنعها مصطفى وبدأت تألفها إيناس بل وتسعد بها، نظراته وابتساماته هي المحفز الوحيد لتلك الخروجات، كلما لمحته في مكان ما قلبها يقفز ويقفز..... تتلاقى الأعين ويتبادلا الابتسامات في سعادة كانت تلحظها رانيا في لمعة عينها مؤخرًا دون أن تعرف سببها.... كم حاولت معها بشتى الطرق لتعترف لها إيناس بما تخفيه عنها إلا أن أنها أصرت على إخفاء سرها في جوفها حتى لا تطوله الأيادي الآن وتعبث بحلمها الوردي، مستغلة انشغال رانيا بالتجهيزات الأخيرة فتغير

مجرى الحديث لتلقيه أمام حفلة الزفاف التي لم يعد أمامها سوى أسبوعين ولم يعد هناك وقت لتتضيعه.

فما يحدث بينها وبين مصطفى الآن كشعلة الشمعة التي تنير ظلمة فؤادها وتسعده، لذلك خبأتها حتى لا تطولها الرياح الخفية فتطفئها.

***

كانت الأيام الأخيرة في تحضيرات الزفاف أشبه بمعركة من التنظيمات التي لا تنتهي ولا هدنة تسكنها، الجميع يقاتل نسيان أدق التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة فالكل يخشى أن يسقط منه أقل تفصيله رغمًا عنه فيتجاوزه الكمال بسخرية على نقصانه.... فيجب أن يكون كل شيء مثالي في أبهى صوره، الجميع يسعى للنجومية، وخوفهم من الفشل ومكانتهم الاجتماعية يؤرقهم لتنشغل معهم إيناس في هذا الصخب وتنجرف في المهام والتفاصيل التي لا تنتهي.

وفي إحدى ليالي الأيام القليلة المتبقية اقتحمت فريدة غرفة ابنتها كالعادة دون أن تطرق بابها أو تستأذن، فقواعد الإتيكيت تشغلها في أدق التفاصيل الحياتية ماعدا اقتحام حياة ابنتها، كانت إيناس في تلك اللحظة مستلقية على فراشها تمسك بالتابلت وتبحث بين تصميمات وموديلات فساتين السهرة الجاهزة في محلات الماركات العالمية فلم يعد هناك وقت لتصميم واحد بذوقها، ومن بالأساس يقبل بذوقها؟! فاضطرت اللجوء لتلك الفكرة وهي تفاضل بينهم لتختار في النهاية واحدًا يناسب ليلة زفاف رانيا، لتجد في تلك اللحظة والدتها تقف فوق رأسها وتمسك بيدها فستان سواريه بلون الأصفر الكناري طويل ومتصل بذيل من التل المطرز، نهضت إيناس واعتدلت في جلستها بعد أن تبصرت أمرًا كان يقلقها، لتجد فريدة بوجهها المتهجم ونبرتها الآمرة وهي تضع الفستان على الفراش بجوارها وتصدر فرمانها:

_ هتلبسي الفستان ده في الفرح.

_ بس أنا لسه بدور!!!

_ بدوري على إيه؟! أنا مستحيل هسيبك تلبسي على ذوقك المقرف ده، هو

مافيش غير ده أنا حجزتهولك من فترة طويلة من باريس ولسه واصل حالًا.

فنظرت إيناس للون باشمئزاز وقالت ببعض التردد:

_ طب واللون؟!

_ اللون جميل جدًّا وعاجبني غير ألوانك الكئيبة، وهو ده اللي هيظهرك قدام المعازيم وكمان لازم تبقي في نفس جمال رانيا ماتقليش عنها أبدًا والموضوع منتهي مافيهوش نقاش.

ثم سحبت نفسها وغضبها الدائم وغادرت الغرفة جاذبة الباب خلفها بشدة مصدرًا صوتًا أفزع إيناس.

نظرت إيناس إلى الفستان الملقى أمامها بيأس، لا بديل منه، كرهت لونه، تصميمه، تطريزه وكل تفصيلة به حتى نبرة والدتها الآمرة دومًا ولكن في النهاية لا خيار أمامها سوى القبول حتى لا تنال السخط والطرد من فردوس عائلتها الكريمة، وعلى الرغم من كرهها له إلا أنه أراحها من حيرتها والمجازفة باختيار فستان على ذوقها البائس فلا ينال سوى النقد السيء الذي تخشاه دومًا من عائلتها فمنذ أن أعلنت موهبتها في حب الأزياء وتصاميمها لم تنل منهم سوى النقد اللاذع، حتى اضطرت لممارستها في الخفاء بعيدًا عن أرائهم المزعجة على ورق أبيض لاغير، هكذا قبلت دومًا بخيار والدتها لتأتي الغلبة لها على الدوام وماكانت تفعله الآن في اختيار فستان بنفسها ماهو إلا صحوة الموت.

في النهاية أراحت رأسها وأغلقت الصفحات في صمت ثم ذهبت على الفور لرسائله.... الآن هي معه.... بصحبته هو فقط.

***

لم تعد تبالي بأوامر والدتها، لم تعد تشعرها بالغضب كالسابق، لن تلجأ لبخاختها التي نادرًا ما تلجأ لها الآن، يكفيها وجود مصطفى بحياتها فهو الوحيد القادر على أن يبدل كل أحزانها وغضبها لسعادة صنعها برسائله ومقتطفات الصدف المدبرة في لعبة الملاحقة وعطر الياسمين الصباحي، كبحيرة من الماء العذب المترقرق التي تسبح بها فتمحو تلك الشوائب العالقة بروحها وحياتها

وتطهرها من الدنس والخطايا التي اقترفتها، لتجد نفسها تصنع بيتًا صغيرًا تسكنه مطمأنة بصحبته وقد طمست كل لحظات البؤس واليأس والحزن والغضب وكأنهم لم يخلقوا بحياتها.

تتجول بداخله، تجد كل حوائطه ممتلئة ببراويز تحفظ مشهد ما، رسالة ما، لقاء ما والياسمين شاهد عليهما..... بينما تستمع لأغنيتها المفضلة بشغف وهي تلمس كل كلمة تسمعها بقلبها.

عشقت بيتها الجديد الذي أسسته بصحبة حبيبها السري، أحبت ألوانه المبهجة حتى لو كرهت ارتدائها، أحبت دفئه وصغر حجمه حتى لا تبعدها المساحات الكبيرة عنه، رسمته كما تحب أن ترسم بيتها بمذاقها هي دون فرض سيطرة من والدتها وتدخلات من أصحاب الذوق الرفيع في عائلتها، ودون أن يدخل في دائرة الكمالية في كل شيء، فقط بيت بسيط.... وهي متيقنة بأن ذوقها لن يعجب أحدًا منهم، فمن سيعجب ببيت خشبي صغير أمام بحيرة يتلألأ سطحها بأشعة الشمس وتحيط به الخضرة من كل مكان، بيت بغرفة واحدة تكفي أن تكون شاهدة على لقاء الأحبة، مقعدان وثيران أمام التلفاز، سفرة صغيرة وموقد يشتعل بالحطب، رسمت كل شيء ببساطة دون أدنى تكلف كأنه قطعة من أفلام ديزني قبل أن تطأ الأرستقراطية أرضهم فتدنسها باستعلاء، بساطة لم تقابل سوى الكره من كل أفراد عائلتها، بساطة لم يعتادوا سماعها فقط وليس تنفيذها، بساطة إن فكرت أن تنفذها في واقعها لألقوها في جوف سمكة قرش في بطن المحيط وتخلصوا منها.

في النهاية تغاضت عن أمر الفستان وقررت دعوة المحب، فنشرت على صفحتها دعوة لزفاف رانيا وآسر ودونت التفاصيل واسم القاعة وعنوان الفندق ثم كتبت دعوة عامة للجميع في باطنها دعوة خاصة لك أنت وحدك، فأغلب أقاربها وأصدقائها قد أرسلت لهم الدعوات بالفعل لمنازلهم ولأيادي أفراد العائلة الكريمة، ولكن تلك الدعوة لشخص رغبت في وجوده بقربها في هذا اليوم، لتجد نفسها تعود للعبتها على الملأ مرة أخرى وهي ترمي الطعم له ثم تسحب صنارتها

بتأني لتجده دائمًا معلقًا بها هي فقط دون سواها.

***

احتفلت رانيا بآخر ليلة لها في العزوبة وودعتها بصحبة صديقاتها وفتيات العائلة على رأسهم إيناس في حفلة صاخبة مليئة بالصرخات الحماسية أقامتها في أحد الملاهي الليلية، وعلى الرغم من أن هذه الأنواع من الحفلات لا تستهوي إيناس بسبب صخبها إلا أنها لم تملك سوى الذهاب والمشاركة، تصنعت البهجة بالحفل واستمتاعها بالأغاني مثلهن وهن يتراقصن من حول العروس وهي تواكب وتيرتهن في الرقص، جميعهن يشربن ويحتفلن ولكنها فضلت البقاء بوعيها حتى يمكنها القيادة وإيصال العروس سالمة لتنعم بليلة زفافها في الغد بدل قضائها في الحبس بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول، وعلى الرغم من أن الحفلة ليست من نوعها المفضل إلا أنها كانت تقضي وقتًا من أسعد أوقاتها لسعادتها برانيا وفرحتها المرتقبة، ذلك الحلم البعيد الذي بات على مرمى البصر فلم يعد أمامها سوى سويعات قليلة على تلك الليلة المنتظرة، رقصت معها والتقطت الكثير من الصور لتصنع أجمل ذكريات لهذا اليوم الذي مع انقضاء ساعته الأخيرة ستركلها العزوبية من عالمها إلى الأبد.

***

في صباح يوم الزفاف كان كل شيء على أتم استعداد كما خطط له دون زيادة أو نقصان وأي نقصان يجرؤ على الظهور الآن!!

كان الجميع يعمل كخلية نحل ليظهر المشهد في أبهى صوره، بينما العروس قضت صباحها في أحد أجنحة الفندق تستعد لهذا اليوم وسط مصفف الشعر وخبير التجميل ومعها فوتوجرافر يوثق كل لحظة بصور وفيديوهات لا تنتهي، ومن حولها الكثير من الصديقات وفتيات العائلة وقد قررن ارتداء نفس الفستان ليصبحن جميعهن وصيفات العروس ماعدا تلك الفتاة المختلفة دائمًا إيناس التي ترتدي ذلك الفستان المختار بواسطة والدتها فلم تكن يومًا تقدر على أن تعصي أوامرها وتختار لنفسها ما ترتديه، وحتى لو استطاعت لما اختارت ذلك الفستان

الذي ترتديه الفتيات لألوانه البراقة ولكن مقارنة لما سترتديه اليوم فهو أفضل بكثير، تركتهم إيناس وسط صخبهم ومزاحهم وذهبت لتعد نفسها لتلك الليلة فهي منتظرة بالنسبة لها أيضًا وبها سيتحقق لها حلم لطالما تمنته.. لذلك يجب أن يكون مميز، فهناك من التقط الطعم الذي ألقته سابقًا بل وابتلعه برضا على الفور دون تفكير وهذا أسعدها كثيرًا.

في المساء اشتعلت المشاعل وأطلقت الألعاب النارية لتنير السماء التي تعلو الفندق كلها في ليلة ليس لها مثيل تأتي في العمر مرة واحدة، فتطل رانيا من بين المشاعل بأبهى صورها وأجمل إطلالاتها على الإطلاق، كانت في غاية الجمال كما تمنت في ليلة ستتحاكى عنها النجوم والأقمار، سيتحاكوا عن تلك الفتاة التي تنافسهم جميعًا الآن.... كانت تسير وسط أعين المدعويين المشدوهة والوجوه التي يبدو عليها الإعجاب الشديد والأعناق المشرئبة، الجميع منبهر بإطلالتها... لقد كانت تلك النظرات تحديدًا ما تسعى خلفه، كل تلك الأيام وكل تلك التجهيزات كانت لكي تحصل على تلك النظرة التي تعلو وجوههم الآن، وكيف لا وهي ملكة العائلة؟!!....

فيجب أن تكون ليلتها ليلة تتحاكى بها أفواه العائله لعقود وعقود، وخصوصًا عائلة آسر ووالدته التي لا يعجبها شيء على الإطلاق.

كانت رانيا تسير بخطى واثقة بعد أن أراحتها نظراتهم فلم تعد متوترة بعد الآن فكل شيء مثالي كما أرادت، تقدمت بصحبة والدها وهي تتأبط ذراعه في ممر مليء بالزهور البيضاء من على الجانبين مبتسمة كعادتها ابتسامتها الساحرة بينما والدتها تشاهدها ودموع الفرح تملأ عينيها وهي تصفق بحرارة فأخيرًا حلمها بفرحة ابنتها تحقق ورأتها تطل بالأبيض وأي أبيض!!

ذلك الفستان الذي جهز لها خصيصًا من أرقى بيوت الأزياء في باريس في أسرع وقت ليأتيها مرصع بالكريستال وذيل طويل تخطى الثلاثة أمتار يفترش الأرض بأكملها من خلفها.... تفاخرت والدتها به وهي تذيع ثمنه هنا وهناك بينما والدة آسر تتفاخر بما كلفتها تلك الليلة من أموال وعناء في التجهيزات،

الكل يتباهى ويتفاخر ويبرز أجمل ما لديه، بينما والدة إيناس تراقب المشهد من بعيد بوجه متوتر يحاول إخفاء باطنها الحانق الغاضب ليظهر وجهها البشوش المبتسم، فيصبح في النهاية متقلص بينهم، كانت بداخلها تحترق كالنار في الهشيم وهي تنظر لابنتها باستياء متساءلة:

كيف لا تشعر ببعض الغيرة؟

منذ متى وهي تشعر من الأساس؟!

فهي الوحيدة التي تشعر بتلك اللعنة التي حلت عليها وذلك البؤس الذي أنجبته من رحمها.... كانت يجب أن تكون هي والدة العروس اليوم، كانت يجب أن تحظى هي بتلك الليلة الرائعة وتفرح بابنتها وليست أختها، لعنت حظها الأعسر الذي لطالما لحقها، وتذكرت الأيام الماضية التي تعيد نفسها وهي تنظر لوالد رانيا الذي يسير بجوارها مبتهج، الجميع سعيد إلا هي تتظاهر فقط وتعوض ذلك الحرمان بأحاديثها مع المدعويين وتبرز أجمل ما لديها ليتحاكى عنها الآخرون كما يتحاكوا عن العروس ووالديها... ألا يحق لها أن تحظى بقدر من التقدير والأحاديث الجانبية عنها وهم يتحاكون عن جمالها وثرائها الفاحش؟؟ فلا بأس أن تنال حصتها من الإعجاب والثرثرة.

فهي تحاول جاهدة أن تظهر كل ماهو جميل لتغطي جانبها القبيح المتمثل في ابنتها الوحيدة دومًا.

وصلت رانيا ليد آسر الممدودة بشوق ثم احتضنها بشدة وقبل رأسها وسط تصفيق حار وصافرات يطلقها الشباب، ومن ثم انطلقت الحفل وسط حماس وصخب المدعويين، وبينما إيناس كانت تقف بجوار والدتها لمحت وجهها المتقلص... هي تعي جيدًا السبب، ولكن اليوم تحديدًا لم يعد هذا السبب يشعرها بالضيق كما اعتادت فاليوم ستحصد نصيبها من السعادة الخاصة بها....

***

انتظر مصطفى ذلك اليوم على أحر من الجمر فاليوم يوم لقائه الأول معها بعد إعجاب ومراقبة دامت لأسابيع.... ولكن تلك الليلة ليلته الأولى كحبيب، تأنق ببدلة استعارها من والده وكذلك حذاء أنيق يليق بها، لم ينسى الساعة التي كانت ملك والده أيضًا لينتهي بعطره ومفاتيح سيارته حتى أن والده سخر منه وعرض عليه أن يذهب هو بدلًا منه إلى تلك المناسبة السعيدة التي لا يعرف عن تفاصيلها شيء، ولكن التغيير الذي طرأ عليها منذ أكثر من شهر يدل على وجود أنثى في حياته ولكنه لم يفصح عنها بعد، ودع مصطفى أبويه وانطلق نحو المصعد وهو يتأمل نفسه في مرآة المصعد ويعدل من تسريحة شعره وربطة عنقه إلى أن وصل المصعد للطابق الأرضي وفتحت الأبواب ليجد أمامه دعاء ابنة جارهم وصديق والده أيضًا، تفاجأت به وقد لاحظت مظهره وأعجبت بأناقته فقالت في انبهار ووجهها يشع سعادة برؤيته:

_ إزيك يامصطفى؟

_ أنا تمام إزيك إنتي يا دعاء؟

لم تهتم بالإجابة عن حالها وسألت:

_ شكلك رايح مناسبة سعيدة؟

_ أه فرح واحد صاحبي... عقبالك.

_ ميرسي يا مصطفى... صحيح أنا كنت محتاجة منك حاجة كده.

_ طب ممكن بعدين علشان أنا مستعجل دلوقتي، إنتي معاكي رقمي إبقي كلميني.

ثم غادر دون وداع ليلحق بحفلته أمام عينيها التي تلاحقه دومًا منذ الصغر.

***

وقفت إيناس في الصفوف الخلفية من المدعويين بينما الجميع يلتف حول العروسين وذلك المطرب المشهور الذي جاء ليحيي الحفل... فتلك كانت مفاجأة والدة العريس لهم وضربتها القاضية أيضًا، لتجيب على تفاخرهم المزيف في نظرها فبالتأكيد لن تترك عائلة العروس هي من تظفر في النهاية، لتفجر عصمت قنبلتها التي خبأتها للحظة الأخيرة.

كانت إيناس منشغلة بالمدعو الخاص بها تراقب هاتفها من حين لآخر منتظرة رسالة بوصوله، لم تعد تهتم بالليلة كما كانت دومًا تهتم بتفاصيل سعادة رانيا إنما اليوم كانت سعادتها الشخصية تفوق سعادتها برانيا، فرانيا الآن سعيدة بصحبة آسر ليحين حظها هي الآن، ظلت تخطو هنا وهناك بتوتر وهي تراقب أبواب القاعة من حين لآخر وفي ذات الوقت تحاول إخفاء توترها حتى لا يلحظها أحد.

وهنا بدأ المطرب يغني أغنية

Sway

وعلى أنغامها طوق العريس عروسه وهما يتراقصان في تناغم بينما إيناس وقفت تشاهدهما من بعيد من شق ضيق رفيع يتخلل الهواتف المحيطة التي توثق ذلك المشهد الرائع، كانت تتمايل على كلمات الأغنية بنعومة ورقة في استمتاع، وهنا دخل مصطفى القاعة ليجدها مباشرةً أمامه على بعد بضع أمتار تتمايل على كلمات أغنية كأنها فصلت للحظته الآن

Other dancers maybe on the floor , but my eyes will see only you

Only you have that magic technique , when we sway I go week

أمسك هاتفه وهو يتأملها، ويديه ترتعش في ارتباك وأرسل لها رسالة، تلتقطها إيناس على الفور من رعشة هاتفها فتفاجأ به وقد أرسل لها " أنا واقف وراكِ "، استدارت بسرعة لتجده يقف على بعد خطوات منها، ارتعد قلبها بشدة وكأنه صعق للتو وهي تخطو إليه ببطء بسبب ذيل فستانها المزعج، كانت تسير

نحوه وتراقب كل من حولها في آن واحد لتتأكد من أن الجميع مشغول ولا أحد يراها الآن حتى لا تبدأ الألسنة في التساؤل والأيادي في التدخل، وما إن وصلت أمامه حتى سحبها مصطفى على الفور دون كلمة واحدة خارج القاعة وذهب بها إلى شرفة مطلة على النيل لينفرد بلحظته معها، ألقي نظرة على الشرفة قبل أن يدخلا فوجدها خالية من الزوار فدخلا في الحال ليجدا نفسهما بعيدًا عن الضجيج والصخب بمفردها بصحبة النيل والسماء بنجومها، تأملا المشهد بصمت وارتباك.

الكلمات تبخرت والأيادي ترتعد كالقلوب، ورغم سقيع الهواء الذي يلامسهما إلا أن دفء مشاعرهما حوله لنسمات عليلة تشهد على أسعد لحظاتهما معًا، نظرت إيناس بجوارها لتجد صديقها يراقب في صمت فلم يكن ليسمح لها بتلك اللحظة بدونه، أشاحت وجهها عنه ولم تعره اهتمامًا فكل اهتمامها الآن يدور حول ذلك الشاب الواقف بجوارها، فشل مصطفى في جمع الكلمات فبادر محاولًا تخطي توتره الذي يستحوذ عليه الآن قائلًا:

_ المنظر حلو أوي من هنا.

ضحكت إيناس بارتباك وهى تهز رأسها إيجابًا

_ معلش أنا مرتبك شوية.

_ أه.

_ إنتي حلوة أوي إنهارده.. أقصد زي كل مرة الصراحة إنتي دايمًا حلوة.

ابتسمت ووجها يشع بالحمرة دون تعقيب، فأكمل هو:

_ بس الفستان ده مش شبهك؟

نظرت له إيناس بتعجب وسألت:

_ يعني إيه مش شبهي؟!

ارتبك مصطفى أكثر وهو يقول:

_ مش قصدي أقصد إني أنا عارف إني لونك المفضل الإسود.

_ أه فعلا بس ده اختيار ماما.

_ مش مهم إنتي بتحلي أي حاجة تلبسيها.

_شكرًا.

_ إيناس أنا كنت عايز أقولك حاجة بس مش عارف هو أنا... أنا... ثم تنهد بصوت عالي وأغمض عينيه وأكمل.. بصي أنا بحبك.

شعرت إيناس أن قلبها انفجر وثقب ضلوعها للتو يرفرف بجناحيه محلقًا كطائر حبيس قفص وجد مخرجه، هل هكذا يكون وقع تلك الكلمة على القلوب، لم تتمالك نفسها ولم تجد ردًا تجيبه به وكأن جوفها ابتلع كل الكلمات.... وقفت فقط في ذهول ودهشة فأردف هو بارتباك لا يقل عنها:

_ أنا فاجأتك أنا عارف، بس أنا ماصدقت ألاقي الفرصة دي علشان اعترفلك بحبي ليكي، مش هنكر في الأول كان إعجاب شديد بيكي ومع كل يوم بيمر بينا بدأ حبي ليكي يظهر أكتر وأنا قررت ماعديش أول لقاء بينا من غير ما اعترفلك بحبي ده.

مع كل كلمة ينطق بها كان توترها يزداد أكثر، لتجده يكمل:

_ أنا مش عايز رد منك دلوقتي، أنا كان كل همي إنهارده إني أشوفك واعترفلك بحبي.

_ طب أنا اتأخرت ومش عايزة يحسوا بغيابي فمضطرة أمشي دلوقتي.

_ بسرعة كده؟!

_ معلش لما أرجع هكلمك.

_ طب ممكن طلب أخير، ممكن نتصور سوا صورة للذكرى لو مش هيدايقك.

_ أوك، بس تبعتهالي.

_ حاضر.

وقف بجوارها وخلفهما النيل يحتضن السماء ونجومها وهو يبتسم لكاميرا هاتفه الأمامية بينما هي تنظر له نظرة لم تعهدها من قبل نظرة يملؤها العشق... نعم فهي أيضًا تحبه.

هكذا وثقوا ذكرى تلك الليلة البديعة كذكرى أول لقاء حقيقي يجمعهما عن قرب يحمل حوارًا واعترافًا بالحب، هكذا تفتحت زهورها..... و لم تعد إيناس ساكنة جزيرة مهجورة بعد الآن بل هناك من يسكنها معها بكل حب... وبرغبة كاملة منه دون دفعة من أيادي خلفية، هو فقط من طرق الباب ودخل لعالمها يبحث عن أجمل مافيه لا أقبحه، عادت إيناس بعدها إلى القاعة ليست راكضة على قدميها وإنما تطير وتحلق بين تلك النجوم التي آنستها خلال أسعد لحظات حياتها، إذًا هكذا يكون إحساس الحب الذي لطالما تحاكوا عنه ولم يصلها سوى بعض أوصافه، فتكتشف أن مذاقه أروع بكثير، منذ اليوم أصبحتي مثلهن كما يريدونك مقبولة ومحبوبة والأهم مكتملة بعد أن وجدتي نصفك الآخر الذي يكملك، منذ اليوم لم تعدي وحيدة ملقاة في صحراء بعيدة تعصف بيكي الرياح يمينًا ويسارًا إنما أنتِ بصحبة مخلصك الآن، رجلك وملاذك وحبيبك.

***

(١٠)

انتهى الفرح بأسعد لحظاته وعادت إيناس لمنزلها وما إن وصلت حتى استقبلت رسالته على الفور:

"إنهارده أجمل وأسعد يوم في حياتي "

يتبعها صورتهما سويًا، لم يكن الأجمل له بمفرده بل لها أيضًا، اليوم فقط شعرت بأن قلبها ينبض بصدق، لم يعد كتلة من الثلج بعد الآن بل انقشعت ثلوجه وشعرت أخيرًا بالدفء، دفء طال انتظاره حتى بات محال المنال لتجده اليوم بين يديها وبأجمل مما تمنت يومًا، يأتيها بكل صدق ورغبة طامعًا فقط في نيل رضاها لا أكثر، فقد أهداها القدر حظها أخيرًا مما تمنت يومًا لتركل الوحدة وتودعها وتهدأ أصوات رأسها والتي لم تتوانى في لومها على وحدتها لحظة واحدة، ولكن منذ اليوم كل شيء تغير وحل عهد جديد...

لم تكن رانيا فقط من تحظى بشهر عسل بل إيناس أيضًا التي تبدل عالمها منذ تلك الليلة، بعد أن باغتها حب مصطفى، الذي رقصت بصحبته التانجو تحت الأمطار وسط ساحة برج إيفل بين نظرات العاشقين وغيرة المعجبين، لتجد نفسها تتمايل بين ذراعيه في تناغم، هكذا كان القدر عادلًا معها فما إن سلبها صديقتها الوحيدة لتبدأ حياتها بصحبة زوجها حتى وهبها هي حظها في صحبة أفضل، صحبة تكمل كل ما ينقصها.

زادت رسائلهما وباتت بطول اليوم بأكمله فلطالما مستيقظان هاتفهمها لايكفا عن الاهتزاز، ولا ينتهيا إلا عندما يسقط أحدهما في النوم ليتبعه الآخر متلاقيان في أحلامهما السعيدة.

إيناس تعيش أزهى عصورها بوجوده، بات وجهها مبتسمًا دائمًا، حتى بدأت والدتها تلحظ تلك الابتسامة ولكن لم تعقب، تركتها ربما يومًا تأتيها بخبر سعيد تنتظره منذ أمد.... فيكفيها أن تنقذها من وصمة العار التي تلحق بها لا أكثر.

مرت أيامهما سويًا بين الرسائل وزهور الياسمين الصباحية وسعادة سكنت القلوب لا تفارقها، لم تكن تحظى بلعبة التتبع كثيرًا، تعويضًا لتلك الفترة التي كانت تخرج بها كثيرًا بصحبة رانيا، كانت تقضي يومها بين العمل وصحبة رسائله فقط، بينما مصطفى لم يختلف عنها كثيرًا، لم يعد يقابل صديقيه كما اعتاد، كان يقضي وقته فقط بصحبة رسائلها ورسالة الماجستير والعمل، وما إن ينتهي حتى يقص أحداثه لها تفصيليًا فتبادله هي تفاصيل يومها أيضًا.

وفي أحد الأيام هاتفه مينا صباحًا وهو في العمل وبدا عليه الانزعاج:

_ ألو...

_أيوه يا مينا... أخبارك إيه؟

_ أخبار إيه يا مصطفى إنت بتستهبل!!!...

_ في إيه ياعم مالك بس؟! شكلك مدايق أنا عارف إني مقصر معاكوا الفترة دي بس والله...

فقاطعه مينا ببعض الحدة:

_ والله إيه بس..... بكره آخر يوم لتسليم البحث اللي حضرتك ناسيه يا باشا.

_ يوووووووه أنا آسف والله نسيت خالص.

_ إنت شكلك نسيت نفسك الفترة دي، هقول إيه للدكتور دلوقتي، أنا خلصت الجزء بتاعي من زمان وقاعد مستني حضرتك وإنت ولا هنا وبعتلك رسالة من يومين وحضرتك شوفتها ومرديتش.

_ خلاص ياعم هشتغل عليه إنهارده وبالليل هيكون عندك ماتقلقش.

_ طب فوق كده وحيات أبوك علشان أنا مش عندي طاقة أضيعها على كسلك ده ولا فلوس أضيعها في سنة جديدة.

_ماخلاص بقى يا كبير قولت هخلصه إنهارده وهبعتهولك فك بقى كده.

_ فكك إنت مني وإنجز بقى، والمرة الجاية هختار أي جروب أنت مش فيه، تكون ناس عايزة تشتغل مش زيك.

_ وأنا مقدرش أسيبك ياغالي والله ده أنت حبيبي.

أغلق مصطفى معه المحادثة وهو يعلم أنه بدأ يقصر في دراسته مؤخرًا وهذا الذي لن يقبله صديقه المقرب أبدًا فمنذ التخرج وهما يشقان طريقهما سويًا خطوة بخطوة حتى باتا يطمحان لحلم واحد ويخططان من أجله منذ تخرجهما بعد أن حصل مينا على إعفاء من الجيش وحصل مصطفى على تأجيل لمدة ثلاثة أعوام تبعها الإعفاء، ليستكملا رحلتهما معًا، وذلك الحلم المشترك إعتبره مصطفى دومًا هو التعويض عن فرصة التعين في الجامعة التي خسرها بسبب قلة نفوذه ونفوذ عائلته في هذا المجال، ليجد تعويضه من الله في صديقه مينا الذي شجعه على استكمال الدراسة لينشئا معًا معمل للتحاليل هكذا أرادا وهكذا كان حلمهما معًا.

انتهى يوم عمله وذهب مصطفى للكافيه المفضل الذي اعتاد الذهاب له حين يرغب في بعض الهدوء للدراسة، كان ملك أحد زملاء دراسته في المرحلة الثانوية بعد أن ورثه عن والده..... يتألف الكافيه من طابقين الأول مطعم صممه على الطراز الإسلامي من نوافذ أرابيسك ومقاعد خشبية ليقدم أطعمة شرقية ووجبات من المطبخ المصري والطابق الثاني كان يختلف كليًا فقد شيده على غرار كافيه مودرن بالطراز الأمريكي الحديث والديكور الملون لأصحاب اللمسة المستحدثة، وتلك كانت ركنة مصطفى الهادئة فقط يذهب إلى تلك المنضدة المفضلة له في الركن البعيد في الطابق الثاني ويجلس على أحد المقاعد وخلفه نافذة زجاجية كبيرة تفصله عن صخب الإزحام الذي يملأ الشارع الرئيسي، كان غالبًا إذا أزعجه المنظر يلقي عليه الستارة ليضفي على مجلسه بعض الهدوء، وفي الأوقات التي يرغب ببعض الصحبة يكشف الزجاج ويشاهد بأريحية.

وصل هناك وطلب مشروبه المعتاد عصير ليمون بالنعناع وضغط زر التشغيل في حاسوبه وبدأ في إعداد جزء البحث..... حينها وصلته نغمة رسالتها المميزة ففتحها على الفور

" بقالك ساعتين مش بتبعتلي رسايل!! "

فأرسل " وحشتك؟ "

فأرسلت وجهًا خجول.

فأراد أن يعفيها من الحرج وأرسل " عمومًا ياستي أنا في كافيه "كاريوكي" بخلص بحث مهم لازم أسلمه بكره "

" إيه ده يعني إنت بكره مش هتروح الشغل؟ "

" لا هروح بس متأخر شوية "

" طب وياسمينتى؟! "

" أوبااااا دى مشكلة كبيرة فعلًا... طب بقولك إيه ماتيجي نخرج سوا؟ "

" مش هينفع بكره خالص، رانيا راجعة بكره الصبح من المالديف ولازم أشوفها وحشتنى خالص في الأسبوعين دول، بص خليها يوم تاني "

" ماشي ياستي علشان خاطر عيونك، بس هنخرج بعدها أنا نفسي أوي أشوفك تاني من بعد الفرح وإنتي بتقوليلي أصبر... مش كفاية ولا إيه؟ "

" هفكر "

" وأنا هفضل مستني أهو بس ماتنسينيش "

" طب وياسمينتى صحيح، أنا كده أزعل هروح الشغل من غيرها إزاي؟! "

" هتلاقيها بكره في مكانها يا جميل ماتقلقيش وفي نفس الميعاد كمان أنا مقدرش على زعلك "

فأرسلت بعدها عدة قلوب حمراء بعد أن استعادت حقها في زهرتها اليومية المعطرة بعطر الحبيب.

تمنت أن تطول لحظات سعادتها ولا تنتهي أبدًا بصحبته ولكن إضطرت في النهاية تركه لينهي بحثه.

لتجد صديقها يجلس بجوارها وقد بدا متجدد على غير عادته هو الآخر، لم يعد يرتدي الأسود بل بدلة باللون الرمادي ليضفي على علاقتهما بعض التنوع المطلوب ويردع السأم، ففي ظل وجود غريمه لازالت المنافسة قائمة وعليه أن يبحث عن ما يجذبها نحوه فبالتأكيد لن يترك الساحة له، فتلك صديقة عمره

الوحيدة.... كيف يأتي ذلك الشاب ويخطفها منه في بضع أسابيع؟!!!

لذلك عمل على فكرة تقبله في حياتها وهو يستخدم معها رخصة النصح بدل من الإرهاب فلم تعد الأخرى تجدى معها نفعًا لذلك بدل لها جلده كالحرباء ليتكيف مع التغييرات الطارئة وبدأ في رسم مخطط آخر يخترق منه تلك الحياة.

هي الأخرى أعجبت بهذا التجديد فبالطبع لن تقبل أي أيدي تعبث بحبها الذي لطالما بحثت عنه حتى لو كانت تلك أيادي صديقها الوفي، لذلك من الجيد له أن يتصالح مع فكرة أن هناك من ينافسه على العرش الآن، ربما يجب أن يقتسمه معه برضا أيهما يحب أن يختار؟!!

قال لها وهو يجلس بجوارها ويخفي بسمة خبث:

_ هتحكي لرانيا؟

_ مش عارفة....

_ خايفة؟!

_ ما أنت عارف طريقتهم وأسلوبهم.

_ بس لازم هيجي يوم ويعرفوا ولا إنتي شايفة أنه مش مناسب؟

_ أكيد لا بس أنا مش جاهزة دلوقتي إني أقولهم على حاجة وبعدين إحنا لسه بنتعرف على بعض.

هو يعلم حقيقتها، فهي تخشى التصادم معهم، وترهبها فكرة العودة لوحدتها دون حبيب مرة أخرى.

_ خودي وقتك.... أنا بردو مش مستعجل أنهم يعرفوا.

كان يراه تهديدًا لعلاقته بها ولا يستساغه أبدًا إلا أنه مرغم على تقبله حتى لا يخسرها.

***

رن هاتف مصطفى الموضوع بجوار الحاسوب فقطع تركيزه بضوئه بعد أن عجز عن سماع رنينه بسبب تلك السماعات التي تملأ جوف أذنيه التقطه ونزع السماعات ليجد المتصل دعاء، تذكر آخر حديث دار بينهما منذ أسبوعين وهو في طريقه لحفلة الزفاف وأنها أرادت منه شيئًا حينها فطلب هو منها محادثته فيما بعد، لا يعلم لما ينتابه شعور بالضيق حين يلمحها أمامه أو يسمع صوتها ربما لأنها تجعله يشعر بتأنيب الضمير لأنه لا يبادلها نفس المشاعر، هي صديقة طفولة تشاركا اللعب سويًا مع باقي الأطفال لكن لا أكثر!!

ليجد مع مرور الوقت يزداد تقربها منه أكثر فأكثر ويستشعر في النهاية لمحة حب وتعلق في حديثها معه مما أثقل عليه محادثتها فيما بعد، فهو لا يشعر نحوها سوى بمشاعر تشبه الأخوة، لذلك قررأن يبتعد عنها حتى لا تزداد في التعلق به، ليجد نتيجة مافعله انعكست وصبت على رأسه، فهي بالفعل تعلقت به أكثر بل وأخذت مسار حياته مسارًا لحياتها أيضًا فقررت أن تدخل نفس الكلية لتلحق به في الجامعة لتصبح هي في السنة الأولى وهو في سنة التخرج وهكذا سيتسنى لها رؤيته عن قرب كما يحلو لها، وبعد مرور سنة تشاركا بها في نفس الكلية طلبت من والدها أن يطلب من والد مصطفى أن يجعل مصطفى يساعدها في بعض المواد الدراسية لصعوبة المقرر دون أن تذكر إلحاحها المسبق الذي كان مصطفى يتهرب منه دومًا.... ولكن بطلب الكبار لا يوجد مجال للهروب وعلى الفور بتلك الطريقة حصلت دعاء على رقمه بسهولة لتحادثه متى أرادت.

ظل واجمًا يراقب هاتفه بعد أن كتم الصوت وعزم على عدم الرد ولكنه كان يعلم أنها لن تهدأ من محاولة واحدة فهي لحوحة بشكل يصيبك بانفجار في شرايين المخ وبالفعل ما إن انهت الرنة الأولى حتى بدأت الثانية على الفور، كز على أسنانه من الغيظ وقد قرر الرد لينهي إصرارها ثم ضغط بإبهامه على الزر الأخضر أخيرًا وقال:

_ السلام عليكم...

_ وعليكم السلام.... إزيك يامصطفى؟

_ بخير يادعاء إنتي أخبارك إيه؟

_ بخير.. أنت مشغول ولا حاجه؟

" أيوه جدًا... ياريت ماتتصليش تاني" هكذا رد في مخيلته قبل أن يجيبها مغتاظ

_ لا أبدًا أنا كنت بذاكر بس، كنتي محتاجة حاجة؟

_ آه... أنا فكرت أقدم على الدبلومة اللي عملتها من سنتين فاكرها؟

_ الكيمياء الحيوية؟

_ اه.. عايزة أعرف الخطوات في التقديم والورق وكده.

مسح وجهه بتأفف وهو يهمس في سره " نفس الخطوات بالملي، يا أم الملل، مش بتزهق أبدًا "

_ ألو.. أنت معايا.

_ اه.. اه.. يابنتي بلاش صعبة ومتعبة.

_ لا.. أنا خدت قرار خلاص وأنت عارف إني في بينا حاجات مشتركة زي حبنا لنفس المجال.

ردد جملتها الأخيرة على طريقتها ببعض السخرية في ذهنه وهو يتخيلها نحلة تطن في أذنه بإلحاح ليتذوق عسلها رغمًا عنه، فيجيبها في النهاية لكي ينهي ذلك الطنين المزعج:

_ عمومًا براحتك.. أنا هبعتلك الخطوات في رسالة وربنا يوفقك، عايزة حاجة تاني علشان بس مستعجل وورايا بحث لازم أسلمه بكره.

_ إيه ده أنت رايح بكره الكلية أصلي أنا كمان هروح بكره علشان أبدأ الإجراءات بسرعة.. وممكن نتقابل أو نروح سوا؟

_ لا لا مش بكره أقصد يوم الأحد أنا نسيت بس.

تداركت كذبته من نبرة صوته فعدلت عن رغبتها على الفور وهي تقول:

_آه.. تمام ربنا معاك ويوفقك وأنا آسفه على الإزعاج... مع السلامة.

أغلق مصطفى الهاتف في أقل من الثانية مع آخر كلمة لها نطقتها دون أن يلقي عليها هو الآخر كلمة ختامية، ثم ألقى الهاتف على المنضدة وعاد للبحث وهو يتمتم بسخرية: زي حبنا لنفس المجال.. ياشيخه حبك برص.

***

مع منتصف الليل كان مصطفى قد انهى الجزء الخاص به في البحث وغادر المقهى عائدًا إلى منزله، وصل البيت في تمام الساعة الواحدة صباحًا، وكعادته المستحدثة دخل أولًا ليطمأن على نبتته في الشرفة ثم اقتطف منها زهرة لينعم بأريجها وهو يتوجه لغرفته، استلقى على الفور على فراشه بعد يوم مجهد وطويل ثم أخرج هاتفه وأرسل لها

" أنا وصلت البيت "

" حمدلله على السلامة، خلصت البحث "

" اه الحمدلله خلصت أخيرًا "

" أنا مش عارفة عندك طاقة تدرس تاني بعد الجامعة إزاي؟! "

" أنا معرفش أفضل من غير دراسة، وبعدين لازم أحقق حلمي أنا كان نفسي أدخل صيدلة زي أخويا أحمد بس مجموعي كان أقل منها بنص درجة وساعتها قررت أختار علوم وأكمل دراسات فيها "

" حبيت طموحك أوي.... ربنا معاك ويوفقك "

" وأنا حبيتك إنتي... قوليلي بقى بتعملي إيه دلوقتي؟ "

فأرسلت له صورة رسمتها الأخيرة التي تنفذ بها تصميم آخر لفستان.

وكتبت " برسم موديل تاني زي ما أنت شايف "

" واااااااااااااااااااو شكله تحفة إيه الجمال ده "

" ياسلام... ده حتى لسه ماكتملتش، وبعدين أنا حساه ناقص حاجات كتير ومش مظبوط "

" بالعكس ده جميل جدًا، إنتي إزاي مضيعة الموهبة دي كده "

" هي فين الموهبة دي أنا بضيع وقتي بس في حاجة بحبها مش أكتر مجرد

تسلية "

" بس أنا شايف إنك موهوبة أوي ولو استغلتيها صح هيبقى ليكي اسم كبير في عالم الأزياء "

" لو بقى... المهم دلوقتي أنا فكرت زي ما قولتلك.. وممكن نتقابل يوم الجمعة لو فاضي "

" بجد.... أنا موافق طبعًا ".

" عايزة تروحي فين ".

" كل مكان بتحب تروحوا، عايزة أعرف كل الأماكن اللي بتحبها "

" يبقى هنبدأ بمطعمي المفضل وركنتي المفضلة.. إيه رأيك؟"

" موافقة طبعا "

" خلاص هستناكي يوم الجمعة الساعة ٤ عند بوابة ٢ "

" أوك، هسيبك بقى علشان لازم أنام واستعد لبكره علشان هروح أخد رانيا من المطار مش قادرة أستنى لما توصل هنا... وحشتني أوى "

" هتوحشيني لحد بكره "

فأجابت رسالته الأخيرة بقلب أحمر، ثم أرسلت " تصبح على خير"

" وإنتى من أهله "

ليغط مصطفى في نوم عميق بمجرد ترك هاتفه من يديه.

*****

(١١)

استقبلت إيناس صباحها بحماس شديد، فقد اشتاقت لرانيا كثيرًا.... فتلك كانت أطول فترة تبعدها رانيا عن إيناس، وبالكاد يضيع يوم بدون رؤية بعضهن البعض أو أقلها محادثة هاتفية تجمعهن، هي تعلم أن لولا ظهور مصطفى في الوقت المناسب لفقدت عقلها بدون رانيا، كان لديها الكثير من الأسئلة حول أيامها وحياتها الجديدة وكيف كانت سفريتهما هي وآسر والأماكن التي قاما بزيارتها، كانت تشتاق لكل تفاصيلهما سويًا، لجلسات السمر وحكايات الفتيات التي لا تتناولها إلا بصحبة رانيا، لم تنكر رغبتها الشديدة في أن تقص عليها كل مامرت به منذ تلك الصدفة التي بفضلها تركت رقم هاتفها بصحبة ذلك المتتبع الذي يلحق بها في كل مكان، ليس هي فقط من تريد أن تقص عليها.... بل كانت تريد أن تصرخ في العائلة بأكملها وتخبرهم أنها لم تعد وحيدة بعد الآن.

أشجارها بدأت تزدهر هي الأخرى وحل ربيعها أخيرًا لتجد من يراقبها بإعجاب رغم صمتها ونورها المنطفئ كما أسمعوها بل ويتبعها أينما وطأت قدميها بكل حب فقط ليظفر بنظرة منها، بالتأكيد لن يصدق أحد لكن المعجزات تحدث!

التقطت زهرتها من مكانها كما وعدها بالأمس ولكن لم تلمحه يقف عند الصيدلية كما يفعل فيبدو أنه تركها وغادر للكلية، أخذت سيارتها وانطلقت نحو عملها لتقضي به بضع ساعات حتى موعد وصول طائرة رانيا في الساعة الثانية عشر ظهرًا وقبل موعد الوصول تستأذن إيناس الدكتور توفيق وتذهب لتلحق بوصول رانيا.

وفي المطار استقبلت إيناس رانيا بكل شوق وكم هائل من الأحضان والقبلات، ثم اصطحبتهما هي وآسر إلى منزل خالتها لتجد والدتها هناك أيضًا في انتظارهما، قضى آسر معهم بعض الوقت ثم غادر ليذهب لوالدته التي تنتظره بشوق أيضًا وقد ترك رانيا لتقضي معهم باقي اليوم بعد أن ألحت عليه رانيا بأن

تمضي معهم بقية اليوم فهي اشتاقت لهم كثيرًا أيضًا.

ظلوا اليوم بأكمله سويًا تسرد به رانيا كل تفاصيل رحلتهما وكم كانت رائعة بينما تصغى لها إيناس بابتهاج وشوق، كان هناك جزءًا من تلك المتعة يكمن في تذوقها للذة الحب فأصبحت أوصاف رانيا ليست بغريبة عنها فقد حظت بالبعض الآن وباتت تملك نفس مشاعرهم.

لاحظت رانيا على إيناس تهلل وجهها وبسمتها التي لم تعد تفارقها كما أن حاجبيها مكتملان الآن وهذا الأغرب!!

فطلبت منها الانفراد في غرفتها القديمة لعلها تريحها تلك المرة وتخبرها بأسباب تلك التغييرات، وهي تلتمس في ظاهرها شروق نهار حب ينير الفؤاد ولكن دون دليل قاطع.

ظلت تسأل بإلحاح عن أسباب تلك التغييرات لتجد إجابات إيناس جميعها تكمن في سعادتها من أجل إتمام فرحة رانيا كما إنها في غاية السعادة لعودتها أخيرًا فلم تقتنع رانيا بمبرراتها ولكنها ابتلعتها في النهاية.

أما إيناس فبذلت أقصى جهدها لكي لا يزل لسانها وتسقط أمامها وهي تسكب كل ما في قلبها من أسرار وأحداث ببلاهتها المعتادة، كم قاومت تلك الرغبة في أن تخبرها بكل شيء يحدث معها فلطالما استمعت إيناس لتلك الأنواع من القصص التي لا تنتهي من رانيا ليأتي آسر ويختمها، ألا يحق لها الآن أن تنال نصيبها في الحكي هي أيضًا، ولكن هناك ذلك الشيء الذي يمنعها، تلك الخشية التي تتربص بها وتعقد لسانها بحبل مشدود على آخره حتى لا يطرق سقف حلقها فتسقط الحروف تباعًا مفصحة عن كل شيء.

كانت تخشى على سرها الثمين.... فالأصدقاء أيضًا يمتلكون عيوبًا إذا لم تتعامل معها بحذر ستسقط بين فكيها يومًا ما، كانت تيقن من قدرتها على أن تحفظ أسرار رانيا لذلك رانيا تصب لها كل أسرارها براحة ولكن تلك الصفة لم تكن لتوجد لدى رانيا فهي ليست حافظة أسرار جيدة بل تشبه العائلة أكثر وبالتأكيد تسير على نفس القانون لا شيء يخفى عن العائلة سوى أسرارها هي

التي بحوزة إيناس فقط، كانت تعرف إنها إن قصت لها شيء عنها ستغوص في بحر أسئلتها الكثيرة، سترغب في معرفة المزيد عنه أكثر وأكثر ومن ثم سيطوف الخبر بين ألسنة باقي فتيات العائلة وكذلك الخالة والأم بالطبع، ستلتقفه واحدة في فمها ثم تلفظه للأخرى، ليأكلن لحمها ويمصصن عظامها، في فضول متأجج.

ولكن ما كان يقلقها بحق... أحكامهم المسبقة ومقارناتهم التي لا ختام لها وتربصهم بها وبأفعالها هل ستنجح تلك المرة أم ستسقط كعادتها وهل سيهرع مفزوعًا من مسخها كما هرع من قبله أم لا؟، هل ستهوى أمامهم مرة أخرى، هل ستظل مزحتهم دائمًا وفي نفس الوقت العبرة التي لا يجب أن يصبحن مثلها، كان هناك الكثير من المخاوف التي تراودها في وقت جل ما أرادته أن تنعم فقط بعذوبة تلك المشاعر، وأن تعيشها بعيدًا عن تلك الضغوط الكثيرة كما أنها بالطبع لم تكن لتوافيهم بالتفاصيل التي سيرغبون بسماعها عنه، فهي لا تعرف ماركات ملابسه المفضلة وكم عدد الساعات لديه ذات الماركة العالمية والأسعار الوهمية، ولا تعرف كم حساب مصرفي يمتلك، ولا كم يملك في كلًا منهم، هل يملك منزلًا بجزيرته التي استأثرها لنفسه أم أنه سيسكن إحدى ناطحات السحاب على سطح القمر، لا يهم موديل سيارته ولا ماركة نظارته... كان كل مايهمها أنها تتذوق الحب وتلقى المحب أما الباقي فهي مجرد أشياء لم تبحث عنها يومًا مثلهن، لذلك في النهاية فضلت الصمت ليأتى آسر وينقذها من براثن رانيا ويصطحب زوجته لمنزلهما.

***

في ختام اليوم أرسل مصطفى رسالة لها

" بكره الساعة ٤ عند بوابة ٢ "

لتجيبه في خلال ثانية

" بكره الساعة ٤ عند بوابة ٢ "

***

في اليوم التالي تهيأ مصطفى بحرفية آنسها في الفترة الأخيرة وارتدى أبهى تي

شيرت لديه يذكر أنه حظى به في أحد أيام الخصومات على الماركات المشهورة دفع به ربع ثمنه فقط ربما كانت ساعة حظه تلك الساعة، كان التي شيرت باللون الكحلي ارتدى عليه سروال من الجينز وحذاء كاجوال، ثم اتجه نحو غرفة والده ليستعير ساعته الثمينة ورشة من عطره الغالي الذي لم يكن في يوم ليجرؤ على شرائه وإهدار جزء من ماله عليه، وفي أحد أركان البيت أمام التلفاز كانت تجلس والدته بعين تتابع مسلسلها التركي المفضل وأخرى تتابع ابنها والتغيرات التي طرأت عليه حديثًا في اهتمامه بالتفاصيل، وعند ذكر التفاصيل تستنشق رائحة أنثى على الفور، تمنت من قلبها أن تصبح شكوكها حقيقية لتفرح به كما فرحت من قبل بأخيه أحمد الذي تزوج منذ خمسة أعوام وسافر هو وزوجته ل "جدة"، ليت فرحتها الثانية تتحقق على خير.

خرج بعدها مصطفى فور انتهائه واستقل تاكسي حفاظًا على سلامة هيئته رغم أنه حينها لن يحافظ أبدًا على سلامة محفظته، وبعد مرور نصف ساعة كان يقف عند البوابة رقم ٢ هبط من التاكسي وطلب منه أن ينتظر ثم رن على هاتف إيناس فأجابته:

_ أيوه يا مصطفى، دقيقة وأكون عند البوابة أنت فين؟

_ أنا مستنيكي وواقف عندها أهو.

_ أوك.

بالفعل دقيقة ووجد سيارة إيناس تعبر بوابة المُلاك بعد أن أدخلت شفرة في إحدى البوابات الإلكترونية ليرتفع عندها الحاجز على الفور فتكمل طريقها إلى مصطفى حتى وصلت أمامه فيتساءل متعجبًا:

_ إيه ده إنتي جيتي بالعربية؟!

_ آه.. ليه؟

_ أصلي أنا مستنيكي بالتاكسي أهو واقف هناك.

_ لا لا إحنا هنتحرك بالعربية، مش متعوده أركب تاكسي.

_ خلاص هحاسبه وأجيلك.

ذهب مصطفى نحو السائق وهو يعتذر له عن إضاعة وقته وحاول إرضائه بزيادة أجره تعويضًا له، فأخذ السائق النقود بوجه يشبه الأسفلت المتصلب وهو يتمتم بصوت مكتوم ثم أدار سيارته وبصق دخان شكمانه الخلفي في وجه مصطفى وغادر، ليعود مصطفى إلى سيارة إيناس المصطفة جانبًا فيجدها تشير له من نافذتها فتوجه نحو النافذة ليجدها تسأله:

_ بتعرف تسوق؟

_ أيوه ومعايا رخصة كمان.

فقالت ببهجة:

_ حلو أوي تعالى بقى مكاني.

فتح مصطفى باب السيارة وانزلقت هى للمقعد المجاور فصعد مصطفى مكانها ثم أدار السيارة وانطلق.

وأثناء رحلتها معه لتستكشف عوالم جديدة لم تقابلها من قبل رأته في المرآة الأمامية يجلس على الكنبة الخلفية وبدا عليه التحفز وهو يلهث مكشرًا عن أنيابه ككلب بيتبول أسود لم يحقن بمصل سعار من قبل، ينظر إلى صاحبته في تحفز منتظرًا إشارة البدء منها لينقض على غريمه وينهش لحمه فيجدها غارقة في عالمه دون استجابة لطلبه وكأنه مجرد ظل... فبالتأكيد لن تدعه يفسد أسعد لحظاتها، فتجد مصطفى يشق بصدى صوته عالمها الساكن ويزعج صديقها أكثر وهو يسأل بابتسامة لا تفارقه مادام بصحبتها:

_ أوعي تكوني إتغديتي؟

وقبل أن تجيبه وجدت الآخر يتبخر كدخان ركام أسود خلفها، فنظرت نحو مصطفى وأجابت:

_لا... ليه؟

_ طب حلو أوي... علشان إنهارده هأكلك على ذوقي.

بالطبع لم تعترض، فلم تكن لتفوت مثل تلك الفرصة وهي أن تتذوق معه

حياة لم تذقها من قبل وتسلك دروبًا لم تعهدها ربما بأحدهم الارتياح، لم تنكر بأن جزءًا بداخلها الآن بات مستريح، وهو ينعم بنكهة الحب التي باتت تذوب في فمها كمكعب شيكولاتة داكنة يعقبها رشفة من القهوة، لتجد السيروتونين والأوكسايتوسين هرمونات الحب يتدفقا في شرايينها وقد أيقظن بها الشعور بالبهجة والثقة والراحة.

غاصا في الحديث طوال رحلتهما بألفة وراحة تسكنهما وكأنهما لم يتلاقا من قبل فاحتضنا سعادتهما بقوة احتضان جاذبية الأرض لجذور الياسمين وعطرها.

وصلا سويًا أمام مطعم يعلوه اسم "أرابيسك" وصف السيارة على بعد أمتار منه، ثم هبطا من السيارة سويًا وعلى وجهها نظرات الترقب لكل ما هو آتٍ بذوقه، دخلا معًا فرحب بهما بهاء الذي يبدو أنه على علم بحضورهما اليوم وقادهما معًا إلى زاوية خاصة تحوى على مائدة يبدو أنها جهزت خصيصًا لهما، شكره مصطفى وهو يشيد له بذوقه الرفيع ومذاق أكلاته الرائع قبل أن يغادر بهاء ليحضر لهما قائمة الطعام، حينها نظرت له إيناس بتعجب وسألت:

_ أنت كنت حاجز بقى من ورايا؟

_ أكيد.... لازم المكان يبقى لايقلك طبعًا.

نظرت له بدهشة وقد بدأت أصواتها الداخلية تتعجب هي الأخرى وأطلقت سؤال نطقت به إيناس بدلًا عنهم:

_ هو أنت بتحب فيا إيه؟!

_ قولي مابحبش فيكي إيه... بصي في البداية أنا كنت معجب بيكي وبراقبك من بعيد.. كان نفسى أكلمك بس خايف أتسببلك في مشكلة، بس كل يوم كنت بحس إني بنجذبلك أكتر من اليوم اللي قبله لحد ماجيتي مع رانيا، هنا بقى ماقدرتش ما استغلش الفرصة والحقيقة كل مرة كنت ألاقي فرصة أحلى من التانية تفتحلي باب أقربلك منه ولقيت نفسي وقعت في حبك وحب تفاصيلك، إنتي كل حاجة فيكي تتحب يا إيناس.

لم تجد أصواتها الداخلية رد يجيب كلماته الآسرة فقط نظرت له وكأنه حلم

بات حقيقة، فيستطرد هو في تساؤل:

_ بس إيه رأيك في المطعم؟

تأملت المكان من حولها بإعجاب شديد وقد أذهلتها تفاصيل ديكوراته الرائعة التي خطفتها لحقبة زمنية أخرى وقد بدا كلاسيكي بإضاءته التي تشعرك بالارتياح بينما صوت أم كلثوم وأغنية أمل حياتي تضيف على المكان انشراحة من نوع خاص فتجيبه في بهجة:

_ تحفة فنية، حقيقي جميل أوى وملهم كمان، أنا ممكن أعمل تصاميم مبهجة أوى من الحقبة دي هتبقى تحفة لو اتحققت على أرض الواقع.

حينها قاطعهما بهاء بقوائم الطعام على استحياء حتى لا يقطع حديثهما سويًا ثم غادر مسرعًا، فسأل مصطفى:

_ تحبي تاكلي إيه؟

_ مش قولت على ذوقك؟!

_ خايف مايعجبكيش؟

_ طب قولي كنت هتطلب إيه؟

_ بصي ياستي أنا بعشق ورق العنب هنا بيعملوه تحفة، وكمان الحمام... دي وجبتي المفضلة هنا.. رأيك إيه؟

_ بص هو غريب شوية!!!... بس أنا هجازف وأطلب بذوقك بردو.

_ حلو أوي... وماتقلقيش أكيد هيعجبك.

ثم نادى على بهاء وأخبره بطلبه لوجبته المفضلة لشخصين، فسجله بهاء على الفور وأرسله للمطبخ لكي يعدوه.

وهنا سأل مصطفى إيناس:

_ إنتي مش بتشتغلي في الأزياء ليه رغم إنك شاطرة أوي في التصميم؟

_ الموضوع مش بالسهولة دي وبعدين أنا هاوية مش أكتر يعني مش بروفيشنال ولا شاطرة زي مابتقول.

_ لا شاطرة جدًّا كمان وأنا لاحظت ده في تصاميمك إلي بعتيلي صورهم

كلهم حلوين أوي وهيبقوا أجمل لو نفذتيهم على أرض الواقع كمان، أنا شايف إني تصاميمك مش أقل من مشاهير مصممين الأزياء في الميديا.

_ أنت متابع بقى؟!

_ أحيانًا.. ماما بتحب الفاشون من زمان وبتحب تتابع آخر صيحات الموضة، هي مهندسة اه بس هاوية أوي الموضة من زمان بس لما كبرت بقت مش متابعة أوي زي الأول وبقت بتلبس زي الأمهات.

ضحكت إيناس وهو تقول:

_ واضح إني مامتك عندها ذوق عالي أوي في اللبس.

_ في الحقيقة اه، وفي لبسي أنا كمان كتير بحب رأيها في الاختيارات وبابا مش بيلبس غير على ذوقها، بس إنتي مهتمة بموهبة تصميم الأزياء أكتر، ولا مجال طب الأسنان أكتر؟

ضحكت إيناس بسخرية وهي تقول:

_ خالص أحب إيه بس؟!..... أنا مبكرهش قد مجال طب الأسنان ده، عمره ما كان اختياري بس الحقيقة ده اختيار ماما بعد ما رفضت إني أدرس فاشون في باريس، بحجة إنها خايفة يتقال عليا مجرد خياطة... وكمان أنا شايفة إني مش شاطرة أوي لدرجة إني أبقى مصممة أزياء، هو حلمي اه بس مش كل الأحلام بنقدر نحققها.

_ بالعكس أنا شايف إنك موهوبة جدًّا وبعدين الأحلام بتتحقق لما تصدقيها.

قطبت حاجبيها بتعجب وسألت:

_ يعني إيه أصدقها؟!

فاستند على المنضدة وقال بشغف:

_ يعنى تؤمني بيه وتحتويه، الأحلام محتاجة احتواء وحب علشان تكبر زي البيبي بيتولد صغير وبالحب والاهتمام بيبدأ ينمو ويكبر، ولازم نقبله بحلوه ومره مع بعض ومع الوقت هتلاقي حتى مره كان حلو، لأني التعب في حاجة

بنحبها أحسن بكتير من التعب في حاجة ملهاش معنى بالنسبالنا وعلشان كده أنا كنت بحاول أسعى وأقربلك لأني حابب أتعب للي بحبها لحد ما أوصلها ولو هتعبلك العمر كله.

أي نسائم حب هذه؟.. أي ربيع هذا الذي حل وأزهر وعطر وخضر اليابس؟!! خيل لها بوقع كلماته أنها بأجنحة تحلق في الفضاء وكأنه ملك لها لوحدها، رأت فيه كل ما افتقدته في نفسها من حب أهكذا يكون الحب؟!، أهكذا يكتب الشاعر القصائد في حبيبته؟.. ها هي تستمع إلى قصائده بعذوبة، قصائد نقشت على جدران العاشقين باسمها وجدران قلبها أيضاً، أما قوانينه فهي غريبة... لم تألفها ولكن تعجبها!!!... أهكذا يكون تصديق الحلم إذًا؟!

هنا قطع بهاء حديثهما بصحبة النادل وهو ينزل الأطباق على المائدة أمامهما ثم قال قبل أن ينصرف:

_يارب الأكل يعجبكم.

جربت إيناس أكلته المفضلة وكان لا بأس بها في الحقيقة، ورق العنب كان لذيذ للغاية لا يقاوم التهمته في نهم وكأنها لم تتذوق منه من قبل أما الحمام فعلى الرغم أنه ليس المفضل لها إلا أنه أعجبها أيضا ويبدو أنه سيصبح من اليوم على رأس قائمتها المفضلة بعد ورق العنب بالطبع.

كانت وجبة شهية، وكلماته شهية، والكون شهي والحياة الآن باتت أشهى وأشهى.

انتهت وجبتهما فسألها مصطفى:

_ تحبي تاخدي الحلو هنا ولا فوق؟

_ متهيألي في الركنة بتاعتك أفضل، علشان عايزة أشوفها.

_ أوك يلا بينا فوق.

صعدت معه بالأعلى لتجد نفسها وسط ساحة من الحداثة تناقضت مع كل تفصيلة كانت بالطابق السفلي، وكأنهما بين حقبتين من الزمن يفصلهما بضع درجات من السلم تمثل الدهر بلمساته المتطورة وكأنها تصعد التاريخ، كان

المكان مفعم بالألوان الحديثة والفاتحة والمقاعد جلدية يغوص جسدك بداخلها ومناضد بعضها زجاجي وبعضها خشبي مودرن، أخذها مصطفى إلى ركنته المفضلة وهي تتأمل تفاصيل المكان في ذهول لا يقل عن ذهولها في الطابق السفلي وجلسا في ركنته، ولأول مرة في حياته يكون المقعد المجاور له ملك فتاة، فمنذ أن افتتح بهاء المكان هنا وأصبح مصطفى من رواده لم يجلس به مصطحبًا أحد سوى نادر ومينا أحيانًا ليست بكثيرة، لأنهم يفضلا قهوتهما الأخرى المعتادة في مصر الجديدة " شيشة "، نادى مصطفى على عزت المسئول عن ذلك الطابق فحضر على الفور بترحيب شديد ثم أحضر قائمة المشروبات لهما، وهنا أردف مصطفى قائلًا:

_ تحبي تطلبي إيه، على فكرة هنا عندهم تشيز كيك تحفة، تحبي تجربي؟

_ أوك وهاخد معاها نسكافيه بلاك.

_ تمام وأنا هاخد معاها شاي.

_ خلاص خليه شاي معاك بدل النسكافيه.

_ من عنيا.

ثم أشار إلى عزت فعاد له فطلب مصطفى منه:

_ عايزين اتنين تشيز كيك واتنين شاي.

_ أوك، تؤمروا بأي حاجة تانية؟

_ تسلم يا زيزو ماتحرمش منك.

غادر بعدها عزت وعاد مصطفى لإيناس فسألته باندهاش:

_ هو إيه حكاية المطعم ده.. أنت قولتلي أنه زميلك هو اللي عمله مش كده؟

_ اه بالظبط، أنا قولتلك فعلًا أنه صاحبه واحد كان زميل دراسة في الثانوي، بصي يا ستي بهاء ده كان من زمايلي في سنين الثانوي بس كانت معرفته سطحية، بس هو كان صاحب نادر صاحبي أوي وبعد ماخلصنا الثانوية وقبل النتيجة باباه اتوفى بأزمة قلبية، باباه كان مالك الدور الأرضي وكان مطعم بس كان بسيط،

طبعًا كانت أكبر صدمة في حياة بهاء خصوصًا إني هو أكبر إخواته والمطعم كان مصدر دخلهم الوحيد وكمان باباه كان عليه باقي قسط المطعم، ساعتها بهاء شال المسؤولية كلها ومكملش جامعة وفضل يشتغل في المطعم ليل نهار لحد ما وقفه على رجله وكمل أقساط والده، وبعدين بدأ بقى يجدد ويطور المكان ومع الوقت اشترى الجزء ده كمان وضمه على المطعم، وعلى فكرة هو اللي عامل الديكور تحت وهنا بإيده واشترى بس حاجات بسيطة، ودلوقتي هو بيدرس في كلية سياحة وفنادق.

_ ده مكافح أوي.

_ جدًا.. من أكتر الشخصيات اللي أثرت فيا فعلًا، رغم أنه في نفس سني بس التجارب اللي مر بيها، ووقفته قدامها بقوة خلتني أشوفه بطريقة مختلفة عن أي شاب عادي.

_ وأنت بتيجي هنا من زمان؟

_ من أول ما باباه اتوفى، ساعتها بدأنا نقرب منه شوية علشان ميحسش أنه لوحده وبقينا نيجي هنا بس مش كتير زي الأول علشان بعيد عن مصر الجديدة، وأنا بقى بقت دي ركنتي المفضلة اللي لازم أقعد فيها كل ما آجي.

أعجبت إيناس كثيرًا بقصة زميله، كم نتعلق بتلك القصص التي تلمس ذلك الجزء الذي يشبههم بداخلنا، أحبت سعيه خلف حلمه ومثابرته، بل وإكمال دراسته حتى لو كان من محطة مختلفة ما دام قادرًا على اللحاق بالقطار قبل فوات الآوان، من الجيد أن ترى من استطاع أن يثقب بمنقاره جدران زنزانته الصغيرة الصلبة ليخرج ويحلق في سمائه بحرية دون قيود.

***

منذ ذلك اليوم ازداد تقارب إيناس تجاه مصطفى أكثر وهدأت بداخلها الأصوات قليلًا، نعم... مازالت معقودة اللسان ولم تفصح عن حبها بعد ولكنها تعرف أن تصرفاتها تفصح عن كل شيء وكذلك مصطفى الذي لم يكن ليطلب منها الإفصاح أبدًا رغمًا عنها أو بطلب منه، بل تركها فقط لوقت رغبتها مادامت

تقبل هي بحبه فيكفيه فقط قبولها هذا على الرغم من لهفته لتلك الكلمة على لسانها.

لم تقتصر حياتهما بعد ذلك اليوم على الرسائل بل بات لا يغفى ولا يستيقظ سوى على صوتها، فيقضيا أغلب يومهما سويًا بين الرسائل والمحادثات حتى اللقاءات من حين لآخر، ولم تعد ركنته ملكًا له لوحده بل باتت تشاركه بها طوال الوقت لتحمل تلك الركنة أغلب ذكريات تلاقيهما سويًا.

وفي إحدى المرات بينما إيناس تجلس بصحبته وجدت على التلفاز القابع في الجهة الأخرى المقابلة لهما إحدى القنوات التي تعرض أفلام أجنبية لتفاجأ بفيلمها المفضل يعرض عليه.

فصاحت نحو عزت وهي تطلب منه أن يقوم برفع الصوت قليلًا وهي تخبر مصطفى بحماس:

_ أنا بعشق الفيلم ده، من أكتر الأفلام اللي بحبها في حياتي مش بزهق منه خالص.

_letters to Juliet

_ اه، بحبه جدًا.

_ أنا الحقيقة ما اتفرجتش عليه قبل كده.

_ إيه ده بجد؟!! إنت فاتك كتير، طب إنت فيلمك المفضل إيه؟

_ تيتانيك طبعًا.

_ هو فيلم جميل فعلًا، بس أنا فيلمي المفضل الفيلم ده.

_ طب ما تحكيلي قصته؟

قصتها عليه ببعض الإيجاز بحماس وعينيها لا تفارق مشاهدة الفيلم في الجهة الأخرى إلى أن انتهت لتجده يسأل:

_ وإنتي كتبتي ليها جواب قبل كده؟

فشتت سؤاله تركيزها مع الفيلم ونظرت له بتعجب، لم تخطر تلك الفكرة

عليها من قبل رغم عدد مرات مشاهدتها له التي تجهل عددها، فتجيبه ببعض الدهشة:

_ تصدق عمري مافكرت أكتبلها؟

_ ليه؟

_ يمكن علشان مافيش حد أكتب عنه.

_ ولسه مافيش حد تكتبي عنه؟!

فقالت على استحياء:

_ هو في..... بس مش محتاجة أكتب عنه لحد.. أنا بكتبله هو على طول.

فتهللت أساريره بتلميحاتها التي تفصح عن ما تكنه بداخلها.

_ هي لو في زمنا دلوقتي كانت بقت جروب على الواتس آب.

قالها فضحكا سويًا على سخريته ثم قالت بعدها:

_ بس الجوابات ليها طعم تاني، يمكن علشان زمان كانت طريقة تعبيرهم عن الحب بتبقى غالبًا في الجوابات، طريقة كلاسيكية اه بس مش عارفة بحس فيها رومانسية أكتر.

_تحبي أبعتلك جوابات؟؟؟ قالها مازحًا

_ والله فكرة، فعلًا.

_ عاوزاها فرانكو ولا عربي ولا إنجلش؟

_ أكيد مش فرانكو... اختار أنت بقى.

_ خلاص خليها عربي فصحى علشان يبقى أكتر شاعرية ولايق على الجواب.

ضحكا معًا في جو من المرح كانت إيناس لا تجده إلا بصحبته هو، حينها سمع مصطفى صوت مألوف يقترب من مقعده ويسأل:

_ إزيك يا مصطفى؟

نظر صوب الشخص ليجدها دعاء تقف أمامه وفي الخلف تقف فتاة أخرى تبدو أنها صديقتها.

تفاجأ كلًا من مصطفى وإيناس التي كانت تنظر نحوه ونحوها بعلامة

استفهام فلم يذكر لها فتيات من قبل مرت بحياته، من تكون هذه إذًا؟!!!
لتلمح على الفور صديقها يجلس على المقعد المقابل لها وهو يبتسم بمكر.
فينتشلها مصطفى من تساؤلاتها وهو يجيب على الأخرى:
_ أهلا يادعاء... أخبارك إيه.
_ أنا بخير.... فينك كده بقالك فترة مختفي.
وهي تنظر نحو إيناس بفضول مشتعل تحاول إخفائه.
_ موجود يا دعاء بس مشغول شوية في الشغل والرسالة.
_ اه صحيح أنا قدمت في الدبلومة زي ما قولتلك بعد ما بعتلي التفاصيل على طول.
_ طيب حلو أوي ربنا يوفقك دايمًا يارب... بس أنا أول مرة أشوفك هنا في الكافيه.
_ أنا باجى هنا أحيانًا مع فاطمة صحبتي وبعدين أنت نسيت إنك عزمتنا في حفلة الافتتاح بتاع المطعم والكافيه من كام سنة علشان صاحبه زميلك.
_ اه فعلًا.. أنا نسيت ده كان من فترة... طيب أسيبك بقى علشان صحبتك اللي واقفة مستنياكي دي بدل ما أعطلك.
فنظرت نحو إيناس بشق عينيها تتفحصها من منبت شعرها لأخمص إصبعها ببعض الضيق وهي تجيبه.
_ اه فعلاً أنا نسيت أنها مستنية، أشوفك بعدين يا مصطفى.
وقبل أن تدور وتغادر من أمامهما وجدت إيناس بحركة مفاجئة تمسك بيد مصطفى وتضمها ليدها بحس أنثوي نابع من غرائز لم تكن تتخيل أنها تسكنها يومًا وكأنها تدافع عن حقها فيه والذي لن يسلبه أحدًا منها، تفاجأ مصطفى من حركتها التي أسعدته فضم قبضته على قبضتها أكثر وكأنه يطمئنها بينما دعاء استشاطت غضبًا وبدا الانزعاج واضحًا على ملامحها وهي تغادر من أمامهما حتى أنها لم تجلس على أي طاولة بل أخذت صديقتها بتوتر وغادرت على الفور وملامح تلك الفتاة التي بجواره محفورة في ذاكرتها.

سألته إيناس:

_ مين دي؟

_ دي واحدة جارتنا باباها صاحب بابا وبس.

_ وإيه حوار التفاصيل اللي بعتهالها، واضح إني في كلام أكتر من إنها جارتكم.

_ أيوه بقى... إنتي بتغيري عليا.

_ مصطفى من فضلك فهمني؟

_ يا بنتي أفهمك إيه بس إنتي فاهمة غلط، هي بس طلبت منى تفاصيل دبلومة كنت عملتها لأني هي اتخرجت من نفس الكلية بتاعتي مش أكتر بس لسه متخرجة جديد، فلما قررت تعمل الدبلومة سألتني أنا.

_ بس باين على وشها حاجة تانية لما شافتني معاك، واضح أنها مهتمة بيك والموضوع أكتر من مجرد سؤال عن دبلومة.

_ بس أنا مهتم بيكي إنتي بس، وبحبك إنتي بس، ومش بشوف غيرك إنتي بس وأنا بس مارضيتش أعرفك عليها علشان إنتي مش حابة حد يعرف حاجة دلوقتي مش أكتر.

ثم مال على يدها وقبلها وهو يهمس " بحبك ".

في النهاية اكتفت بكلمته التي أثلجت شعلة غيرتها المتأججة لتهدأ الرياح وتسكن الأنفس في سلام ففي حضرة الحب يلين كل عاصي.

***

(١٢)

لا تعلم إيناس كيف مضى الوقت سريعًا بصحبته ليمر على صدفتهما الأولى سويًا ثلاثة أشهر كاملة، لم يتوانى خلالهم أحدهما في التقرب من الآخر ليبادر مصطفى بهذا التقرب تتبعه إيناس بإعجاب وشغف، حتى تاقت الأرواح فما طاقت البعد، لينتهي بأن يمضيان أغلب يومهما سويًا لا يفرق بينهما سوى المضاجع خلال ساعات النوم.... ثم يبدأ يومهما التالي معًا مرة أخرى برسائل ومحادثات وزهور الياسمين، لينتهي على موعد للقاء وبدء حديث آخر عند العودة إلى البيت.

لا تعلم كيف حط على كوكبها البعيد المعزول بسفينته الفضائية يدعوها على استحياء أن تقبل دعوته لرحلة خاصة للفضاء البعيد تجمعهما سويًا، فقبلت عرضه بعد أن وقعت هي الأخرى في غرامه وتركته يخطفها بعيدًا عن أعين الجميع في سفينته الخاصة وهو يطوف بها بقاع لم تدركها من قبل بين نجوم وكواكب بعيدة، فضلت كل ماهو جديد عليها وتجاهلت كل ما ألفته في كوكبها الضيق الذي اعتادت أن تسكنه بصحبة عائلتها... ألقت بخاختها جانبًا واستنشقت من عليل هوائه.... لتملأ صدرها بهواء مفعم بالحياة.... تركت حاجبيها في سلام وأصوات رأسها لم تعد صاخبة كما كانت من قبل وكأنها ابتلعت مهدًا يسكن هياجها الدائم، أما صديقها فما عاد ظهوره يربكها بل حضوره بات أكثر إيجابية، كان كل شيء في غاية الجمال.... حتى سوط والدتها الذي كان يجلدها بكلماته الحادة على الدوام سأم وظيفته وتركها لحال سبيلها مادام سبيلها سيحقق الغاية المرجوة.....

***

أما مصطفى فقد تبدل حاله وتناسى أمر دراسته وحلمه، فوجد نفسه يسعى خلف عمله الحالي ليلقاها..... لم تعد رسالة الماجستير في العلاقة بين أمراض الدم والمناعة هي ماتشغله الآن بل أصبح منشغل بكل تفصيلة تخص

إيناس ليبدأ في دراسة الأزياء وتصاميمها، ومن هنا أصبح يجمع كل مجلات الأزياء وأحدث صيحات الموضة ويهدي بها حبيبته ليسعدها ويشجعها على ما تحب، فازدهرت موهبتها على يديه وهو يسقيها باستمرار بالعناية والاهتمام وأصبحت تتطور يومًا بعد يوم وزادت نماذجها بل كلما صممت واحدًا أرسلته إليه ليدلي برأيه فيخبرها بحيادية وهذا هو ما كان يعجبها، كونه يرغب في إشراقتها وإشراقة ما تحب كان كل هدفه.... ظل يراقب تطورها بسعادة بل ويشجعها... ليغزو بحبه أراضيها الوعرة بأقدام ثابتة.

شاهدا أفلامهما المفضلة معًا واستمعا لأغانيهما المفضلة سويًا ليسكن ضجيج الكون من حولهما وتلمع نجومهما في الفضاء الشاسع البعيد ..... الآن ترى العالم بعينه وبات عالمه بأكمله يكمن بعينها، ليتركا الحب يعزف مقطوعته الموسيقية بانسجام وهما يتمايلان في تناغم.

ولكن كم اشتاق مصطفى لخطواته الاندفاعية وحماسها؟! فبالتأكيد لن يترك نبع الإثارة يضمحل، تذكر شعور الأدرينالين وهو يندفع في شرايينه والدماء تتدفق إلى رأسه وهو يخبر نفسه " ماعاد ذلك القرب مشبعًا بل أريد المزيد والمزيد، ماذا عن قفزة أخرى؟"...

لذلك قرر قراره... وحسم الأمر.... لابد من قفزة أخرى... متى؟.. قريبًا... فلم يعد يطيق الصبر لتصبح له ويصبح لها.

***

دعاها مصطفى لرحلة نيلية في أحد أيام العطلات ليستمتعا سويًا بأجواء الربيع، فوافقت إيناس على الفور مرحبة بفكرته فهي لم تجرب الرحلات النيلية بمفردها من قبل، وكل ما تتذكره عن النيل أنها تمر أحيانًا من فوقه وهي في طريقها فحسب لا أكثر والصورة التي تجمعها معه يوم زفاف رانيا ولكن كل هذا على حافة النيل من الشق البعيد ماذا عن شق مياهه الهادئة؟!

لذلك قبلت إيناس ولم تتردد عندما تلقت دعوته لهذه الرحلة.

كانت نوايا مصطفى الخفية هي كل ما يشغله في تلك اللحظات، وعواقب تلك القفزة التي ينوي فعلها..... هل ستجدي نفعًا أم لا؟. .. فمازال يرغب ببعض الحذر ولكن لا بأس من التجربة، استعار سيارة والده التي بات يستعيرها بشكل متكرر في الآونة الأخيرة وذهب للقائها عند البوابة التي باتت تترك سيارتها بالقرب منها وتكمل طريقها بسيارة مصطفى.... ثم ذهبا سويًا.

جلسا معًا في مركب صغير وتركوا قبطانها اليافع يقود في رحلة نيلية ساحرة، جلس مصطفى بجوارها وهو متردد كلما حاول النطق تبددت الأحرف على لسانه، لم يكن يعرف من أين سيبدأ... لاحظت إيناس تغيره منذ أن صعدت بجواره السيارة، لا تدري سببا لهذا التغيير ليصبح الأمر مزعج بعض الشيء خاصة مع هواجسها التي لا تهدأ عندما تثيرها بعض الرياح، وبينما هي تتجول بين أفكارها المتقلبة اقترب مصطفى منها أكثر وعلى وجهه علامات الارتباك ثم نطق أخيرًا بحروف متقطعة مضطربة:

_ أنا عايز أقابل أهلك وأخطبك؟

لم تكن إيناس تصغى حينها لصوته بل لأصوات هواجسها التي تهيم في رأسها كأشباح الظلام.

لكن إحدى أذنيها في تلك اللحظة ووسط الصخب القابعة بداخله التقطت كلمة "أخطبك"، ولا تدري لأي سبب سحبتها تلك الكلمة لذكرى تكتمت عليها منذ أعوام قليلة ماضية.

تلك اللحظة في منزلها القديم بعد أن أنهت عملها في مستشفى الدكتور توفيق وعادت لمنزلها، وقد أولجت مفتاحها في الباب ودخلت لتمر بممر في نهايته يقع ريسيبشن ينقسم إلى جزئين مرت على الجزء الثاني وفي أحد أركانه الخفية وجدت والدتها تجلس وهي تضع قدم فوق الأخرى وتحت قدميها المعقودتين تجلس سيدة مطأطأة الرأس تمسك بيدها بعضًا من الحجارة الصغيرة ترتدي جلباب أسود باهت وواسع وتغطي شعرها بوشاح أسود من الشيفون، استشعرتا حضور إيناس ولكن لم تبدي فريدة أي ردة فعل بينما الأخرى رفعت رأسها

ونظرت لها بعين متفحصة فلاحظت إيناس على ذقنها الوشم الأخضر، نظرت للأرض بجوار تلك السيدة فوجدت خرقة قديمة تفترش عليها بعضًا من حجارتها المتناثرة بعشوائية بينما على المنضدة بجوارهما طبق طعام فارغ متسخ وفنجان من القهوة مقلوب على طبقه، لم تتوقع يومًا وجود هذا المشهد بداخل بيتها، ووالدتها ذات الدم الأرستقراطي والصفات النرجسية هي من تتوسط هذا المشهد، هل تصدق والدتها تلك الخزعبلات بالفعل؟! ثم رأت صفية الخادمة تهل عليهن من الممر الذي في نهايته تكمن غرفة إيناس.... يبدو أنها قادمة من هناك بالفعل وفي يدها قطعة من القماش لا تدري ما هي... فمازالت منكمشة في قبضة صفية، لتجد في النهاية صفية تكور ما بيدها وتعطيه لتلك السيدة الغجرية الغريبة لتدرك حينها إيناس أنها بالفعل قطعة تخصها من ملابسها الداخلية.

فغرت فاها حينها وهي تنظر لهن باندهاش فتجد السيدة الغجرية تلتقطها وتقربها من أنفها وتستنشق بعمق مما أثار بداخلها الشعور بالغثيان وهي تراقب في صمت بينما الأخرى انتفضت فجأة من مكانها كمن لدغتها حية خفية ثم بدأت تغمغم ببعض الكلمات المبهمة وهي تنظر في اتجاهات مختلفة لفراغ خيل لها أنه ممتلىء بالجن في عالمها، وفريدة تنظر لها في ذهول وهواجسها المستترة بداخلها تؤكد أن تلك الشكوك التي تساورها حقيقة بالفعل، وما هي إلا لحظات وأجاب فراغها عن سؤال الغجرية... فتنهض من مكانها وهي تقفز كمن عثر على حل الأحجية وهي تؤكد لفريدة تلك الظنون وتهز رأسها إجابًا بأن هناك من صنع عمل سفلي لابنتها حتى ينفر منها الذكور لذلك "سوقها واقف" كما قالت السيدة بالنص.

صعقتها تلك الكلمات ولم تكن تدرك أن حظها البائس كما أخبرتها والدتها دومًا يمثل لفريدة كارثة كونية تجعلها تؤمن بخرافات ما كانت يومًا تتوقع أن تلجأ لها لحل مشكلة تؤرقها، تؤرقها؟!!

تبدو تلك الكلمة بسيطة مقارنة بما تشعر به فريدة الآن لم تعد تؤرقها فقط بل وتفزعها وترهبها لتجعلها تصنع مثل تلك الأمور، أخذت السيدة قطعة الملابس ووعدتها بحل سريع سيأتيها من كبيرها في خلال يومين وهي تطمئنها بأن مثل تلك الأمور تحدث في العادي وكل مشكلة ولها حل، فأخرجت لها فريدة رزمة من النقود وأعطتها إياها فتورد وجه الأخرى بينما وجه فريدة لازال في حالة من الذعر ثم أمرتها أن لا يتأخر عليها الحل وإلا ستحرم من أضعاف تلك الأموال التي تمسكها الآن، فأكدت السيدة لها بجلبها للخبر اليقين في أسرع وقت وغادرت بصحبة صفية التي تبدو أنها أنهت خدمتها اليوم في المنزل ثم غادرتا سويًا.

وبعد مرور يومين بالفعل عادت السيدة وهي تحمل بيدها زجاجة من المياه العكرة تملأها بداخل زجاجة مياه غازية فارغة لشركة عالمية لو علمت بتلك الفعلة الدنيئة لأغلقت أبوابها على الفور حفظًا لسمعة مسيرتها طوال عقود ومياه وجهها، ثم أخرجت من حقيبتها البلاستيكية المجعدة قطعة مثلثة من القماش الأزرق وأوصتها بأن تضعها تحت موضع رأس إيناس، وتستحم بالماء العكر لمدة ثلاث ليالي ليس في الحمام وإنما في غرفتها ولا تسكب الماء على الأرض أيضًا حتى لا تطأها الأقدام وأخذت حفنة من الأموال أكثر من سابقتها بكثير وغادرت.

أجبرت فريدة إيناس أن تنصاع لتلك التعليمات كما أمليت عليها بالنص دون أن تحيد عن واحدة، وتابعت ابنتها منتظرة خروج العمل السفلي العالق بحلق حياة إيناس وحياتها، وازدهار مستقبل فتاتها بصحبة العريس وبالفعل.... بعد مرور أسبوع من الترقب هاتفتها إحدى صديقاتها وأخبرتها بأنها ترغب في رؤية إيناس، وأن لديها عريس ابن إحدى صديقاتها التي في الخارج ويرغب في الزواج من فتاة من أصول عائلية كبيرة فأشادت السيدة على الفور بفريدة وابنتها.

وبالفعل وافقت فريدة وحددوا موعدًا وقبل قدومه بيوم هاتفت السيدة معتذرة بأن الشاب قد غير رأيه بعد أن ظهرت حبيبته القديمة ووالدته تكاد تجن منه.

في الحقيقة لم تكن والدته فقط من ستجن بل فريدة أيضًا التي ثارت في البيت بما فيه ووصل صوتها أعالي السماء من صرخاتها في وجه كل من ترى، كانت في تلك الأثناء تحاول أن تسرع بزيجة ابنتها قبل أختها وابنتها رانيا بكل الطرق ولكن جميعهن قد أغلقن الأبواب في وجهها بانعدام ذوق وأمل لنجاتها من مشنقة العار التي تلاحقها.

فلولا الأطماع لبات النصابين الذين تلجأ لهم بلا مأوى، حينها صاحت باسم صفية التي دنت تحت قدميها على الفور واتهمتها هي وتلك المشعوذة بالنصب وأن لا شيء قد تغير في حظ ابنتها، ولم تنل سوى خسارة أموالها على بعض النصابين، ثم قامت على الفور بطردها خارج البيت ومنذ حينها لم ترى صفية مرة أخرى ولم يفك العمل السفلي بعد أما القطعة المثلثية فقد وارتها القمامة.

ومنذ تلك الحادثة وتعقدت الأمور أكثر بين فريدة وإيناس التي كانت دائمًا متهمة بإخفاقها وهذا ما تسبب في تلك الحادثة وما قبلها وما بعدها وكل الحوادث والكوارث الكونية واللا كونية يكفي وجودها والكون سيثور وينفجر كالقنبلة أو بركان مستشيط غيظًا من إخفاقها المشين.

وهنا انفجر مصطفى وهو يردد طلبه عليها مرة أخرى والذي يبدو أنها لم تنصت له في المرة الأولى

_ إيناس أنا عايز أقابل أهلك وأخطبك.. إنتي معايا؟

لا يعلم لما هي صامتة تتأمل المياه وكأنها وصلت للقاع هل فعل شيئًا خاطئًا؟!!

ارتبك حين زاد صمتها، ربما تسرع في طلبه، هو يعلم تحفظها في العلاقة ولكن ما المزعج في علنه؟!!

تخبط أكثر وزاد الاضطراب وهي واقعة تحت سحر كلماته التي يبدو أنها التقطتها كاملة تلك المرة، تأملت النيل أكثر فلاحظت وجود بعض الفقاقيع تقترب منها يبدو بأن هناك من يغرق وهناك لمحت إحدى أذرع إخطبوط أزرق.. منذ متى والنيل يحوى إخطبوط؟!

المياه من حولها سوداء يبدو أنه يغرق في أحباره الداكنة ويتخبط بين القاع والسطح بالفعل سيغرق كيف لإخطبوط أن يسكن النيل أو يغرق؟!

تراه من بعيد يرسل فقاقيع أنفاسه الأخيرة وهو يحاول طلب الاستغاثة يسبح ويقترب من مركبهم وترى ملامحه تبدأ في التحول من الإخطبوط لصديقها.... إذًا الخوف حضر... أنه يغرق كما تغرق هي الآن وتتخبط بين حلول لعقبتها البائسة التي لطالما تجاهلتها لم تكن عقبتها ب ثمانية أذرع أنهم ثمانية وثمانون... لا لا.. بل ثمانمائة وثمانون، لا بل ثمانية مليون عقبة وأكثر، للتو ركلها طلبه في طريق ممتلئ بالأشواك كانت تحيد عنه وتتجنبه لأشهر وهي تخشى الولوج به لتجد صفعة لذراع إخطبوطها الخيالي تنزل على وجنتها توقظها على طلب مصطفى الذي يعيده للمرة الثالثة بنبرة أكثر جدية:

_ إيناس.. إيناس إنتي معايا... سمعاني بقولك عايز أقابل أهلك وأخطبك؟

نظرت له على الفور بعد أن غاب صديقها والذي يبدو أنه غرق بالفعل وقالت بارتباك:

_ معلش كنت مركزة مع المنظر الجميل ده.. كنت بتقول إيه؟

_ بقول عايز أتقدملك يا ستي؟

_ بس.... مش... مش لسه بدري شوية؟

_ بدري إزاى إحنا نعرف بعض من ٣ شهور، وبعدين أنا عايز أقربلك أكتر وأهلك يبقوا عارفين خصوصًا إني أهلي لاحظوا وجودك في حياتي.

وكانت دعاء قد أكدت إحساس والدته بالفعل بعد مقابلتهما في الكافيه، فذهبت بعدها لوالدته بعد أن تربصت بها لتلقاها وتسألها عن تلك الفتاة ربما تعرف اسمها لتفاجأ حينها بأن فاطمة لا تعرف عنها شيء ولكن بفضلها باتت

تعرف.

قالت إيناس ببعض التردد:

_ أصلي الحوار ده مش بالسهولة دي... أهلي ليهم طلبات وشروط كتير لازم تبقى عامل حسابك عليها.

_ زي إيه قوليلي وأنا هحاول أعمل كل اللي عايزينه.

_ لازم الأول نعرف هتدخل البيت إزاي، ولازم نمهد لماما علشان توافق عليك، يعني كل حاجة فيك تعجبها وتكون كامل بالنسبالها علشان لو حست بأي نقص فيك هترفضك.

وصفها أشعره ببعض القلق، يبدو أن والدتها سيدة حازمة والقرار الأخير يكمن بيدها، لم يكن يعرف عن عائلتها الكثير فهي بالكاد تذكرهم في بضع كلمات، وكل ما يعلمه مجرد قشور عنهم، ليفاجأ بأن كتابها المفتوح به بعض الصفحات الخفية التي على وشك أن يتصفحها.

_ طب هتعملي إيه؟

_ بص أنا هحاول أكلملك بابا وأمهدله الموضوع وبعدين نشوف هنعمل إيه.

أكملا رحلتهما سويًا ولكن لم تكن بنفس الحماس الذي تلاقا به في بداية اليوم كان بداخل كلًا منهما عاصفة من الحيرة والتخبط، الأمر لم يعد بسهولة المرحلة الأولى، يبدو أن المرحلة السابقة كانت الأكثر سهولة لتبدأ المرحلة الأصعب في الإحماء والاستعداد... ولم يعد هناك مجال للتراجع الآن.

*****

(١٣)

عادت إيناس في ذلك اليوم مثقلة بالحيرة والقلق يتربص بأحلامها السعيدة، لم يفارقها أيضًا صديقها المرتبك، تجهل خطواتها القادمة وفي أي اتجاه ستكون، وماذا عليها أن تفعل؟

فكل ما كانت تخشاه وتكتمه سرًا بات جهرًا الآن وملقى مباشرةً أمام عينيها، أصواتها المكتومة تطرح قضاياها المعقدة.. هل ستتقبله والدتها أم لا؟. .. هل سيتناسب مع العائلة الكريمة وطلباتهم؟. .. هل ينطبق عليه نموذج المثالية؟

تلك الأسئلة كانت تدور في مضمار لا نهاية له، ظلت تراودها في الخفاء حتى أصابها التوعك ومضت فترة ليست بقليلة قضتها في التفكير العميق معذبةٌ، لاحظ مصطفى أيضًا هذا التوعك البادر عليها منذ أن عرض عليها قفزته التالية في آخر لقاء، حتى أن توعكها منعها من الخروج معه لمدة أسبوع يتحدثان خلاله رسائل ومحادثات هاتفية فقط، معظم حديثهما كان يتناول بضع أفكار تصلح لتمهيد الأمر، ولكن ما لم يتوقعه أن الأمر يبدو أنه ليس بالهين بالنسبة لعائلتها، ولأول مرة يرى ذلك الجانب المضطرب في حياة إيناس ورهبتها من عائلتها وخاصة والدتها، ولكنه لم يعطي للأمر أكثر مما يستحق بالتأكيد ستخشى الإخفاق، معظم الفتيات ينتابهن الذعر في مثل تلك المواقف، فتلك مراهنة على القلوب وما أغلى منها مراهنة؟

ظل صديقها الوفي بصحبتها منذ أن انتشلته من الغرق بداخل أصباغه السوداء لينجو بأذرع الإخطبوط التي يضمها بها الآن، كان معكر الصفو مثلها يبدو عليه التوتر، يطرق بأظافره الطويلة على المكتب بطريقة متواصلة وبوتيرة مزعجة وهو يرى رؤيته تبدأ في التحقق، وهذا مالم تحسب له إيناس في الفترة السابقة، بحثت عن متعة مؤقتة وأهملت مصباحه الذي يشع بالضوء الأحمر لينذرها بما ماهو قادم لمواجهته فيجدها تتجاهل هواجسه التي لطالما ذكرها أمامها، الآن هي الملقاة على صدره.. تنصت له بإصغاء وتطلب منه الرأى والمشورة، الآن عرفتي طريقه وأدركتي دوره في حياتك؟!

بدأت تستعيد معه مشاهد مصطفى منذ الوهلة الأولى التي جمعتهما، شكله.. ماذا يرتدي... ماركته المفضلة في الملابس... الساعات.. النظارات... المؤهل.. العمل.. مكانته الاجتماعية.. عائلته.. معارفه.. أحلامه.. طموحاته.. رصيده الحسابي.. سيارته... هل لديه سيارة من الأساس؟!.. ماذا لو أخبرتهم أنه سيشتري واحدة قريبًا؟ حينها سيتساءلون حول ماركتها وموديل العام؟.. الأمر يبدو أنه يوحي بالفشل.. زاد خفقان قلبها كلما تعرقلت أفكارها أكثر ولمحت كلمة فشل تعكر صفو أحلامها، هي تعلم أنها لا تريد سواه، ولكن كيف تجعل عائلتها توافق عليه دون تعقيد....

كل ما كان يرعبها نموذجهم المثالي الذي يخضع له أي فرد يمر على العائلة وقد فشل به الكثيرون، الأمر يزداد صعوبة جعلتها تدفع من ثمن حاجبيها الكثير، حتى بدأت بقعة بيضاء في الظهور في كليهما بعد أن نزعت منهما الكثير، حتى بخاختها لم تستطع الهروب ظلت تطلق رذاذها في فمها مرة تلو الأخرى، فكلما وقعت في مشكلة سحبت منها ما يهدأها، ولكن هل ستظل في تلك الحيرة كثيرًا مر أسبوع منذ أن أخبرها وقد طال الأمر ومعه يطول القلق فلا مجال سوى المواجهة فباب الهروب قد أوصد الآن.

***

انتظرت إيناس والدها وهي تدور في غرفتها حتى سمعت صوت مفاتيحه، خرجت على الفور وتوجهت نحوه وهو يجلس مع والدتها في الصالون يتحدثان، وجهها متوتر وكلماتها مبعثرة نظرت لهما وهي تحاول تفادي نظرات والدتها وقالت:

_ في حاجة كنت عايزة أكلمكم فيها؟

رد والدها على الفور وهو يبدي بعض الاهتمام:

_ حاجة إيه؟.. قولي إحنا سامعينك.

نظرت لوالدتها فوجدتها متجمدة في مكانها لم تبدِ أدنى اهتمام لها فتجاهلت تجمدها على الفور ونطقت:

ـ كان في واحد عايز يتقدملي وحابب يتعرف عليكوا ويجي البيت.
وهنا انتفضت فريدة من مقعدها وتهلل وجهها وهي تقول:
ـ مين ده؟.. اسمه إيه؟ وبيشتغل إيه؟
قاطعها زاهر وهو يسأل:
ـ إنتي تعرفيه يا إيناس؟
ـ اه... يعني هو بيلمح من فترة وأنا مأجلة علشان أفكر.
فسارعت والدتها تقول:
ـ تفكري في إيه بس... مين ده بقى؟
قالت ببعض التردد:
ـ الصيدلي في الصيدلية اللي قصادنا.
وهنا تبدل وجه فريدة على الفور وهي تصرخ:
ـ نعم؟! صيدلية إيه ومين ده أصلًا.
عاجلها زاهر يقول:
ـ ثواني بس يا فريدة نعرف التفاصيل.
ـ تفاصيل إيه يا زاهر بتقولك شاب بيشتغل في الصيدلية.. عايز تعرف إيه تاني.
ـ طب هو يا إيناس عيلته إيه خريج إيه، وضعه الاجتماعي، ومستقبله؟
ـ والله يابابا هو كويس في كل حاجة ممكن تدوله بس فرصة وهتعرفوا.
غادرت والدتها بغضب وتركتهما خلفها وهي تقول:
ـ مش عايزة أسمع حاجة تانية بلا قرف.
بدأت يد إيناس ترتجف كانت تعلم أن المناقشة لن تكون سلمية أبدًا والمحاولة ربما تفشل ولكنها لم تجد سوى المواجهة حينها نظر لها والدها بحيرة لا يعلم ماهو مقدم عليه.... وفي النهاية طلب أن يأخذ بعض الوقت للتفكير ومناقشة الأمر مع والدتها.

***

عادت إيناس لغرفتها وجسدها قد أصابه موجة من السقيع، دارت حول نفسها... لا تعلم عواقب ما فعلته بل إنها فتحت مع والدتها فوهة من النيران كيف ستطفئها، بالتأكيد سترفض وبجدارة لو لم تتوفر به شروطها المرجوة... سترفض... حتمًا سترفض، أمسكت هاتفها وهي تبتلع رذاذ بخاختها ثم أرسلت له رسالة

" أنا كلمت بابا وماما في الموضوع "

وبمجرد أن لمح رسالتها في غضون ثواني وجدت هاتفها يهتز باتصاله فأجابت بصوت مرتجف:

_ أيوه يا إيناس.. قوليلي حصل إيه؟ قالها متعجلًا

_ مش عارفة لسه، بابا بيحاول يقنع ماما بس الحوار شكله صعب، خايفة أنه يفشل من قبل حتى ما يعرفوك!!!

_ لا ماتقوليش كده طب احكيلى قالولك إيه وقولتيلهم إيه...

_ مش عارفة؟؟؟ مش فاكرة حاجة بس الحوار كله ماكملش ربع ساعة وماما سابتني مع بابا وهو قالي هيحاول معاها.

_ ماتقلقيش إن شاء الله خير وأنا كده كده مش هسيبك ده وعد.

_ ربنا يستر.

***

كان والدها قد توسم في وجهها بعض التوسل والرجاء، فهو الوحيد القادر على فك شفرة وجه ابنته بسهولة، ويستشعر ذلك الرابط الذي يربطهما سويًا في التشابه ليس في الملامح فقط إنما أيضًا في صدق حبهما وطيبة قلبهما لدرجة تجعلهما فريسة سهلة للاستغلال ودفع ثمن غالٍ.

ظل مع والدتها ساعات في الغرفة بين مناورات ومناوشات عديدة وصل بعضها لمسامع إيناس وهي تجلس على مكتبها وتخطط في ورقة بيضاء بعشوائية وكأنها تخرج زحام أفكارها عليها، شعرت بغضب والدتها في صوتها العالي ورفضها التام، شعرت أنها وسط سباق الموت إما أن تصل خط النهاية سالمة أو أن تواجه

الخسارة والموت معًا، ظلت على حالها هكذا منتظرة ردًا بالموافقة أو سكين للذبح، جاءت الساعة الثالثة الثالثة صباحًا وهي في مكانها لم تتزحزح حتى وجدت والدها يطرق على باب غرفتها بعد أن لمح شعاع ضوء خارج منها فأدرك إنها لاتزال مستيقظة، فتحت إيناس الباب بسرعة فوجدته أمامها يبادر قائلًا:

_ أنا حاولت أقنع فريدة إنها توافق نتعرف عليه بصعوبة، واتفقنا إنك تديلوا ميعاد على يوم الخميس اللي جاي.

فتسمع والدتها تصيح من الغرفة قائلة:

_ فهميه لو مش جاهز للجواز بلاش يجي أفضل بدل ما يهزأ نفسه.

فنظر لها والدها وهو يرفع كتفيه بقلة حيلة ثم غادر لغرفته.

رغم الراحة التي تغمرها الآن إلا أن أجراس التنبيه لم تكف عن الرنين بأذنيها، يجب أن تكون حذرة في تلك الخطوة جيدًا، لابد من دراسة وافية تجعله يتخطى ذلك الاختبار بنجاح، لا تهاون في الخطوة التالية فالمرة القادمة هي الأصعب لأن أوراقه جميعها ستنكشف أمامهم، أرسلت على الفور رسالة له تحوى اتفاق عائلتها معها فتهلل وجهه في سعادة وبدأ يقفز هنا وهناك ثم أرسل لها بأنه سيحادث والديه غدًا ليبدأ في التجهيز للقاء.

***

في اليوم التالي جلس مصطفى بصحبة والديه وبدأ في عرض الأمر عليهما.. ويبدو أنهما مرحبان به، وكيف لا؟! وكل ما يشغلهما هو سعادته وإتمام فرحته كأخيه أحمد، ولكن القلق ساورهما عندما سرد عليهم تفاصيل العروس..... في النهاية ما دام خيارهما سويًا فلن يرفضا أبدًا سعادة ابنهما مهما كلفهما الأمر، ثم أخبرهما بالموعد فوافقا عليه دون إبداء أى اعتراض وبدأوا التجهيز لتلك المقابلة بجدية.

قررت إيناس مقابلة مصطفى ليتناقشا سويًا في تلك التفاصيل التي ستسلط عائلتها عليها الضوء، فلابد أن توضح كل الأمور الآن وصغيرها قبل كبيرها، أخبرته بأن تفاصيله ستهم والدتها ولابد أن نهتم بأدقها قبل المقابلة حتى نحصل على بعض النقاط الإضافية لصالحنا.

كان الأمر أشبه بخطة محكمة أكثرمن إنها مقابلة لطلب يد عروس... لم يمانع مصطفى مخططات إيناس بل سايرها في جميع أفكارها بينما كانت إيناس ولأول مرة في حياتها تخوض أمر بتلك الأهمية، لم تتمنى نجاح أمر في حياتها كنجاح تلك المقابلة ونيل الموافقة من عائلتها ووالدتها بالأخص.

درست إيناس جميع النماذج المشابهة التي مرت على نفس تلك الظروف تذكرت نقد عائلتها وما كان يعجبهم وما كان ينفرهم ولكن في تلك المقابلة ما يهمها والدتها، لذلك يجب أن يظهر مصطفى بمظهر يعجبها، يتكلم بطريقة تفضلها، يعرض نفسه بطريقة منمقة وذكية تقنعها... كل تلك التفاصيل كانت تدور بداخلها من أصغرها لأكبرها، فتبدأ بمظهره وهذا ما لم يتوقعه مصطفى أبدًا، لطالما كان يقابلها بأفضل مظهر لديه ودومًا كان يعجبها ولكن يبدو بأن ذوق والدتها مختلف، اصطحبته إيناس إلى إحدى المحلات الكبرى لتختار له ما يجب أن يرتديه في ذلك اليوم، لم يعترض مصطفى ووافق على الفور رغم اندهاشته من أسعار الماركات التي لم يكن يتخيل يومًا ما أن يدفع أثمانها في غير أيام الخصومات وأخرى لم يحلم بتخطي أبوابها حتى، دومًا كان يرتدي الملابس العادية محلية الصنع ونادرًا ما حصل على إحدى الماركات في عروض آخر الموسم،

إنما تلك المرة لم يكن آخره بل سعر الملابس يخبره بسخرية أن الموسم للتو بدأ أيها الأبله.

يبدو أن جزءًا كبيرًا من أموالك سيتبدد الآن، دفع مقابل ما اختارته إيناس بترحاب وكأنه وليد تلك المحلات ليعقبها الحذاء الذي تفضله فريدة، ثم العطر حتى الساعة وتسريحة الشعر.

صنعت منه إيناس نموذج مثالي لذوق فريدة فقط حتى ولو كان لا يناسب ذوقها ولا ذوقه ولكن كل تلك التفاصيل هي الأهم لصاحبة الكلمة الأخيرة فريدة فلا بد من إبهارها بالطلة والانطباع الأول.

حددت له إيناس كل شيء جلسته وكلامه وأيضًا نوع الشيكولاتة والورد الذي سيصطحبه في تلك الزيارة، لم تترك ثغرة لوالدتها لإخفاق الأمر لأنه بالنسبة لها حياة أو موت، حتى أنها سألت على زي والديه فحاول مصطفى طمأنتها بأنه سيتولى الأمر وسيراعى التفاصيل في كل شيء كما حفظته.

و بالفعل لم يكذب خبرًا وما إن عاد للمنزل حتى بدأ في التدخل في تفاصيل والديه من ملبس وهيئة وطريقة للحوار، وهذا الشيء أزعج والديه كثيرًا ولم يتقبلاه سوى تقديرًا لتوتر وأهمية الموقف لديه، فوالده مهندس وكذلك والدته ولهما بالطبع مكانة اجتماعية جيدة، كما إنهما عملا في جدة لمدة طويلة تخطت العشرون عام، ومكانتهم ليست بقليلة.

ورغم هذا كان مصطفى يملي عليهم كافة التفاصيل والمعايير التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار من أجل فريدة وذلك أضرم نيران الغضب والغيرة في نفس فاطمة ولكنها لم تظهر عدم رضاها عن الأمر وكذلك والده الذي ولأول مرة يرتدي بذوق ابنه الذي كان بالأمس يستعير منه الملابس ويتمنى أن يكون لديه نصف ذوقه الرفيع، وفي النهاية التمس الجميع أهمية الموقف ووافقوا بكل الشروط ليجتازوا تلك المرحلة سويًا دون أي سقطات، فالأهم الآن سعادة مصطفى وإيناس.

***

صباح يوم الخميس المنتظر

جلست فريدة تحتسي قهوتها بداخل الشرفة بينما الخادمات من حولها يذهبن في كل الاتجاهات تجهيزًا لهذا اليوم الحافل، كانت تنظر لهم ببعض اللامبالاة الممزوجة بالاستياء وعدم الرضا، فهل زيارة هذا العريس البائس تستحق كل هذا الاهتمام والعناء؟

لولا أن مظهرها يشكل المقام الأول لها أمام الجميع لما فكرت في تحريك ساكنًا أبدًا، لمحت من داخل الشرفة صالونها الذهبي الذي خطفها لذكريات بعيدة تخطت الثلاثون عامًا.... كانت تعمل حينها مضيفة جوية تلك كانت رغبة والدها الذي يعمل طيار بعد أن فشلت ابنته الكبرى في الالتحاق بكلية الطب كما تمنت والدتها لها، وهنا عرض عليها والدها دراسة الضيافة الجوية وبخبراته ومعارفه سيسهل حصولها على وظيفة جيدة، فوافقت فريدة مسلوبة الإرادة تحت ضغط نظرات والدتها اللوامة.

عملت في وظيفة الضيافة لمدة عشر سنوات، تعرفت هناك على طيار مساعد مبتدىء ممن يتدربوا على يد والدها..... كانا يتبادلا الحديث من حين لآخر وكلما لمحها في النادي أو العمل تبادلا الابتسامات، شعرت نحوه باهتمام بدأ ينزلق نحو الإعجاب أحبت طلته ومكانته واهتمامه بها الذي سينقذها من والدتها الثائرة.

وذات يوم قرر ذلك الشاب أن يتحدث مع والدها ليحدد موعد لزيارة عائلية في البيت، حين علمت فريدة خبر حضوره للبيت كادت تطير من الفرحة، من المؤكد أنه قادم لطلب يدها من والدها، تهيأت في ذلك اليوم لتصبح في أبهى صورها، حضر طارق وعائلته واجتمعوا جميعًا في صالون منزل والدها، ليبدأ والد طارق بالحديث، كان الحديث في بدايته منمق جميل، وكانت فريدة تجلس ووجنتيها متوردتان من الخجل بينما عزة بجوارها تجلس في ترقب لفرحة أختها ويبدو عليها التحمس الشديد، وهنا أطلق طارق قذيفته في وجه الحاضرين عندما أعلن إنه يطلب الزواج من الآنسة عزة التي رأها عدة مرات في النادي

بصحبة فريدة وأعجب بها.

دوي بداخلها صوت انفجار قذيفته الغير متوقعة، غارة مفاجأة سقطت على رأسها، تبددت آمالها فجأة، هل كان بعد كل تلك الإشارات والابتسامات يتودد لأختها وليس لها؟!

أختها عزة الصغرى التي تبلغ من العمر الثالثة والعشرون عامًا بينما هي في الثامنة والعشرون، لمحت نظرة والدتها في تلك الجلسة لتجدها بنفس نظرتها لإيناس الآن... تراها تلك الفتاة الملعونة البائسة صاحبة الوجه الجميل والحظ السيء... كان هذا هو طوق نجاتها من العنوسة التي تلاحقها في تلك الأثناء فجميع صديقاتها أصبحن أمهات الآن أما هي فلا أم ولا زوجة، لماذا يتجولون حولها ويتوددون لها وحين الزواج يهرعون لغيرها؟! لماذا أختها وليست هي؟!... أختها التي لم تكن تملك نصف جمالها حتى، فبدون روحها الجميلة لنفر الجميع من حولها، ربما هذا الذي ينقصها، لم تكن تدرك أن بالفعل روحها هي من تطرد الجموع من حولها كانت دائمًا تنتقد الجميع بقسوة وترى نفسها أفضلهم وهي تعاملهم بتعالي وتباهي، بل وتحب أن تتسيد كل جمع وتظهر نفسها على حساب الآخرين لذلك هرب الجميع من غطرستها ونرجسيتها التي لا تنتهي.

في تلك اللحظة أصبحت بالفعل في نظر والدتها تلك العانس التي لن يقبل بها أحد، كرهت حينها طارق وأختها التي لا تناسبه على الإطلاق، هي من كانت تناسبه لكن عزة دائمًا تخطف منها أفضل الفرص، وها هو الزمن يدور ويعيد نفس المشهد لتخطف رانيا آسر بينما ابنتها مازالت عانس ولكن ما لم يكن في حسبانها أنه يعيد ذكرى زواجها أيضًا... فتنال ابنتها نفس حظ والدتها بكل تفاصيله.

فبعد مرور حادثة زواج عزة وطارق، وبعد أن بقي لفريدة بضعة أشهر على بدء خوض الثلاثين الذي بدا لها كأنه نهاية العمر، فوشم العنوسة سينقش على كتفها في هذا السن كما أخبرتها والدتها التي تخشى العار ولن تمحيه الأيام.

كانت تعيش أسوأ أيام حياتها فبعد سن الثلاثين ستقل فرصها في استقطاب

أي عريس بل لن ينظر لها أحد بعد انقضاء الثلاثون خريفًا في حياتها، وتلك هي الكارثة.

وفي إحدى مرات زيارتها لصديقاتها في النادي لمحت شاب يلتفت إليها من حين لآخر لم يكن من أعضاء النادي وكانت هيئته تدل على أنه شاب من طبقة أقل من المتوسطة بملابس بسيطة، كان بصحبة صديقه الدكتورصبحي أخو نوال إحدى صديقاتها، ولكنها لازالت تجهل الشاب الذي يصطحبه.

راقبت نظراته بتعالي دون اهتمام في المرة الأولى، وفي المرة الثانية وجدت صديقتها نوال تقترب منها وتهمس لها بأن ذلك الشاب معجب بها، أخبرتها أيضًا أنه يخشى الاقتراب حتى لا تضعه في موقف حرج لأنه ضيف في النادي بصحبة أخيها وليس من أعضائه.

فحصته فريدة

بزهو الطاووس.... يبدو أنه أقل من مستواها ولكن هو طبيب أيضًا كما ذكرت نوال في حديثها عنه، إذًا مكانته الاجتماعية ليست سيئة، ألم تكن والدتها ترغب في أن تصبح فريدة طبيبة؟!

ماذا لو تقربت منه وأعطته فرصة؟.. مشكلة المال لها حلول إنما العنوسة عار يلاحقها أينما دبت بخطواتها، ظلت تفكر وتقارن امتيازات صفقتها التي تعقدها في رأسها إلى أن عزمت أمرها وقررت أن تذهب هي له.

وبالفعل ذهبت نحوه فاضطرب في مجلسه وهو ينظر لها فوجدها تشير له بسبابتها أن يتبعها، فهرع خلفها دون تفكير ووقف أمامها في خشوع في زاوية اختارتها هي بعيدًا عن أعين صديقاتها ثم تحدثت:

_ نوال قالتلي إنك معجب بيا ؟

هز رأسه إيجابًا ببعض الإذعان والدهشة فأكملت هى دون مبالاة بدهشته:

_ أنت اسمك إيه؟

_ زاهر.

_ نوال قالتلي إنك دكتور..... تخصصك إيه؟

_ أنا دكتور جراحة قلب.

_ طب أنا موافقة إني أتعرف عليك أكتر ولو عجبتني هنتجوز ولو معجبتنيش يبقى الحوار ده اعتبره محصلش.

تهلل وجهه على الفور بعرضها، لتمضي الأيام ويجد نفسه يوافق على كل شروطها.... فالأمر بالنسبة لها عريس جيد سينقذها من الوحدة ولوم والدتها، أما بالنسبة له فسوف يحصل على مكانة اجتماعية لم يكن يتخيلها في حياته، أخبرته بأنها سترفع من شأنه وستزيد فرصته في العمل لطالما كان هو متفوق في مجاله، ولكن بشرط واحد أن يبتعد عن عائلته وينفصل عنها فهو الآن في مكانة لا تناسبهم على الإطلاق، يمكنه فقط زيارتهم من حين لآخر ولكن لا يمكن حضورهم في بيته أو في حفل الزفاف، قبل زاهر بكل شروطها ليس لأنه يكره فقر عائلته المخزي وإنما لأنه أحبها.

وبالفعل ابتعد عنهم ودار في فلكها، وهي لم تخذله بل قدمت له يد العون في كل شيء من معارف وأموال وحتى استثمار، حتى وصلت أسهمه في إحدى مستشفيات القلب الملقبه ب"دار الفؤاد" للنصف.

ظلت ترفعه بقدر ما استطاعت لتهزم به كبريائها الذي انكسر أمام نفسها وأمام عائلتها حين طلب طارق يد عزة لا يدها، لم تنسى تلك الذكرى المؤلمة وظلت تراودها كلما لمحت أمامها طارق في أي وقت، وبداخلها الشكوك بأن أختها من سلبتها تلك الفرصة عن عمد، ورغم كل ما وصلت له هي مع زوجها لم يشف غليلها منهم قط بل كانت دومًا تريد المزيد، منها تقتل أختها غيظًا ومنها تنتقم من طارق وهو يتحسر على اختياره كلما رأها متألقة أمامه وسعيدة، فلابد أن يتجرع الندم ويعتصر قلبه حزنًا على فقدانها.

ولم تهدأ استشاطتها أبدًا حتى بعد ما أنجبت إيناس قبل أن تنجب عزة التي ظلت تسع أعوام تحاول الإنجاب دون نتيجة...... ورغم أن فريدة كانت تحتسب ذلك الأمر إنجاز حققته للعائلة ولها ليوضع في رصيد تفوقها على أختها وزوجها طارق لم يكفها أبدًا!!!!.

وها هو القدر يعاد بنفس الأحداث كفيلم حجز كل فرد فيه دوره، فتجد رانيا تحظى بحظ والدتها وتجد ابنتها البائسة تحظى بحظها هي الذي لطالما لعنته، يبدو أن اليوم ستكون على موعد لصفقة أخرى ربما ستعقدها معه إذا ما توسمت به بعض الآمال، لتتفوق عليها عزة وابنتها كعادتها وقد استحوذت على كل الفرص الذهبية، وتنال فريدة ما تبقى من فتات الفرص هي وإيناس البائسة التي لم تغتنم فرصة واحدة أو تقتبس شيئًا من خبرات والدتها السابقة ربما كانت ستساعدها للتفوق في هذا السباق بل جاءت لتثقل كاهلها وتضني قوتها أكثر وأكثر.

فبدل أن تحارب في جبهة والدتها تنقلب هي عليها لتصبح في صفوف العدو وتأتيها الطعنة في مقتل، ليتها كانت كابنة خالتها رانيا التي دومًا يتباهون بها وسط العائلات... ليتها، ولكن فالتنال عزة الفخر ولتنال هي الإذلال الذي لا يليق بها.

*****

(١٤)

في المساء اجتمعت العائلتان سويًا في صالون فيلا زاهر، كان قلب إيناس يرتطم في صدرها بشدة كما أن تقلصات معدتها والشعور بالغثيان لم يفارقها اليوم... يبدو كأنها تركض مع صديقها في خطين متوازيين لا يتقابلان أبدًا ولكن نظراتهما تتقابل، بينما مصطفى يتصبب عرقًا وهو يحاول إخفائه بابتسامة لا تفارقه هكذا أوصته إيناس بالبشاشة في وجه عائلتها، أما فريدة فكانت تتفحصهم بعين ثاقبة ووجه يبدو عليه عدم الرضا رغم علامات الرضا على وجه زوجها منذ الوهلة الأولى لرؤية العريس ووالديه.

فريدة لا يعجبها شيء إطلاقاُ، كانت تتبادل النظرات معهم بتعالي أصاب فاطمة بالغيظ فلولا فرحة ابنها المطلة على وجهه الآن وأهمية الأمر بالنسبة له، كما أنها لا ترغب في أن تكون سببًا في إطفاء فرحته لنتفت شعرها المصبوغ الآن واحدة واحدة... فاضطرت آسفة أن تبتلع تعجرف تلك الكهة في صمت وأن تتظلل بظل شجرة ليمون من أجل سعادة ابنها، وفي النهاية يبدو أن العروس فتاة جيدة وتستحق أن تنقذها من براثن تلك الأفعى.

على الطرف الآخر كان يجلس محمد والد مصطفى وعلى الرغم من تهلل وجه هو الآخر وترحابه الشديد بفكرة ارتباط ابنه إلا أن بداخله عدم رضا من تلك الزيجة ولكنه في النهاية فضل أن يكتم انطباعه ولا يعقب على شيء، فاليوم دوره هو دعم ابنه لا أكثر مهما كان اختياره، وهو ما اعتاد على فعله في تربية ولديه أن يدعمهما مهما كان الأمر ما داما سيتحملان نتيجة أفعالهما فهو مؤمن أن هناك أمور يجب تعلمها عن قرب والخوض فيها فلن تدرك نكهة الأشياء ما دمت لم تذقها من قبل.

تناولوا أطراف الحديث بينما فريدة تلقي كلمة من حين لآخر بغطرسة لزجة.

فسأل زاهر مصطفى:

_ أنت خريج صيدلة يا مصطفى؟

_ لا يا عمي أنا خريج علوم قسم الكيمياء الحيوية وعملت بعدها دبلومة ودلوقتي بحضر ماجستير في أمراض الدم والمناعة وناوي إن شاء الله إني أفتح معمل تحاليل باسمى أنا وصديق ليا بردو.

ردت فريدة باقتضاب:

_ اه.. كويس.

كان أبويه يشعران بفخر وهما ينظران له، بينما زاهر كان يشعر بالشبه بينهما، ذكره بأعوام مضت وأنفقت في الركض خلف أحلامه، كيف كان فتى عصامي بني ذاته بساعده وهو يعمل هنا وهناك ليكمل دراسته، فلم تكن عائلته الفقيرة ودخلهم البسيط هي من صنعت منه طبيبًا بل جهوده هو، لينتهي به الآن جراح قلب يأتيه المرضى من القارات المجاورة، يتناقلون اسمه بين الأطباء العظماء الذين يعدوا على أصابع اليد الواحدة، لا ينكر مساعدات زوجته التي ساهمت في وصوله لمراتب لم يحلم بها ولكن لولا مهارته وتفوقه في مجاله لما وصل لكل هذا.

وثب محمد للسبب الرئيسي لحضورهم اليوم حتي يتجنب الإطالة في وقت الزيارة:

_ الحقيقة إحنا جايين إنهارده نطلب إيد الآنسة إيناس لإبني مصطفى؟

أحمر وجه العروسان وظهر بعض الترحاب على وجه زاهر بفرحة ابنته التي تطل من عينيها الآن، بينما فريدة بدأت في استعراض قوانينها وبدأت في سرد شروط قبوله والتي كانت أكثر ما يؤرق إيناس، فتوجهت فريدة بالحديث مباشرةً نحو ما يؤهله لتلك الزيجة، وتلك المميزات التي تمكنها من استعراضه أمام عائلتها بزهو:

_ وأنت بقى قادر على الجواز؟

نظر لها مصطفى ببعض الدهشة والتعجب من سؤالها، فبالرغم من حديث إيناس عنها إلا أنه تفاجأ بطريقتها الفظة، بينما فاطمة تحاول جاهدة أن تتمالك أعصابها دون أن تفقدها وتنقض على عنقها وهي تغرز به أنيابها كمصاصين

الدماء، أما إيناس فتملكها القلق وهي ترى الخوف يقف خلف مقعد والدتها مضطرب.

فقال مصطفى ببعض التوتر:

_ أنا... أكيد يعني... وهنا قاطعته والدته وهي تنظر إلى فريدة في بؤبؤ عينها:

_ أكيد قادر على الجواز هو إحنا جايين نهزر ولا إيه... إبني ما شاء الله عنده شقة كبيرة وهيبدأ في تجهيزها بس مستني ذوق العروسة علشان تشاركه ده لو في نصيب يعني وكمان بيشتغل وشغله كويس وبيدرس وعندو طموح مش هتلاقيه في شباب كتير في سنه.

حاول زاهر تهدئة الموقف بعض أن لمس بعض الحدة في نبرة فاطمة وهو يقول:

_ الصراحة أنت باين عليك شاب ممتاز أنا مقدرش أنكر ده وطموح ودي حاجة أنا شخصيًا عجباني جدًا، بس إعذرنا يا باشمهندس محمد أنت عارف تفاصيل الجواز بقى ودي بنتي الوحيدة لازم أطمن عليها.

هز محمد رأسه إيجابًا وهو يؤكد:

_ طبعًا طبعًا... أنا فاهم حضرتك كويس وعمومًا إحنا تحت أمركم في أي شروط.

_ شقتك فين؟ وكام متر؟ سألت فريدة

_في الشروق ومساحتها ١٢٠ متر.

نظرت له من أعلى لأسفل بانزعاج، يبدو أنه لا يشبه آسر، لما حظهم في الفقراء دومًا كيف ستعلنه أمام الناس، كيف ستبرر موافقتها عليه.

_ معاك عربية؟ قالتها باقتضاب

_ لا للأسف أنا بوفر كل فلوسي علشان الدراسة ومشروعي... بابا عرض عليا زمان بس فضلت أحط فلوسها في البنك وأركب مواصلات خصوصًا أنها أسهل وأسرع لأنى بتحرك كتير.. لمح عدم راحتها من الكلام بوجهها المشمئز المتقلص

فعاجلها بسرعة

_ بس عمومًا أنا ناوي أشترى واحدة في أسرع وقت الفترة الجاية.

لم تعجب الجلسة فاطمة ومحمد وهما يشاهدان ابنهما في مثل هذا الموقف يقيم بقدر ماله ليس إلا.. كانت والدته تراه دومًا كأي أم ترى ابنها ترغب به ست البنات وأفضلهن فهو لا ينقصه شيء سوى العائلة والعروس التي تعي قيمته.

_ طب والشبكة؟

هنا نطقت إيناس بتوتر:

_ أي حاجة ياماما مش مهم دى كلها شكليات.

_ أي حاجة إزاي يعني إنتي مش هتقلي عن رانيا في حاجة وبعدين الشكليات دي أهم حاجة، دي اللي هتظهر للعيلة إنتي عيزاهم يتكلموا علينا؟!!!

_ أكيد طبعًا هجبلها اللي تطلبيه حضرتك، أنا مش هبخل على إيناس بأي حاجة.

قالها مصطفى وهو يعلم جيدًا ذلك الحمل الذي يلقى على كاهله ولكن لم يكن ليخزي إيناس أبدًا وقد وعدها من قبل أنه سيفعل من أجلها أي شيء فلا بأس إذا اقترض جزءًا كبيرًا من مخزون حلمه من أجل إتمام حلم آخر يفوقه أهمية، بينما والديه ينظران له بعدم رضا فيبدو أن الأمر هنا لا يقدر بمقاديرهم بل بالأسعار، في النهاية قبل الجميع بتلك الزيجة، الكبار مرغمون والصغار مهللون بفرحة، قرؤوا الفاتحة وحددوا موعد الخطبة واتفق الجميع في النهاية، وها قد تخطت إيناس اختبار والدتها بأنفاس متكابدة... نعم تعلم أنه ليس ما تتمناه ولكن هذا ما تمنته إيناس وهذا ما يكفيها، أما فريدة فهي تعلم أنها على أعتاب صفقة جديدة من أجل ابنتها أيضًا، ستقبل به فقط لينقذها من ذلك الكابوس الذي يؤرق أحلامها بالانتصار، ولن تصبح والدة العانس بعد الآن.

***

أقبل يوم الخطبة وقد تفاجأ قبلها الجميع بذلك الخبر بما فيهم المقربون من أهل إيناس أو أصدقاء مصطفى الذين استقبلوا الخبر في الهاتف على حين غرة وذاع سيط خطبة إيناس أخيرًا، لا أحد يدري أين ولا متى ولا كيف؟ وهذا ما رغبت به إيناس في تلك العلاقة يكفيها والدتها فلا حاجة لأيادي ورؤوس أخرى تنقد وتنقد بمناقير نسور حطت على جيفة ونهشتها.

رتبت الليلة كما تمنت فريدة قبل إيناس كل شيء منسق كما تحب أن تظهر في أعين المدعويين، كل ما يدفعها هو كيف ستبهرهم وتتخطى سمعة أختها وابنتها بجدارة لكي تنزع عنهن وسام التألق وتضعه على صدرها هي.

سيحضر الجميع كما خططت وسيتوج انتصارها هي وابنتها على مرض العنوسة اللعين، اهتمت بكل شيء وتركت لإيناس اختيار العريس الذي يناسبها، كما منت عليها أيضا بحرية اختيار الفستان فلن تعد تبالي بتفاصيلها الآن مادام هناك من يقبلها بذوقها البائس فالعريس أيضًا بائس في نظرها ولا يستحق ذوقها الرفيع في الأزياء.

ستأتي اليوم خالتها ورانيا بزوجها آسر وكذلك والدته تلك السيدة المتعجرفة التي سخرت منها من قبل، لم تترك أحدًا في عائلتها إلا وأرسلت له الدعوة لخطبة إيناس التي ستقام في فيلا أبيها.

تهافت الجميع وهم يغلفون تساؤلاتهم حول العريس وأهله بالتهنئة والمباركة وما إن تنتهي لحظات التهنئة حتى تهبط التساؤلات من ألسنتهم كالشهب، الجميع يريد معرفة التفاصيل والمميزات، كيف حدث، ومن هو، وماذا يملك، ومن أي عائلة؟

كانت فريدة ترضي فضولهم بدهاء، تلقي عليهم ما يريدون سماعه فقط وبتحفظ، تظهر ما تظهر وتطمر ما تطمر، زورت حقائق وأمحت البعض وزخرفت على لوحتها ما تأمل لتخرج لهم في النهاية لوحة زيتية في غاية الجمال كما تمنتها يومًا أن تكون، بعد أن أمحت منها كل الأخطاء فلم تعد تحوى نقيصة واحدة تشوب سمعتها، وقد جمعت نواقصهم جميعًا والتي كانت تأكل روحها

أكلًا ودفنتهم في تابوت تحت الأرض خوفًا من أن يتعروا أمام الجميع لتصنع من الليلة ليلة مثالية، وحتى إن وجد أي نقص فقد حضرتك مبرراتها بالفعل، وبالتأكيد سيكون على رأس مبرراتها أنه اختيار العروس وأصرت عليه وبالطبع لن تكون الأم القاسية التي ستدمر حب ابنتها وحياتها وتفرق بين القلوب وبالتالي كل شيء يهون في سبيل سعادة ابنتها، كانت قد أعدت لكل استفسار رد ولكل نقد تفسير لم تترك لأحد ثغرة واحدة يخترقها ليهدم لحظات انتصارها، فهي لم تقبل بذلك الشاب سوى من أجل تلك اللحظة لا غير ولولاها لم تركته يمر من أمام الفيلا فلا هو ولا عائلته تناسبهما ولكن حظ ابنتها المنكود هو من ضيق عليها الخيارات لتجد في النهاية القشة التي ستنقذها من الغرق، نعم ما هو سوى قشة في نظرها.... بقايا شاب لا أكثر... لا تؤمن بتلك المسميات في كونه شاب طموح فالقسمة لديها لا تكون سوى بين شاب غني من عائلة كبيرة أو شاب معدم فقير صعلوك، وهي تعلم أن حظها لا يأتي سوى مع النوع الآخر، بالتأكيد سيتغير للأفضل كما استطاعت أن تصنع من زاهر ذلك الطبيب الناجح.

ارتدت إيناس فستان خطبتها ولأول مرة كان بكامل ذوقها هي دون أن يرغمها أحد على شيء، كان الفستان من أسفل بالأسود اللامع ويتدرج بألوان أكثر ودرجات أفتح إلى أن يصل للأبيض عند الصدر وكأنه يعبر عن مراحل حياتها قبل ظهور مصطفى وبعد ظهوره، وارتدت حزام من اللون الوردي اللامع حول خصرها، الفستان بأكمله يلمع وخاصة مع الإضاءة وذلك سيعجب فريدة حتمًا، وعلى الرغم من ثقتها في ذوقها الذي استمدته من ثقة مصطفى بها إلا أنها واجهت تحدي كبير في اختيار ذلك الفستان، ولم تنكر أنها استعانت بذوق والدتها الذي تعرفه جيدًا وهذا اضطرها للاهتمام بأدق التفاصيل لتصنع من تلك الليلة ليلة مثالية أيضًا في نظر الجميع... ألا يحق لها أن تظهر كما يظهروا؟!

فكما يهتموا جميعًا يجب أن تهتم هي أيضًا، أما مصطفى فقد ارتدى بدلة باللون الرمادي الذي يتوسط فستان إيناس وربطة عنق باللون الوردي وفي جيبه زهور الياسمين، كان هو الآخر يهتم بكل تفصيلة في تلك الليلة كما أوصته إيناس

جيدًا فاليوم يوم العرض على كامل العائلة فلابد أن يكون هو الآخر مكتمل.

وبالطبع لم يستهن مصطفى بتوصياتها بل أنه راقب كل تفصيلة في والديه أيضًا فالليلة هي ليلة إيناس كما تتمنى.

الجميع سعداء فرحون يتراقصون ويحتفلون بالعروسين بينما فاطمة تصور كل اللحظات بهاتفها لترسلها لأخيه أحمد حتى لا يفوته ذلك الحدث الجلل الذي ينقصه، جلسا العروسان على مقعد أبيض كبير وقدم لها مصطفى خاتم الخطبة الذي أمرت به فريدة والذي أتلف ثلثي مخزونه من الأموال ووضعه بين أصابعها في سعادة بين ذهول بعض الفتيات، لم يكن بقيمة الذي ترتديه رانيا ولكن هذا خيار ابنتها هي والتي عشقت البساطة!! ولأنها سيدة راقية لا يهمها تلك الأمور لم ترد أن تثقل كاهله بالأغلى... أين سيجد حماة حنون كتلك السيدة؟ هكذا بررت فريدة عدم تساوي خاتم زفاف رانيا بخاتم زفاف ابنتها.

وضعت إيناس هي الأخرى دبلته في إصبعه على أنغام أغنية يا دبلة الخطوبة، وزاد التهليل من حولهم، الجميع سعداء ولكن لا سعادة هنا تضاهي سعادة إيناس ومصطفى، عزفت أغنيتها المفضلة فنهضا وتوسطوا الحضور، ضمها مصطفى إلى صدره وبدأ يتمايلان بنعومة وتآلف، ولأول مرة تكون إيناس برفقة أحدهم، تستمع لأغنيتها المفضلة وترقص على أنغامها أيضًا بين أحضانه، تعيش لحظة لم تكن لتتخيل أنها ستكون يومًا في عالمها، تعلم أن الفتيات سيتهمونها بتقليد رانيا واختيار نفس أغنيتها ولكن لم تبالي فتلك في الأساس أغنيتها هي المفضلة، وهي من رشحتها لرانيا، كانت تريد أن تجرب كل ما يجربه المرتبطون من لحظات سعيدة سويًا، لا يجب أن تفوت واحدة فهي الآن وأخيرًا مثلهم وتشبههم ولم تعد منبوذة باختلافها عنهم، بحثت عن صديقها بين الحضور فلم تجده يبدو أنه لم يتقبل فكرة انهزامه أمام غريمه بسهولة.

أما مصطفى كان في ذروة أحلامه السعيدة وكأنه عبر المحيطات والأنهار على بساطه السحري... الكون بأكمله بين يديه الآن ولا شىء يضاهي سعادته بتلك اللحظة، فها هو قد وصل إليها أخيرًا لتصبح اليوم بين يديه، لم يكن الأمر

سهلاً بل كلفه الكثير ولكن وإن كلفه روحه لن يتوانى في تقديمها إليها، ورغم سعادته كان يقرأ على وجه صديقه مينا ووالده شعور بعدم الرضا لا يعلم أسبابه أشعره ببعض الانزعاج وكأن الزيجة بأكملها لا تعجبهما ولكن من يبالي فيكفيه أنها تعجبه هو... فبين يديها الآن لا يشعر سوى بدفء الحب.

***

كانت ليلة من أجمل لياليها ربما أجمل من تخيلها لها، ليلة لا يضاهيها أخرى، انتهت ليلة الخطبة ولكن فرحتهما للتو بدأت، تبدل كل شيء منذ تلك الليلة فلم تعد علاقتهما خفية بعد الآن بل أعلنت على الملأ، أعلنت صداقتهما بإرسال طلبه وقبولها لذلك الطلب ومن ثم تغيرت الحالة لكليهما من العزوبية للخطبة، ليصبح كل شيء رسمي معلن للجميع.

تهافتت عليهما المباركات من جميع الأصدقاء، فتجد إيناس نفسها ولأول مرة تشعر بحالة من الرضا وزهو الانتصار والفتيات ينبهرن بليلتها كما فعلوا من قبل برانيا، كم أسعدها الحصول على بعض الاهتمام وهم يسلطون الضوء عليها، فلم تعد خفية لا ترى منذ الآن، بل إنها تملأ العين بوجودها ووجود ذلك الخاتم في خنصرها، فيمكن للأعمى أن يرى بريقه الآن وهو يتلألأ.

أصبحت إيناس أكثر ثقة بوجوده، تظهر أمام الجميع دون أي خجل، لم تعد تلك الفتاة التي تنزوي بعيدًا عن أي جمع هاربة من نظرات وضحكات الجميع التي تسخر منها بل كلما علمت بتجمع عائلي لم تتركه إلا وقد اصطحبت به مصطفى وذهبت لتقدمه للجميع بتفاخر.

زاد لقائهما سويًا يومًا بعد الآخر فما إن ينتهي عمله بالصيدلية حتى يجدها بالسيارة في انتظاره للخروج سويًا، لم تترك مكانًا يجمع الأحبة إلا وزارته معه ولم تترك ذكرى إلا وصنعتها بصحبته، صعدت الجبال وتناولت المثلجات شقت القمر وأمسكت النجوم، عبرت البحار والقارات معه كانت تريد تجربة كل شيء قام به المحبين لتتذوق ما ذاقه الأخرون وحرمت منه يومًا ما، خرجت بصحبة فتيات العائلة في خروجاتهن التي كانت تهرب منها يومًا ما وهي

تستعرض كل لحظات الحب بتشفٍ.

سردت لرانيا تفاصيل علاقتهما التي تطورت ووصلت للخطبة فهي أيضًا لديها مغامرات تريد استعراضها لها، دعته لحفلات أعياد ميلاد المقربون وأحضرت أبهى الهدايا لهم وهي تبرز صفاته الحسنة ومحفظتة السخية، ذهبت معه إلى السينما لتشاهد فيلم رومانسي، كم ترغب في أن تعيش تلك اللحظات التي كانت تراها على وجوه من حولها وهم جميعهم مرتبطون دون سواها وهي تجلس وسطهم وتنعي وحدتها في ذلك اليوم، ولكن ها هي تحضر مع حبيبها الذي كان يتبعها هي فقط لينعم منها بنظرة ود، يجلس بجوارها الآن ويحتضن يدها بين يديه وكأنه يحتضن الكون بقبضته.

كان الجمع تلك المرة بحضور رانيا وزوجها وإيناس ومصطفى وبعض الأصدقاء أيضًا بعد أن اتفقوا جميعًا للذهاب للسينما ومشاهدة فيلم

The fault in our stars

ولأول مرة إيناس تستمتع بحضور فيلم في السينما، برغم نهاية الفيلم المفجعة التي شقت صدرها ألمًا وكلفتها الكثير من المناديل حتى إحمرت جفونها وتورمت عينيها من كثرة البكاء.

لا تعلم لما حظها جاء في فيلم تفرق فيه الحبيبان دون أي احتمال للتلاقي في عالمنا هذا، كانت قصة حب جميلة ولكن نهايتها مأساوية بشكل محزن، فما إن تخيلت نفسها موضع البطلة حتى تشبثت بذراع مصطفى بقوة، لم تكن تلك المشاعر تفزعها في السابق قبل أن تلقاه ولكن منذ ظهوره وأصبحت آلام افتراق المحبيين تحطم روحها وتهشم قلبها.

تمنت ألا تعيش ذكرى كهذه يومًا ما فقلبها بالتأكيد لن يتحمل فكرة غيابه، أوجعتها فكرة ذلك التأبين، كيف يمكن أن أحضر بروفة مسبقة ليوم انتهاء كل شيء.. جنازة مسبقة معها سيموت حبهما مع أرواحهما، تعلم أن "هايزل" دفنت قلبها معه في ذلك اليوم بالتأكيد ستفعل، وكيف لها أن تنجو وهي لم تجد النجاة سوى بوجوده، هل الفقد مؤلم هكذا؟، نعم هو مميت... لما عليها أن تنتابها نوبة

من البكاء بحضور كل فيلم رومانسي تشاهده، ألم يكن من المفترض لها تلك المرة أن يكون مختلفًا مع مصطفى.. لا تريد أن تجرب الفقد فهي للتو وجدت حبها، لمن ستشكو آلام الفقد وهو أول من كانت تركض له وتشاركه بكل ما يحزنها أو يزعجها، الأمر مؤلم بحق... وعلى الرغم من محاولة مصطفى لتهدئتها إلا أن الأمر كان من الصعب تجاوزه كمشهد عابر.

حاولت بكل الطرق حبس دموعها منذ مشهد الجنازة المسبقة إلا أن انتهى الأمر برسالته... يبدو أن الرسائل تخبأ الكثير من الحقائق دومًا، تماسكت أخيرًا وهمست له بصوت مرتجف متهدج قائلة " أوعى تسيبني زي أغسطس" هز رأسه نفيًا وهو يقبل يديها ويضمها إليه ليطمئنها فسكنت قليلًا....

علق الفيلم في ذهنها وخاصةً ذلك الاقتباس الذي ذكرته " هايزل " والذي قرأته في منزل " أغسطس "

" إذا أردت رؤية قوس قزح فعليك احتمال المطر " أعجبها هذا الاقتباس كثيرًا وكان أكثر ما علق في ذاكرتها دون سبب ولكن يبدو أن المقولة تخفي شيئًا ما لم تدركه بعد.

هبط عليهم آسر بشكل مفاجيء وهما في طريقهما للخارج بعد نهاية الفيلم وعلى وجه الجميع الحزن وبأعين الفتيات الكثير من الدموع فقال بحماس:

_ إيه رأيكم نغير النكد ده شوية ونروح نسهر، أنا عايز أفرفش بعد النكد ده.

وافق الجميع على الفور لفكرته ومن بينهم إيناس ومصطفى الذي ما كان ليتركها حزينة هكذا فوافق أيضًا وذهبوا جميعًا لأحد الملاهي الليلية التي كان آسر من أشهر روادها، كانت بالنسبة لمصطفى المرة الأولى في حياته التي يزور بها ملهى ليلي، لم يكن يومًا ليجرؤ على زيارة تلك الأماكن فتلك الأماكن يمكن أن تنفق راتب شهور في زيارة واحدة وذلك لن تتحمله حافظة نقوده أبدًا.

ذهب البعض للرقص بينما جلس الباقون حول البار ومن ضمنهم إيناس

ومصطفى عرض عليهم آسر ورانيا الشراب فقبلت إيناس رغم أنها لم تكن تفضل تلك السهرات وما تحتويه من مشروبات ولكن في تلك الليلة كان مزاجها سيء بسبب الفيلم كما أنها رغبت أن تندمج معهم بتفاصيلهم، أما مصطفى فراقب الكأس بين يديه وشعر ببعض الغرابة، لم يكن يومًا ينتمي لتلك السهرات وتلك الأدمغة، تلك التفاصيل ورفاهيتها لم تشبهه، أراد الاعتذار ولكنه خشي أن يحرج إيناس، وفي النهاية وجد عذر مقنع لن يشعر أحد بالحرج واعتذر متعللًا بوعكة في معدته تمنعه من تلك المشروبات، قبل آسر عذره ولم يبالي وذهب مع رانيا للرقص بينما إيناس تناولت من الكأس رشفة ثم تركته، لاحظت على وجهه بعض الانزعاج فمالت عليه وقالت بصوت بالكاد وصل لأذنه بسبب الصخب:

_ شكل المكان مش عاجبك؟

_يعني.... أنا أول مرة أعرف إنك بتحبي الخروجات دي!

_ أنا مش بحبها أصلًا.. أنا جيت علشان نبقى معاهم.

_ هما كلهم راحوا يرقصوا.... تحبي تروحي ترقصي؟

_ لا.... ماتيجي نمشي.

_ ياريت والله أنا بقول كده بردو.... ثم سحبها وخرج من ذلك المكان على الفور ليصطحبها إلى كورنيش النيل وينعما بتناول البطاطا سويًا.

***

انهى مصطفى سهرته بصحبة إيناس وعاد للمنزل بعد ليلة طويلة سعيدة برفقة حبيبته، مر على والده الذي كان يجلس على المقعد أمام التلفاز فبادر والده وعينيه مازالت على التلفاز:

_ كنت مع إيناس بردو؟

_ أيوة خرجنا مع قرايبها، رانيا بنت خالتها وجوزها وأصحابها.. يعني جروب كبير كده.

_طيب ابقى بلغها سلامي... اه صحيح، قالها وهو ينظر له من أعلى عدستين نظارته المنزلقة على أرنبة أنفه... في جوابات للبنك هتلاقيها على مكتبك في

الأوضه، أنا مفتحتهاش على فكرة.

هز مصطفى رأسه ودخل، فأكمل محمد كلامه وهو ينظر للتلفاز قائلًا:

"بس عارف اللي فيها ".

جلس مصطفى أمام المكتب وأمسك بالجوابات بين يديه، البنك يرسل له خطاب كل ثلاثة أشهر بتفاصيل حسابه البنكي والمعاملات عليه، كانت الجوابات كثيرة يبدو أنها متراكمة فمنذ أكثر من عام لم يرسلوا إليه تلك الجوابات فبات يتابع حسابه البنكي بالهاتف على الحساب الإلكتروني، شرع في فتح أول جواب وهنا رن هاتفه باسم إيناس فألقاه بجوار الباقي وأجاب عليها على الفور:

_ ها وصلت البيت؟

_ أيوة لسه واصل من عشر دقايق.

_ عجبتك السهرة النهاردة؟!

_ أكيد طبعًا عجبتني علشان معاكي، وإنتي؟

_ جدًّا أنا ببقى مبسوطة أوي وأنا معاك وكمان واضح إني رانيا وآسر كمان كانوا معجبين بيك أوي ودي حاجة ريحتني، أصلي بخاف جدًّا من نقدهم وأحكامهم.

_ماتقلقيش أنا هعمل أي حاجة تخليكي مبسوطة وترفع راسك قدامهم، وعمري ما هخذلك.

*****

(١٥)

٢٠١٤/٧/٩

دعت إيناس الجميع لحفل عيد ميلاد مصطفى في نفس الملهى الليلي الذي ذهبوا إليه من قبل، أرادت أن تفاجئه بليلة مميزة سعيدة دون أن يدري، وانتظرته أمام الصيدلية بعد انتهاء عمله دون أن تخبره بوجهتها، ثم اصطحبته على الفور لذلك الملهى ليفاجأ بحضور الجميع والاحتفال بعيد ميلاده، مفاجأتها أسعدت قلبه كثيرًا فضمها إليه وسط تصفيق الجميع وتهليلهم وهو يقول:

_ ده أحلى عيد ميلاد في حياتي.

_ كل سنة وأنت طيب يا حبيبي... قالتها وهي تقدم له هديتها في علبة مزخرفة

حمراء.

_ وإنتي طيبة يا روح قلبي.

اقترب الجميع من حوله مهنئين وهم يقدموا الهدايا بسعادة ثم أمرت إيناس بالتورتة، فظهر النادل وهو يدفعها أمامه على عربة متحركة وسط أجواء احتفالية سعيدة وأنغام أغنية

happy birthday to you

احتفل معهم مصطفى بأسعد عيد ميلاد له، وبينما هو بصحبتهم وتغمره الفرحة وصلته رسالة من صديقه نادر

" كل سنة وأنت طيب يا مصطفى "

أجاب

" وأنت طيب يا نادر "

" هنستناك أنا ومينا انهارده على القهوة علشان نحتفل بعيد ميلادك، وكمان أنت وحشتنا ونفسنا نشوفك "

" هحاول يا نادر بس ماوعدكش "

" شكلك مشغول بالعروسة ياعم.... يلا الله يسهلك بقى، عمومًا لو حبيت تيجي إحنا على القهوة زي ما إحنا، آه صحيح مينا كمان بيقولك كل سنة وأنت طيب "

" وهو طيب ياسيدي عمومًا هحاول آجي، قعدتكم وحشتني "

" تمام هنستناك "

قضى مصطفى معهم الأمسية إلى أن انتهت، وعلى الرغم من صخبها وكثرة المدعويين الذين لم يكن يعرف منهم سوى القليل إلا أنه لم يستطع أن يعتذر عن تلك السهرة وهو يعلم أن تلك التفاصيل تسعد إيناس كثيرًا.

أوصلها لمنزلها ثم ذهب هو لمنزله ليضع حقائب هداياه في غرفته وقبل أن يغادر مرة أخرى للقاء صديقيه ارتدى هدية إيناس له والمتمثلة في ساعة يد ماركة "رولكس" تبدو أنها أصلية، فهو بالكاد يستطيع شراء ال" هاي كوبي " من تلك الماركات التي بدأ يرى منها الأصلي كثيرًا مؤخرًا.

بحث عنها في الإنترنت ليعرف سعرها ليفاجأ بكون سعرها أقل بقليل من سعر خاتم خطبته الذي قدمه لها، لا يعلم لماذا في تلك اللحظة شعر ببعض الثقل وخاصةً عندما تذكر حافظة نقوده التي أخرج آخر ما في جعبتها في التاكسي وهو عائد للمنزل، يبدو أنه بحاجة لبعض النقود من أقرب ماكينة صراف آلي.

تذكر أيضًا الخطابات التي لم يفتحها والتي لاتزال ترقد على مكتبه كما وضعها والده، نظر لها نظرة مطولة في حيرة كمن يخشى نزول المطر عقب صوت الرعد... كان في حالة من التردد أن يقترب منها خوفًا من المواجهة وفي النهاية يبدو أنه سيواجه لا مفر ولكن على ماكينة سحب النقود فهو لا يملك ما سيدفعه غدًا في المواصلات العامة.

خرج من منزله وتوجه على الفور نحو أقرب ماكينة لسحب المال، أخرج بطاقته البنكية بيد مرتعشة، يخشى صدمته من حقيقة واقعه، يعلم أنه قسي عليها كثيرًا في الشهور القليلة الماضية، ورغم كون خطبته لم يمر عليها سوى شهرين وبضعة أيام إلا أن حافظة نقوده بدأت تئن وتشكو طغيانه عليها.

كل ما إدخره لأعوام وأعوام من أجل حلمه، وكذلك نقود والده التي أعطاها له ليشتري بها سيارة لترحمه من زحام المواصلات العامة وفضل إدخارها أيضا بدأت تتبخر.

وضع الكارت في الماكينة بعد لحظات من التردد وضغط ليستعلم عن رصيده وهو يزدرد ريقه بقلق قبل أن يسحب بعضًا منها فما عاد راتبه يكفيه ولا يكفي خروجاته الكثيرة منذ أن ظهرت إيناس في حياته، لحظات وحطت النتيجة بصدمة على رأسه فهي بالكاد تحفظ ربع مخزونه أما الباقي فقد طاروا بعيدًا في فترة قصيرة كحمام هرب من عشه، هرب بسرعة البرق رغم أنه أنفق أعوام لجمعهم.

شعر بأن التيتانيك خاصته تنذره بغرق قريب في وقت لا يطمح به سوى للنجاة بل أن يفرد شراعيه ويسافر عبر البحار في رحلة بعيدة مع حبيبته إيناس يحتضنا سويًا السماء والنجوم، ترى ماذا حدث لمركبه؟! أهي عاصفة تنذره بغرق قريب أم ذلك الجبل الجليدي المخادع؟؟؟؟

يعلم أن خطوته تلك لم تكن محسوبة أبدًا ولكن هل هناك من يحسب خطواته في الحب؟! الحب والعقل لا يجتمعان البتة فهو مدفوع فقط وراء قلبه لا يسمع سوى ندائه باسم حبيبته "إيناس".

نظر للساعة بيديه حتى لا يتأخر على صديقيه فتذكر قيمتها المالية، شرد قليلًا حول حل لتلك الأزمة، يعلم أن والديه قد سانداه في الخطبة وتجهيزاتها ويعلم أنهما قدما له الشقة وأموال السيارة التي إدخرها كما أنه منذ التخرج وهو لا يقبل أن ينفقا عليه فلن يقبل أن يثقل كاهلهما، فما باله بخطبة فتاة اختارها بنفسه، هو دومًا يتحمل عواقب اختياره، وهو من قرر إكمال دراسته وعمله في الصيدلية وحلمه مع مينا وكذلك حبيبته التي سيتزوجها لذلك يجب عليه بمفرده أن ينقذ مركبه من الغرق لا غيره هكذا تعود وهكذا نشأ.

يعلم أنه مندفع وأخطائه كثيرة ولكن ارتباطه بإيناس ليس بخطأ ارتكبه إنما خطوة جديدة في حياته يجب أن يعدل لها كافة خططه ليوازن بينهم

ويستطيع أن يسد تلك الفجوة، فالأمر لا يحتمل أزمات مالية والضغط أصبح أعلى على حافظة أمواله، هدايا وخروجات وحلم يتبعه وشقة وتجهيزاتها، هل سيكون بمقدوره سداد كل تلك الفجوات براتبه الصغير الذي لو جمعه لعامين كاملين دون أن ينفق منهم قرشًا واحدًا لما استطاع دفع ثمن تلك الساعة التي يرتديها الآن، لن يشكو لإيناس أزمته حتى لا يحزنها فهو وعدها بأن يقف بجوارها وألا يخذلها يومًا ويجب أن يبقى على وعده ويدور بدفته وينقذ التيتانيك من الجبل الجليدي الذي يهددها بمفرده.

في النهاية سحب منها القليل، ما يعينه لفترة قليلة على تذكرة المواصلات العامة فقط ثم غادر بعد أن وضع الكارت في حافظته.

وصل إلى صديقيه وهما يجلسان على المقهى وأمامهما كوبين من الشاي، ابتهج نادر عند رؤيته فركض نحوه في سعادة وهو يقول:

_ كل سنة وأنت طيب يا صاصا....

_وأنت طيب يا ندوره...

نظر له مينا وقال بابتسامة ودودة:

_ كل سنة وأنت طيب يا أسطى.... لازم يعني يبقى في مناسبة علشان نشوفك؟

تدخل نادر وهو يقول:

_ إش... إش إيه الشياكة دي بس وماركات وحركات... لا وكمان ساعات ياعم غالية.. شكلك نضفت أوي بعد الخطوبة، لا يعم القهوة مابقتش من مستواك دلوقتي.

فقال مينا بنبرة تهكم:

_ بس يعرف يسد على كل ده.... ولا إيه يا صاصا؟

يخشى مصطفى ذلك الجزء من صديقه الجوزائي المقرب ذو الشخصية التحليلية لكل أمر، يعرف أنه قناص ماهر يقنص فريسته بحرفية بعين عقاب مبصرة، لا يطلق رصاصة هباءً إنما حتمًا ستشق رأس هدفه، فمنذ أن ظهرت

إيناس في حياته لم يعد يهتم بحلمه المشترك معه بل ورسالة الماجستير التي بدأ في إهمالها أيضًا، ابتعد عنه وعن الجميع أيضًا وهذا الذي حذره منه مينا من قبل وقد لمح أيضًا هذا على وجهه في الخطبة، فهو يمتلك تلك الحاسة المخيفة التي تمكنه من توقع الأحداث بمهارة وبالفعل تحدث كما توقعها.

يبدو أن مينا بتهكمه قد طرق للتو وترًا حساسًا بدأ مصطفى يستشعر وجوده اليوم.... ويبدو أيضًا أنه تبصر تلك الكارثة منذ فترة بعيدة واليوم يؤكد هواجسه، في النهاية مصطفى يريد حل لتلك الأزمة فأجاب مصطفى ببعض الثقل وقال:

_ عيبك وميزتك بردو أنك بتلمحها وهي طايرة ياخي!

_ أومال... هو أنا عارفك إمبارح؟!!!

نظر لهما نادر ببلاهة في عدم فهم ثم قال:

_ أنا مش فاهم منكم أي حاجة الصراحة؟

فقال مصطفى:

_ إطلبلي بس شاي علشان أعرف أركز معاكوا.

فعاجله مينا يقول:

_ وأنا كمان.

صاح نادر نحو عسيلي وهو يقول:

_ هاتلنا تلاتة شاي هنا يا عسيلي.

وهنا قال مصطفى ببعض الإحباط:

_ أنا شكلي كده داخل على أزمة مالية ومحتاج شغل تاني، الالتزامات اللي ورايا زادت وفلوسي اللي شايلها بدأت تخلص، وخايف الدنيا تطربق فوق دماغي خصوصًا مع أهل إيناس.

فضحك مينا بنصف فم ساخرًا وهو يشيح بنظره بعيدًا:

_ وطبعًا منها فلوس المشروع.

نظر له مصطفى ببعض الألم ولم يعقب فرد نادر:

_ يعني أنت ماتعرفش طريقنا غير في الأزمات يا نكدي؟!

نهض مصطفى من مقعده بغضب وهو يقول:

_ خلاص حقكم عليا أنا آسف... أنا مروح.

نهض مينا على الفور وسحبه من ذراعه وتبعه نادر وهو يقول:

_ أقعد ياعم إحنا بنهزر تروح فين أنت كئيب أه بس وحشتنا القعدة معاك، وماتقلقش هنستحملك بقرفك.

جاء عسيلي ووضع أكواب الشاي ثم غادر وهنا قال مينا:

_ طب فكرت تقدم في حاجة معينة أو شغل معين.

_ لا أنا الفكرة لسه جاية على دماغي قبل ما آجي، روحت أشوف الفلوس في الحساب بتاعي لقيت إني سحبت الفترة الأخيرة معظم مخزوني اللي حوشته في سنين فوق فلوس أبويا اللي ركنتها للمشروع والدراسة.

فقال نادر:

_ طب إنت عايز حاجة صباحي ولا مسائي وتكون إيه؟

_ معرفش بس غالبًا مش صباحي علشان ماتعارضش مع شغلي في الصيدلية وكمان دكتورة سلمى بتسمحلي بحوار الجامعة والدراسة ما أظنش أي شغل تاني هيتساهل معايا ويسمحلي بكده.

قال مينا:

_ طب هو اللي هتلاقيه متوفر بسهولة شركات الأدوية ومندوب المبيعات ده في تخصصنا.

_ لا ما أظنش هينفع دول بيبقوا في الشارع اليوم كله وبهدلة من عيادة لعيادة أنا مش عايز إيناس تحس إني اتشغلت عنها بردو.

فرد مينا:

_ طب بص إبعتلي السي في بتاعك على الواتس آب وأنا هحاول أبعته في كذا مكان وإن شاء الله خير.

وهنا طرأت على نادر فكرة فقال بحماس:

_ طب بص، أنا جاتلي فكرة... إيه رأيك تشتغل في الدليفري وده بيبقى بالساعة وفلوسه حلوة وكمان بيبقى فيه بقشيش كويس و....

قاطعه مينا معترضًا:

_ لا لا... فكك ده مش هيناسب مصطفى، ده ظروفه مختلفة.

_ ظروف إيه ياعم مينا؟. قالها نادر

_ أقصد ظروف مصطفى مع إيناس وأهلها لو عرفوا.

كان مصطفى هنا يستمع إلى حديثهما وذهنه منشغل بحل للأزمة الحالية، فرد نادر على مينا ومصطفى يصغى إليه:

_ وهو ليه يقولها، يخبي عليها أو يقولها نزلت شغل تاني في صيدلية أو أي حاجة بدون تفاصيل، وهي مش هتعرف حاجة ياعم إحنا بعيد جدًّا عن المنطقة بتاعتهم والمطعم في مصر الجديدة هنا هو مطعم كبير، واحد معرفة شغال هناك وقالي أنه زميله اللي شغال في الدليفري معاه ساب الشغل ومحتاجين حد تاني وأنا مبسوط في الشغل بتاعي مش ناوي أسيبه.

رد عليه مصطفى وقد بدا عليه الاهتمام:

_ طب وده نظامه إيه وهشتغل فيه إزاي؟

هز مينا رأسه نفيًا باعتراض فلم يهتم أحد باعتراضه وأجابه نادر:

_ هيبقى بالساعة والماكنة عليهم، زي ما تحب وتبقى فاضي هتشتغل معاهم وعدد الساعات اللي تعوزها لحد مايجيلك شغل أحسن يعني خطوة صغيرة تجبلك أي فلوس في الفترة دي لحد ماتلاقي اللي يناسبك أنت، بس هتحتاج رخصة سواقة للماكنة ودي ممكن نعملها من بكره مش صعبة وأنا علمتك قبل كده عليها، هحاول أفضيلك ساعة كل يوم تجرب فيهم لوحدك علشان تتمرن وكلها يومين تلاتة وتبقى زي الفل أنت أصلاً شاطر وبتعرف تسوقها بس محتاج تفتكر بس مش أكتر.

بدأت الفكرة تعجب مصطفى وخاصةً إنها لن تتعارض مع عمله في الصيدلية، كما أنه سيحاسب على الساعة وليس اليوم وهذا سيمكنه من أن يعمل كما يحب دون عائق والتزام وخاصة أنها هي المهنة التي تناسبه الآن وتناسب ظروف عمله، ولكن مينا لا يزال معترضًا فقال مشيرًا لمصطفى:

_ أنا مش موافق خالص على الحوار ده، وخاصة أنك تخبي على إيناس.. على الأقل لو هتشتغل في الحوار ده قولها أو إستنى نشوف أي معمل تحاليل أو صيدلية تناسبك.

شعر مصطفى ببعض القلق من فكرة أن يخبرها بالأمر، ولم يرد التأجيل فالبحث عن عمل بشروط تناسبه ليس بالأمر السهل، لذلك أقنع نفسه بإنها فترة مؤقتة ولن يتوانى فيها في البحث عن عمل آخر يناسبه، هي فقط لحين بلوغه لمراده.... فلا يشغله الآن سوى وعده لحبيبته وقاربه الذي يوشك على الغرق.

ولكن حاسة مينا السادسة تنبأه بقنبلة على وشك الانفجار..... ... .

***

(١٦)

شرع مصطفى في التدريب على الدراجة البخارية كما اتفق مع نادر في تلك الليلة بعد أن فشل في إيجاد حل آخر متاح، فقبل بهذا مؤقتًا لحين وجود فرصة أخرى، وكان بالفعل قد أرسل سيرته الذاتية لبعض الوظائف وكذلك مينا ولكنه لم يحصل على الرد بعد من أي واحدة، لذلك لم يتوقف وأكمل خطته مع نادر، لم يكلفه الأمر سوى أسبوع من التدريب وإجراءات الرخصة واستلامها.

بعدها سار الأمر مثلما أراد كما ساعده نادر كثيرًا ليسهل عليه تلك الوظيفة، بحكم خبرته فهو يمتهن تلك الوظيفة لأكثر من خمسة أعوام في فترته المسائية أما الصباحية يقضيها في العمل كمحامي مبتدئ في مكتب محامي ومستشار قانوني كبير لحين استطاعته أن يستقل بمكتبه الخاص.

لم يخبر إيناس بمجرى الأمور كما نصحه نادر، ولكن كل ما قاله لها إنه سيبدأ عمل جديد في الفتره المسائية ليزيد من أمواله لتجهيز عش الزوجية، بالتأكيد لم تعترض وتفهمت الوضع على شرط أن يحاول محادثتها كلما سنحت له الفرصة وأن يعوضها في إجازاته باللقاء... وبالتأكيد لن يتأخر فهو أيضًا يشتاق لها كثيرًا.

لم تخبر إيناس أحد من أهلها وخاصة رانيا التي عادت تقضي بعض الوقت معها كلما جاءتها الفرصة وكتمت الأمر في صدرها حتى لا تظهر نواقصه لأحد فيبدأ في شلالات التأنيب والنقد التي لا تنتهي.

فآسر وهو نموذج والدتها المثالي لا يعمل فترتين ليجني مال أكثر لشقة وضيعة بل إن رانيا تسكن فيلا قام بتجهيز كل ركن فيها دون صعوبة حتى ولو كان بأموال أبيه ولم يجنها بنفسه، لا تبالي هكذا يكون العريس دومًا مقتدر لا تهزه عواصف ولا أزمات مالية، هم يريدوا وهو يحقق ما يطلبون.

قضى مصطفى في عمله الجديد أسبوع بأكمله، كان الأمر في بدايته كمثل معظم البدايات صعب ومزعج ولكن مع مرور الوقت باتت صعوباته تقل فعرف الاتجاهات والعناوين وبدأ يتأقلم مع الأمر بسهولة، كما أن أمواله جعلت

صعوباته تستحق بعض الصبر، فالمال مجزي والبقشيش لا بأس به بل أنه من الممكن أن يجني أكبر من راتبه في الصيدلية إذا استمر بتلك الوظيفة فترة أطول.

وهكذا سيرفع شراع مركبه محلقًا في الهواء دون أي فزع، أصبح الأمر يعجبه أكثر وخاصة في فرصة الكثيرة التي تسمح له بسماع صوت حبيبته كلما أراد، ولكنه لايزال يخفي عليها الأمر ولم يخبرها سوى أنه عمل في أحد المطاعم الشهيرة في مصر الجديدة، لا تدري أين ولا متى ولا لماذا؟ حتى عندما قابلها في منتصف الأسبوع قضى الوقت معها دون ذكر تفاصيل شغله بحجة أنه لا يريد أن يضيع وقته معها في تفاصيل عمله.

في اليوم التاسع استلم مصطفى طلب مدون عليه عنوان شقة تقع في حي النزهة، أخذه وانطلق إلى العنوان مباشرةً وصعد السلم بعد أن أخبره البواب بوجه متجهم " الأسانسير عطلان اطلع على السلم".

صعد مصطفى للدور الخامس وهو يلهث إلى أن وصل إلى الشقة المدون رقمها في الطلب لديه وضغط على زر الجرس.

سمع حسن وصديقه هادي صوت الجرس فضغط على زر الإيقاف المؤقت للعبة ولكز هادي وهو يقول:

_ قوم شوف الباب شكله الدليفري، أنا ميت من الجوع.

ترك هادي ذراع البلايستيشن من يده ونهض متوجهًا للباب وفتحه ليجد بالفعل الدليفري أمامه، مد مصطفى يده لهادي فنظر هادي له بعجالة وهو يقول:

_الحساب كام لو.... ثم توقف فجأة ودقق النظر مرة أخرى في وجه مصطفى وهو يسأل باندهاش:

_ مش أنت مصطفى خطيب إيناس؟!... أنا فاكر شكلك كويس من حفلة الخطوبة.

هز مصطفى رأسه إيجابًا بابتسامة خفيفة فأكمل هادي:

_ أنا هادي أخو رانيا، ابن خالة إيناس، إيه ده أنت بتشتغل دليفري؟

_ أنااااا.. أصلي....

وهنا جاء صوت حسن من الداخل وهو يصيح كنعيق الغراب:

_ ما تنجز يا هادي هموت من الجوع.

_ حاضر يا بني ثواني... ثم أخرج هادي نقود من جيبه فمانع مصطفى وهو يقول:

_ خلاص ياهادي الحساب عليا المرة دي.

لم يجبه هادي ووضع نقوده في جيب قميص مصطفى وهو يقول:

_ خلي الباقي علشانك.

وأخذ الطلب من يده وأغلق الباب على الفور.

لم يشعر مصطفى بارتياح نحو تلك الصدفة، ولكن رنين هاتفه باسم " حبيبتي " قطع عليه أفكاره المتضاربة فرد على الفور وهو يهبط على السلم:

_ وحشتيني.

_ وأنت كمان... أنت لسه في الشغل؟

_ اه.... ممكن ساعتين كمان وأروح.

_ أوك أنا عمومًا مش هعطلك، أنا كنت بفكر في حاجة وقولت آخد رأيك فيها؟

_ اتفضلي يا قمر وأنا كلي آذان صاغية. كان بالفعل قد وصل أمام دراجته البخارية ولكنه وقف بجوارها حتى لا يعيق الهواء محادثته وأنصت..

_ بص يا سيدي كان في مسابقة كده تخص الفاشون وتصميم الأزياء، بتتعمل كل سنة وأنا كنت بفكر أشترك فيها السنة دي بس حاسة إني خايفة أشترك وأنا أصلا مبتدئة وبتعلم لسه وشغلي مش واو والمفروض إني هشارك ب ثلاث تصاميم من تصاميمي.

_ طبعًا شاركي أنا واثق إنك هتبقي حاجة كبيرة في المجال ده، والحقيقة تصاميمك تستحق أنها تطلع للنور لأنها جميلة وتستاهل.

فرحت إيناس باستجابته، دومًا ما كان يدفعها للأمام دون خوف، يذكرها بـــــ "تشارلي" في فيلمها المفضل وهو يأكل الآيس كريم بصحبة "صوفي" بينما يقرأ قصتها بإعجاب شديد وحين سألها عن سبب عدم عرضها للنشر أخبرته بأنها تشعر بأنها غير مكتملة وأنها تبحث عن الكمال، هكذا بالفعل كان شعور إيناس تجاه موهبتها بأنها دومًا تفتقد لشيء ما، فمنذ علمت العائلة بموهبتها منذ أعوام ظلت تسخر دومًا منها بل وتنتقد بفهم وبدون فهم، دومًا لا يعجبهم شيء حتى باتت موهبتها وثقتها فيها مجروحة وأصبحت تخشى كل نقد، إلا من مصطفى الذي يشبه "تشارلي" حين أخبر "صوفي" بأن الكمال هي الطريقة المغايرة في أن تقولي " إنني ضعيفة " ليس بنفس الطريقة ولكن بطريقة أخرى أقنعتها بالمحاولة وأعادت إليها بعض الثقة المفقودة.

أجابت بتنهيدة خفيفة:

_ خلاص إحنا بينا ميعاد بكره مش كده؟

_ أيوة..

_ يبقى نقدم سوا وتختار معايا التصاميم.... إيه رأيك؟

وهنا سمع مصطفى رنين ينبأ بوجود متصل آخر معلق على خدمة الانتظار نظر للهاتف فوجده مينا، ويبدو على إلحاحه أن هناك أمر ما مهم، عاد مرة أخرى لإيناس وهو يقول:

_ تمام أوك نقدم بكره سوا إن شاء الله، بصي مينا بيرن عليا وشكله عايزني في حاجة مهمة هكلمه وأرجع أكلمك تاني... ماشي ياجميل؟

_ أوك.. باي.

_ باي.

أغلق محادثتها وأجاب على مينا بسرعة قبل أن يغلق الآخر:

_ أيوه يا مينا.

_ أيوه يابني.. ساعة برن عليك؟

_ معلش بقى إيناس كانت عيزاني في حاجة مهمة... في حاجة ولا إيه؟

_ أه ياسيدي في.. إبسط ياعم في معمل تحاليل بتاع دكتور معرفة وعايز مساعد ووافق عليك يا معلم وكمان الشيفت مسائي.

_ بتتكلم جد؟!

_ لا بهزر يا لطيف... إنجز يابني علشان هتقابله.

_ أوعى تقول بكره أنا خارج مع إيناس بكره ماتبوظليش الدنيا.

_ لا بعده يابن المحظوظة... المهم هبعتلك التفاصيل والعنوان على الواتس وأنت اتعامل بقى ولما تكلمه فكره بنفسك لإني هو بينسى كتير وقوله إنك من طرف مينا مرقس... تمام يا أسطى؟

_ تمام يا كبير.

_ يلا أنا هخلع.. سلام.

_ سلام.

عاد مصطفى بعدها وأنهى عمله الذي يبدو أنه سيودعه الليلة بعد أن جاءته فرصة كانت في إحدى الأيام يطمح لها، شكر عمله المؤقت وأظهر امتنانه له ولخبرته التي اكتسبها في تلك الأيام القليلة، لم تكن تجربة سيئة على الإطلاق بل تجربة تستحق القيام بها، أما مساعد في المعمل يعني له تدريب وخبرة مجانية لمشروعه المستقبلي وحلمه أيضًا، يبدو أن الصعاب أخيرًاستلين وكل شيء سيعود لمجراه الطبيعي، وسوف يخبر الجميع بتلك الفرصة وهو يعلم بأن الجميع سيسعد له سواء والديه اللذان لم يعلما بعمله الحالي أيضًا أو إيناس.

***

عاد مصطفى في الساعة الثالثة صباحًا وأرسل لها رسالة يخبرها بعودته ثم ألقى بجسده على الفراش والوهن يلتهمه بأكمله وقبل أن يشعر برسالة إيناس له كان قد غط في نوم عميق.

***

رن هاتف فريدة في الساعة الخامسة صباحًا، فنهضت بفزع وأمسكت الهاتف لتجدها عزة، ماذا تريد عزة في مثل هذا الوقت والشمس لم تشرق بعد؟!

فأجابت على الفور:

_ ألو أيوه يا عزة.. إنتي كويسة؟

_ أيوه يا فريدة الحمدلله.... بصي حصلت حاجة كده مع هادي قولت لازم تعرفيها إنتي عارفة هادي بيسهر دايمًا بره وبيرجع متأخر والصراحة الموضوع مهم ومايتسكتش عليه أبدًا.

_ خير قلقتيني؟. ..

_ إنتي تعرفي إني مصطفى خطيب رانيا شغال دليفري في مطعم أكل؟

_ نعم! إنتي بتقولي إيه؟!

_ زى ما بقولك كده، هادي كان سهران عند واحد صاحبه اسمه حسن في مصر الجديدة وطلبوا أكل... وتخيلي اللي وصلهم الأكل يبقى مصطفى أنا اتفاجأت أول ماعرفت وقولت لازم أبلغك.. إنتي إزاي ساكتة على حاجة زي دي؟

_ أنا معرفش... وأكيد لو أعرف مش هسكت على مهزلة زي دي... طب اقفلي دلوقتي وبعدين هكلمك.

نهضت من فراشها على الفور وتركت زاهر بجوارها يناطح علامات الاستفهام لا يعي شيء.

للتو استيقظت أخطر كارثة كونية على الكوكب بأكمله، تفوقت على قنبلة هيروشيما، وإعصار تسونامي وإيرما لم تكن بسوء حادثة ١١ سبتمبر بل أسوأ وكأن كل كوارث الأرض الطبيعية والبشرية ضفرت في كارثة واحدة تدك الأرض دكًا الآن في زوبعة إعصاء يقتلع جذور الأخضر ويعري أرض اليابسة، كان غضبها يبقبق كفقاقيع حمم اللافا المتمردة من جوف بركان ثائر تحرق كل من يقترب من محيطها، هرولت إلى غرفة ابنتها وفتحت الباب دون دقة واحدة وأضاءت الضوء وهي تصرخ في وجه إيناس بهياج:

_ إصحي... فوقي وقومي بسرعة.

نهضت إيناس وهي تدعك عينيها في عدم وعي، نظرت للساعة لتجدها الخامسة وخمسة دقائق صباحًا، هل الوقت صباحًا أم مساءً؟. هل نامت لمدة يومين بأكملهم؟ مصطفى أرسل لها رسالة وأجابتها هو آخر شيء في ذاكرتها.. ماذا حدث بعدها لا تدري؟ اعتدلت في جلستها ونظرت بعينها الضيقة في وجه والدتها المشتعل وقالت:

_ هو في إيه؟.. حصل حاجة؟. .. بابا كويس؟، فلمحته يقف في الخارج.. إذًا هو بخير.

_ عايزة تعرفيني إنك مش عارفة الكارثة اللي خطيبك عملها؟

_ مصطفى؟!!!! ماله عمل إيه؟

_ يا سلام على السهوكة... اه ياختي مصطفى حبيب القلب اللي اخترتيه وادناله فرصة ماكنش يحلم بيها، جاي يبوظ سمعتي في العيلة بمنتهى قلة الأدب والوقاحة.

_ هو حصل إيه؟

_ إنتي تعرفي إنه شغال دليفري في مطعم وماقولتليش؟

_ لا طبعًا معرفش... هو اشتغل في مطعم من مدة قصيرة، قالي علشان يعرف يجهز الشقة للجواز.

_ ولما هو مش قد الجواز بيجي يطلب إيدك ليه الجربوع ده، اتصلي بيه دلوقتي يجيني حالًا ولمي كل الهدايا والقرف اللي جبهولك من ساعة ماعرفتيه.... اه والخاتم المقرف بتاع الخطوبة إقلعيه وهاتهولي.

مسكت هاتفها بيد مرتعشة واتصلت به، وبعد مرات عديدة جاءها صوته النعس:

_أيوه يا مصطفى... تعالى على البيت بسرعة.

أفاق على طلبها المفاجيء وهو ينظر للساعة على الهاتف ويسأل باندهاش:

_ دلوقتي؟!.. هو في حاجة ولا إيه؟

_ معرفش... و من فضلك ما تتأخرش.

صوتها لا يدل على خير أبدًا، لم يحتمل مصطفى نبرة صوتها ولا يدري ماذا حدث؟

الليلة الماضية انتهت بالأمس برسالته لها قبل أن يغفو، لم يتذكر حادثة هادي قط وكأنها محيت من ذاكرته.. كان لا يعبأ سوى بموعده اليوم مع إيناس ومسابقتها التي تريد الاشتراك بها، وأيضًا فرصة العمل التي أحضرها له صديقه مينا... نهض بسرعة بجسد منهك فهو لم يغف في يوم بأكمله سوى ساعتين وبضع دقائق فقط ولكن رغم هذا نداء حبيبته واجب التلبية.

***

وثبت إيناس باضطراب وصدمة تبحث عن كل ما يخص مصطفى في غرفتها، وجدت مجلات الموضة التي كان يبحث عنها ويحضرها لها كلما سنحت له الفرصة بعد أن علم بشغفها للأزياء، وجدت زهور الياسمين التي تعد كل صباح لهما سويًا منذ أشهر في صندوق يحفظهم جميعًا دون نقص واحدة، وجدت كتاب

Letters to Juliet

والذي أهداه لها خصيصًا بسبب حبها للفيلم، كانت الغرفة أيضًا تحمل الكثير من التفاصيل التي جمعتهما أيضًا في المحادثات والرسائل هل كل هذه الأشياء يمكن جمعها بسهولة وإعطائها إياه، ماذا عن ذكرياتهما المدونة على جدران القلب والعقل؟ فهناك ذكريات يمكن جمعها وأخرى تظل حبيسة ذاكرتنا فقط، ولكن الأهم ماذا ستفعل والدتها بكل تلك الأشياء؟ وإلى أي شاطىء ستقذفها تلك الموجة الهوجاء؟.. رأت الخوف يقف بجوار النافذة ينظر لها بلوم كمن أنذر من قبل بذلك الفخ الذي ينتظرها... تلك النظرة التي تمقتها، ولكن لما اللوم وهي لم ترى أي فخ؟

ألم يسر الأمر على نحو جيد منذ البداية؟! ربما الفخ في كونه سار على نحو جيد منذ البداية ياعزيزتي!....

ترى هل كذب عليها؟!!... ماذا سيكون رد فعل والدتها تجاهه؟؟؟؟

فأخبرها بنظراته " لا داعي للقلق بشأنها الآن، فأنت قد اقترفتي خطأ الاختيار وهو قد اقترف خطأ بعدم تقدير هذا الاختيار "

وهنا سمعت صوت جرس الباب فانتفضت في ذعر، يبدو بأنه جاء ليلقى وعيده، ليته ماجاء......

***

دخل مصطفى بعد أن وجد زاهر في انتظاره وجلسا في الصالون، بدا على وجه زاهر الانزعاج لتظهر بعدها فريدة وتؤكد هذا الانطباع بوجهها الغاضب وخطواتها المحتدة، جلسوا جميعًا ثم صاحت فريدة لتحضر إيناس المختبئة خلف جدران غرفتها، فخرجت على الفور ولكنها لم تستطع أن تجمع من أشيائه وهداياه شيء، فتلك تخصها أيضًا لا يمكن أن تفرط بها بتلك السهولة.....

جلست في المقعد المقابل له صامتة على غير عادتها، لا وجه يبشر بالخير أبدًا... بينما مصطفى في حالة من الدهشة والتعجب إلى أن نطقت سيدة القصر بحدة:

_ مصطفى إنت بتشتغل دليفري في مطعم أكل مش كده؟

ارتج مصطفى من وقع كلماتها وتذكر على الفور لقائه بهادي الليلة الماضية، كيف غاب عن عقله؟. .. كيف أهمل تلك الحادثة ولم يهتم لتلك التفاصيل الصغيرة؟.. ولكن كيف شاع الأمر بتلك السرعة؟

نطق مصطفى بعد ثواني من التردد والتفكير:

_ اه... الحقيقة أنا اشتغلت في الدليفري من أسبوع، أنا بس ماوضحتش طبيعة الشغل لإيناس لأنه كان شغل مؤقت لحد ما ألاقي حاجة تناسبني في مجالي، فمهتمتش إني أقول.

_ إنت إزاي تعمل حاجة زي كده، وتبوظ سمعتنا قدام العيلة!!!

_ أبوظ إيه حضرتك، ده شغل زي أي شغل وأنا محتاج فلوس الفترة دي علشان أجهز الشقة كويس لإيناس، ماكنتش عايز أحسسها بفرق قدام حد.

_ فرق إيه إنت فضحتنا وعرتنا، وكنت فاكر بقى إنك هتتجوزها بالبقشيش اللي بيرمهولك الزباين مش كده؟!.... إنت عارف إنت مناسب مين وعيلة مين؟

قالت كلماتها بمنتهى القسوة، فشعر مصطفى بإهانتها وللتو سقطت كرامته أرضًا أمامهم، نظر إلى إيناس وجدها صامتة شاخصة البصر لم ترفع نظرها الساقط على الأرض يبدو وكأنها تتأمل كرامته التي أهدرت منذ لحظة، كان يريدها أن تنطق بأي كلمة فنادى عليها بصوت خفيض متوسلًا أن تفهم وجهة نظره:

_ إيناس؟؟

ولكن لم تجب بل ولم تحرك رمش فوجد والدها ينطق أخيرًا بعد أن رمقته فريدة بغضب ليأتي دور مداوي القلوب وعلتها أيضًا:

_ بص يابني زي مادخلنا بالمعروف..... سمعها مصطفى وأراد منه أن يصمت.. من فضلك لا تكمل.... ولكنه أكمل... نخرج بالمعروف.

كلمات والدها كانت تناقض إحساسه الداخلي، لم يكن بتلك القسوة، يعي جيدًا حال الشباب ومحاولاته وحوجته للمال، ويفهم بأي سهم شق لمصطفى صدره، ولكن في النهاية لا يملك سوى أن يرضخ لأوامر والدتها فمن منظورها لا تريد ذلك النوع من " الطيار" كما يطلقون عليهم في الآونة الأخيرة إنما كانت تريد الحقيقي منهم وليس من يحمل اللقب جزافًا وإن كانوا جميعًا يقدمون خدماتهم مقابل لقمة العيش الكريمة، ولكن مقياس العائلة هنا المظهر الاجتماعي أولًا وتلك الحادثة ماهي إلا وصمة عار في تاريخهم.

شعر مصطفى بوخزة في جسده ووجد نفسه مستلقى على أحد أسرة غرف العمليات والمصابيح من فوقه تعيق رؤيته، شعر بأن هناك من أحقنه بالمخدر ولكن لا وجود لدكتور التخدير، لا وجود سوى لدكتور جراحة القلب، وهل دكتور القلب يمتلك قلب؟!

لا يشعر سوى بالخدر يدب في أوصاله والبرودة تجري معها مجرى الدم، لم يعد يشعر بأطرافه ولم يعد يقوى على التحرك... ساكن في مكانه في رضوخ تام

يراه وهو يمسك بالمشرط ويقترب من صدره.. يئن ويئن يحاول إخباره بأن عقله لايزال واعيًا لم يفقده بعد ولكن الطبيب لا يبالي بل يقترب أكثر وأكثر وهو يدب بمشرطه إلى باطن قلبه ويشق... ويشق بكل ما أوتي من قوة وقسوة.... فتح غرفه على بعضها وترك دمه يصفى على الأرض بجوار كرامته على سجادة يبدو بأن ثمنها أغلى من الاثنين، ثم سحب مشرطه بكل شدة وتركه في النهاية أجوف فارغ مظلم محطم الجدران.

لم يتحمل وقع كلمات والدها وهو يبدد كل شيء هكذا في لحظة، لم يكن ينتوي تلك النهاية أبدًا بل أراد مركبه أن تنجو من الجبل الجليدي ليجد نفسه هو بذاته قد قادها إلى منتصف الجبل وهذا ما اقترفته يديه.

نظر إلى والدها بتوسل ثم نظر إلى إيناس والتي كانت تنازع أنفاسها المكتومة، جاء قرار والدها أيضًا ليقتلها ولكنها لم تتأوه حتى، كانت تنازع بصمت ودموع حارقة تجري على وجنتها.

_ إيناس ماتقولي حاجة.

_ إيناس هتقول إيه بعد اللي إنت عملته، ده قرار يمس العيلة مش هي بس، وكفاية أوي اللي إنت عملته في حقها وحقنا ثم مالت على كف ابنتها واقتلعت من يمناها خاتمه الذي لم يعجبها من الأساس وألقته أمامه على المنضدة وهي تكمل... أنا أصلا ماكنتش عايزة الجوازة دي من الأول... قالتها وكأنها بصقت العلقم المحشور في حنجرتها منذ أن قبلت به.

التقطه مصطفى بصمت ونهض من مكانه، ثم غادر وهو يصفق الباب من خلفه دون وداع.

***

"ملامسة الحضيض"

(١٧)

ركضت إيناس إلى غرفتها مفطورة القلب وتدثرت في فراشها بين أذرع صديقها وبخاخة التنفس في يدها، عقلها متجمد وجسدها يرتعد من شدة السقيع كمن ألقي عاريًا في شتاء طوبة بالشوارع، لقد وأدوا جنينها ذو الستة أشهر بدم بارد، هكذا قرر الطبيب وزوجته... ظلت ساكنة في فراشها تطلب العون من عقلها وصديقها، هل هكذا ستكتب النهاية؟ وبتلك السهولة؟!... بعد أن بدأت ترتفع على سحابة من الأحلام السعيدة في سماء أحاطت بحبها... لتجد نفسها تسقط على عنقها في جوف واقعها الحقيقي... وكأن نجاتها مستحيلة... فتجد صديقها يتفوه بالحقيقة، بكونها لم تترك الأرض قط إنما أوهامها من صورت لها أصابع أقدامها المرفوعة وهي تتحدى الجاذبية، وماهي إلا محاولات بائسة.

لازالت القيود بين قدميك متسلسلة بها، تجاهلت رنين هاتفها الذي لا يصمت فضاق بها صريخه وأخرسته، بينما تسمع صياح والدتها في الخارج مع من يريدون أن يصلوا إلى حقيقة الأمر، الجميع يعرف هنا وهناك.. طنط وطنط وطنط وعمو وعمو وعمو..... والكثير يتحدثون ويتساءلون... البعض بشكل ساخر والبعض مصدوم، بينما والدتها تبرز جهدها في كشف الحقائق وانقاذ سمعة العائلة من ذلك المندس الوضيع، أما إيناس فقد تجاهلت كل هذا الجمع وكل هذا الضجيج بعزلتها بين الجدران وتناست أمرهم وأمر عملها فلن تقوى على مواجهة صباح بدون زهرته والتي يبدو أنها لن تلقاها مرة أخرى.

***

غادر مصطفى وهو تائه فاقد عقله كالمجذوب يمشي على غير هدى هنا وهناك، لا يدري لنفسه وجهة بعدما سلبوه هدفه ووجهته التي كان يسعى إليها، كان محطم الفؤاد منكسر ومصدوم... بعد أن رأى وجه آخر لإيناس أمام عائلتها لم يره من قبل، صامتة متخاذلة وتنصاع لهم بإذعان، لماذا لم تجب ندائه أو تدافع عنه أو عن حبها بكلمة واحدة؟!!!

لماذا لم تلمه على أنه خبأ عليها حقيقة الأمر ولو بصفعة توقظه من غفلته؟!!!... لماذا لم تقدر حقيقة نواياه في إسعادها.... فقط كانت ساكنة... لم تكن يومًا بهذا الصمت والتخاذل!

لم تكن يومًا بهذا الضعف! لم تكن يومًا غير مقدرة! ولم تره يومًا بتلك الوضاعة التي يرى بها نفسه الآن! ليته أخبرها قبل أن يفعل، ليته استمع لنصيحة مينا، نصحه أن يخبرها بالأمر قبل أن يخوضه ولكنه لم يهتم، وهنا وجد نفسه يتوجه إلى منزل مينا.. لا يعلم لوجهته سبب ربما أراد من يخبره بالحقيقة التي تغافل عنها، ربما أراد أن يسمع أصوات كان يكتمها من قبل، ربما أراد حكمة صديقه الذي لا يقدم على خطوة باندفاع مثله ذلك الشاب الذي استأجر غرفة على سطح بنايته ليدع العمال يجددون شقته التي ورثها عن أهله من أجل عش الزوجية، لم يعبأ بالمظاهر يومًا أو بما يريدون، كل مايشغله هو أن يحقق أحلامه على أرض الواقع، فيمكنك أن تراه سيد قومه وأبسطهم في آن واحد مادام ذلك يريحه لا يريحهم.

وصل إليه مصطفى وصعد لغرفته فوجده فيها لم يغادرها بعد لعمله، تفاجأ مينا بحضوره وتفاجأ أكثر بوجهه المنكسر، لم يسأل عن شيء، فقط أجلسه وأعد له بعض الإفطار وما إن جلس حتى بدأ مصطفى في سرد ما حدث بصوت مختنق، كان مينا قد تنبأ من قبل بتلك القنبلة ولكن لا جدوى الآن فاللوم وقت السقوط أسوأ من السقطة ذاتها، استمع له بانصات وربت على كتفه وهو يقول:

_ كل حاجة هتبقى بخير ماتقلقش.

بعدها لم يتحمل مصطفى رؤية أي أحد فقط استقر بغرفة مينا منعزل عن العالم وما فيه، هاتف الدكتورة سلمى وأخبرها بأنه لن يستطع القدوم مرة أخرى واعتذر لها، فبأي وجه سيراها مرة أخرى كل صباح بدون زهرة، أما والديه فأخبرهما بالواقعة وأنه سيغيب بضعة أيام سيقضيها لدى مينا إلى أن يهدأ.

أرادت والدته أن تثأر لكرامته وتحدث فريدة بكل ما تكنه لها في صدرها ولكن زوجها رفض الخوض في الأمر مرة أخرى حتى لا يزداد سوءًا.

لأول مرة يقضيان يومًا منفصل هكذا دون زهور ودون رسائل ودون محادثات، مر النهار بخيباته هي في غرفتها ساكنة مع صديقها والأصوات التي عادت تؤنسها من جديد، وهو ساكن بغرفة مينا بعد أن أصر عليه أن يذهب لعمله ويتركه بمفرده، كانت سهرتهما سويًا اليوم، كان بينهما موعد مسابقة ستشترك بها إيناس، ذهب كل شيء في لحظة وغرق مع مركبه، الذي رغم محاولاته فشل أيضًا في انقاذه، جاءه في المساء نادر بعد أن علم من مينا ما حدث، كان مستاءً يشعر بالذنب فيما اقترفه في حق صديقه، جلس بجواره مطأطأ الرأس وقال بأسف:

_ أنا آسف يا مصطفى، والله ما أعرف إني كل ده هيحصل.. أنا كنت بحاول أساعدك بالمتاح في إيدي مش أكتر... أنت زعلان مني صح؟

ربت مصطفى على كتفه وهو يمسح من جفنه الأيسر دمعة تائهة ثم نهض من مكانه وهو يقول له:

_ ماتقلقش يا نادر أنا مش زعلان منك... أنت مالكش ذنب في أي حاجة... ده كان قراري أنا وأنا بتحمل مسؤوليته.

توجه صوب سور السطح وهو يتأمل البنايات من هذا العلو، المشهد من أعلى لا يشبه الأسفل ولا الداخل يشبه الخارج ولا البعيد يشبه القريب، هكذا رأى نفسه رغم نيته الطيبة من الداخل فحصد أكبر كارثة في حياته، رغم كل التغييرات والمحاولات التي قام بها لكي يحظى بحبيبته وينجو بصحبتها، اختارت هي نجاتها بمفرها وكيف لا؟!!!!

هل تركت روز مساحة لجاك على سطح اللوح الخشبي لتنقذه هو أيضًا؟! رأى نفسه جاك المتدني في نظر سكان الطبقة العليا، من كسب تذكرة بمحض الصدفة بلعبة قمار ليحظى بشرف رحلة مجانية ويصعد على متن أكبر سفينة في التاريخ ويلقى روز ويحبها وتحبه وفي النهاية هي التي ستنجو جراء محاولات انقاذه.

هي حتى لم تكن مثل روز، لم تحاول أن تهبط لأسفل وتبحث بين الغرف

لتجده وتنقذه، لم تملك الجرأة والشجاعة لتتقبله كما هو أو تصدقه، تصدقه كما تراه وكما أحبها فحصل على حظ أسوأ من جاك.

لم تسر ضد التيار بل لم تحاول... وكأن سطح السفينة حُرم على سكان القاع هكذا أرادت عائلتها وقبلت بهذا إيناس... فمع أول سقطة سقطت على الفور في رضوخ، لم تؤمن به.. لم تصدقه أو تعطه فرصة، ولكنه أيضًا لم يكن جاك الغريق بتذكرة مجانية إنما دفع مقابل كل لحظة معها، حاول إرضائها هي وعائلتها بكل الطرق، أفنى ساعاته وجهده لكي يحقق لها أحلامها ولا يشعرها بأي نقص... نعم هو ليس جاك.... ليجد نفسه مطرود من جنتهم عند أول خطأ يرتكبه " ولو كان العمل الشريف يومًا يحتسب خطأ "، بأي وزن وزنوه وأي مكيال كالوا أحكامهم؟

لأول مرة يشعر بتلك الدونية في حياته، طوال سنواته الماضية كان شابًا مكافحًا ومثال طيب يحتذى به من نماذج الشباب، أما اليوم فهو لا شيء.

***

في اليوم الرابع هاتفته إيناس فأجابها بعد أن غلبه الشوق والحنين:

_ أنت فين؟

_ عند مينا.

_ طب عايزة أشوفك.

_ هبعتلك اللوكيشن وتعالي.

_ أوك بس لما أوصل هرنلك وتنزلي أنا مش عايزة أشوف حد.

_ أوك.

وصلت إيناس بعدها بنصف ساعة وصعد مصطفى بجوارها في السيارة، لأول مرة يشعر بتلك الغربة في سيارتها، لأول مرة يدرك قيمتها المادية الحقيقية التي لم يحسب لها حسابًا من قبل، بات الآن يعرفها حق المعرفة، فحب المظاهر ومقياس الأموال أول دروسه المستفادة من تلك التجربة المؤلمة.

لم تنظر إليه إيناس إنما كانت تمسك بمقود السيارة وهي تنظر للأمام، أما هو فكان مشهده أمامها وأمام أهلها لا يفارقه بعد أن أهدروا كرامته أمام عينها

في مشهد لم يتمنى أن تراه فيه يومًا، نطقت إيناس بعد أن طال الصمت قائلة:
_ أنت ليه ماقولتليش حوار شغلك ده؟
_ لأنه كان حاجة مؤقتة مش هستمر فيها.
_ ولما هو مؤقت ومش عايزه اشتغلت فيه ليه؟
_ كنت بحاول أنقذ الموقف اللي أنا كنت فيه، كنت خايف إني لو فلوسي خلصت ماعرفش أحققلك اللي عايزاه وأخسرك.
نظرت له بعين دامعة وقالت:
_ بس اللي أنت عملته دمر كل حاجة فعلًا.. وأهو خسرتني.
_ خسرتك علشان كنت بحاول بأقصى طاقتي أنقذ الموقف زي ماوعدك، كنت عايز أنقذ حبنا وماخيبش أملك فيا.. أنا قبلت بيه علشان هيديني وقت كفاية أبقى معاكي.
_ والحقيقة هو السبب في فراقنا دلوقتي.
ابتسم مصطفى بسخرية وهو يقول:
_ طب أنا غلطت علشان أنقذ حبنا، إنتي بقى عملتي إيه للحب ده؟؟؟
كنتي ساكته ليه يا إيناس؟. ..
_ كنت عايزني أقول إيه وأدافع عنك إزاي، أنا قولتلك إني شروط البيت عندي صعبة وماما مش بتقبل أي حد، فهمتك كل حاجة وفهمتك أد إيه المظاهر بتفرق معاهم ما بالك بمنظرهم قدام الناس!!
_ فعلًا عندك حق.. أنا بوظتلكم كل حاجة... ودمرت سمعتكم قدام العيلة... أنا آسف... ده حتى مدام فريدة قالتهالي في وشي، هي ماكنتش عايزة الجوازة دي من الأول.
مسحت إيناس دموعها وقالت:
_ بص أنا فكرت في حل... إحنا نهرب مع بعض ونتجوز ونبقى نواجههم بعدين.
_ فكرة عظيمة الحقيقة، بس تفتكري أنتي هتقدري تعمليها، هتقدري

تخالفيهم وتهربي، وهتقدري تواجهيهم بعد كده، طب وأنا هقدر أنسى كرامتي المهدورة قدامهم وأقدر أنسى خذلانك ليا وكمان هاخدك غصب عنهم تفتكري إنتي هتعرفي تواجهيهم ساعتها.... للأسف يا إيناس أنا مش هعرف أساعدك في الحل ده متعودتش على الهروب.

_طب أنت عايز إيه؟. .. قولي.. أعمل إيه؟ قالتها بصوت متهدج يائس

زم شفتيه ورفع كتفيه وهو يقول "معرفش" ثم فتح باب السيارة وغادر أمام دموعها

دون رجعة ودون إجابة ودون وداع للمرة الثانية وتبدو أنها الأخيرة ذهاب بلا عودة.

كان يأمل أن يكون حلها هو المواجهة، وأن تتمسك به... أن تدافع عن حبها أمام الجميع وتسعى لانقاذه كما كان يسعى نحوها من قبل ولكنها فضلت الهروب على المواجهة لم تفكر في سمعته التي ستسوء ما إن يوافق على شيء كهذا، أرادها حرة برغبتها وموافقتهم وأمام نظر الجميع مرفوعين الرأس في شموخ، لم يردها منكسة الرأس منكسرة هاربة، ماذا لو مر عليه أزمة مادية هل ستتحمل حينها وتسانده؟ هل ستقبل بهداياه البسيطة وشقة صغيرة وليست فيلا والدها؟؟

هل ستقبل ضيق حاله وعسر حلوله.. أم ستلوم نفسها وقرارها السيء الذي إتخذته يومًا، ستمقته حينها وتمقت فقره وعيشتها معه، ستحن للماركات التي كانت ترتديها ورغد العيش في بيت والدها، معه لن تجد تلك الرفاهية، ولكنها كانت ستجده معها يظلل عليها ويحبها، يبدو أن ذلك لم يكن مطلبها ولم يكن سيكفيها، في النهاية قاتل صوت قلبه الذي كان يحرضه لقبول عرضها وهو يقنعه بأن كل شيء سوف يحل في المستقبل ولكن في النهاية هناك قرارات لا يجب أن تؤخذ سوى بصوت العقل ولو دهس القلب أسفل قدميه.

***

(١٨)

وقفت إيناس بغرفتها أمام المرآة وهي ترتدي فستان على شكل نحلة لونه أسود بخطوط عريضة صفراء وجورب أصفر طويل، وعلى ظهرها ملتصق أربعة أجنحة متصلين ببعضهم، بينما في رأسها ربطة شعر صفراء.

كانت تقف أمام المرآة في انبهار وسعادة، تقوم ببروفة دورها في المسرحية التي سوف تؤديها في المدرسة صباح الغد، كانت في عمر التاسعة حينها، ظلت ترقص بفرح وتتمايل أمام رانيا بينما الأخرى تجلس على فراش إيناس وتشاهدها بسعادة شديدة ثم قفزت بجوارها وهي تحاول مجاراتها في الرقصات وتقليد حركاتها، وتشجعها كلما حاولت مرة تلو مرة لكي تخرج رقصتها في أبهى صورها.

تلك هي المرة الأولى التي تشترك فيها بعرض المسرحي، والذى يقام في مدرستها كل عام بمناسبة حلول الربيع وشم النسيم... ودورها كان تلك النحلة التي تتقافز وسط الزهور المتفتحة وهي تتغذى على رحيقهم باستمتاع لتنتج العسل... أحبت الدور الذي كانت تلعبه فهو يشعرها بالفعل ببهجة الربيع، كانت تنظر إلى رانيا وهي تراقبها بسعادة بالغة بعد أن أبدت لها إعجابها بالفستان الذي ترتديه وهي تقول " فستانك حلو أوي يا إيناس... أنا عايزة واحد زي بتاعك ".

فأجابتها إيناس" هبقى أدهولك تلبسيه شوية بعد العرض بتاعي، بس هاخده تاني؟"

"ماشي" قالتها رانيا وهي تهز رأسها إيجابًا.

أدت إيناس أمامها بروفة تلو الأخرى ولكن في كل مرة يقترب موعد عرض الحفلة يزداد توترها، كما أن حركتها الأخيرة التي ستختم بها الحفلة وهي تقفز من على الأرض لأعلى وتدور في الهواء كأنها تطير بأجنحتها ثم تنزل على الأرض وتنحني للجمهور تلك كانت تشعرها ببعض القلق ولكنها ظلت تقوم بها بشكل متكرر حتى باتت سهلة يسيرة عليها.

في صباح اليوم التالي، وأثناء وقت استعراض الحفلة التي سيشهدها الكثير من آباء الأطفال وعائلاتهم ومن بينهم عائلة إيناس وخالتها ورانيا، كانت إيناس تقف خلف المسرح إلى أن يحين دورها للدخول بينما زملائها الأزهار المغلقة ترقص بالداخل منتظرة حلول الربيع لتتفتح، كانت تنظر إليهم بارتباك، كفيها باردان وأنفاسها متسارعة تذهب وتجيء بتوتر فوجدت أمامها معلمتها المشرفة على الحفلة وتصميم الاستعراض فقالت لها المعلمة بعد أن لمحت توترها:

_ مالك يا إيناس... خايفة من إيه؟

_ مش عارفة.. هو أنا لازم أدخل؟

_ آه طبعًا لازم.

_ أنا حاسة إني مش مستعدة... كمان الحركة الأخيرة مش مدربة عليها كويس... خايفة أف..... ..

وهنا لمحت المعلمة اقتراب فقرة إيناس فتوجب عليها الدخول الآن، ربتت المعلمة على كتفها وهي تقول:

_ كله هيبقى كويس يا إيناس.. ركزي إنتي بس ويلا علشان فقرتك دلوقتي.

دخلت إيناس إلى المسرح وحاولت بالفعل التركيز على أدائها وظلت تقدم رقصتها واستعراضها ولكن كلما تلاقت عينها بالجمهور شعرت بالتوتر أكثر إلى أن حانت لحظة قفزتها الأخيرة التي ستختتم بها استعراضها، هنا لمحت من بين الجمهور الخوف يقف خلف المقاعد يرتدي زيه الأسود الطويل الذي يكسو الأرض من حوله، ينظر لها باهتمام وهو يحذرها بإبهامه ألا تقوم بها ويهز رأسه نفيًا وهو يصور لها قفزتها التي ستنتهي بسقطة على الأرض موجعة يضحك عليها كل الجمهور من حولها ثم تجد معلمتها تنظر لها بلوم وتوبخها.

حاولت تجاهله وبدأت في رفع أصابع قدميها في محاولة للقفز ولكنها وجدت شيء معقود بهما، ثم سمعت صوت اصطكاك حديد بالأرض، نظرت إلى الأسفل نحو قدميها فوجدتهما مكبلان بالأغلال، في كل قدم سلسلة متصلة بكرة معدنية كبيرة وثقيلة تملؤها رؤوس مدببة أثقلت قدميها، حاولت مرة أخرى

وهي تنظر للجمهور الذي بدأ يتهامس فالتصقت أكثر بالأرض، وفي النهاية لم تستطع أن تقوم بها فدخلت على الفور المعلمة وجمعت الفرقة لكي ينحنوا للجميع حتى تنقذ الموقف بعد أن أشارت لها كثيرًا خلف الكواليس لكي تقوم بقفزتها ولكن إيناس كانت تنظر لها في تردد ثم تنظر إلى الجمهور في رهبة... ثابتة لا تتحرك، لم تعلم من قيدها بتلك الأغلال ولماذا؟ ولكن يبدو أن الخوف كان قلق من سقوطها في ذلك الحين فيبدو أنه صديق طيب يعبأ لأمرها، إلى أن رمقت المعلمة إيناس بغضب وهنا علمت أنها أفسدت الأمر ولكنها كانت خائفة ونظرات والدتها التي تشاهدها على مقعدها أخافتها أكثر ليس من القفزة ولكن من التوبيخ إذا وقعت أمام الجميع وأحرجتها، هبطت إيناس مع الأطفال وخلف المسرح قالت لها المعلمة بغضب:

_ما عملتيش الحركة الأخيرة ليه يا إيناس..... ووقفتي متنحة في الجمهور إنتي بوظتي العرض كله..

لتجد والدتها قد حضرت هي الأخرى بوجه لا يقل غضبًا عن وجه معلمتها وهي تصرخ في وجهها:

_ إيه اللي إنتي عملتيه ده... دايمًا مخيبة أملي... فاشلة مش بتعرفي تعملي أي حاجة على طول كسفاني قدام الناس وأنا مش هحضرلك حفلات تاني.

حصلت بالفعل على التوبيخ الذي كانت تتجنبه في السقوط من القفزة، لم يتغير رد فعلهم في شيء، شعرت بالحزن على تخييب آمالهم فيها ولكن لا مجال للعودة للوراء، غادرت معهم بصحبة رانيا وهي حزينة منكسة رأسها لأسفل فقالت لها رانيا:

_ إنتي ليه يا إيناس مارقصتيش رقصة إمبارح بالأجنحة بتاعتك ونطيتي في الهواء؟

_ أصلها كانت صعبة وخفت أقع والناس تضحك عليا.

_ لا مش صعبة خالص، إنتي عملتيها كتير إمبارح حتى بصي أنا كمان بعرف أعملها بسهولة ثم قامت بالقفزة على الفور أمامها بسعادة.. وهي تكمل.. آه

صحيح إنتي هتديني الفستان زي ما وعدتيني.

_ أه خوديه كله أنا مش عايزاه تاني.

فهللت رانيا بفرحة تتناقض مع كم الحزن والخيبة التي تملأ إيناس.

في العام الذي يليه وفي نفس وقت التجهيز للحفلة، وقفت إيناس خلف غرفة المعلمة وهي تنظر من خلف الباب المفتوح بشكل جزئي، رأت المعلمة وهي تسجل أسماء الأطفال الذين سيشتركون في حفلة شم النسيم ذلك العام، كانت تنظر لها بحزن واستياء وهنا جاءتها زميلة تدعى دنيا وهي تسألها:

_ هتسجلي اسمك السنة دي يا إيناس في الحفلة؟

فنظرت لها إيناس بوجه حزين وهي تقول:

_ لا... مش هشترك.

وهي تلقي بنظرها نحو قدميها لتجد تلك الأغلال لازالت تقيدها منذ ذلك الحين بينما الخوف يقف بجوارها وهو يطوقها بذراعه بعد أن أصبح صديقها المقرب منذ أن رأته في يوم الحفل لأول مرة..... وقد أصبح يتردد عليها كثيرًا في الآونة الأخيرة.

ومنذ حينها لم تتخطى إيناس تلك الذكرى ولم تكرر المحاولة في شيء أبدًا خسرت به جولة من قبل فليس لديها القدرة على أن تنال نفس التوبيخ وربما أكثر وأصبحت أغلال قدميها جزءًا منها لا يفترقان عنها قط كصديقها الخوف.

***

(١٩)

أتدري ما الفرق بين الحب والإدمان؟

يمكن لكليهما أن يذيبانك في نشوتهما لتجد نفسك تحلق في السماء بسعادة وأنت تلمس بيدك السحب من حولك....

ولكن إليك الوجه الآخر لهما والذي أيضًا قررا أن يجتمعا به وهو أن ألم الإقلاع عن الحب لا يختلف عن ألم الإقلاع عن الإدمان بل كليهما متشابهان، فهل يتساوى حقنك بجحافل من السعادة بتلك اللحظة التي تتوقف بها تلك الجحافل فجأة دون سابق انذار وكأنها تخلت عنك وتركتك تبتئس من بعدها بعد أن أيقظت كل مناطق الألم الجسدي في مخك، لم يكفها تخليها عنك وخذلانك بل تركتك خلفها تتأوه من أوجاعك وقلبك المعتل.... ترى كيف كان حال آدم بعد أن حُرم من نعيم الجنة؟!..... ترى ما شعوره حين هبط على أرض الشقاء؟!... من المؤكد أنه شعور قاتل لا يحتمل.... فهيهات بين نعيم فردوس وشقاء سعير....

ابتعدت إيناس ولم تقرب المحاولة مرة أخرى بل لم تمتلك أي شجاعة لها، كما إعتادت تقبل الفشل من المحاولة الأولى... ورغم ذلك لم يتخلى الألم عنها، قلبها مشقوق... لا تعلم كيف انقلب حالها بتلك السرعة وتخلت عنها السعادة هكذا في لحظة.

بعده سأمت الكون وما فيه، لم تعد تطيق الاستمرار بعد أن تركها.. غادرت معه سعادتها وزهرتها وهداياه المميزة ولعبة التتبع ورؤية وجهه صباحًا ومساءً وهو يبتسم كلما طلت عليه مبتهجة، حتى حلمها في التسجيل بالمسابقة وتصميم الأزياء غادر هو الآخر حزنًا وكمدًا عليه.... تركها الجميع فجأة وكأن ثقب أسود ابتلعهم جميعهًا... نعم ثقب أسود ذلك الذي يملأ قلبها الآن بعد أن غادر مصطفى لتجد تلك الفجوة في صدرها تبتلع في نهم كل ما كان يسعدها..... لا تدري هل أخطأت في حقه أم هو من أخطأ في حقها؟

تلك الحيرة تقتلها، تلك الرسائل الصوتية والمكتوبة التي أصر الهاتف على حفظها تقتلها... اشتياقها لرؤيته وصوته يقتلها... كل شيء جمعهما وتمنت أن يجمعهما سويًا بات كسهم أُطلق نحو قلبها قتلها.

تمنت أن تعود لأيامها السابقة معه.. تمنت أن تستيقظ من ذلك الكابوس المعتم المظلم الذي يزهق روحها.. تمنت أن قبل بعرضها وهربا سويًا.. فإذا كانت رغبته أن يظل معها لماذا لم يقبل عرضها؟!.. شعرت بأنين في كرامتها ولكنه لا يمثل جزءًا صغيرًا بجانب أنين روحها وقلبها.

منذ أن غادر لم تمتلك القدرة على الخروج يومًا إلى عملها، قاطعته في لحظة انتفاضة وثورة على طغيان أهلها كسجين يضرب عن الطعام إلى أن يحقق مطالبه ولكن هل لثورتك وصرخاتك وانتفاضتك ثمنًا أمام قوانينهم السائدة؟!!

بالطبع لا فالقوانين لا تتغير مادامت ثورتك صوت دون فعل... بالطبع صموا آذانهم عن سماعها وتركوها تفعل ما تريد ولو احترق عملها بما فيه لن يعدلوا عن قرارهم أبدًا ولو ماتت جوعًا لن يغير من الأمر شيء، تثور كما تثور وتمتنع كما تريد فليس هناك رجعة، فأصرت هي على انقطاعها وقررت أن تنهي ذلك العبث من حياتها، منها تهرب من عملها الذي تنبذه ومنها نفاد رغبتها في أي شيء.. مادام الأهم قد غادر فلن تبقى على شيء بعده....

وعلى الرغم من أنهما أعلنا البعد، لم يستطع أحدًا منهما أن يحذف الآخر من صفحة الفيسبوك، إنما غيرت إيناس فقط حالتها من مخطوبة إلى عزباء مرة أخرى بعد إصرار من رانيا دام الكثير وهي تلح عليها بأن تأخذ تلك الخطوة وتقطع ذلك الرباط الذي مازال يربط بينهما، كيف وهو لم يجرؤ بعد على أن يقدم على تلك الخطوة، هل ستسحب يدها أولًا ؟؟؟

" لا يهم ولتبدأي بها أنتي.. فالانفصال قد تم بالتأكيد ولا أمل في رجعة "

هكذا أخبرتها رانيا... كرهت إيناس عائلتها بأكملها بما فيهم رانيا التي كلما رأتها ذكرت لها أهمية الانفصال وأن تلك العلاقة لم تكن تناسبها أو تناسب العائلة... كرهت رأيها ونظرتها التي لم تختلف عنهم رغم أنها كانت تعلم جيدًا

كيف كان يحب إيناس، لم تعد علاقتهما معًا كما كانت بل تبدل كل شيء...

اجتمعوا جميعًا ضدهما، وأصدروا أحكامهم جنفًا عليه وهم يدحضوا الحق الذي لطالما عرفوه به والتمسوه في تعاملهم معه... كم كانوا قساة عليه وعليها..

لتجد نفسها في النهاية حبيسة مخاوفها... حبيسة لدى أصوات رأسها التي لا تهدأ كأصواتهم الصاخبة اللائمة... حبيسة ذكرياتها معه وألمها على فقدانه... حبيسة في زنزانة بصحبة صديقها فقط... صديقها الوفي.. لتصبح زنزانتها هي غرفتها الآمنة التي باتت تسكنها منذ تلك الحادثة بشكل منقلب بعد أن أصبح ليلها معاش ونهارها سبات.. لم تظهر يومًا في الشارع.. أحضرت تلفاز في غرفتها حتى لا تغادرها لأي شيء سوى الحمام والمطبخ لم تواجههم ولم يواجهوها فقد صدر الحكم بالفعل فما جدوى دعوى النقض والاستئناف في حكم نهائي.

كانت تأكل وتنام وتراه في أحلامها بشكل متسلسل دائري لا ينتهي ولا ينقطع كحلقات مترابطة لا تنقطع لتستيقظ في النهاية على صورته.. دموعها ثائرة ولكنها عاجزة.. لا تملك سوى العيش على ذكراه ومراقبته في صمت على صفحته كل صباح ومساء، فلم يعد لديها سوى ذكرياتهما سويًا ومراقبتها له في الحاضر أما المستقبل فقط دفن قبل أن يولد للحياة..

***

جلس مصطفى على مكتبه وهو يضع السماعات في أذنه ويستمع لإذاعته المفضلة بينما يقوم بإعداد أحد الأبحاث الهامة في مجال الأمراض المناعية المزمنة.... فمنذ آخر لقاء بينه وبينها وقرر بعدها العودة لبيته وغادر غرفة مينا رغم إصرار مينا على أن يمكث معه فترة أخرى إلى أن يشعر بتحسن، ولكن عن أي تحسن يتحدث صديقه؟!....

نصحه مينا بأن لا يستسلم لتلك الحالة ويجب عليه أن يتجاوزها سريعًا، أصر عليه أن يذهب لمقابلة العمل التي غير موعدها من أجله بعد أن استسمح صاحب المعمل أن يعطيه فرصة أخرى بعد تخلفه عن موعده الأول بسبب ظرف طارىء، تحدث معه ولكن أخصائي التحاليل لم يبتلع عذره بتلك السهولة بعد أن

شعر بعدم الالتزام، فمازال صديق مينا من يريد تلك الفرصة وليس هو.

في النهاية ذهب مصطفى إلى المقابلة وتم قبوله، استمع مصطفى لنصيحة صديقه مينا بإصغاء وقرر أن يعود لعمله ودراسته بكامل طاقته... فكما أخبره تلك المرحلة لها طريقان في العلاج إما أن يشغل وقته دائمًا حتى لا يضعف أمام أحزانه وإما أن يقع في حب آخر... وهل عاد بقلبه مكان لأخرى؟!... وهل لديه من الحب ما يعطيه لأخرى؟!...

فقد أصبح قلبه خاو أجوف منذ أن أجرى والدها تلك العملية عليه وأهدرت دمائه بجانب كرامته على مرأى ومسمع من الجميع ليصبح أمامهم عبرة لمن يعتبر... ذلك الدنيء الفقير الكاذب الخائن قد قلل من شأنهم وشأن نفسه... لأول مرة يشعر بتلك الحقارة... ماعاد يستطيع أن ينظر لمرآته كما كان، مواجهة نفسه تؤلمه كثيرًا تذكره بمدى حقارته ودناءته... تذكره بفقره وقلة حيلته.. تذكره بوجع قلبه... فمنذ لقائهما الأخير وهو تائه حزين مصدوم فاقد لوعيه... يعمل بنصف عقل شريد... وبداخله صوت يصفعه من حين لآخر في لوم لرفضه عرضها... ولكن في النهاية صوت مبادئه هو من علا رغم ثورات الآخر... لم يكف عن مراقبتها يومًا ولم يجرؤ على أن يغير حالته على الفيسبوك إلا عندما تجرأت هي، فعلى الرغم من ضرورة الخطوة إلا أن الأمل لم يتخلى عنه... وحتى بعد أن غير هو الآخر الحالة لم يكف عن مراقبتها كل يوم جانبًا يطمئن عليها وجانبًا يحن إليها... كل ذكرى تجمعهما محفورة بذاكرته، وعلى الرغم من أنه يحاول بكل الطرق أن يشغل كامل وقته إلا أن صورتها لم تكف أن تكون أول ما يلمحها أمامه عندما يستيقظ وآخر ما يغفل عليها بعد يوم طويل شاق من العمل والدراسة وكأنه معاقب بالأشغال الشاقة مدى الحياة من بعدها لعله ينسى.

وبينما هو غارق في بحثه وتوسله لعقله بأن يكف عن استحضار كل ما يؤلمه ذاعت المذيعة على الراديو أغنية تبدو أنها فصلت خصيصًا لذلك الموقف، كمن كبس جرح غائر مدمى حفنة كبيرة من الملح....

If you ever leave me, baby
Leave some morphine at my door
'Cause it would take a whole lot of medication
To realize what we used to have
We don't have it anymore

There's no religion that could save me
No matter how long my knees are on the floor
So keep in mind all the sacrifices I'm makin
To keep you by my side
To keep you from walkin' out the door

'Cause there'll be no sunlight
If I lose you, baby
There'll be no clear skies
If I lose you, baby
Just like the clouds
My eyes will do the same, if you walk away
Everyday it'll rain, rain, rain

I'll never be your mother's favorite
Your daddy can't even look me in the eye
Ooh, if I was in their shoes, I'd be doing the same thing
Sayin' "There goes my little girl
Walkin' with that troublesome guy"

But they're just afraid of something they can't understand
Ooh, but little darlin' watch me change their minds
Yeah for you I'll try I'll try I'll try I'll try
I'll pick up these broken pieces 'til I'm bleeding
If that'll make it right

لم يعد يتحمل ثقل دموعه المحتقنة والتي لم تختلف كثيرًا عن حرقة قلبه، يعلم أن مهما جاهد نفسه ليتخطى هذا الألم لن يصمد أمامه أبدًا هو فقط يحاول الهرب في طريق يعلم أن كل اتجاهاته ستؤدي في النهاية لها... نعم فهي الملاذ والترياق الشافي فمسكنات الكون وأدويته لن تشفي وجع غيابها... ليتها صبرت.. ليتها أدركت حسن نيته في الانقاذ لا الدمار.. ليتها جاهدت ودافعت عنه وعن حبها.. ليتها وقفت معه ما كان سيخذلها يومًا... كم مؤلم الخذلان وهو يكوي الروح... كان يستمع لكلمات الأغنية وتركها تفتح أبواب كل ما يؤلمه.. تركها تشير نحو كل ما يحاول نسيانه وتذكره به بمرارة.. تركها تنعيه وتواسيه وفي النهاية تركها تحقق كلماتها وأمطرت بالفعل دموعه التي شهدت عليها وسادته كل ليلة.. سقطت الآن وانهمرت بسخونتها وهي تحرق وجنتيه وجرحه معًا... بعد أن أظلته سحابة سوداء بعد غيابها هي بضوء شمسه والتى يبدو أنها لن تفارقه أبدًا... فلتظل شمسه غائبة وعيونه تمطر للأبد وتبكي غيابها.

***

بعد مرور ثمانية أشهر

كانت فريدة تجلس بجوار زاهر على إحدى الطاولات في النادي يتحدثان فعصفت رياح الربيع رائحة لعطر مميز وثمين لا يناله سوى أصحاب الذوق الرفيع، ثم يجد الدكتور زاهر أحدهم يقف بجواره ويسأل:

_ دكتور زاهر؟!!!...... إزي حضرتك يا دكتور.

نظر له الدكتور زاهر بتعجب فأكمل الآخر بنفس الحماس والابتسامة:

_ أنا مبسوط أوي إني لقيت حضرتك... كنت خايف إني معرفش أوصل لحضرتك خالص... هو حضرتك مش فاكرني؟

_ للأسف لا. قالها زاهر باقتضاب بينما فريدة تراقب بصمت.

_ أنا شهاب يا دكتور... دفعة ٢٠٠٤ حضرتك مش فاكرني... حضرتك اللي كتبتلي خطاب التوصية لجامعة ستانفورد... شهاب محمود فهمي.

تهلل وجه زاهر وقال بترحاب:

_ أهلا أهلا... إزيك يا دكتور شهاب... أخبارك إيه والدكتور محمود فهمي أخباره إيه يارب يكون بخير.

قال شهاب ببعض الأسى:

_ بابا مات من ٣ سنين.

_ لا إله إلا الله... البقاء لله يا بني أنا أول مرة أسمع منك.

_ شكرًا يا دكتور زاهر.

_ أنت أخبارك إيه دلوقتي وعملت إيه في الدراسة؟

_ أنا الحمد لله أخدت الماجستير من جامعة ستانفورد بفضل ربنا وفضل حضرتك طبعًا... ده أنا حتى كنت متابع حضرتك وكل الدراسات والأبحاث اللي حضرتك عملتها... ولسه بستفيد من حضرتك كتير واشتغلت في مستشفى في " جدة " لمدة سنتين وخلصت الحقيقة العقد ورجعت مصر.

قالها ببعض الامتنان بينما زاهر غزاه الشعور ببعض الزهو وخاصة أمام فريدة التي لطالما أحب أن يثبت لها أنها لم تخطئ اختيارها له أبدًا، فلمحها تراقب ذلك الشاب الذي تخطى منتصف العقد الرابع، بصلعته التي تعكس لمعة أشعة الشمس ونظارته التي تعلو أنفه المنصوبة، فقال زاهر لتنقشع عنها سحابة الغموض:

_ ده يا ستي الدكتور شهاب أحد تلاميذي ووالده الله يرحمه كان من دفعتي، ثم أشار لشهاب وهو يكمل.. فريدة هانم... المدام.

اقترب شهاب نحوها وهو يمد يديه ليصافحها باحترام أعجبها وخاصة تلك الانحناءة التي قام بها أثناء مصافحتها، يعجبها التبجيل والتوقير لشخصها المصون.. فقالت له بود وهي تصافحه:

_ أهلًا وسهلًا... أتفضل أقعد معانا.

_ للأسف مش هقدر.. مستعجل شوية بس أنا كنت أتمنى أشوف الدكتور زاهر ونفسي تسمحلي ببعض الوقت مع حضرتك علشان كنت حابب أناقش مع حضرتك شوية نقاط في بحث كنت بعمله.

_ طب أتفضل معانا لو حابب.. قالها زاهر دون أن يعنيها فاليوم يوم عطلته لن يقضيه في الدراسة أيضًا....

_ الحقيقة أنا مش عايز أزعج حضرتك في يوم إجازتك... لو أمكن لحضرتك نحدد ميعاد تكون متفرغ فيه وآجي لحضرتك... وكمان إنهارده أنا جاي مع ماما علشان أشوف عروسة... مصرة إني أتجوز بقى بتقولي كبرت... قالها وهو يضحك بسخرية.

سألت فريدة بفضول:

_ إيه ده هو أنت مش متجوز؟

_ لا للأسف.. الدراسة والشغل أخدوا كل وقتي وحضرتك عارف يا دكتور الطب مش بيحب الضرة...

ضحك زاهر وهو يقول:

_ فعلًا عندك حق... طب بص أنا هديك رقمي.. ثم أخرج كارت يحمل أرقامه من جيبه وأعطاه إياه وهو يكمل... وأنت حاول تكلمني في اليومين الجايين تفكرني علشان أحاول أظبطلك وقت في جدولي وممكن نتقابل ساعتها هنا لو حابب.

_ شكرًا يا دكتور جدًا... حقيقي أنا مبسوط إني شوفت حضرتك إنهارده وأتعرفت على فريدة هانم كمان، هكلم حضرتك بإذن الله قريب علشان نحدد ميعاد وآسف جدًّا على الإزعاج.

ثم ودعهم وغادر.

بينما نظرات فريدة لم تودعه بعد بل أنها تبعته إلى أن وصل إلى طاولته والتي يجلس عليها سيدتين وفتاة تبدو هي العروس.

لا تعلم حينها كيف قفزت في عقلها فكرة صفقتها المعتادة، هل ستقوم بعقد واحدة قريبًا؟

توسمت به شيئًا جيدًا، شيء تحبه، وشيء يليق بابنتها الوحيدة ليعوضها عن المعدوم الصعلوك الذي حصلت عليه من قبل.

فهي لم تكف يومًا عن الغضب والكره لذلك الشاب وما أحدثه من خراب في حياة ابنتها، وتلك الفضيحة التي طالت العائلة بأكملها بسبب حماقته، كانت مع كل يوم يزداد سخطها على ابنتها التي تسجن نفسها في غرفتها بعد أن اعتزلت كل شيء بغيابه، تلك البائسة الملعونة التي عادت محمولة إلى العنوسة والخزي مرة أخرى كفأر هرب من زنزانته وألقي القبض عليه بعد محاولته الفاشلة....

الصوت في رأسها يزداد مع كل لحظة تمر وتقترب إيناس من حافة الثلاثين التي تراها فريدة كحد السكين على رقبتها... لن تقبل بعنوستها لابد أن تتحرك، مر ثمانية أشهر في سكون واقتلعت ثمانية أشهر من فرصتها قبل الثلاثين إلى متى ستنتظر؟!!!

الوقت يمر سريعًا... الثلاثين تقترب

الثلاثين تقترب... إيناس عانس مثل والدتها

الجميع يسخر... الثلاثين تقترب

الثلاثين تقترب... رانيا تزوجت منذ ما يقارب العام

رانيا تزوجت... وحامل وأوشكت على الولادة

رانيا حامل... وإيناس لازالت عانس

رانيا سعيدة... وابنتها شقية

رانيا سعيدة الحظ... إيناس لا حظ لها

الثلاثين تقترب... ولقب العنوسة مازال يلاحقها.

الثلاثين تقترب... وإيناس لازالت بائسة.

الثلاثين تقترب... وفريدة لم تنتصر بعد.

لم تجد أمامها سوى محاولة أن تستغل ذلك الحدث وتعلن عودتها لقلب اللعبة من جديد... معلنة ترتيبها لصفقة أخرى.

حتى أنها بدأت في المقارنة بينه وبين آسر زوج رانيا.. ذلك النموذج المثالي الخالي من العيوب، لتجده يلائم العائلة في كل شيء، فهو أيضًا فاقد لأبيه مثل الآخر لو كانت تلك ميزة تحتسب أيضًا... إذًا فاختيارها اليوم صائب.. نعم هو المنشود.. هو المثالي.. دون شائبة واحدة.

****

(٢٠)

في مساء اليوم التالي كان زاهر يجلس في غرفة نومه بجوار فريدة وهو يقص عليها أحداث يومه وبينما هو يسرد قصصه ذكر لها أن ذلك الطبيب المدعو شهاب قد حادثه اليوم في الصباح لكي يحدد زاهر له موعد للمقابلة في النادي، وبينما هو منطلق في حديثه لمح اهتمام فريدة بذلك الأمر والظاهر على ملامح وجهها واعتدالها في جلستها ما إن ذكر اسمه، وهنا بدأت فريدة بإعلان خطتها له قائلة:

_ أنا شايفه أنه شخص كويس ويناسب إيناس والعيلة عندنا.

نظر لها زاهر في ذهول وهو يقول:

_ يناسب إيناس في إيه؟!... إوعي تكوني تقصدي اللي جه في بالي.

ومن أجدر منه في قراءة أفكارها؟!....

_ وفيها إيه.... شاب كويس ودكتور وشكله من عيلة محترمة وأنت عارف باباه ويناسب عيلتنا... وكمان إحنا ممكن نساعده في الكارير بتاعه وهتبقى صفقة مربحة للكل.

_ طب وإيناس هتوافق بحاجة زي دي؟

_ وماتوافقش ليه؟!.... هتلاقي أحسن منه فين... ده أحسن كتير من الولد اللي جابتهولنا وأقنعتنا بيه وفي الآخر فضحنا، أنا قبلت بيه بس علشان كان في شبه منك وقولت هيتغير بعدين وهيعرف يستغل الموقف بذكاء وينسى القرف اللي جاي منه لكن للأسف طلع غبي وبوظ فرصته.

ابتلع زاهر ريقه بعد كلماتها ذات الوجهان الذم والمدح معًا، فهز رأسه إيجابًا وهو صامت... دومًا تذكره ببدايته... دومًا تذكره بصفقتها معه... ودومًا تذكره أنه قبل أن يقتلع جذوره من أرضه الأصلية ويغرسها في حدائق فريدة الطوخي... لا يعلم أنه من اختار الانصياع مرة سيظل دومًا مطأطأ.

أكملت فريدة:

_ أنت تكلمه وتقوله يجي يقابلك هنا في البيت مش في النادي وأنا هرتب كل حاجة.

وهنا نهض زاهر بالفعل وقام بتغيير مكان اللقاء كما أرادت فريدة، فلم يمانع شهاب وقبل الدعوة بترحاب شديد.

***

في عصر اليوم التالي كانت إيناس مستلقية على فراشها وسط فوضى عارمة من حقائب أكل وأطباق وأكياس مقرمشات تحيط بها من كل اتجاه، رن هاتفها بوصول إشعار جديد، حاولت أن تلتقط الهاتف بيد كفيفة لا تعرف وجهتها فظلت تبحث هنا وهناك في محيطها فلم تجده، ظلت تعافر لكي تنقلب على ظهرها وتبحث عنه ولكن جسدها ملتصق بالفراش، حاولت مرة أخرى وهي تتأوه مع كل حركة، رأسها ثقيل وجسدها متعب... أعضائها بالكاد تتحمل العيش وهي تضغط عليها في كل يوم أكثر وأكثر كأنها تعترض على حالها، وأخيرًا اعتدلت وأمسكت هاتفها لتضغط على الإشعار فتفاجيء بصور مصطفى في حفل مناقشة الماجستير... لقد ناقش اليوم رسالته... كان يقف في الصور بين أبيه وأمه وهو يبتسم وأخرى يقف وسط مينا ونادر وأخرى أمام الميكروفون وأخرى يقف بمفرده مبتسم... نظرت له بحزن... كان من المفترض أنها ستكون بصحبته في تلك اللحظة، سيحتفلان سويًا بنجاحه وسيلتقطان الصور معًا، كم أسعدتها تلك الصور وكم أحزنتها أيضًا بسبب غيابها عنها... لم تستطع أن تتمالك دموعها المتألمة بينما تتأمل صورته وهو يقف بمفرده مبتسمًا ويرتدي الثوب الأسود، يبدو عليه السعادة... يبدو أنه استعاد ابتسامته مرة أخرى بينما هي لا... يبدو أنه تخطى فراقها سريعًا... لا يبدو عليه أنه يتألم كما تتألم هي... هل لم يعد يتذكرها بالفعل؟.. دموعها أحالت رؤيتها لحالته الحقيقية لم تلحظ نقصان وزنه وهزلانه خلف بدلته الرمادية وثوبه الأسود الواسع الفضفاض، لم تلحظ ظلال الحزن المتوارية خلف ابتسامة لابد أن تظهر أمام عدسة الكاميرا... لم تلحظ سوى حزنها

على الفراق... لم ترى سوى سقوطها الذي لطالما حذرها منه صديقها... وها هي مهشمة على الأرض لا تقوى على جمع شتات نفسها المتناثرة في كل الأركان... لتدرك في النهاية أن السقوط مؤلم فعلًا.

وهنا وجدت والدتها تقتحم الغرفة وتقف أمام فراشها، لم تعبأ فريدة بدموع ابنتها التي تبلل رموشها ووسادتها أيضًا، ولم تسألها حتى عن سبب دموعها... فمنذ أن غادر وهي تنتحب على فراقه وكأنه يستحق؟!

نظرت حولها باشمئزاز نحو بقايا الأطعمة الملقاة في كل مكان وهي تبحث عن ركن فارغ إلى أن وجدت حافة الفراش فألقت عليها فستان كانت تحمله ومشد للجسم وهي تقول بنبرة آمرة:

_ إنهارده جايلنا ضيوف.. إلبسي الكورسيه ده علشان تداري القرف اللي بقيتي فيه وإلبسي الفستان ده... الساعة ٧ تكوني جاهزة ومش عايزة غلطة.

ثم خرجت وهي تغلق الباب خلفها بعنف.

جففت إيناس دموعها ونظرت حولها تبحث عنه فوجدته يجلس على مكتبها وهو ينظر نحوها لتفاجأ بأنه لا يقل دهشة عنها، يبدو أن هناك أمر ما، تخشى إيناس والدتها وتخشى مفاجأتها... تعلم أن العلاقة بينها وبين والدتها لم تعد كما كانت بل باتت أسوأ بكثير بالكاد يتلاقا سويًا وإن تلاقا تظل والدتها ترمقها بأبشع النظرات، زاد غضبها أضعافًا ولم تعد تحتمل وجودها أكثر من ذلك حتى حزنها على فراق مصطفى يسعر نيرانها وإن كانت مسجونة بزنزانتها أيضًا لا تتحملها...

حاولت إيناس النهوض ولكن آلام ظهرها لا تطاق تشعر وكأن هناك من غرس في عمودها الفقري قطع من الفحم المشتعلة، أخبرها الطبيب الأخير الذي زارته بسبب أوجاع جسدها التي تشعر بها في أماكن متفرقة بأن الفحوصات التي طلبها منها وأجرتها جميعها جيدة ولكن يبدو أنها تمر بفترة من الضغوط النفسية التي أثرت على صحتها العامة ونصحها بزيارة طبيب نفسي فهو الحل الأخير لها، ولكنها رفضت نصيحته وبشدة.

لم تخبر أحد بأوجاعها فهي تعلم ردود أفعالهم وكذلك لن تقوم بما نصحها به الطبيب فهي لن تذهب لطبيب نفسي ولو ستموت ألمًا من جسدها، لن تذهب إلى طبيب نفسي مرة أخرى ولو علمت بها فريدة لأرجعتها مرة أخرى لبراثن طبيبها المفضل الدكتور منير صديق العائلة ليلتهمها بين أنيابه كما اعتاد في السابق...

في النهاية استطاعت أن تتحرك وهي تبعثر القمامة التي تحيطها بمهارة متفادية غرس أصابع يدها في مثلث من البيتزا الملقاة في علبتها على الفراش وهي تضع قدميها على الأرض ثم تنهض، سارت نحو مرآتها ونظرت لصورتها وخلفها ملقى الكورسيه على الفراش... تأملت جسدها وما اقترفه الكورتيزول من جرائم بحقها... نظرت لبقايا الطعام الذي باتت تلتهمه كأنها خرجت من مجاعة... جسدها أشبه بكمثرى لديها عيب خلقي... لم يعد برشاقة الماضي... الأن لديها كرش مترهل وخطوط سيلوليت محفورة بجسدها كجحور ثعابين بيضاء وهي تلتف حولها، رفعت ذراعيها فلمحت زوائدهما المتهدلة... ورغم زيادة وزنها الملحوظ إلا أن وجهها بات أكثر شحوبًا... منقوص الوزن يتخلله دائرتين باندا حول مقلتيها، هو بمفرده من يحكى معاناتها... لامست شعرها الأشعث الأهوج الذي لم تتخلل بصيلاته فرشة منذ أيام لتجد خصلة كاملة منه بين يديها، حتى هو أيضًا لم يستطع الصمود... كل شيء انهار بعده وسقط، وارتها بسرعة حتى لا تلمحها والدتها هنا أو هناك في أي وقت أغارت عليها في غرفتها... فعلاقتهما لم تعد تحتمل، ولو لمحته فريدة لأحرقت باقيها حية وتخلصت من عارها للأبد... فإن كان غضبها في السابق قيراط فاليوم أصبح مئات الفدادين... في النهاية أخذت منشفة وذهبت للحمام لتستعد لتلك الزيارة بحمام ساخن يهدأ من أوجاع جسدها وروحها قليلًا.

***

في الخارج كانت فريدة تلقي الأوامر على الخادمات بمنتهى الحزم والشدة، تنتقل بين هنا وهناك وتراقب تجهيزات العشاء وأصناف الطعام الكثيرة، جعلتهم ينظفون كل ذرة غبار وكل ركن غير ظاهر اهتمت بأدق التفاصيل لتظهر اليوم كما تريد... فاليوم فرصتها لتستعيد زهوها المفقود وتنحل عقدتها الأزلية فيجب أن لا تخرج اليوم سوى بحصولها على النصر وعقد صفقتها لتعود الأمور لموضعها الصحيح.

***

في تلك الأثناء كان مصطفى يجلس على مكتبه في غرفته والذي أصبح يقضي عليه معظم وقته لطالما ليس في العمل بعد أن هجر ركنته المفضلة بغيابها، فلم يعد يقوى على الجلوس هناك بدونها، لم يعد يقوى على مواجهة فقدانه واستعادة كل ذكرياتهما التي شهدت عليها تلك الركنة بمفرده ماذا لو سأله الأثاث عنها؟ ربما سيذرف هو الآخر الدموع على غيابها، كل ركن وكل مكان شهد على حبهما سينتحب مثله، ليته لم يخبرها بتلك الركنة ليته أصطحبها لأي مكان آخر، فبعدها فقد الاثنين فلا عاد لديه المكان ولا عاد لديه الحبيبة وكل مالديه ذكريات تؤلمه وصور ومحادثات تعتصر قلبه... كان بين يديه هاتفه يتأمل صوره التي قام بنشرها منذ بضع دقائق... أراد أن يشاركها فرحته التي لم تكتمل بغيابها... يقص عليها أحداث يومه وانجازه الذي حلم به منذ أعوام... ها هو اليوم قد حققه ولكن أين ذهبت فرحته التي كان يدخرها لذلك اليوم خصيصًا... تمنى وجودها... تمنى أن تكون بصحبته في تلك الصور تفرح بفرحته... أين أنت الآن وكيف حالك؟ هل رأيتي الصور؟ افتقدها كثيرًا وافتقد حديثهما سويًا عن كل أحلامهما، ليت الوقت توقف عند آخر محادثة بينهما... ليته انتظر لقائهما معًا ليختار معها التصاميم التي ستقدمها في المسابقة، هل اشتركت بها من بعده واختارت بمفردها أم لا؟ كل شيء بعدها لا مذاق له... حتى أحلامه أصبحت أضغاث وكوابيس تؤرقه، حتى بات يسعى خلف أحلامه فقط طلبًا لكرامته... طلبًا لانشغال عقله وإرهاقه... طلبًا لسكون قلبه الذي يصرخ من الألم ليجد

نفسه في النهاية يجوب في عالم مظلم بعد أن ضاقت به الأرض كلها.

***

الساعة السابعة مساءً

وصل الدكتور شهاب وصف سيارته المرسيدس أمام الفيلا وهبط منها وهو يحمل باقة من الزهور وعلبة من الشيكولاتة السويسرية ما كان مصطفى ولا عائلته بأكملها أن يعرفوا مذاقها يومًا... فتلك الأنواع لا يتذوقها سوى أصحاب العملة الصعبة، كان يرتدي بدلة كحلية دون ربطة عنق ويفتح أزرار قميصه العلوي مظهرًا بعضًا من شعر صدره تعويضًا لصلعته الملساء البراقة التى تشبه صلعة " فان ديزل" تشابه معه فقط في تلك وتنافر الجسدان فذلك الدكتور كان يملك جسد لا يمت للصالات الرياضية بصلة قريبة أو بعيدة وكأن العضلات جميعها فرت منه، هو فقط عظام عريضة يكسوها طبقة من الجلد، استقبله الدكتور زاهر بترحاب شديد وكانت معه سيدته الأولى والأخيرة فريدة هانم التي أعجبت كثيرًا بمظهره وهداياه وشعرت بأن اختيارها صائب لا شك... تعجب من لقائهما بعض الشيء بل تعجب من دعوة الدكتور زاهر للعشاء في منزله، فتلك الهيئة وذلك الترحيب لم يكن يدل على لقاء طالب ومعلم أبدًا ولكنه لم يعقب وترك الوعاء ينضح بما فيه وهو يشاهد فقط... جلسوا جميعًا في الصالون وليس في مكتب الدكتور زاهر كما تخيل... ثم حضرت إيناس كما أمرتها والدتها وشاركتهم في الجلسة لتستشعر نوايا والدتها التي تكشفها نظراتها... بعد دقائق ظهرت الخادمة لتخبرهم بأن السفرة جاهزة فنهضت فريدة وزاهر ودعوه للعشاء واجتمعوا جميعًا على المائدة التي تمتلأ بالكثير من الأطباق الشهية... تبعتهم إيناس وجلست كالروبوت تفعل كل أمرت به لا أكثر... لا تدري عن هذا الضيف سوى اسمه... أما سبب الزيارة فمجهول... لا تعلم لما يخالج صدرها شعور بأمر خفي تدبره والدتها، هكذا أيضًا همس لها صديقها ولكنها لم تعد تبالي بشيء فاليحدث ما يحدث.

بادرت فريدة وهم يتناولون الطعام وقالت بتساؤل:
_ أخبار عروستك إيه... عجبتك؟!
مضغ قطعة الاستيك التي كانت بفمه رويدًا وهو يفكر قبل أن يجيبها ببعض الخبث:
_ والله مش بطالة... هي عاجبه ماما أكتر بس أنا مش عايز أتسرع... ده جواز ولازم أختار صح... أنا وافقت على فترة الخطوبة علشان نتعرف أكتر على بعض.
ألقى الطعم بحذر وقد أنكر بأن العروس لم ترق لوالدته من الأساس فابتلعته فريدة على الفور وقد شعرت بهزة أرضية توشك أن تهدد حصنها الآمن الذي تشيده فقالت على الفور دون تفكير:
_ طب وإيه رأيك في العروسة اللي أنا جيبهالك إنهارده؟.. تفاجأ الجميع بكلماتها فازدرد زاهر لقمته بصعوبة، لم يدرك أن فريدة ستعرض الأمر هكذا بشكل واضح عليه فاستدركت فريدة ارتباكهم وبادرت ببعض الإحراج تكمل... أنت عارف المثل أخطب لبنتك وماتخطبش لابنك وهي تضحك موارية خجلها لو كانت تملك منه البعض.
تأكدت هواجسه نحو تلك الدعوة وظهور تلك الفتاة فابتسم هو الآخر ابتسامة ضبع وصمت قليلًا ليجد زاهر يحاول أن يسيطر على الموقف:
_ كمل يا شهاب أكل... الأكل مش عاجبك ولا إيه؟ ثم أمسك كوب الماء وابتلع منه رشفة.
فقال شهاب بذكائه المعهود:
_ الحقيقة أنا أتمنى إني أناسب الدكتور زاهر ده شرف عظيم بالنسبالي... بس الحقيقة إن أنا عندي مشكلة الفترة دي في الشغل وبفكر إني أنهي العقد في المستشفى اللي كنت بشتغل فيها ولسه ماعرفش وضع الشغل بتاعي هيبقى إيه وخايف ماكونش قد كلمتي معاكوا.
كانت إيناس تستمع لهم دون أن تنطق بحرف واحد، لم يفاجئها عرض

والدتها بل لو لم تفعل ذلك لتعجبت بالفعل... بالتأكيد لن ترتدي كورسيه وفستان أحمر قصير لكي تتناول معهم الحساء وإنما هناك صفقة من صفقات والدتها التي اعتادتها... ظلت تأكل في صمت دون أن ترفع عينيها عن الطبق حتى أنها لم تلحظ ملامح ذلك العريس الذي يعقد صفقته عليها الآن ولكنها مازالت لا تبالي فبالتأكيد لن تدعها والدتها تكرر فعلتها ثانيةً ولن تجرؤ على الاختيار مرة أخرى فيكفيها سقطة واحدة لذلك تركت الأمر لهم وظلت هي تبتلع طعامها الذي يفتقد للمذاق.

_ ولا يهمك... الدكتور زاهر عنده فرصة أحسن ليك في مستشفى خاص في دبي وكمان هتقبض بالدولار يا سيدي.

تفاجأ زاهر بعرضها فلقد اختار بالفعل الطبيب الذي سيشغله بعد الكثير من الترشيحات ولكن فريدة تعلم أنه لم يوقع العقد بعد، فهناك فرصة للتراجع إذًا.

هو يعلم أن شهاب كان من أمهر وأذكى طلابه ولكنه لم يعلم عنه شيء منذ أعوام، لم يعي حتى عن سمعته المهنية شيء ولا إلى أي درجة وصل في جراحة القلب والأوعية الدموية... أخذ رشفة أخرى من كوب الماء وهو يزيح بها ارتباكه وتبعثر كلماته ففريدة اليوم تفاجأ الجميع وليس شهاب فقط ومهما حاول أن يجاري خطواتها السريعة لن يلحق بها أبدًا.

_ فعلًا العرض موجود والعقد جاهز كمان... فكر وخد قرارك بس العقد لازم يتوقع في خلال ٣ أيام والسفر خلال ٣ شهور مش أكتر.

ألم تنتهي العبودية بعد؟!!!..

لا بل تطورت وغيرت من مظهرها بعض الشيء لتواكب عصرنا الحالي لا أكثر.

شعرت إيناس ببعض الغصة كأنها سلعة في أحد المولات التي يدورون بها كل يوم وهم يحاولون التخلص منها لأي أحمق وحين يفشلوا يقدمون له المغريات... سيأخذها بعرض... عروس وعقد عمل معًا... عرض لن يتكرر... بادروا بالشراء الآن... وأي فطن يترك تلك الفرصة تضيع من يده... كانت تجلس

كالمحتضر على فراش الموت وهو يراقب ذويه وهم يتقاسمون الميراث الذي سيحصلون عليه من بعده... كانت مثله مسلوبة الإرادة أضناها الحزن وسلبتها الدموع كل قواها فما عادت تملك منها ما يواجه قراراتهم، بل وحذرها صديقها من أي اعتراض لن تقوى عليه أبدًا ففي النهاية هي تبحث عن رضاهم ورضا العائلة، هكذا يكون الكمال، هكذا يجب أن يكون نصفها الآخر، وهكذا يجب أن يكون العريس بذلك الكمال الذي يريدونه ولو أكملوا ثغراته الصغيرة.

ففي النهاية هو من يليق بهم وليس ذلك الدليفري الذي يتركون له باقي أموالهم بقشيش ببعض الشفقة على حاله المتعسر... لتجد نفسها قد عادت كما كانت قبل أن يظهر مصطفى أسيرة منقادة ترضخ لهم في خضوع تام... مع ذلك العريس ستصبح إيناس مكتملة وهكذا ستنال رضا الجميع بما فيهم صديقها الذي أول من بارك تلك الصفقة وصفق مهللًا.

قبل الجميع الصفقة بترحاب وعلى رأسهم شهاب الذي ما كان ليضيع مثل تلك الفرصة من العمل ولو كان سيتزوج من مسخًا وليس تلك الفتاة الصامتة شاخصة العينين، وافقت أو لم توافق ففي النهاية لم تبدي أي اعتراض وأهلها موافقون فلا داعي أن يهتم برأيها فكل شيء تم أمامها فلما القلق؟!... لا يهم فكل ما يهمه الآن هو نسبه لذلك الشهير العظيم الدكتور زاهر ذو الصيت والذي بالتأكيد لن يبخل عليه ببعضًا منه... وها هو حصل على فرصة أفضل بكثير من التي كان يحلم بها فيمكنه الآن أن يمزق العقد في وجههم ويغادر وهو يبصق عليهم وعلى راتبهم البخس... وفي النهاية وجدت فريدة من يليق بصفقتها جيدًا وكأن الوعاء أخيرًا قد وجد شهاب أو غطاه.....

****

(٢١)

بارك الجميع خبر خطبة إيناس وشهاب والتي أتمتها فريدة بأسرع وقت على نطاق عائلي ضيق، بعد أن وعدت الجميع بالحضور في الليلة الكبيرة ليلة الزفاف نظرًا لضيق الوقت وكثرة التجهيزات، كما أن الأمر جاء بشكل مفاجيء وسريع وكيف سرقت إيناس لب شهاب فلم يستطع الصمود أمام جمالها وحسبها ونسبها فسقط صريع في شباكها وتعجل في الخطبة لكي يخطفها معه في رحلته القادمة.

وبالتأكيد لم تتم الخطبة دون خالتها عزة وزوجها وكذلك رانيا وزوجها وأخيها فهم أقرب الأقربون كما أن لا فرحة ستتم دون أن يشهدوا انتصار فريدة وعريس ابنتها المثالي ذو الحسب والنسب والأموال، حتى أنها لم تغفل عن خاتم ابنتها الذي يماثل خاتم زفاف رانيا إذا لم يكن يتعداه بالقليل.

كان احتفال صغير حاولت إيناس قبله بجهد أن تمرن وجهها على الابتسامة ولكنه يأبى وهو يعنفها كيف تقبلين بخاتم غيره يلتف حول إصبعك؟ هل تحبين ذلك الأصلع مثله؟ هل هو يحبك مثل ما أحبك مصطفى؟ هل تعرفين حتى ملامح وجهه من الأساس؟

شوقها له نيران مشتعلة في صدرها، رأته اليوم بجوارها بابتسامته، هو من كان يضع خاتم الخطبة في يمناها لتفاجيء بعدها بآخر.... هل هناك شخص آخر كان يمسك بيدها الآن؟

شعرت بصدرها ينقبض وسط العائلة فلم تتمالك الوقوف أكثر وهرولت للشرفة حتى تبتعد من قبضتهم وهي تمسك بهاتفها، كانت تريد بعض الخلوة لتراقب حسابه، اليوم كانت مشغولة من الصباح فمنذ عقد تلك الصفقة ووالدتها تقف على رأسها في كل شيء حتى لا تسمح لها باقتراف أي غلطة، وهي في الأساس قبلت لإرضائها وللهروب من قبضتها فما عادت فريدة تطيقها ولا هي عاد لديها طاقة للنضال لتجد شهاب في النهاية هو منقذها من ذلك الجحيم فقبلت به...

ولكن هي تعلم إنها قبلت لضعفها... قبلت لأن لا حيلة لها... قبلت لأنه يشبههم ويعجبهم... قبلت لأنها هيابة للجرأة والمواجهة... قبلت لأنها اعتادت على القبول.

سحبت شهيق عميق وملأت صدرها بالهواء ثم بدأت في تصفح صفحته الشخصية التي سحبها الشوق إليها فانجرفت على الفور لتجد آخر شخص تتمنى وجوده بجوارها الآن يضع كفه على كتفها وهو يسأل:

_واقفة لوحدك هنا ليه؟

التفت لتجده ذلك الشهاب الذي ترك الفضاء بوسعه والأرض وباقي الكواكب ليسقط فوق رأسها هي بالأخص محدثًا فجوة في جمجمتها ويبدو أنها ستكمل حياتها بتلك العاهة، تلك هي المرة الأولى التي يجتمعا معًا بمفردهما سويًا ويتحدثا لبعضهما دون أن تلحقها فريدة بالكلمات وهي تلملم تعثرات ابنتها المشؤومة.

أجابته وهي تغلق هاتفها قبل أن يلحظ صورة مصطفى التي تتأملها وقالت:

_ اتخنقت.... أقصد يعنى الزحمة وكده..

_ هي فين الزحمة دي؟! ده حتى كلنا جوه منكملش ١٥ شخص.

_ بالنسبالي ده رقم كبير أنا مش بحب الزحمة وبحب الهدوء.

قالتها دون أن تنظر لوجهه وكأنها تتحاشاه.

لم يهتم الآخر بردودها الفاترة فكل ما يهمه هو الانجاز الذي حققه من خلال تلك الفتاة، يكفيه شرف نسب الدكتور زاهر وتلك بذاتها فرصة لا تعوض والفرص لا تأتي مرتين، لذلك لم يتركها تهرب من يده رغم أنه لم يحمل تجاهها مثقال ذرة من الإعجاب لشخصها، وفجأة تذكر عملها كطبيبة أسنان الذي لم تذكر عنه شيء سوى الشهادة الجامعية وسأل:

_ بتحبي مجال شغلك؟

_ اللي هو إيه؟

_ أقصد طب الأسنان... بتحبيه زي ما أنا بحب جراحة القلب كده مثلًا..

لا تدري لماذا حينها سمعت صوت أزيز جهاز الكونترا وهو يرتعش بيدها ثم اشتمت رائحة برادة العظام المتطايرة كالغبار في الهواء فشعرت بالغثيان فجأة فهي أوشكت أن تنسى تلك الوظيفة التي لا تطاق، فقد كان تركها لتلك الوظيفة هو أكثر قرار صائب اتخذته في تلك الفترة العصيبة... أجابته وهي تنفض الرائحة من أنفها والذكرى من رأسها وقالت:

_ لا... مش بحبها؟

_ إيه ده يعني مش هتشتغلي فيها تاني بعد فترة تدريبك؟

_ ماظنش أنا ماصدقت سيبتها... عندك مشكلة في أفكاري؟

قالتها وهي تحتد... ليته يعترض ولكنه قال:

_ لا خالص دي حرية شخصية... أنا بس مستغرب أنك تدرسي كل السنين دي في الآخر ترمي الشهادة من غير شغل.

_ دى كانت رغبة أهلي مش أنا.

_ طب وإنتي كانت رغبتك إيه؟

_ كنت عايزة أدرس ال....

صمتت فجأة لبضع ثواني ثم أكملت " مش عارفة الحقيقة ".

_ غريبة... يعني مش عندك هوايات حتى؟

_ لا... بتفرج على التليفزيون لو معتبر دي هواية.

نظر لها شهاب بتعجب ثم صمت، بينما هي أخفت كل ما يخص حلمها بتصميم الأزياء لا تدري لإخفائها سبب وكأنها قررت أن تحتفظت بكل ما تحب في ركنتها الخاصة بذكرياتها مع مصطفى سويًا فلا تريد أي يد تطولها أو تدنسها.

وهنا داعب شهاب وترًا حساسًا وسأل:

_ إنتي صحيح كنتي مخطوبة لولد شغال في الدليفري؟!

نظرت له باندهاشة وقد لمحت على شفتيه بسمة ساخرة، تأكدت حينها من أنه يناسب عائلتها بالفعل فمن المؤكد أنه لا يوجد أي تحديث للإيجو لدى

الأطباء مؤخرًا ولو حدث لما ناسب ذلك الوغد عائلتها فيجب أن يكون مثلهم لكي يقبلوا به وأي ترفع عن طبقيتهم سوف تلقى به كما ألقت آخرون من قبله.

ذكر سيرته بتلك الطريقة ألمتها كثيرًا تعلم أنها اختارت إرضائهم فوق كل شيء، وأغلقت أبواب قلبها وأخرست أصواته التي تنادي بأعلى صوت باسم حبيبها نعم مازالت تحبه وهي تقف مع آخر الآن... نعم مازالت تحبه وبيدها خاتم خطبة من يناسبها ويناسب عائلتها... نعم مازالت تحبه ولا تقوى على نسيانه، فأجابته بألم:

_ كان بيشتغل في الصيدلية اللي قصادنا وكان بيدرس وناوي يفتح معمل تحاليل هو وصاحبه.

_ وفي الآخر اكتشفتي أنه شغال في الدليفري وبيكدب عليكي مش كده؟

قالها بإلحاح وكأنه أصر على إثارة غضبها فأجابته بحدة:

_ معرفش... الموضوع خلص خلاص وإلا ماكنتش هتبقى موجود إنهارده، إحمد ربنا بقى علشان هو إدالك فرصة تستفيد من الدكتور زاهر أكتر ماكونتش تحلم بيها.

قالتها بتشفي وذهبت للداخل وتركته بعد أن أشعلت غيظه.

ولكن في النهاية تلك الأنواع ممن يحتسبون على البشرية لا يهما سوى تحقيق أهدافها مهما كلفها الأمر، ولو لحس كعبي حذائها لن يترك تلك الفرصة أبدًا، فلا يعني كونه ثري أن يسأم جمع المال أو لا يهتم بالشهرة والسلطة ف " البحر يحب الزيادة "... " والغاية تبرر الوسيلة " تلك أسمى مبادئه.

***

لم تعلن إيناس عن خطبتها أبدًا على صفحاتها الشخصية ولكن حين حدد موعد الفرح وعلمت أنها ستسافر معه في اليوم التالي مباشرةً إلى "بالي" يعقبها "دبي" فلم يعد أمامها سوى أن تعود للعبتها القديمة معه، تلك فرصتها الوحيدة لتسقي شوقها الظمىء، منشوراته القليلة وصوره لم تعد تكفيها، كم اشتاقت لزهور الياسمين الصباحية وطلته وحديثه معها الذي لم تسأمه قط حتى مجلات

الموضة التي كان يجلبها لها كلما سنحت له الفرصة، تعجبت من أبواب السعادة التي فتحت أمامها حتى أنها لم تتذكر أي خلاف حدث بينهما كلما عبر طيف ذكراه أمامها، كانت أيامها معه كلها سعيدة... كلها مرحة... وكلها مختلفة، حتى هي معه كانت مختلفة متألقة بسيطة سعيدة وضحكتها تنبع من القلب، ضحكة غادرت معه ولم تعد تزورها لتعود تلك البائسة مرة أخرى أو بالأحرى أكثر بؤسًا بعد أن أضاء الحب ظلمتها ثم دجنت مرة أخرى فاقدة معه كل شيء سوى ذكرياتهما سويًا والتي رفضت حتى أن تتخلص منها لتريح قلبها المتوجع.

أعلنت على صفحتها دعوة الفرح التي عقبت الخطبة بشهر واحد لا أكثر، وكتبت عليه دعوة عامة ولكن مضمونها خاص لمن يسكن القلب فقط ثم دونت بإلحاح أن يحضر الجميع لأنها ستسافر بعدها وتريد أن تقضي تلك الليلة بصحبة الجميع مؤكدة وجوب الحضور...

ليتم الأمر بأكمله بقرار من والدتها في عجالة لكي تريح نفسها من أخطاء ابنتها الخرقاء وتتخلص من ذلك العبء فما عاد لديها صبر ووجب عليها أن تنهي تلك المعاناة، تعلم أن الجميع قد لاقى دعوته بالفعل ولكن هو لم يعرف بالأمر بعد، ربما الأمر قاسٍ عليه ولكن حنينها لرؤيته والنظر بوجهه طغت عليها، تلك فرصتها الوحيدة لتراه للمرة الأخيرة قبل أن تغادر مع زوجها.

لا فرصة أخرى أمامها، اقتربت من عام بأكمله وهي مسجونة بداخل أسوارها تخشى رؤيته ولكنها تشتاق.. تشتاق وبشدة.. والشوق يقاتل ليلقاه، ستعود للعبتها.. ستعود وتطلب لقياه.. لا تعلم إذا كان سيلبي ندائها تلك المرة أم لا ولكنها ستحاول محاولتها الأخيرة قبل أن تغادر لعله يفتقدها هو الآخر ويأتي... لتشبع شوقها وتودع روحها المهاجرة معه، وإن مال الغصن لآخر فسيظل معقود بجذوره.

وهى متيقنة بأن جذورها معه وإن تزوجت بآخر وإن كفت عن المحاولة، وإن انصاعت لرغباتهم... فهى تحبه.

***

لمح مصطفى الدعوة المدونة بخط ذهبي على الكارت وكأنها نقشت بماء الذهب بذهول راح يقرأ ثم يقرأ ثم يقرأ... نعم هو اسمها عيناه مسمرتان على اسمها.. نعم هذه دعوة فرح والعروس إيناس!!! جاحظ البصر يأبى أن يصدق مايراه هل هذا حقيقي؟!!!!.. هل هذه دعوة فرحها وموعده بعد أسبوع من اليوم، شعر بحرقة عينه والدماء تتدفق في أوردتها المنتشرة على بياضها تتلوى كالأفاعي بذيول مشتعلة، بينما قلبه وكأنه صعق بصدمة كهربائية بعد أن توقف من يوم فقدانها، لم يكن يحسب لتلك اللحظة قط، لم يكن يتخيل أن هناك أسوأ من انفصالهما ليجد الآن الأسوأ يطل علية بحقيقة وجوده وهو ارتباطها بآخر، كيف ومتى ولماذا؟

لا يدري، ما كان عليه تركها، وماكان عليه رفض طلبها، لم يحسب لتلك اللحظة، وهل كانت ستظل هكذا بعد فراقه؟ بعد أن أعطته حل ورفضه بغباء.. لا يدري إذا كان خياره صائب أم خاطىء، ولكن هو بالتأكيد مخطىء، هل سيتركها تذهب من بين يديه؟

وهل كانت بالأساس معه؟!!!!

هل سيلبي ندائها ويذهب ليودعها أم أنها لا ترغب برؤيته؟

فمنذ آخر لقاء بينهما لم يلمحها في أي مكان اجتمعا به سويًا.. وهل كان يذهب هو بالأساس؟!!!

جرت دموعه المحتقنة بعنف مجرى الشلالات وهو يشعر بفقدانها الحقيقي من بين يديه، وكأن اليوم هو يوم انفصالهما الأول، الألم أصبح أضعافًا والخيارأمامه قاس... هل يذهب ويراها للمرة الأخيرة؟ هل يخطفها من بين يد الآخر ويدافع عن حقه فيها؟ أم يستسلم ويتقبل فكرة انتهاء علاقتهما للأبد؟

استقبل دعوتها كنصل حاد شق عنقه، هو يسمع ندائها.. ويسمع صوتها العذب الناعم وهو ينادي كالكنارية باسمه نعم الدعوة عامة للجميع ولكن هو مقصدها.. هو من ترغب في رؤيته.. هو من تريد أن تودعه، يعرفها جيدًا ويعرف ندائها... ولكن كيف سيلبي ذلك النداء، كيف سيتحمل أن يلقاها بين أذرع آخر؟!

كيف ستستقبله عائلتها؟ وما هي نظرتهم له حين يلاقوه وهو يرى من هو أجدر منه بها؟

هل ستسمح له كرامته؟ ولكن تلك فرصته الأخيرة وبالتأكيد ندائها الأخير فماذا سيفعل؟!

****

(٢٢)

إلتاع قلبه بمجرد رؤيته لمنشورها وسماعه لندائها المكتوم، لم يعد يتحمل فكرة فقدانها بالكامل رغم أنه قد فقدها بالفعل ولكنها كانت تحت ناظره يراقبها متى شاء ويطمئن عليها، يحادثها في سره بكل ما أراد أن يطلعها عليه كما كان يفعل معها، نعم افترقا ولكن مازال معها في كل أحلامه مستيقظًا أو هائمًا بأحلام تجمعهما في سباته، ربما هي الأخرى كانت تنتظره... من المؤكد أنها لم تتخطى هذا الأمر بتلك السهولة... ولكن إلى متى ستنتظره؟؟؟، الآن تأكد أنها لن تنتظر وإن انتظرت هي فلن تنتظر عائلتها، حاول أن يسيطر على تفكيره الثائر بجنون وهو يردد " أهرب معاها.. أقبل الفكرة وأهرب "... لا لا... " أهرب معاها.. أقبل الفكرة وأهرب".

نعم وافق باندفاعه المعهود لن يتركها لآخر وكيف سيتقبل هذا إن فعل، أمسك هاتفه وقرر أن يحادثها.. سيخبرها بأنه قبل بعرضها سيهربا سويًا لأي مكان تريده ولكن لا تتركه أبدًا، سيفعل أي شيء وكل شيء من أجلها إن وافقت، لا عليها سوى أن تهرب من تلك الزيجة، ولكن ماذا لو كان الأمر بكامل رغبتها، هل ستتزوج بالإكراه؟!

كلما ضغط على اسمها ليجري اتصالًا تراجع في الثواني الأخيرة، قلبه يحادثه بأنها لازالت تحبه وعقله يحذره من اندفاعه الذي يدفع ثمنه حتى الآن، حتى ألقى هاتفه على المكتب في يأس وتخبط.

***

إيناس يزداد توترها كلما اقترب موعد ليلة الزفاف، ظلت تنتظر اتصالًا منه منذ أن أعلنت موعد زفافها في المنشور لعله يقبل بفكرتها ولعله يعود إليها ولكنه لم يفعل فكلما رن هاتفها هرعت إليه لتجده إما من رانيا أو شهاب الذي يشبههم في حب التفاصيل والمظاهر، اشتاقت إلى مصطفى كثيرًا ولا تدري كيف ستكون بصحبة آخر بعد أيام قليلة، غاب المنطق عن أفكارها المتزاحمة المشتتة

العبثية، تريده هو، تريد لقياه وتريد الهروب لتختبىء بحضنه وتتخلص من واقعها المرير، سأمت انتظار اتصاله بها فحاولت هي مرارًا وتكرارًا أن تتصل به ولكن في كل مرة تجد صديقها يقف في وجهها وهو ينهرها ويحذرها، كيف تجرؤ على إفساد كل شيء، هكذا أرادت وهكذا يجب أن تكون، هي من سعت لمديحهم وليسوا هم، هي من قبلت برأيهم وليسوا هم، هي من ترضخ لهم وليسوا هم، تعلم أنها هي من بحاجتهم وبالتأكيد ليس لديها الجرأة للتخلي عن كل هذا.

فمن يملك قوة التخلي هو القادر على الصمود في المواجهة.

وهي لا تمتلك الاثنان لذلك يجب عليها أن تقبل وتصمت للأبد.

***

تأملت إيناس غرفتها جيدًا بينما هي تحزم حقائب سفرها... ليلة زفافها بعد غد وفي الصباح الذي يليها ستكون في الطائرة بصحبة شهاب لتقضي معه أسبوعين من العسل قبل أن يرحلا إلى دبي ويستلم شهاب عقد عمله في مستشفى خاص يستثمر بها والدها ولديه نسبة من أسهمها... يا لها من فرصة!!!!!.....

لا تصدق أنها على وشك ترك كل ذكرياتها هنا... كل شيء جميل أسعدها، كيف للحقائب أن تحمل محادثاتها وضحكاتها وهمساتها وسعادتها الغامرة معه؟! يبدو أن هناك أشياء لا تسعها سوى حقيبة الذكريات! ليتها تستطيع أن تحمل كل تلك الأشياء معها ولكن كيف؟ ألم يفترض لها أنها ستبدأ حياة جديدة تصنع بها ذكريات أفضل تمحي قسوة القديمة؟

كيف وهي لم تشعر بالسعادة سوى بصحبة تلك الذكريات، لم تسمع ضحكاتها سوى بها لم يرقص قلبها فرحًا سوى بحضوره فيها، كانت بالنسبة لها حديقتها المزدهرة الخضراء اليانعة ترقص بها كما تشاء بصحبته إلى أن حط على خضارها الزاه سرب من الجراد اللئيم قضى عليه ولم يتركها سوى أرض جرداء مقفرة تخلو من أي حياة بعد أن كانت عامرة بها... كيف لها أن تترك روحها هنا

وتغادر تاركة كل ما يحمل رائحته بعيدًا عنها، فذلك الجزء الوحيد النابض بالحياة في قلبها لولاه ما نجت، نظرت إلى آخر حقيبة فارغة أمامها بحيرة وإلى ملابسها الثمنية وأغراضها التي انتقت فريدة كل قطعة منها بحرفية شديدة، تأملت بحزن صندوق زهور الياسمين الذي تستنشق منه رائحة كل صباح رأته فيه، ومجلات الموضة الملقاة مع تصاميمها والتي بدت متطورة منذ أن ولج لحياتها ليزيد ثقل موهبتها التي لطالما كانت مجرد رسومات على ورق لا أكثر وبعده لم يعد هناك أي رسومات، ثم أمسكت كتاب

Letters to Juliet

ووضعته في حقيبة يدها أما الباقي فوضعته في حقيبتها المتبقية وتركت في خزانتها باقي أغراضها التي أحضرتها فريدة دون أن تعبأ بها من الأساس، لا بأس بتركها، فريدة لن تراها سوى بعد مغادرتها وبالتالي لن تنال التوبيخ وجهًا لوجه ستخبرها أنها ستشتري غيرها في أي وقت ولكن ما حملته بقلبها وحقائبها لا يشترى أبدًا.

لم تنسَ حبوب منع الحمل التي ذهبت من أجلها اليوم لطبيبة النساء والتوليد لكي تطلب منها حلًا لتأجيل الحمل فهي على وشك الزواج، حينها نهرها صديقها بشدة ولكنها لم تستمع له وصمت عنه أذنيها، فكيف ينجب البؤس سعادة؟

تعلم أن تلك ستكون خطة والدتها التالية بعد الزفاف لتلحق برانيا ولكن لم تكن إيناس سعيدة بزواجها مثل رانيا ولم تحب زوجها مثل رانيا وإنما الأمر كله صنعته والدتها باختيارها، لم تكن تريد مزيدًا من البؤساء يكفيها واحدة، لن تنجب طفلًا يحمل تعاستها، فكيف تسعده وهي ليست سعيدة، كيف ستصنع عالمه وهي لم تستطع صنع عالمها... حقنًا للدماء لا يجب أن تنجب. أخبرها صديقها أنها تفتح على نفسها فوهة من النيران ولكنها تقبع في منتصفها الآن فلا يهم ورغم أن الطبيبة كانت رافضة لتلك الفكرة أيضًا محذرة بأن تلك الأشياء غير مستحبة في البداية ولكن إيناس أصرت بحجة أنها تعمل فخضعت لرغبتها

الطبيبة وأعطتها اسم الحبوب التي ستتناولها، فأحضرتها إيناس على الفور فإن كانت ستكمل حياتها تعيسة لا يحق لها أن تنجب أطفال تعساء.

***

(٢٣)

وقف مصطفى أمام مرآته يتأنق كما لم يتأنق من قبل هو وأوجاعه، ارتدى بدلة سوداء وربطة عنق أنيقة باللون الزهري، كانت ليلة زفافها وقد قرر أخيرًا أن يذهب ليراها لآخر مرة قبل أن يفقدها للأبد، لم يستطع أن يترك تلك الفرصة فهي الوحيدة والأخيرة ليودعها، يعلم أنه لن يتحمل رؤيتها بصحبة رجل آخر ولكن لا يقوى على إضاعة الفرصة، يعرف جيدًا مكان قاعة الفرح التي التقى بها فيها للمرة الأولى، فوالدتها لم تقبل بغير قاعة فرح رانيا رغم أنها كانت محجوزة لغيرهم في تلك الليلة، فلم تهدأ سوى بعد أن ساومت الإدارة بأن تزيد على قيمة إيجارها بنصف قيمتها الأساسية لكي تحصل عليها فوافقت الإدارة على الفور بالعرض وهكذا حصلت عليها فريدة حتى لا ينقص ابنتها شيء مثل رانيا.

كان تأنقه في تلك الليلة كمن يتجمل لأجل ليلته الأخيرة وبعدها سيرقد في تابوته للأبد، لم ينس ساعتها التي أهدتها له من قبل في عيد ميلاده والتي لم يستطع إعادتها إليها بعد لقائهما الأخير ولا العطر الذي شاركت في اختياره ليصبح المفضل منذ تلك اللحظة، يريد دومًا شيئًا يخصها بحوزته، حاول أن يتمالك نفسه أمام مرآته لكن عينه خانته وفضحت ما يسره في نفسه وقد أسقطت منها دمعة مسحها بأنامله، وقبل أن يغادر توجه نحو الشرفة وقطف من شجرته زهرة ياسمين وضعها في جيب جاكته الأسود ثم ذهب.

***

هبط من التاكسي أمام الفندق المطل على النيل ودخل إلى القاعة بخطى ثقيلة لا يرغب في أن يراه أحد من أقاربها فلم يكن لديه القدرة أن ينظر في عيون أحدًا منهم وهو يعلم جيدًا كيف ستكون نظرتهم وتقبلهم له، بينما إيناس كانت وسط القاعة بصحبة شهاب تحاول الابتسامة كلما شزرت لها فريدة لتبتسم لم تكن تهتم بذلك المتعالي المتباهي بنسبه لوالدها وهو يتأبط ذراعها ويدور بين المدعويين بتفاخر وهي تدور معه بسأم في تمثيلية حاولت جاهدة أن

تؤدي دورها فيها بإجادة، كان شهاب يلائم الفرح جيدًا كذلك فستانها الدانتيل الأبيض الطويل وعائلتها الكريمة كل شيء مثالي وكل شيء لائق تمام كما أرادت فريدة وكأنها رتبت أخيرًا رقعة البازل المبعثرة لتظهر لوحتها المثالية.

كانت إيناس فقط التي لا تلائمهم ولا تشبههم ولا تشعر بسعادة مثلهم كانت زائغة البصر والبصيرة تبحث في كل ركن عن فقيدها.. جسدها فقط هو الحاضر معهم أما عقلها وقلبها فقد غابا مع الغائب يبحثان عنه في كل مكان.. كانت تريد أن تركض وتبحث عنه في كل ركن وكل زاوية.. تريد أن تنادي اسمه بالصوت العالي وتخبره أنها.... أنها.... أنها تعيسة من دونه وأيضًا لا تقوى على مخالفة عائلتها، الجميع حولها سعيد ومبتهج حتى والدتها أخيرًا رأت ابتسامتها وسمعت زغاريدها عقب عقد القرآن، لم تتمالك نفسها من فرط السعادة فاليوم انقشعت الغمة وفكت العقد واستعادت فريدة مجدها من جديد في العائلة، كانت إيناس تنظر في كل وجه وهي تبحث عنه، هو من كانت تنتظره على أحر من الجمر، هو من نشرت له الدعوة خصيصًا له... كان هو الشخص الوحيد المنتظر في تلك الليلة لا سواه، لم تنشغل بليلة زفافها ولا عريسها ولا فستانها الأبيض الذي أحضرته فريدة من باريس وإنما كانت تنتظر حضوره هو فقط، تخشى أن يرفض دعوتها وأن تحرم من أن تودعه قبل سفرها، فلقد اشتاقت له كثيرًا وكأن الشوق لم يخلق سوى له...

***

رغم أن المسافة للقاعة ليست بطويلة ولكنه يراها أميال، نعم يرغب برؤيتها ولكن ليست على تلك الحالة، ليست في حضن آخر وملك آخر، ليته لم يحضر، ليته لم يرى الدعوة ولم يلبي ندائها... تلك اللعبة قد انتهت بالفعل لماذا يحييها مرة أخرى ولكن هي من أحيتها وكلاهما مشتاااااااق!!!.

زحف كالمتسلسل نحو القاعة متخفيًا وسط الزحام إلى أن وصل على أعتاب أبوابها ووقف يتأمل بصمت وألم... كانت إيناس بصحبة العريس هناك تقف مع ذلك الأصلع المتأنق مثلهم يبدو بأنها عثرت على من يشبههم ويليق بهم، سمع

أحدهم من المدعوين وهو يخترق أبواب القاعة وهو يقول:

_ الدكتور شهاب ده طول عمره محظوظ، أتجوز بنت أشهر دكتور جراحة قلب.

تنحى جانبًا وهو يستمع لتلك الكلمات، إذًا هو طبيب مثل والدها، ذلك الذي فضلته عليه واختارته ليعوضها، الدونية تحاوطه يغرق بها وتبتلعه كبئر لا قاع له، نظر لها بأسى ولوم، من المفترض أن تلك الليلة هي ليلتهم، من المفترض أنه هو من يمسك بيدها الآن، تلك كانت ليلة أحلامهما سويًا كيف تبددت الأحلام وتحولت لكابوس، كيف يقف الأن يتأملها مع آخر، ذلك الطبيب الثري الذي يدفع بقشيش للدليفري لا أن يعمل مثله، من ينفق من ثروة أبيه ويستغل المعارف لكي يصل لا أن يكون عصامي مبتدأ يجاهد بذراعه، نعم يليق بها من وصل وليس من يحاول الوصول وهنا توسط العروسان ساحة الرقص وعزفت الأغنية التي لم يتوقعها

When your legs don't work like they used to before

And I can't sweep you off of your feet

Will your mouth still remember the taste of my love

Will your eyes still smile from your cheeks

And darling I will be loving you 'til we're 70

And baby my heart could still fall as hard at 23

And I'm thinking 'bout how people fall in love in mysterious ways

Maybe just the touch of a hand

well , me I fall in love with you every single day

And I just wanna tell you I am

تفاجأت إيناس بالأغنية وهي تقف بين ذراعي شهاب لترقص معه رقصتهما سويًا على أنغامها، فتنظر لرانيا بتعجب لتجد الأخرى تبتسم لها بزهو، ليتها لم تختار تلك الأغنية... نعم إيناس من أخبرتها من قبل أن رقصتها ستكون عليها في ليلة زفافها لكن رانيا جهلت أنها تقصد مصطفى وليس شهاب، ذكرت ذلك في حديثها معها بينما هي مخطوبة لمصطفى، نسيت أن تخبرها أن تلك الأغنية اختارها مصطفى بالأساس حين سمعها صدفة وقرر على الفور إرسالها لإيناس ومن ثم قررا سويًا أن تكون رقصتهما عليها في ليلة زفافهما، حتى أنها تخيلت نفسها ترقص مع مصطفى وليس ذلك الشهاب، ليتها لم تفعل ليتها اختارت أخرى دون أن تمس ذكرياتها مع مصطفى.

***

بينما مصطفى كان يراقب في ذهول كيف سحبت يدها بتلك السهولة من يديه وتركته؟، كيف محت كل شيء بينهما، كيف أعطت ذلك العريس كل شيء كان من المفترض أنه يخصهما سويًا، يبدو أنها كانت دعوة عامة بالفعل وليس نداء له، يبدو أنها تخطت كل شيء حتى نسيت أنه مازال ضمن أصدقائها، يبدو أنها نسيت لعبتهما سويًا ونسيت كل ما كان يجمعهما... حتمًا هو فخ نصبه اشتياقه لها ووقع به... لم تكن تنادي اسمه إنما خيل إليه الشوق سماع صوتها، ليجد نفسه الأبله المخدوع.

لم يكن يعلم أن رانيا من اختارت كل شيء في تلك الليلة فمن غيرها ستثق به فريدة وفي ذوقه الرفيع، ليأتي طبيب القلوب وجارحها في آن واحد يسلبه كل شيء، ليته يعرف أنها لم تختر شيء في تلك الليلة سوى الرضوخ، ليته يعرف أنه كان الاختيار الوحيد الصحيح الذي اتخذته في حياتها وبعده لم تختر أي شيء، ليته يعرف أنها تبحث عنه الآن بين كل الوجوه بحسرة وهي تخفي دموعها عن أعين المدعوين... كانت تريد لقياه، تريد وداعه لكنه لم يأت..... .. ليته يعرف.

***

لم يستطع مصطفى أن يتمالك نفسه أكثر وهرع للخارج يجرجر قلبه المحطم، وفي طريقه رنا إلى الشرفة التي جمعتهما في أول لقاء، تذكر تلك الليلة السعيدة، هنا اعترف بحبه لها... هنا ولد كل شيء... هنا البداية... واليوم هنا النهاية.

سار على غير هدى تظله سحابته الباكية التي لم تكف عن تظليله منذ أن ترك إيناس، الأرض مبتلة بدموعه المنهمرة التي لم تتوقف ولم تجف.. ودعها وذهب بشق صدره وجرحه المدمي.. كل شيء انتهى اليوم، عقله يصارعه بصورتها وهي ترقص مع شهاب كيف يضمها إلى صدره... كيف يلمسها غيره وكيف يتحسسها... صرخ في منتصف الشارع به بأن يتوقف... يكفيه خيالًا يزيد ألمه، كان كالمشرد المتأنق يسير وهو ينتحب على ما فقده يضع الجاكيت على ذراعه وقد فك ربطة عنقه وفتح زر القميص لعله يستطيع التنفس ولكن صدره لم يعد يسع أي شيء وكأنه أوصد أبوابه... سار خلف وقع أقدامه الزاحفة إلى أن وجد نفسه يقف أمام الملهى الليلي الذي كان يقصده في خروجاتهما سويًا بصحبة رانيا وآسر وأصدقائهما، لم يكن واحد منهم في ذلك الوقت كما تمنت إيناس، لم يكن يشبههم أو من زائري تلك الأماكن مثلهم، هل هكذا كانت تريده، هل هكذا كان من المفترض أنه سيليق بها؟!... ليجد نفسه يندفع للداخل دون تفكير.

لأول مرة يجد نفسه من رواد البار يجلس على أحد مقاعده ويطلب من مشروباتهم التي لم يتذوقها من قبل، لم يكن معتاد على مثل هذه المشروبات ولكن يبدو أنه في أمس الحاجة إليها اليوم ليمحي كل ما يؤلمه أو ربما يسكنه قليلًا، ماعاد يتحمل تخيلاته القاسية طلب من عقله أن يكف عن تلك الأفكار التي تؤذيه وكأنها سهام متأججة في جبهته ولكنه لم يستمع بل زاد في إلحاحه، ماذا عليه أن يفعل ليرضيه؟ هل يركض إليها يسحبها من بين يدي الآخر ويأخذها رغمًا عن أنف الجميع؟ هل هكذا سيهدأ؟!

كيف وهي تمسك بيده برضاها، كيف وهي ترقص معه على أنغام أغنية اختارها هو لتكون رقصتهما عليها سويًا وليس رقصتها مع آخر؟؟؟

نظر إلى البار وزجاجات المشروبات الكثيرة مختلفة الأشكال والألوان وطلب منها بنهم دون وعي ولو أنفق ما تبقى من ماله على تلك الليلة لن يكف، يريد أن يمحي كل شيء الآن، لم يعد يتحمل الألم أكثر من ذلك..... ظل يشرب ويشرب ودموعه تشاركه الكأس وهو يستمع لكلمات الأغنية التي تصدح من حوله

Say something, I'm giving up on you
I'll be the one, if you want me to
Anywhere, I would've followed you
Say something, I'm giving up on you
And I am feeling so small
It was over my head
I know nothing at all
And I will stumble and fall
I'm still learning to love
Just starting to crawl
Say something, I'm giving up on you
I'm sorry that I couldn't get to you
Anywhere, I would've followed you
Say something, I'm giving up on you
And I will swallow my pride
You're the one that I love
And I'm saying goodbye

الكأس يفرغ في جرعة واحدة ثم يطلب المزيد وهو يردد اسمها لكل المارة من حوله كالمعتوه يشكي همه للهموم المتحركة من حوله، أمسك هاتفه وشارك الأغنية التي يسمعها وكتب عليها " لقد ودعتها، ليتها قالت أي شيء يردعني عن التخلي، كنت سأصبح الشخص الذي تريده إذا أرادت ولكن.... يبدو أني لا أناسبها

مثله " ثم قام بنشره ودموعه تشفق على حاله.

ظل هكذا إلى أن وجد نفسه في أحد المراحيض يقبل فتاة بقسوة وهو يردد اسم إيناس ويقبض على خصرها بشدة وهنا دفعته الفتاة للخلف بقوة وغضب وهي تقول بلغة ماجنة كلمات غير مفهومة بأحرف لا يستوعبها، نظر إليها في ذهول ليفاجأ بإنها ليست إيناس استعاد جزء من ذاكرته ليجد أن الليلة ليست ليلة زفافه على إيناس كما تخيل بل إنها ليلة زفافها على شهاب الطبيب، نعم , تلك بقاياه المحطمة التي توهمه بها، وذاكرته التي ترفض تقبل محوها.

اعتذر للفتاة بخجل وخرج مسرعًا ليجد نفسه في وسط الملهى، كيف وصل لهنا لا يدري ألقى الأموال لرجل البار من حافظته وسحب الجاكيت وخرج يترنح، تعثر في كل خطوة يخطوها، قدميه لا يتحملان المزيد من الخطوات، نظر للشارع... يريد أن يعبر للجهة الأخرى ليستقل تاكسي... وفجأة ظهرت أمامه سيارة مطلقة صافرة كلاكس طويلة مرت من أمامه كادت أن تصدمه وهو متعثر الخطى بالكاد تفاداها بقفزة، وهنا سمع السائق يسبه وهو يغادر، فصاح عليه مصطفى وهو يقول

" أهو أنت ياحيوان".

وصل في النهاية للجهة الأخرى ونظر أمامه نحو الملهى بتعجب وهو يسأل حاله كيف وصل به الأمر إلى هنا؟

جسده لا يقوى على الوقوف فألقى بنفسه على الرصيف وهو يشير لأي تاكسي يمر أمامه إلى أن توقف أحدهم أخيرًا فصعد مصطفى بجواره وقبل أن يخبر السائق عن وجهته غاب عن الوعي، حاول السائق إيقاظه ولكن كل محاولاته باءت بالفشل فلم يجد أمامه سوى أن يبحث في بطاقته الشخصية عن عنوانه، وبالفعل عثر عليه.

و بعد مرور نصف ساعة وجد السائق نفسه أمام البناية المدون رقمها في بطاقة مصطفى، هبط من التاكسي وبحث عن أي شخص يسأله إلى أن وجد حارس البناية ينام في المدخل، هز السائق كتفه فاستيقظ الآخر وفرك وجه وهو

ينظر إليه بتعجب يسأله:
_ أنت مين؟
_ أنا سواق تاكسي.. هو في ساكن هنا اسمه مصطفى محمد.
_ آه بتسأل عليه ليه في الوقت ده؟!!.. الساعة ٣ الصبح.
_ أنا مش بسأل عليه هو معايا بره في التاكسي وشكله سكران ومش في وعيه.

نهض فرغلي البواب بفزع ليتأكد من كلام السائق ليجد مصطفى بالفعل ملقى في الكرسي المجاور للسائق وهو نائم... ركض نحوه بقلق وهزه بعنف لعله يستيقظ وهو يقول:
_ دكتور مصطفى... دكتور مصطفى أصحى.... أنت سامعني... دكتور مصطفى.

استيقظ مصطفى على نداء فرغلي الأخير وهو يناديه بدكتور مصطفى فضحك ساخرًا وهو يقول:
_ دكتور مصطفى.. هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها أنا دليفري يا فرغلي... هو اسمه الدكتور شهاب... هو اللي دكتور مش أنا... فاهمني.

كان فرغلي في تلك الأثناء يحاول أن يخرجه من التاكسي، نظر مصطفى للسائق وقال:
_ شكرًا يا أسطى... اديله يا فرغلي الحساب وهو يلقي في يده ورقة فئة المائة جنيه فيناولها فرغلي للسائق ويكمل طريقه مع مصطفى الذي يستند عليه، كان فرغلي مندهشًا حين رآه في تلك الحالة، لم يكن مصطفى أبدًا من تلك النوعية الخليعة من الشباب، حتى أنه كان يتمنى أن يصبح ولديه مثله في يومًا ما، كان بالنسبة له مثالًا للشاب ذو السمعة الطيبة والمتفوق دراسيًا ومهنيًا، ترى ما الذي دفعه لما هو عليه الآن؟!!

أوصله فرغلي لباب الشقة وفتح الباب بسلسلة المفاتيح التي ناولها له مصطفى، أدخله في الظلمة ثم أعاد له المفاتيح وأغلق الباب وغادر.

دخل مصطفى مباشرةً إلى غرفته التي لم يكن يعرف وجهتها لولا ذاكرته طويلة الأمد التي دفعته إليها فتبعها مستسلمًا، لم يلحظ والده الذي كان يراقب المشهد من الشرفة وهو ينتظره بقلق، كان يعلم أن اليوم سيكون مؤلمًا له فاليوم زفافها هكذا استقبل الدعوة التي نشرها زاهر على صفحته والتي وصلت للمهندس محمد بسهولة فهما صديقان على الفيسبوك منذ خطبة مصطفى وإيناس ولايزالا، كان قلقًا على ابنه الصامت يعلم أنه تأنق اليوم ليذهب للفرح ولكن لم يملك أي حق للتدخل دون أن يطلب منه أحد فظل هكذا يراقب في صمت، أمله تلك الحالة التي وصل إليها ابنه وكيف عاد لبيته مترنحًا لأول مرة في حياته وكيف وصل لهذا الوضع؟!

كان عليه أن يتدخل منذ البداية وينقذه ولكنه فضل أن يخوض مصطفى تجربته بنفسه، تبعه محمد بقلب مفطور على وليده وفتح باب غرفة مصطفى ليطمأن عليه فوجده ملقى على فراشه بملابسه وهو يغط في سبات عميق فأغلق عليه الباب وتركه ينام لعله يستفيق بعد تلك الليلة.

***

استيقظ أيها الأبله فأنت لم تكن سوى جروًا هزيلًا مشردًا وفيًا خيل له ظله أنه من نسل الذئاب.

مأساة العشب

أفقتُ على الجفاف وكانت السراخس ميتة،
والنباتات اصفرّت أوراقها كالذرة في القدور،
ولم أجد امرأتي
بل حفنة زجاجات فارغة
حاصرتني، كجثث مدمّاة، بلا جدواها،
ومع ذلك كانت الشمس مشرقة
ورسالة مالكة البيت تكسّرت في اصفرار مناسب،
أكثر ما كنت بحاجة إليه وقتذاك
كوميدي جيد، من المدرسة القديمة،
مهرّج يحكي نكاتًا عن ألم مجرّد،
الألم مجرد لأنه موجود، لا أكثر،
حلقتُ بشفرة قديمة وبحذر
ذقن الرجل الذي كان يافعًا ذات يوم
ووصف بالعبقري،
لكنها مأساة العشب،
السراخس الميتة، النباتات الميتة،
وعبرتُ الردهة المعتمة
حيث وقفت مالكة البيت
تشتمني قبل أن ترسلني أخيراً إلى الجحيم،
ملوّحة بذراعيها السمينتين المعرّقتين وصارخة،

صارخة تطالب بالإيجار
لأن العالم خذلنا
نحن الاثنين.

تشارلز بوكوفسكي
"الحبُ كلبٌ من الجحيم"

(٢٤)

في صباح اليوم التالي فتح مصطفى عينه بثقل، صداع رأسه فتك بها وكأن شهابًا قد سقط عليه، نعم هو بالفعل شهاب... تذكر جزءًا من أحداث ليلة أمس ولكن بات جزء وصوله لغرفته غائبًا، نظر حوله بتعجب كيف وصل بالأمس إلى هنا ومن أوصله ثم نظر لملابسه، لم يبدلها!... ما الذي حدث بالأمس؟؟؟

شعر بوخز في رأسه كأنها مسامير تخترق جمجمته بفعل مطرقة يشعر بطرقها الآن، حاول النهوض ولكن ذراعه خان عزيمته وسقط، معدته تؤلمه وكأنها تريد أن تشكو ما اقترفه بحقها بالأمس وتفرغ في وجهه كل غضبها، ذكريات الأمس تأتي تباعًا يرى نفسه يقف في الفرح يشاهدها وهي ترقص ثم يركض في الشوارع لينتهي به المطاف جالسًا على بار ثم وجه فتاة غاضب أمامه وهي تصرخ، نعم , تلك الفتاة الأجنبية بالكاد تذكر جزءًا من ملامحها ولغتها التي لم يفهم منها شيئًا، كان يصارع عقله بالأمس وهو يخيل له كل ما لا يرغب في تخيله كم كان جلف عديم الإحساس أرعن.... ليته لم يذهب....

سمع طرقات على باب غرفته فقال بعد أن إعتدل وهو يتأوه:

_ أدخل.

فوجد والده يدخل الغرفه وبيده فنجان من القهوة، ناوله لمصطفى وجلس أمامه على حافة فراشه وهو يبتسم ويسأل:

_ عامل إيه إنهارده؟

_ أهو عايش.. قالها بيأس

_ طب إشرب علشان تفوق... عايز أتكلم معاك شوية.

_ دلوقتي؟!

_ أنا ساكت بقالي شهور... والحال عمال بيسوء وما أظنش إني هستنى أشوف أسوأ من اللي شوفته إمبارح وأنت جاي البيت مسنود على دراع البواب ومش قادر تنصب طولك وسكران.

هنا تذكر مصطفى بعض اللقطات من لحظة وصوله بالأمس على ذراع فرغلي، نكس رأسه وهو يشعر بالخجل، لم يكن يعرف أن والده قد رآه بالأمس على تلك الحالة المزرية فقال ببعض الخزي:

_ أنا آسف.... أنا عشت إمبارح أسوأ يوم في حياتي وماكنتش حاسس بكل اللي أنا بعمله.

ربت محمد على كتفه وهو يقول بصوت حنون:

_ طب وهتفضل في الحالة دي لحد أمتى يا بني، خلاص كل حاجة خلصت وكل واحد راح لحاله وأديها إتجوزت خلاص.

_ يعني حضرتك كنت عارف؟!

هز محمد رأسه إيجابًا وهو يقول:

_ آه كنت عارف، بس أنت عارف أني مش بحب أتدخل في أي حاجة تخصك من غير ما تبقى أنت عايز كده... بحبك حر تاخد قراراتك لوحدك زي ماعودتكم يا مصطفى أنت وأخوك.

_ وأديني بحصد نتيجة قراري أهو... كل حاجة أدمرت، وضاعت إيناس من إيدي بغبائي... أنا عارف إني حضرتك ماكونتش راضي عن الجوازة دي كان باين على حضرتك أوي.

_ طب ماسألتش نفسك ماكنتش راضي ليه؟

_ معرفش... حقيقي معرفش.

_ علشان مش شبهنا، علشان حسيت أنك اتغيرت من ساعة ما ارتبطت بيها وعرفتها، بقيت شخص تاني بيهتم بالتفاصيل التافهة والمظاهر أكتر من أي حاجة، علشان حسيت إني قيمتك بقت في فلوسك بس ومش عايزينك لشخصك، بقيت عايز تبقى شبههم في كل حاجة... ده أنت حتى غيرت لبسك وشكلك وبقيت تستلف العربية بتاعتي كتير علشان تبقى صاحب عربية زيهم، ماكنتش حابب أدايقك أو تحس للحظة أني ممكن أبخل عليك بحاجة، بس كنت عايزك تبقى أنت مصطفى بطبعك وشخصيتك وطموحك مافيش حاجة تأثر عليك أو تغيرك،

كنت رافض أشوفك بتتحول زيهم بالتدريج علشان تعجبهم وفي الآخر إيه؟ مافيش حاجة عجبتهم.

_ طب وماقولتليش ليه... ليه محدش نبهني منكم؟

_ لو كنت منعتك أنا ولا أمك كنت هتكرهنا وكان ممكن تروح وتعمل أي حاجة من ورانا، وكنت هتفضل فاكرهالنا طول العمر أننا حرمناك من حبك وفرقنا ما بينكم ووقفنا في طريق سعادتك، في دروس لازم نتعلمها بالشكل القاسي والتجربة المؤلمة غير كده عمرك ما هتشوف الأمور على حقيقتها، عمرك ماكنت هتصدق لو قولنالك إني دي هتكون النهاية كنت هتكدبنا وبردو هتروح وتجرب بنفسك.

_ بس أنا غلطان.. أنا اللي دمرت كل حاجة بغبائي لما روحت اشتغلت دليفري.

_ فعلًا أنت كنت غلطان بس مش علشان إنك اشتغلت دليفري علشان توفر مصاريف شقتك وطلباتهم الكتير اللي مش بتخلص... الشغل عمره ماكان عيب والعيب فعلًا أننا نبص لأي شغلانة حلال النظرة المتدنية دي إنما الغلط في أنك خبيت على إيناس وسمحت ليهم أنهم يقللوا منك ومايقدروش اللي أنت بتعمله، أنت ماغلطش بالشغل بس كان لازم تفهم إيناس وتقولها وتصارحها بكده، ماكنش ينفع تفاجئها وتخبي عليها حاجة زي دي، أنت اتعاملت مع الصح بطريقة غلط خليتهم يبصوا للشغل على أنه شيء مخجل خايف أنهم يعرفوه وده أكبر غلط.

_ بس إيناس عرفاني كويس وعارفة نيتي.. ليه ماوقفتش معايا ودافعت عني، رد فعلها وجعني أوي وخيب كل أملي، كان نفسي تديني فرصة وتفهمني وتحاول تقف في صفي لكن للأسف سكتت وتقبلت قرارهم بسهولة رغم إني عملت كل ده علشانها هي وبس.

_ ما تظلمهاش يا مصطفى وتبقى قاسي عليها، إيناس بنت متربية في مجتمع بيهتم بالمظاهر والفلوس، الفرص بتجيلها لحد عندها مش هي اللي بتسعى

وراها، كل حاجة عايزاها بتلاقيها عندها، أكيد مش هتسيب كل ده في لحظة وتتخلى عن كل ده علشانك، ما أظنش أنها قوية كفاية علشان تقف معاك في العقبات اللي زي دي خصوصًا لو العقبة أهلها.

ـ بس هي كانت أقرب حد ليا وعارفة أني بحبها وهي كمان بتحبني، ليه كل ده راح بسهولة لمجرد غلطة بسيطة عملتها؟

ـ مش يمكن أنت اللي مقاييس الحب عندك فيها مشكلة؟

ـ إزاي؟!

ـ يعني الحب مش بيتقاس بالوقت الحلو ولا بالكلام الحلو والسهر على التليفون والهدايا والأوقات السعيدة بس وإنما المحن والصعوبات أهم مقياس للحب، بتعرف ساعتها مين اللي بيحب بجد ومين اللي بيقول الكلمة وخلاص، الوقت ده اللي بيوضحلك السند الحقيقي والمزيف، وإيناس اختارت دايرة الأمان بتاعتها وخافت من أنها تتحرم منها علشان كده سابتك تواجه لوحدك، حقها تدور على أمانها وحقك أنت كمان تشوف حياتك وتشوف مين يستاهل تضحي علشانه بجد ومين لا.

ثم نهض ووقف أمامه وهو يقول مبتسمًا:

ـ وإن كان على الجواز يا سيدي ماتقلقش أمك مش ساكتة وأنا مانعها عنك بالعافية ولو سبتها هتلاقي نفسك متجوز بكره، فألحق نفسك أحسنلك وقوم يلا فوق كده وخد شاور سخن وصلي ركعتين واستغفر ربنا على تقصيرك في حقه واللي حصل منك إمبارح والحمدلله أنك رجعت البيت بخير عقبال ما ترجعلنا مصطفى بتاع زمان.

ثم غادر الغرفة وتركه يعيد حساباته مرة أخرى فيما اقترفه في حق نفسه.. نعم عليه أن ينهض ويعود لحياته، هي بالفعل اختارت أمانها فيجب أن يجد هو الآخر أمانه يعلم أن قلبه يأبى تقبل فقدانها ولكن الحقيقة أنه فقدها بالفعل وعليه أن يتقبل هذا، يجب أن يعود لحياته وعمله وطموحه، يجب أن يريها أنه كان يستحق فرصة أخرى، سيعمل ويعمل إلى أن يتخطى شهابها بسنون ضوئية،

سيغلق قلبه عليها كما أراد وسيكمل حياته هكذا بدونه فيبدو أن زماننا اليوم لا يناسبه القلوب المحبة قط.

***

استيقظت إيناس على فراشها في الفندق لتجد شهاب ملقى بجوارها بجسده النحيل... نظرت له في دهشة كيف وصلت هنا ومن هذا الذي يشاركها فراشها؟

تذكرت أمسها كيف مر، كيف غاب عنها من كانت تنتظره، تذكرت والدتها وفرحتها بأنها أخيرًا تخلصت من ابنتها الشؤم، كان يشغلها غيابه في آخرليلة لها، ألم يرغب في وداعها؟ استرجعت مشهد وصولها لغرفتها وكيف سكنت في حضن شهاب وهي تكتم دموعها وقد حاولت أن تسيطر عليها ولكنها غلبتها في النهاية، استعادت صورة مصطفى في ذاكرتها وغابت معه بينما صديقها يهمس في أذنها "لا بأس ستعتادي على الأمر، وغدًا سيصبح أفضل"

تعلم أن لا أفضل بدونه ولكنها من اختارت الصمت والإذعان لهم ولرغباتهم ومثاليتهم، إنها حياة جديدة يجب أن تعتاديها دون تذمر، لم تتمالك نفسها من فرط حنينها له نعم ستعتاد حياتها ولكن ستظل تطل من نافذتها الصغيرة على عالمه ستظل تسقي حنينها بصوره وذكرياته، تلك مشيئة قلبها ويكفيها أنها فرطت في جسدها لآخر.

أمسكت هاتفها وفتحت صفحته على الفور لتجد له آخر منشور تم نشره كان في الساعة الواحدة والنصف صباحًا وكانت أغنية

Say something

قرأت ما كتبه هو لتجد " لقد ودعتها، ليتها قالت أي شيء يردعني عن التخلي، كنت سأصبح الشخص الذي تريده إذا أرادت ولكن..... يبدو أني لا أناسبها مثله ".

قرأتها وهرعت على المرحاض وهي تبكي كاتمة شهقتها بيدها حتى لا يسمعها شهاب ويستيقظ، دخلت وأغلقت خلفها الباب وأجهشت في البكاء وهي تعيد قراءة كلماته مرارًا وتكرارًا، لقد ودعها بالفعل... لقد جاء ولكن لم

تلمحه بين الوجوه المتغطرسة... كان أناني حين استطاع أن يودعها ولم يعطها الفرصة لتراه وتودعه، ولكن بأي وجه ستلقاه وهي محتضنة زوجها، لامت نفسها بقسوة، هي من دفعت نفسها ودفعته أيضًا لذلك الأمر، هي من استغلت حبها له لتنقذ نفسها من بين أيدي والدتها، كان عليها أن تتقبله كما هو وليس كما كانت تريد أن تراه عائلتها ولكن ما جدوى الندم الآن؟!

هناك أخطاء لا ندركها إلا بعد فوات الأوان، لقد أصبحت زوجة الآن وهناك من ينتظرها بالخارج، لابد أن تتقبل حياتها الجديدة وتنسى القديمة بكل أخطائها، أنظري إلى الجانب المضيء.. فأخيرًا نالت رضا فريدة وعائلتها وفك النحس الذي كان يلاحقها ووجدت عريس قبل أن تبلغ العنوسة، تقبلها بكل عيوبها حتى لو كان من أجل أن ينال رضا والدها أو لكي يحقق رغباته الشخصية ففي النهاية هو فعلًا من يناسبها وليس الآخر، هكذا أخبرها صديقها الذي يربت على كتفها ويجفف دموعها بأنامله السوداء... يجب أن تنسى وتكمل حياتها من أجلها وأجل عائلتها.

وفجأة سمعت طرقات على الباب وجاء صوت شهاب:

_ إيناس إنتي في الحمام؟

جففت دموعها على الفور وهي تجيبه:

_ آه... أنا خارجة أهو.

ثم خرجت فوجدته يجلس على الفراش في انتظارها، لمح على وجهها الحزن وعلى وجنتيها وأنفها بعض الإحمرار بينما رموشها مبتلة فسأل في دهشة:

_ شكلك معيطه.. حصل حاجة ولا إيه؟

_ معلش أصلي مش متعودة أني أبعد عن أهلي.

_ بكره تتعودي عادي، يلا قومي إجهزي علشان نلحق ميعاد الطيارة ومانتأخرش.

نهضت إيناس وجهزت نفسها وحقائبها واتصل بها والدها الذي جاء هو وفريدة ورانيا ليوصلهما للمطار، وبالفعل حضر واصطحبهما للمطار، أوصت رانيا

أن تراسلها دومًا لتخبرها بأحدث تطورات الحمل وتفاصيل الولادة التي على وشك الحدوث، بينما والدها عانقها عناق طويل وأوصاها أن تهتم بنفسها وبشهاب ثم عانق شهاب أيضًا وقد أوصاه عليها وهو يعده بأنه سيحصل على كثير من الامتيازات في عمله الجديد، أما فريد فقد أوصتها بعدم خذلانها أو أن تخذل عائلتها، وتحاول إسعاد زوجها دومًا ثم شددت عليها أنها لا تريد سماع أي مشاكل أو شكوى منها أو من زوجها فتشربت إيناس وصايا والدتها دون تعقيب.

***

ودعتهم إيناس دون أن تذرف دمعة واحدة وصعدت على الطائرة مع شهاب، بينما كلمات والدتها وحديث والدها مع شهاب يتردد في ذهنها.... أما تلك الأغنية التي نشرها مصطفى وكلماته عليها مغروسة في باطن ذاكرتها وقلبها، جلست إيناس بجوار شهاب في مقاعد الدرجة الأولى في صمت إلى أن أقلعت الطائرة وهنا نظر لها شهاب في حماس وهو يقول:

_ سمعتي الدكتور زاهر وهو بيقولي أني شغلي الجديد في امتيازات كتير، أنا متحمس جدًّا للشغل في المستشفى دي حقيقي لولا توصية الدكتور زاهر كنت فضلت أحاول عشر سنين علشان يفكروا يقبلوني أصلهم مش بيقبلوا أي حد... بس أنا طبعًا شاطر جدًّا في تخصصي وهثبتلهم ده بشغلي قريب... أصلي أنا بحب مجالي جدًّا والقسم بتاعي ده مش أي حد يدخله ويتميز فيه وأنا بشهادة استشاريين كتير إني متميز وشاطر جدًّا في شغلي، ثم اقترب من وجهها الخالي من أي تعبير وقال.. هو لازم يعنى نروح شهر العسل ده، مانطلع على " دبي " أحسن

نظرت له إيناس بدهشة فضحك وهو يقول:

_ بهزر بهزر... أنا أصلا محتاج استجم شوية قبل الشغل الجديد وأديني مسفرك "بالي " يا ستي... ما أظنش الدليفري اللي كنتي تعرفيه ده كان يقدر يسفرك جمصة حتى. قالها ببعض التعالي وهو يشيح بنظره بعيدًا عنها.

صدمتها وقاحته.... بالفعل يشبههم فسألته باستنكار:

_ أنت حاطه في دماغك ليه؟!

_ مين ده اللي أحطه في دماغي... أنا بس بوضحلك إني مافيش وجه مقارنة بيني وبينه... أنا مش عارف دماغك دي كانت بتفكر إزاي ساعتها... دليفري؟! قالها باستهزاء

كلماته أثارت غضبها فوثبت في مكانها بتحفز لترد إهانته إلا أنها لمحت الخوف يقف أمامها وهو يضع سبابته اليمنى فوق فمه ويقول "اششششش" فهدأت قليلًا والتفت جهة النافذة التي تجاورها وهي تهمس بصوت خفيض "asshole"

_ بتقولي حاجة؟

_ لا خالص.

_ طب أنا هنام...... وقبل أن تجيبه وضع على عينيه غمامة وفي أذنيه سدادة وأراح رأسه للخلف.

الجميع حولها يذكره كعاهة في ماضيها.. تجربة سيئة يجب أن تخجل منها العمر بأكمله، بالتأكيد سيشاركهم اللوم وتكرار ذكره بطريقة تكرهها، كانوا يرونه كالبيت الخرب وكانت تراه كالسكن والأمان، تعلم أنها أصبحت نتاج صفقة أنقذت بها والدتها سمعتها وخففت الحمل عن كاهلها بها، ولكن شهاب لم يكن يراها أبدًا سوى أنها الرسوم التي دفعها مقابل أطماعه في شهرة ونجاح والدها ليصعد بالمصعد الكهربائي بدلًا من السلم ودرجاته البطيئة حتى يصل لأحلامه العالية التي لا حدود لها، فتلعب في حياته دور البساط السحري لا أكثر.

لن ينظر لها كما فعل مصطفى يومًا.. لن تكون اختياره الذي لطالما سعى خلفه وطمح إليه.... ستظل دومًا معه زوجته ابنة الدكتور زاهر الطبيب المشهور.... تخيلت والدتها الآن وهي ترقص في غرفتها بعد أن رحلت أخيرًا... الكل الآن سعيد... والكل حقق مايريد... ولكن ماذا عنها.. لا أحد يهتم... لقد ذهب من يهتم وأضاعته بيدها... وضعت السماعة في أذنها واستمعت إلى تلك

الأغنية التي نشرها على صفحته... كان عليها أن تقول أي شيء يوقفه عن التخلي، كان عليها أن توقفهم وأن تعترض... أن تتمسك به.. وتعطيه فرصة أخرى... ما كان سيخذلها أبدًا...... هبطت دموعها مستنكرة صمتها تلطم وجنتها بعنف... تذكرت كتابها الذي أصرت أن تضعه في حقيبة يدها وأخرجته وهي تستعيد كلماته في ذهنها وهو يقول لها:

"وإنتي كتبتي ليها جواب قبل كده؟"

وهنا طرأت الفكرة عليها... ستكتب لها ولأول مرة... تعلم أنها لم تكن تتمنى أن ترى تلك اللحظة... وتمنت أن تكتب له مباشرةً كما كانت تفعل ولكن يبدو أن للقدر رأي آخر ويبدو أن جولييت تريد أخيرًا قراءة رسالتها... فالتخرج عن صمتها وتبوح للورق وحبره.

لمحت في حقيبة شهاب مفكرة يحملها دومًا معه يسجل بها كل تفاصيله ومهامه ومواعيده، أخذت منها ورقة بيضاء وقلم معلق بحافة المفكرة ببطء وهدوء ثم لوحت بيدها أمام عينيه وهزت كتفه لتتأكد من أنه نائم وبالفعل لم يجبها فتركته وشرعت في الكتابة مستجيبة للطمات دموعها ونداء جولييت.

" عزيزتي جولييت "

أكتب لكي اليوم ولأول مرة لأحكي لكي معاناتي.... لقد فقدته.. أنا من أضعته من يدي... أشعر بالسوء.... وأنا بصحبة آخر لا أنتمي له ولا ينتمي لي... الغربة تأسرني والحنين لوطني يغمرني.... ولكن لقد بددت فرص الرجوع بأكملها.. أخيرًا في نظر عائلتي حصلت على زوج قبل أن أغرق في عنوستي وبؤسي وأموت وحيدة إلى أن تتعفن جثتي... أشعر بالفقد وكأني ضللت الطريق.. لا أعلم ما أنا مقدمة عليه.. في كل مرة أتفادى السقوط أشعر بأنني أسقط أكثر وتزداد آلامي... لا أخفي عنكي... بدونه أشعر بأن روحي تحترق... الكل يخرسني.. الكل يرغمني على الاستمتاع بحياتي الجديدة وبمن يناسبني في نظرهم.....

أتدري يا جولييت أشعر بأنى أنا من لا تناسبهم أبدًا.... كم أتمنى أن تسقط الطائرة الآن وتتهشم ويختفي كل شيء في لحظة...

أشعر بأنني أشبه " كلير" حين أخبرتك في رسالتها في فيرونا أنها هربت حين رفضوا أهلها "لورنزو"... مثلي كما قبلت بالهروب حين رفضوا " مصطفى " وتزوجت بمن اختاروا... لا أعلم ما إذا كان يومًا ما سأحاول تصحيح ما أفسدته أم لا، هل سأبحث عنه يومًا كما فعلت " كلير"، وهل سيصبح هو في انتظاري مهما طال الوقت... لا يبدو أن الأمر سيكون بتلك السهولة.... أنا أضعف من أن أمتلك تلك الشجاعة يا جولييت واتبع قلبي...... أنا خائفة ودومًا خائفة... من فضلك جولييت أخبريني ماذا عليّ أن أفعل...... قلبي مفطور... وليس لدي أحدًا آخر أبوح له بسري.

مع خالص حبي " إيناس "

ثم طوت الخطاب وخبأته في منتصف كتابها وأعادت القلم في مكانه وسكنت في مقعدها دون أن تنفك عن التفكير به......

عزيزي حين أخبروك
أن الحياة تمضي
الحياة تنقضي
الحياة تسير
الحياة تمر
أخبروك بنصف الحقيقة

نعم , هي بالفعل تمر وتسير على أوجاعنا وأجسادنا وأرواحنا.... تهرول فوق أحلامنا وآلامنا وأحزاننا... تهلكنا وتدهسنا أسفل أقدامها دون رحمة أو شفقة، حتى تمل منا الأحلام ويطير سرب الطموحات مهاجرًا ومودعًا تلك الأجساد البالية والأرواح المنهزمة، تسأم الجروح النزيف وتسكن في استسلام لوقع أقدام الحياة، ماعاد هناك سيف للنضال ودماء للإراقة... أنت فقط ملقى في منتصف الطريق وقد غبت عن الوعي من وقع أقدام الحياة فوق جسدك وتخبطها برأسك، وفجأة تسمع أصوات صاخبة وتجد أيادي تسحبك في طرقات متعرجة لا تدري إلى أي وجهة سينتهي بك المطاف... تريده أن ينتهي فلا أمل ولا طموح ولا حب ولا حبيب فلما الحياة... تتمنى أن يطيحوا بجسدك داخل قبرك ويهيلوا عليك التراب ويدفنوك ثم يغادروا دون وداع ودون رجعة ودون صبار فوق قبرك... أنت فقط لوحدك وقد انتهت الحياة بأكملها... لترقد وتستكين وتحتضن التراب بكل جوارحك فلا ترى ولا تسمع ولا تشعر فقط تسكن......

وهنا تمضي الحياة حقًا... وهنا تكمن الحقيقة الكاملة...
تسكن أنت بحفرتك وتنتظر
ربما
ربما
ربما
يومًا ما تسمع زقزقة العصافير من جديد...
ليأتي يوم البعث لأرواح كرهت وسأمت أجسادنا.

(٢٥)

مر أربعة أشهر منذ أن كتبت إيناس رسالتها إلى جولييت وهي تنتظر ردًا على رسالة تعلم أنها لن يجيب عليها أحد، كطفلة ساذجة تنتظر عرابتها تخرج من بين صفحات قصة خيالية تقرأها قبل النوم لتهديها فستان يشبه فستان سندريلا، ظلت مع شهاب، تطل معه في كل لقاء ليتباهى بنسبه ووالد زوجته الدكتور زاهر، مرنت وجهها جيدًا لتحرك عضلاته القليلة للابتسامة في وجه الجميع، ونادرًا ما كانت تشارك أحدًا الحديث فجميع أحاديثهم لا تخرج عن إطار الأبحاث والجراحات، كانت ترى نفسها معه كالدمية التي يحملها الطفل أينما ذهب ليتفاخر بها أمام أقرانه ليس إلا، انشغل شهاب بعمله الجديد وبات يقضي معها ساعات قليلة بالكاد تكفي نومه مما جعلها تقضي بمفردها معظم يومها.

ورغم عروض العمل الكثيرة التي قدمت لها لتشغل وقتها إلا أنها فضلت العزلة واكتفت باتصالات رانيا بها التي أنجبت نيلي منذ شهرين، وأصبحت تشغل وقتها إما في الخروج بمفردها تستكشف أماكن جديدة وإما تلعب على هاتفها ألعاب فتيات وتصميم أزياء لتريح صوت ضميرها العالي تجاه موهبتها المدفونة بين طيات ذاكرتها، ووسط كل هذا لم تترك صفحته أبدًا ولم تستطع أن تتخلص من تلك العين الفضولية المراقبة والقلب الضال في دروب خاطئة.

***

خلال الأربعة أشهر لم يكن مصطفى يراقب صفحتها فحسب بل أصبح يراقب صفحة شهاب أيضًا كالمتلصص منذ أن غيرت حالتها من عزباء لمتزوجة من شهاب، يعلم أنه مازال عالق معها ولكنه يشعر أنه مسلوب الإرادة، ظل يراقب كل صورة يقوم شهاب بنشرها منذ أن كانا في جزيرة " بالي "... يتأمل تفاصيلها ويتساءل هل هي سعيدة معه؟

ينظر إلى بسمتها ويقارن ما بذاكرته... لم تكن لها نفس الابتسامة ربما هي ليست سعيدة أيضًا ولكنها متقبلة راضخة صامتة ترتدي ذلك الوجه الذي لم يره معها سوى في تلك المقابلة أمام والديها حين انتهى كل شيء، كانت ساكنة حينها مثل ما هي ساكنة بين ذراعي شهاب في كل صورة، كان يتابع أخبارها عن طريقه بعد أن قلت منشوراتها منذ دعوة فرحها، لم تشارك أي صور تجمعها مع شهاب كما كانت تشارك من قبل صورها بصحبة مصطفى واكتفت بوجوده في واقعها كما أرادوا من حولها، أما الآخر فقد كان يشارك كل شيء حتى بات المصدر البديل لمصطفى ليطمئن عليها ويراها في صور شهاب، حتى أنه لمح صورة شهاب في مقر عمله الجديد وهو يشكر الدكتور زاهر على تلك الفرصة ليعلم أنه لم يكن يناسب دائرتهم قط، هكذا تم الأمر إذًا يبدو أن حلقته كان أصغر من أن تظهر من بين حلقاتهم الواسعة، ورغم أنه لايزال معلقًا بحبالها لم يستطع أن ينسى كلمات والده قط في غرفته بعد ليلة زفافها، حتى والدته باتت تذكر له حديث الزواج أكثر من صباح الخير كل صباح وهي تنثر خياراتها بإلحاح لا يعلم إلى متى سيستطيع الصمود أمامه...

يبدو أن الحياة تطالبه بحقها وهي تدفعه للمضي قدمًا... فلا شيء يتوقف لعابري سبيل خطى معك بعض الخطوات، كان يكفيه الألم الذي يحمله في صدره،

فبمجرد فراق شخصًا ما مهما كانت أهميته كل شيء يسير كما كان وكأن شيئًا لم يكن.

قرر في النهاية مصطفى أن يكمل طريقه هو الآخر ربما مذاق أخرى سيغطي على مذاقها.. نعم ربما!!

ورغم أن أبواب قلبه مغلقة وبئر الحب قد نضب وجف إلا أنه لم يجد طريقًا أمامه سوى أن يجرب حظه كما جربت هي حظها بحياة أخرى، وأن ينصت أخيرًا لصوت والدته الجهوري الذي شق حنجرتها وأذنه كلما لمحته أمامها... نعم سيعطي لنفسه فرصة وسيرضي والدته ووالده فهما لا يستحقان عقابه الذي يعاقب به نفسه يكفيه جلده لذاته في اليوم مائة مرة، ولكن العقبة

الوحيدة التي ستواجهه الآن هي من ستقبل بشروطه التي وضعها حديثًا بعد قرار ارتباطه؟!... سيدع الأمر بين يدي فاطمة وهي بالتأكيد من ستقرر، لتدب يدها في جعبتها وتخرج منها تلك الصبارة التي تلائم أرضه البور.

خرج من غرفته ليجد والدته ووالده يجلسان أمام التلفاز يشاهدان إحدى المسلسلات التركية طويلة المدى، جلس بجوارهما فلم يلتفت أحدًا منهما إليه إلا عندما نطق وقال:

_ أنا بفكر أتجوز......

نظرا له سويًا في ذهول ثم اعتدلا تجاهه ووالدته تسأل باندفاع وحماس:

_ بجد؟.. مين واحدة نعرفها؟

_ لا... أنا ماخترتش أي واحدة.. أنا بس خدت القرار.

_ خير مافعلت يابني... وموضوع العروسة ده سيبه لأمك وهي هتختارلك ماتقلقش.

_ تمام... بس أنا عندي شوية شروط كده لازم العروسة تبقى عارفاها من البداية.

شعرت والدته بأهمية الأمر فقالت:

_ شروط إيه دي... قول ياحبيبي ده أنا ماصدقت أنك توافق على الجواز قول مش مشكلة.

_ الشقة بتاعة الشروق أنا قررت أني هفتحها معمل مع مينا.

_ طب وهتتجوز فين؟ سأل والده بدهشة

_ معرفش بس غالبًا هأجر شقة جنبكم هنا أفضل.

_ مش مشكلة تتحل.... طب وعندك شروط تانية تقولها؟ قالتها فاطمة وهي تزدرد ريقها بقلق

_ آه... فرح مش هعمل والشبكة والفرش هيبقى بإمكانياتي وغالبًا هتبقى حاجات بسيطة لأني هحط كل فلوسي في تجهيز المعمل... أي عروسة قبلت بكده تمام ماقبلتش مافيش مشكلة.

دبت فاطمة على صدرها وهي تصرخ في وجهه:

_ فرح إيه ده اللي مافيش... أنت فاكر إني الفرح ده ليك لوحدك؟! إحنا كمان عايزين نفرح بيك ومستنيين اليوم ده من زمان، ليه يابني تقتل فرحتنا بيك كده.

_ فين خاتم خطوبتك يا مصطفى لو بعته هيغطي مصاريف الفرح.. سأل محمد بتعجب

وهنا انتفض مصطفى من مكانه وهو يقول بغضب:

_ خاتم إيناس لا.

نظرا والديه لبعضهما باستنكار وقالت والدته:

_ ليه إن شاء الله هي بنت ناس واللي هتتجوزها جايبنها من الشارع ولا مالهاش أهل هي كمان يتشرطوا براحتهم.

_ أنا قولت اللي عندي... وخاتم الخطوبة ده تنسوه والله عجبهم كده تمام ماعجبهمش شوفي اللي بعدها.

_ هي بضاعة يابني... بقولك إيه أنا عيني على دعاء من وأنتوا صغيرين، ودايمًا كنت بلمحلك بكده وأنت تطنش وأبوك شاهد لحد ما قررت تخطب والبنت ياعيني لما عرفت نفسها اتكسرت ولما فسخت خطوبتك قولت إني في أمل أنك تخطب دعاء، البت شكلها بتحبك وأهلها كويسين نعرفهم ويعرفونا بس شروطك دي الصراحة هتصعبها علينا... عايزني أروح أقولهم هاتوا بنتكم ببلاش وهي بيتقدملها كل يوم عرسان زي الفل مناصب وعائلات...

ضحك بنصف شفاه في سخرية وهو يقول:

_ والله عاجبها المناصب والعائلات تروحلهم، أنا مش ابن الجنايني اللي طمعان فيهم... أنا عريس زي زي اللي بيتقدمولها... ودعاء زي غيرها مش فارقة... مش عايزين خلاص أنا أصلا كده مرتاح.

_ خلاص... خلاص يا مصطفى... أنا ماصدقت، أنا هتصل بأمها ونحدد ميعاد وربنا يقدم اللي فيه الخير بس حوار مافيش فرح ده تنساه، دي وحيدة أبوها

وأمها وأنا ماقبلش على البنت كده أبدًا، هعمل فرح إنشالله على حسابي أنا وأبوك وأبقى ادفع أنت الباقي براحتك بقى، وربنا يستر من شروطك دي يارب البنت توافق.

***

صباح ومسا... شيء ما بينتسى تركت الحب وخدت الأسى.
شو بدي دور.. لا شو عم دور على غيره.
في ناس كتير لكن بيصير ما في غيره.
حبيبي كان هني وسهيان ما في غيره.
حملني سنين مانن هينين كتر خيره.
لعل وعسى أترك هالأسى ويرجعلي حبي صباح ومسا.
بس أنت.. أنت وبس.

جلست دعاء في غرفتها على فراشها تستمع لكلمات فيروز في أغنيتها المفضلة التي تلجأ إليها دائمًا ما إن تملكها الحنين لحبها الوحيد، كلمات الأغنية تذكرها به دومًا، أعوام وأعوام وهي تنتظره دون كلل، قلبها يحدثها بأنه سيأتي يومًا ما، ظلت تراقبه لسنين وهي تدور من حوله ليلمحها ولكن لا يخطف أنظارنا سوى البعيد عن المنال... هو من نركض خلفه باستماتة وكأنه الأخير في العالم ونترك من يقف أمامنا مباشرةً كأنه لا يُرى.

لمتى ستظل تقف في تلك الزاوية التي لا ترى، ألا يرى شقتها التي يمر عليها كل يوم وهو صاعد لشقته، ألا يرى تلك الفتاة التي تسكن غرفتها في انتظاره، تلك الفتاة التي تلحق به منذ الصغر وتتبع خطوات أقدامها آثاره... كانت محتضنة هاتفها وتنظر لصوره في حفلة مناقشة رسالة الماجستير بلوعة الهوى، تنتظره لكنه بطيء، تنتظره من قبل أن يرى تلك الفتاة المدعوة إيناس والتي أضرمت في قلبها نيران الغيرة منذ أن رأتها أول مرة معه في الكافيه لتأتيها أسوأ الأخبار بعدها بأنه خطبها.... حينها فقدت الأمل في كل شيء وما إن فسخت الخطبة حتى عادت المياه تجري مرة أخرى في بحر آمالها بعد أن اضمحلت....

حتى أنها أتقنت فنون التخاطر والتي كانت تقوم بها كل ليلة منذ أكثر من شهرين عندما دعتها إحدى صديقاتها في جروب " إزاي توقعي الكراش في حبك" جروب من تلك الجروبات التي تملأها الفتيات وهن يتبادلن أحاديثهن وأفكارهن الجهنمية لإيقاع الشيطان بذاته في فخهن... يمارسن جميع أنواع الحلول والحيل لحل أي مشكلة، فما من فتاة تذكر مشكلاتها حتى ينصب وابل فوق رأسها من الاقتراحات والحلول لمساعدتها ولو طلبت منهم تمثيل جنازة أون لاين لما تأخرن أبدًا.... فكم يعشقن الفتيات حب الخير؟!!!

حينها ذكرت دعاء مشكلتها وعرضتها على الفتيات، فأرسلت كلًا منهن حلًا يناسب قضيتها وذلك الشاب عديم الإحساس.. الرجل الغامض بسلامته، إلى أن ذكرت لها واحدة من بينهن أنها كانت تقوم بالتخاطر إلى أن أوقعت الكراش في حبها عن طريقه لتتعلق دعاء على الفور بحلها الفعال... نعم ذلك هو الحل، وبالفعل أرسلت لها تسأل على خطواته وكيف يتم الأمر لتأتيها الإجابة في ثوانٍ، منذ تلك الليلة ولم تنفك دعاء عن جلسات التخاطر كل يوم حتى باتت خبيرة بها يمكن أن تدرسها في الجامعات... ولكنها لا تعلم لما فشلت معها ولم تنجح مثل تلك الفتاة التي نصحتها بها.... ظلت تراجع خطواتها وكلها صحيحة... إذًا أين العطل؟. ..

دخلت على صفحة الجروب وكتبت منشور آخر وهي تسأل عن سبب العطل.... لما التخاطر لا ينجح معها؟!.... كانت تسأل بعد أن ضاق بها الأمر فمنذ قليل كانت تخوض شجار مع والدتها حول العريس الخامس الذي ترفضه على التوالي... كان تلك المرة العريس معيد في جامعتها ومن قبله طبيب أطفال عيادته في البناية المقابلة لهم ومن قبله مهندس كهرباء ابن صديقة والدتها ومن قبله محاسب في بنك ومن قبله زميلها في الجامعة، رفضتهم جميعًا وقلب والدتها يعتصر تعلم أن ابنتها تنتظر تلك الصخرة التي تسكن الشقة التي تعلوهم ولكن الصخرة ثابتة في مكانها لا تتحرك ولا تشعر، الجميع يعلم بحبها لمصطفى منذ الطفولة، والجميع يعلم أيضًا تجاهل مصطفى لذلك الحب والدليل خطبته

لأخرى وسوء حاله بعد أن فقدها، ولكن رغم ذلك كان الوحيد الذي يسكن قلبها لا غيره فكما قالت فيروز" في ناس كتير لكن بيصير ما في غيره".

نعم ما في غيره بنظرها وبقلبها، ولازالت تنتظر ولو ذبلت الزهور فالعطر لا يذبل أبدًا كحبه في قلبها.

كتبت المنشور ثم ظلت تتأمل صورته وتستمع لفيروز لحين أن يأتيها حل مكتوب من أي فتاة أخرى، وبينما هي تنتظر سمعت رنين هاتف والدتها المدوي خلف الأبواب، كان صوته يفزعها ولكن والدتها تعاني من ضعف السمع فهكذا فقط تشعر به وتسمع صوته، أجابت والدتها على الهاتف بصوت لا يختلف عن رنين هاتفها المدوي أيضًا، فوصل لأذن دعاء أنها تحادث فاطمة جارتهم وفجأة شعرت بضربات قلبها المتسارعة وهي تستمع لوالدتها التي تحدد موعد لزيارة فاطمة وزوجها وابنها في منزلهم، كادت تشعر بغياب وعيها من فرط السعادة وهنا بدأت الإشعارات تنهال علي منشورها ولكنها لم تعبأ بالرد وما إن انتهت والدتها من حديثها حتى هلت عليها دون طرقات وفتحت الباب باندفاع وهي تقول:

_ افرحي ياستي... أهو حبيب القلب جاي الجمعة الجاية هو وأهله.

ظلت دعاء تقفز في مكانها بسعادة، وفجأة توقفت على رنين هاتفها الذي لا يهدأ فذهبت إلى منشورها على الفور وكتبت

تعديل " خلاص يابنات أخيرًا التخاطر نجح والكراش جاي يخطبني يوم الجمعة "

***

(٢٦)

ذهب مصطفى مع والديه بجثة مغمضة العينين يسير فقط على خط رسمه الآخرون، لم تكن دعاء بالنسبة له تختلف عن باقي الفتيات فجميعهن واحد أمامه..... هي لا سواها إيناس من كانت في زاوية خاصة توجت بها ملكة، ولكن لدعاء مكانة خاصة عن غيرها في كونها صديقة طفولته، تشاركه الألعاب وتابعة في الكبر تشاركه اهتماماته ودراساته، لم يكن يراها سوى ذلك الكلب الوفي لصاحبه ما إن ركله بعيدًا عنه حتى ركض نحوه وهو يركع تحت حذائه ويبدأ في لعقه، كم كان يكره تلك الصورة التي يستحضرها ذهنه كلما مر عليه اسمها، حاول تغيير تلك الصورة كثيرًا ولكنه لم يفلح سوى بأن يشغل ذهنه بمشروعه القادم.

ذهب معهما دون أن يدري سببًا حقيقيًا على ما هو مقدم عليه هل حقًا يريد الارتباط؟ يشعر كالمحكوم عليه بالإعدام وهو الآن في طريقه نحو المقصلة وجل ما يشغله هو أمنيته الأخيرة..... لاااااااا حتى أمنيته الأخيرة تتعلق بـــ "إيناس" هذا ليس عدلًا على الإطلاق، يعلم أن ذلك القرار ما هو سوى محاولة لأمر يعرف نتيجته مسبقًا، يعلم بأنه يعاقب ذاته، يلف الحبل حول عنقه ويركل المقعد من أسفل قدميه.... لن يبالي الآن بزهق روحه فهي بالفعل قد غادرت، الحيرة كالنيران تلتهم روحه كم يريد تجاهل ذكراها وسيرتها بل وتخطي كل ذكرياتهما سويًا، فماذا ستكون النتيجة سوى محاولته لجلب أخرى في حياته البائسة.

سيشغل وقته بمشروعه وحلمه الذي لطالما سعى خلفه، تلك الأحلام لم تخذله أبدًا هي الوحيدة القادرة على محو دروسه السيئة التي ذكرها له والده من قبل، وخذلان البشر له، ذلك هو السلم الحقيقي الذي يجب أن يصعده بسعادة وارتياح وليس ذلك السلم الخبيث بدرجاته المزيفة الذي أوهمه بالصعود ليهوى بتلك الفجوة في منتصف درجاته والتي ما إن وضع قدمه على

حافتها واستشعر فراغها حتى وجد جسده قد تهاوى بداخلها، شعر بالخداع ولكن شعوره قد أتى متأخرًا كثيرًا، أتى وهو يسقط بالفعل في فراغ أسود عميق لا حدود له حتى سحق ظهره بالوحل وأصبحت تكسوه رائحة النتانة كالمتسولون، هنا فقد وعيه وفقد السلم بحلمه أيضًا... سيعوض الأمر بأحلامه المسبقة، سينشأ ذلك المعمل ويكمل دراسته ولو امتلأت حياته بالدراسة والشهادات، سيقضي على شعور الدونية الذي زرعوه في دماغه كنبتة سامة تسمم عالمه، سيقبل بتلك الزيجة وتلك المحاولة داعيًا ومتمنيًا بأن يعطيه القدر فرصة أفضل تنحيه مما هو فيه.

أما دعاء فقد كانت سعادتها تفوق حجم كوكب جوبيتر بأقماره التسع وسبعون قمرًا، تأنقت في ذلك اليوم بزهور وألوان الربيع كلها، كانت تريد أن تصنع من ذلك اليوم ذكرى لا تنسى فاليوم هو يوم خطبة الكراش لها كما تدعوه، سعادتها عبرت البحار والمحيطات، اليوم وبعد طول انتظار سيتحقق مرادها الذي حلمت به منذ الطفولة... أخيرًا مع حبيبها مصطفى.

وافقت دعاء على الفور على العريس وكيف لا توافق رغم تحفظات والديها بشأن الشقة الإيجار ولكنها بررت لهم بأنها تريد أن تكون بقربهم ولا تبتعد عنهم كما أن الشروق بعيدة عنهم كثيرًا، لم يطلبا والديها الكثير يكفيهم ما يعفيهم من إهانة الرخص لابنتهم، وكذلك عائلة مصطفى لم يخبروهم بكل شروطه المسبقة بعد أن نجحوا في استئناف الحكم وكسبوا قضية الفرح وجزءًا من قضية الشبكة والتجهيزات، كانا والديه يريدان إتمام الأمر ليساعداه في ترميم حياته المتهالكة مهما كلفهما الأمر، فلن يبخلا عليه أبدًا مادام سيكون سببًا في انقاذه، أما هو فقد أعاد حساباته في تلك المقابلة ولم يرد تكرار مشهد الدونية مرة أخرى يكفيه شح مشاعره معها فاليعوض ما ينقصه بباقي الكماليات، فلا ترى العين سوى شح الجيوب أما المشاعر فلا تهم كثيرًا.

***

تمت الخطبة بعد الزيارة بأسبوع وحضرها أقرب الأقربون وارتدت دعاء أخيرًا دبلته ووضعت دبلتها باسمها المحفور بين أصابعه موضع دبلته القديمة، شعر بأن موضعها يكويه بعد أن وضعها وكأن دبلة إيناس تثأر من خيانته... بينما دبلة دعاء تنبذه وينبذها ولكنه يحاول إقناع نفسه بأن في مرارة الدواء يكمن الشفاء فمن السم نصنع أمصاله.

ظل يلفها حول إصبعه بعدم ارتياح وهو يتوسل عقله بأن يستيقظ من هذا الكابوس، لا يصدق كونه يرتدي دبلة أخرى.. لا يصدق كونه مع أخرى وسيصبح ملك أخرى، طال كابوسه وأخذل توسلاته فهذا ما لديه الآن وكل ماعليك هو التقبل، الجميع من حوله سعيد حتى صديقيه.

ظل يراها حوله في كل مكان تارة تقف بين المدعويين وتارة تجلس بجواره موضع دعاء ينظر لها ويبتسم كما كان دومًا يبتسم معها فتظن دعاء أنه يبتسم لها فتسعد أكثر وما إن يدرك بأنها ليست بجواره حتى يشيح بنظره بعيدًا عنها.

***

انقضت ليلة الخطبة سريعاُ وقرر مصطفى أن تتم الزيجة في أسرع وقت، حالما يجدوا الشقة ويقوموا بتجهيزها، لم يرد إطالة الأمر كثيرًا فهو يفكر في تدميره في الثانية مليون مرة ومع كل مرة ترن دعاء على هاتفه تنتابه لحظات تردد كثيرة إلى أن يجيب ويتمالك لسانه حتى لا يبوح بما يضمره في صدره، لم يبد اهتمام قط نحوها، كان حديثه رسميًا بالكاد ينطق ويكمل الخمس دقائق في محادثة.

أما هي فلم تشعر باهتمامه نحوها أو لهفة إليها كشوق الخطاب والأحباب، كانت دومًا هي من تحادثه وتطلب رأيه، بينما هو كان دومًا غائب غير ظاهر حتى في تجهيزات تفاصيل شقتهما التي وكل مهامها لوالدته، تحجج للجميع بانشغاله بمشروعه وتجهيزاته وبالفعل كان يقضي كل أوقاته في شقة الشروق وتجهيزها مع مينا، ورغم أن مينا حاول معه أن يريحه من عناء الترخيصات والأوراق الحكومية الا أنه أصر على إتمام كل شيء بنفسه.

كان لا يضيع من يده فرصة تشغله عن التفكير بها، وهو يلقى على عاتقه ما سيجهده ويجهد عقله لكي ينشغل عنها، ليجد صورتها رغم كل ما يقوم به هي آخر ما يراه أمام عينه قبل أن يغفو ويراها في أحلامه ثم يستيقظ ليفتح عينه على صورتها في ذهنه وأمام ناظره، وكأن عقله وقلبه يصارعانه، فجهد البدن لن يشغل الذهن والقلب عن ذكراها أبدًا أيها الأبله هكذا سخرا منه، سأم تمردهما ضده فقرر أن يتصل بدعاء مدعيًا أنه بالفعل خطيبها ويمكن أن يتحدثا كما يفعل المرتبطون طوال الليل وهم يقضون سهراتهم في الأحاديث، لاحظ مصطفى فرحتها الشديدة باتصاله أخيرًا فتذكر رغمًا عنه مشهد كلبه الوفي وهو يلهث ويلعق حذائه بينما هو يربت عليه فيتودد الكلب أكثر له، نفض الفكرة التي كان يمقتها من رأسه بسرعة وحاول أن يجاري حوارها ويسألها عن أحوالها وما إن أجابته حتى وجد حصيلته قد نفدت بالفعل، ليس لديه شيء آخر يشاركها به ظلت دعاء تحادثه عن تجهيزاتها وتلك الشقق المعروضة عليهم وأيهم أفضل وهو لا يردد سوى أكيد... آه... لا.... معرفش، كانت كلماته جميعها مبتورة، ليجد نفسه في النهاية قد استهلك كل مخزون طاقته في الاستماع إليها ومشاركتها الحديث فقرر أن يخبرها بأنه سوف يستيقظ باكرًا ولا يريد أن يسهر كثيرًا لتتركه وشأنه فرحبت دعاء كعادتها براحته دون أن تعترض لتجده يقول في النهاية:

_ " سلام يا إيناس".

لم يشعر مصطفى بعثرة لسانه، ولم تشعره دعاء كذلك بهذا الخطأ بل لم تعير للأمر أي اهتمام، كانت تعلم جيدًا أن لديه جرح من الماضي لم يلتئم بعد ولكنها عاهدت نفسها بأن تكون له الدواء لكل ما عاناه، ستشفي جميع جروحه وتضمدها، معها سينسى إيناس وما عاناه معها رغم أنها لا تعرف سبب الانفصال ولم تسأل عنه حتى، ولكنها تعلم أن لديه جرح من تلك العلاقة، كل شيء معها سيتلاشى، ستحاول إسعاده بكل الطرق، ستصنع من عالمه عالم جميل لن يحزن به أبدًا، الآن جاءت الفرصة بين يديها بعد أن عانت من تجاهله لحبها سنوات.

نعم هي من تحبه وهي المقدمة على إسعاده، فأخيرًا حصلت عليه وأصبح ملكها بمفردها، سيعود الطير وإن طالت غيبته إلى عشه ومسكنه وهي ذلك العش والمسكن لا غيرها.

***

بعد مضي شهر على زواج دعاء ومصطفى....

عادت دعاء إلى بيتها الذي يقطن بعد شارعها القديم بشارعين، فقد كانت بصحبة والدتها في عيادة دكتور النساء والتوليد والذي بشرها بحملها، كادت تطير فرحًا هي ووالدتها التي تنتظر ذلك الحفيد منذ وقت طويل، تعلم أن كل شيء جاء سريعًا فلم ينقضي على زفافها سوى شهر واحد ولم تستغرق خطبتهما سويًا سوى خمسة أشهر، كانت تريد السعادة بكل الطرق لمصطفى فما إن تفشل طريقة حتى تبتكر أخرى تسعده بها، لم تنكر أنه كان زوجًا كما يقول الكتاب، يرضيها فيما تطلب ولا يبخل عليها في شيء حتى العمل وافق عليه بترحاب بل هو من عرض الفرصة لكي تساعده في المعمل الذي افتتحه قبل فرحه بشهر ونصف.

ابتكرت طريقة لتفاجأه بها وقد أحضرت حذاء رضيع ووضعته بداخل علبة هدايا وانتظرت قدومه للبيت وما إن عاد حتى أخرجت له الصندوق ليتفاجأ بفحواه، وقف أمامها في ذهول... لم يستوعب الموقف بعد، لم يفرح ولم يحزن كان صامت مضطرب، لم تتوقع رد فعله هذا رغم أنه لم يختلف كثيرًا عن ردود أفعاله معها، لم تجد تلك الفرحة التي تخيلتها ولا الأحضان والقبلات التي تمنتها، وجدته هكذا مبهم ينظر لها باندهاش، كعقيم أخبروه أنه سينجب قريبًا.

يبدو أن الأمر حقيقي، زواجه حقيقي وتلك زوجته وتلك حياته، سينجب من دعاء ذلك الطفل الذي تمناه دومًا من إيناس، كيف؟؟.. لا يعلم!!...

كل يوم يمر يشعر بأن قدمه تغرس أكثر في أراضي دعاء، كل يوم يمر يزداد ترابطهما أكثر وأكثر وهو أمر يخشاه، كان يرى علاقتهما ما هي إلا وضع مؤقت سيطول أو يقصر لا يهم إنما هو مؤقت حتمًا سينتهي وقتًا ما، ولكن يبدو أن

القدر له رأي آخر، كأنه يريد أن يربطهما ببعض أكثر، هو بالكاد يقضي معها الوقت حتى أنه أراد أن يشغلها بأي شيء حتى لا تتفرغ له فعرض عليها بعد الزواج العمل في المعمل لتساعده، وبالفعل وافقت على الفور لتقضي معه وقت أطول ولكن نيته كان إشغال وقتها وإن اجتمعا فلن يتحدثا سوى عن العمل، أرادت قربه دومًا وأراد هو دفعها بعيدًا عنه ولكنها لم تكل عن المحاولة والآن القدر يزيد من احتمالية نجاح محاولاتها ويرغمه على تقبلها، لا ينكر حبها له ومحاولة إسعاده باستمرار لكن جرحه لم يلتئم بعد لايزال بصحبة أخرى يراقبها رغم قلة منشوراتها ويبحث عن أخبارها كل يوم ليطمئن عليها، يخجل حين يستحضرها عقله كلما اقترب من زوجته، هو غارق حتى أخمص قدميه في عالمها وما يأكل روحه أنه لا يحاول الخروج أبدًا.

***

(٢٧)

بعد مرور عامين على زواج إيناس من شهاب وسفرها معه إلى "دبي" شعرت بحنينها لعائلتها، سأمت حياتها التي تقضي بها معظم أوقاتها بمفردها وأرادت أن تعود لمصر في إجازة لترى عائلتها وكذلك نيلي ابنة رانيا التي شارفت على إكمال عامين وهي لم تحملها قط ولو لمرة واحدة منذ أن ولدت، هي الآن تمشي وتنطق ببعض الكلمات القليلة، كان يتملكها حنين لكل شيء تركته وخاصة مصطفى الذي مازالت تزور صفحته حتى بعد أن تزوج منذ أكثر من عام كامل.

علمت من تغيير الحالة وبالطبع لم يكن تخمين العروس أمر صعب فهي دعاء بالتأكيد، رأت كذلك صور افتتاح المعمل التي نشرها قبل زواجه بشهر ونصف كانت تتمنى أن تبارك له على تحقيق حلمه أخيرًا ولكنها لم تجرؤ.

بيد أنه يسعى في خططه جيدًا من بعدها بل ويسير بشكل أفضل وكأن خسارته لها مكسب، يبدو أنها كانت تعرقل أحلامه، حتى أنه اشترى سيارة ونشر عنها صورة أيضًا وهو بداخلها، وكأن لا شيء سيوقفه مثل حياتها المتوقفة، لو فقط صمدت أمامهم وأعطته فرصة كان الأمر تغير عما هو عليه الآن وما كان ليرضخا لحكم الفراق أبدًا.... ولكن ما عاد للندم فائدة.

وافق شهاب على طلب الإجازة بترحاب دون أدنى اعتراض واحد ولا حتى ذرة تمسك، بالتأكيد لن يتمسك فهو في الحقيقة مشغول طوال وقته ولا وقت لديه لأحد سوى نفسه وأحلامه، لن يبالي إذا ما كانت موجودة أم لا، وبالطبع لن يعاملها بسوء خشية من فقد سلطة والدها ومساعداته، هي فقط معه كتميمة حظ لا أكثر، لا يتشاركا في شيء حتى الخلاف، فلا وقت ولا نقاش يجمعهما من الأساس.

عادت إيناس بمفردها إلى مصر في إجازة يملؤها الحنين لكل ما ودعته من قبل أو سلب منها عمدًا، عائلتها ورانيا والياسمين والشوارع وغرفتها، اشتاقت لكل شيء تركته خلفها وعلى رأسهم وإن حاولت أن تخالف قلبها دومًا هو

مصطفى وذكرياتهما سويًا، استقبلتها والدتها ببعض الترحيب غير المبالغ فيه كمن استقبل زميل عمل لم يقابله لمدة ثلاث أيام، لم تبالي إيناس باستقبالها فالطباع لن تتغير ولو مرت عصور، فتلك اللحظة ما هي سوى استعادة لأولى الحقائق التي كادت أن تتناسى وجودها، قضت يومها في غرفتها بين الحنين والشوق مسترجعة كل ذكرياتها، وفي اليوم التالي قررت أن تقضيه مع رانيا وابنتها، مرت الأيام معها في سعادة كانت تفتقدها، عادت لبعض الضجيج الذي حرمت منه لعامين قضتهم في حبس شهاب صامتة وحيدة معزولة تنتظر كل ليلة عودة زوجها الذي دومًا يفاجئها برسالة مقتضبة فحواها أنه لن يعود الليلة وسيعود صباحًا.

وأخيرًا عادت لبيتها... تعلم أنها إجازة وستعود لحبس شهاب إن طالت أو قصرت، فوالدتها لن تترك إجازتها تطول لدرجة تغضب شهاب أبدًا ولو أرادها اليوم لأرسلتها على الفور في طرد مع إحدى شركات الشحن لو تطلب الأمر، لا بأس يكفيها فقط بضع أسابيع مع الأحباب تنفض بهم ركام سنتين من العزلة.

ورغم سعادتها بتلك الإجازة إلا أنها كانت تقاوم كل يوم لهفتها لرؤيته، كم تتمنى أن تراه ولكن خوفها يمنعها، هو الآن متزوج وينعم بحياته من الأفضل أن تظل بعيدة عنه وتكمل هي الأخرى حياتها، فليس للقائهما الآن أي جدوى سوى جلب الألم ويكفيها ما لديها فلا حاجة لنبش غرفتها المظلمة.

ولكن لا بأس بزيارة أماكن جمعتهما سويًا لتستحضر ذكرياتها الجميلة معه، قررت الذهاب للنيل وهي تتذكر يوم اعترف لها بحبه، الكلمة التي لم تسمعها سوى منه حتى الآن، فرغم مرور أعوام ورغم أنها تزوجت آخر إلا أن قلبها لا ينبض سوى بذكره، طال حديثها مع النيل وهي تقص عليه كل ما مرت به، أرادت البوح لمن يسمع دون أن يصدر أحكام، أخرجت كل ما كتمته عن عائلتها بما فيهم رانيا التي تشبههم بأحكامها، لن يقدر أحدًا منهم شعورها بالوحدة والتعاسة، فجميعهم يروا أن حظها الشؤم بدأ يبتسم أخيرًا فكيف تكون تعيسة؟!

عادت إيناس وأثناء طريقها وجدت ذلك المطعم والكافيه الذي يديرهما بهاء صديق مصطفى، كان الوقت في الثانية ظهرًا ترددت كثيرًا فهي تعلم جيدًا أن ذلك المكان كان المفضل بالنسبة لمصطفى وأصبح المفضل لكليهما معًا بعد ذلك، ولكن هي لم تخطوه منذ أن انفصلا، ظلت في سيارة أخيها التي استعارتها منه فسيارتها منذ أن تركتها وباتت مهملة وتحتاج لبعض الصيانة فأودعتها في إحدى مراكز الصيانة لحين الانتهاء من إصلاحاتها.

كانت تدور حول المكان وهي تفكر كثيرًا لتجد نفسها في النهاية قد غلبها الشوق فتصف السيارة وتهبط منها وتدخل المطعم، لا بأس بلقاء ركنة الأحباب ربما يتبادلا الحديث سويًا عن كل ما فاتها في الأيام السابقة فهي تفتقدها كثيرًا وتفتقد نفسها بتلك الركنة، كان كل شيء في مكانه لم يتغير حتى جاءها بهاء ورحب بقدومها واصطحبها إلى الركنة المفضلة في المطعم بترحاب وهو يقول

_ أهلًا وسهلًا، يادكتورة شرفتينا وفرحتينا أوي إنهارده بقالنا كتير مش بنشوفك ولا حتى بنشوف مصطفى اختفيتوا فين كده؟

_ هو الحقيقة أنا أتجوزت وسافرت دبي من سنتين، ومعرفش عن مصطفى حاجة إحنا انفصلنا.

قالتها ببعض الأسف، فارتبك بهاء قليلًا ثم حاول أن يتخطى الموقف ويعفيها من الحرج فهو يجهل ما وصلت إليه علاقتهما معًا... وقال بحماس

_ بس حقيقي نورتي المكان... حضرتك هتطلبي وجبتك المفضلة ولا عايزة تغيري، إحنا ضيفنا أكلات كتير جديدة لو حابة تشوفيها وكلها هتعجبك بإذن الله.

_ لا ياريت تجبلي أكلتي المفضلة أنا واحشني جدًّا الحمام وورق العنب هنا مش متخيل أد إيه مشتاقلهم.

_ من عنيا و" الديسيرت" علينا إنهارده كادو لحضرتك.

_ ميرسي يا بهاء، استعجلي بقى الأوردر علشان ريحة الأكل هتجنني وياريت تعلي صوت أم كلثوم شوية أصلي واحشني الجو ده أوي.

_ من عنيا حاضر.

قالها وذهب وتركها تجلس وتستحضر كل ذكرياتهما سويًا على نفس تلك المائدة التي شهدت على لقاءات كثيرة بينهما، كل شيء كما تركته لم يتغير... الديكور والعاملين حتى صوت أم كلثوم العذب، كان المكان لا ينقصه سوى وجود الحبيب لا أكثر، رن هاتفها فوجدت رانيا من تتصل بها فأجابت:

_ أيوه يابنتي.

_ إنتي فين، خالتو قالتلي إنك خرجتي من الصبح؟

_ أنا في مطعم هاكل بره، ماتيجي تتغدي معايا لو حابة؟

_ طب ابعتيلي اللوكيشن وأنا جيالك بس أوعي تاكلي من غيري.

_ هحاول بس ماتتأخريش.

_ أوك.

أغلقت الهاتف ثم أرسلت لها العنوان وأخبرت بعدها بهاء بأنها ستنتظر قليلًا لقدوم شخص آخر في انتظاره، فلم يعترض على الإطلاق وأوكل أمر طلباتها لأحد العاملين وهو يستأذنها بضرورة المغادرة لأن لديه أمر طارىء في الفرع الآخر، فهنأته عليه وطلبت منه العنوان لتزوره يومًا ما فأعطاها العنوان بترحاب وقسيمة خصم بمناسبة الافتتاح ثم ودعها وغادر.

***

حضرت بعدها رانيا وابنتها نيلي فاستقبلتها إيناس بعد أن أشارت لها من مقعدها ثم ذهبت وحملت منها نيلي، جلست على الطاولة وأمامها رانيا التي كانت تتأمل المكان في تعجب وهي تسأل:

_ إنتي عرفتي المكان ده إزاي؟؟ ده أنا لفيت كتير لحد ما وصلت للعنوان

_عرفته من إعلانات الفيسبوك وناس كتير كانت بتشكر فيه، والتقييم بتاعه كان عالي فحبيت أجربه وبالمرة أروح مكان مختلف.

طمرت إيناس حقيقة أن أسعد ذكرياتها كانت هنا بصحبة مصطفى، بل هنا تحديدًا كانت ركنتهما المفضلة التي تجمعهما سويًا، تجولت رانيا بنظرها في

أرجائه ثم قالت:

_ هو فعلًا شكله حلو أوي، ها هتأكلينا إيه؟

_ بصي انا هطلب حمام وورق عنب، سمعت إنهم بيعملوه حلو أوي هنا لو حابة تجربي؟

_ حمام؟! من إمتى بتاكلي حمام؟

_ أهو تغيير؟

_ طيب هاكل زيك رغم إنك بتحرضيني على إني أبوظ الدايت بتاعي، هتشيلي ذنبي وإنتي شايفة جسمي باظ إزاي بعد الحمل والولادة.

_ اعتبريه اليوم الفري يا ستي وبكره إرجعي تاني ولا أقولك من بليل أفضل.

_ لا بليل إيه بس، بكره بكره يلا إطلبي الأكل بسرعة أنا هموت من الجوع بس عايزة سلطات علشان الدايت.

_ ملتزمة أوي الصراحة. قالتها إيناس بسخرية

فضحكتا سويًا ثم أشارت إيناس لذلك الشاب الذي أوصاه بهاء أن يتابع طلباتها وأخبرته بالطلب فذهب على الفور لتجهيزه.

****

وضعت دعاء كمادات أخرى على جسد ابنها سليم في مواضع مختلفة والقلق ظاهر على وجهها، فمنذ الأمس لم يغمض لها جفن ولا تدري ماذا أصابه، حمى أشعلت جسده منذ الليلة الماضية ولا تهدأ، قضت ليلتها بأكملها في وضع كمادات وتغيير حفاضات محاولة أن تهدأ نوبة صراخه التي لا تنتهي، كان مصطفى قلق عليه أيضًا يدور حولها وهو يحاول مساعدتها رغم ارتباكه وقلة خبرته، ظل يسأل ببلاهة كل دقيقة عما يجعله يبكي أو درجة حرارة الإنسان الطبيعي بعد أن طارت من رأسه كل معلوماته وخبراته السابقة، في النهاية قررت دعاء أن تذهب للطبيب. جهزت حقيبة الطفل وأخبرت مصطفى أن يجهز ليصطحبها لطبيب الأطفال، وعلى الفور غير ملابسه، وصعدوا بداخل السيارة في خلال بضع دقائق وقبل أن يدير مصطفى محرك السيارة سأل دعاء بتعجب:

_ أنا مش فاهم ليه ماحجزتيش عند الدكتور بتاعه ومصرة على التاني ده؟
_ قولتلك التاني مسافر يا مصطفى، أنت نسيت ولا إيه ومش هيجي قبل أسبوعين وأنا سألت صاحبتي فقالتلي على الدكتور معتز هي بتودي بنتها عنده وقالتلي أنه شاطر، ماتقلقش أنت بس.
_ طب عارفة العنوان؟
_ آه في شارع مطعم آرابيسك فاكره، بعده بعمارتين كده.
هز رأسه إيجابًا دون أن ينظر في عينها بعد أن استرجع في رأسه جميع ذكريات هذا المكان.
وصل بالسيارة أمام العيادة التي أشارت نحوها دعاء وتوقف أمامها ثم ترجلا وابنهما سليم ذو الأربعة أشهر لايزال يصرخ لم يهدأ أبدًا، صعد بها البناية للدور الثاني، ثم سبقها للداخل وهو يتوجه نحو فتاة الاستقبال ويسأل:
_ عايز أحجز كشف باسم سليم مصطفى محمد لو سمحتي؟
ناولته استمارة بيانات تخص الرضيع ليسجل بياناته وكل ما يخصه بينما دعاء تهدهد ابنها الذي أوشك على النعاس، ملأها مصطفى بمساعدة دعاء في بعض التفاصيل وأعطاها لموظفة الاستقبال لتسجل بيانات الطفل فقالت لهما برسمية:
_أتفضلوا حضراتكم أقعدوا لحد ما يجي دوركم، رقمكم عشرين.
فسألت دعاء:
_ هو اللي جوه رقم كام؟
_ تلاته.
_ إحنا قدامنا كتير أوي يامصطفى، قالتها دعاء بضيق
تحبي تمشي ونشوف دكتور تاني... قالها مصطفى ببعض القلق _
_ لا خلاص مافيش وقت ألف على دكتور تاني هستنى وخلاص والحمدلله هو نام أهو.
طب تعالي نقعد. _

استدارا ليجدا المكان من حولهم مكتظ بالآباء والأمهات وهم يحملون أبنائهم، ولم يجد أمامه سوى مقعد واحد شاغر فأجلس عليه دعاء ووقف بجوارها فقالت له دعاء:

_روح يا مصطفى الكافيه أفضل أقعد شوية، شكلنا هنستنى وقت طويل.

_ طب تحبي تيجي معايا نستنى هناك؟

_ لا بلاش خليني أنا هنا علشان لو جه دورنا في أي وقت وماتقلقش أول ما يدخلوا اللي قبلي هكلمك على طول علشان تلحق وتبقى معايا.

_ تمام، عمومًا لو احتاجتي أي حاجة كلميني أنا بس هروح أشرب فنجان قهوة علشان عندي صداع هيموتني وهجيلك بعدها على طول.

_أوك.

غادر مصطفى العيادة وهو يقدم خطوة ويؤخر أخرى رغم اشتياقه المتقد في صدره للمكان ولركنته الخاصة التي هجرها منذ أكثر من عامين ونصف إلا أنه يخشى مواجهة ذكرياته معها هناك، كل تفاصيلها السعيدة المحفورة في ذاكرته، ظل يفكر بها إلى أن وصل أمام " آرابيسك "..... وقف مطولًا يتأمل مدخله في تردد.

في تلك الأثناء كانت إيناس ورانيا قد أكلتا وجبتهما والتي تناولتها رانيا بنهم وهي تسرد أشعارًا في مذاق الأكل، وتخبر إيناس بأنها لن تكون زيارتها الأخيرة بل ستأتي كثيرًا لتثأر من رجيمها في يوم الراحة، وبعد تناول الطعام قررت إيناس أن تتناول الحلوى في الطابق الثاني حيث ركنتهما المعتادة مع مصطفى، فصعدت هي ورانيا التي تركتها تطلب الطلبات وذهبت للمرحاض وقد تركت معها نيلي التي ظلت إيناس تلاعبها بدميتها التي تصطحبها معها في كل مكان، كانت إيناس تصعد بحذر وهي تخشى مقابلة طيفه في تلك الركنة... وهو يجلس بمفرده أمام حاسوبه أو بصحبة دعاء، ماذا لو كان بالفعل بصحبة دعاء يجلسان في نفس المكان الشاهد على الكثير من الذكريات والأحاديث والضحكات بينهما، هل يحتضنها بعينه كما كان معها، هل يمسك بيدها ويقبلها الآن؟؟؟

صعدت بحذر وهي تراجع قرارها في الثانية مليون مرة بينما صديقها يسحبها من يدها الأخرى لأسفل لتتراجع إلى أن وجدت نفسها بالفعل في الطابق الثاني وقبل أن تقع عينيها على الركنة وجدت عزت أمامها وهو يبتسم ويقول بدهشة:

_دكتورة إيناس؟! يااااه أخبار حضرتك إيه؟؟ بقالنا كتير أوي مش بنشوفك.

ابتسمت له إيناس بود واشتياق وهي تقول:

_ إزيك يا عزت واحشني أوي، فعلًا بقالي يجي سنتين ونص ويمكن أكتر كمان ما جيتش هنا، ثم تذكرت رانيا وحمدت ربها أنها لم تشاهد ترحيبه حينها كانت ستعلم أن إيناس تكذب عليها وهي بالفعل من رواد هذا المكان.

سألها عزت بدهشة:

_ بنت حضرتك مش كده؟

نظرت إيناس لنيلي وقالت.... لا دي بنت واحدة صاحبتي... آه صحيح أوعى توضح أنك تعرفني قدامها هي في التواليت وجاية دلوقتي أوك.

تعجب من طلبها ولكنه لم يعقب وقال باستسلام:

_ حاضر.... آه صحيح للأسف الترابيزة بتاعتكوا مشغولة، لو أعرف إني حضرتك جاية كنت حجزتهالكم والله....

_ مش مشكلة يا عزت هقعد على اللي هناك دي وخلاص.. وهاتلنا تلاتة تشيز كيك واتنين نسكافيه وواحد عصير مانجو لو سمحت.

_ من عنيا حاضر.... أي أوامر تاني؟

_ تسلم يا عزت شكرًا.

أكملت إيناس طريقها إلى المنضدة التي اختارتها وعيناها لم تفارق تلك الركنة، ترى نفسها معه رأسها مستكينة على كتفه، يتحدثان ويضحكان، نظرت إلى التلفاز لتجده لايزال في مكانه كل شيء كما تركته، إلا ركنتهما شغلها حبيبان آخران، تمنت أن لا يكون حظهما كحظها هي ومصطفى، استرجعت فيلمها المفضل على التلفاز وتذكرت حين كانت تقص عليه قصته قبل أن يتشاركا

مشاهدته فيما بعد، أي رياح عصفت بقلبها المترنح وسط ذكرياته، أخرجت هاتفها ووضعت السماعة في أذنها وهي تستمع لأغنيتها المفضلة وتستعيد معها كل اللحظات السعيدة... وبينما هي منسجمة في عالمها استشعرت رائحته في كل مكان حولها وكأن السنون لم تفرقهما لحظة ولم تستطع أن تمحي تفصيلة واحدة عنه من ذاكرتها فحبست تفاصيله بداخلها لترهقها بسادية سرمدية.

***

في تلك الأثناء كان مصطفى قد مر بالمطعم ولم يلاحظ وجود بهاء فقرر أن يصعد إلى الطابق الثاني ليحتسي قهوته قبل أن يلحق بدعاء وسليم في عيادة طبيب الأطفال وأثناء صعوده وجد أمامه عزت فقال بترحاب:

_إزيك يا زيزو عاش من شافك ياراجل.

_ أهلا يا دكتور واحشنا والله، لا ده إنهارده بقى يوم سعدنا والله.

_ تصدق أنت واحشني أكتر من بهاء، هو فين صحيح مش موجود في المطعم تحت؟

_ راح الفرع التاني، ما إحنا عقبال عندك عملنا فرع جديد لازم تزورنا بقى هناك يا دكتور....

_ ألف مبروك يا زيزو ابعتلي العنوان وأنا إن شاء الله هجيلكوا هناك ياعم بس أول مرة هتبقى العزومة على حسابكوا......

_ حضرتك تشرفنا يا دكتور مصطفى وطبعًا على حسابنا أكيد أنت تؤمر.... بس مش كنتوا تبلغونا إنكوا جايين ده الترابيزة عليها زباين إنهارده.....

_ والله هي جت فجأة كده يا عزت ويا سيدي مش مشكلة الترابيزة، هشوف غيرها.

_والله أنا سعيد جدًّا إن إنتوا نورتونا إنهارده.

لم ينتبه مصطفى لتكرار الجمع في كلماته بسبب ألم رأسه وقلقه على ابنه فقال دون تعقيب على ترحابه بتعجل:

_ حبيبي يا زيزو، ياريت بقى تجبلي فنجان قهوة مظبوط من إيديك الحلوة

دي علشان دماغي هتتفرتك من الصداع.

_ من عنيا حاضر، مش عايز حاجة تانية معاه؟

_تسلم يازيزو بس في الانجاز ورايا ميعاد ها.

_حاضر يادكتور...

أكمل مصطفى طريقه وقدمه تقوده نحو ركنته التي اشتاق لها، رغم أنه يعلم أنها لم تعد مكانه الآن فقد أصبحت ملك آخرين بعد غيابه، وصل لمنتصف الطريق كالتائه ثم استدار يبحث عن بديل دون أن يلمح إيناس وأثناء طريقه إلى المنضدة الأخرى زادت رائحته في المكان لتجد إيناس مصطفى يمر من أمامها، شعر مصطفى أنه لمح أحدًا يشبهها، يبدو بأن ذاكرته لازالت تلاعب عواطفه وحنينه إليها، ولكن حين سمع اسمه بصوتها تأكد أنه ظن بها السوء لم تكن تلك ألعاب عقله وإنما حقيقة، نادت إيناس اسمه بصوت خفيف خفيض يرتجف رغم تحذير صديقها الذي حاول أن يوقفها قابضًا على معصمها حتى لا تنهض خلفه، التف مصطفى ليجدها تجلس هناك على تلك المائدة، لم ينتبه للفتاة الصغيرة التي معها فقط نظر لها طويلًا في دهشة، القلوب تعانقت رغمًا عنهما وجسدهما باتا ثقيلان، رفضت قدمه أوامره بأن تعاند جاذبيتها الحقيقية وأبت الهروب بينما هي شعرت بأن الأثقال المكبلة في قدميها زادت أطنانا وتلك كانت حيلة صديقها ليمنعها من أن تركض نحوه، أراد مصطفى الهروب ولكنه يشتاق لها أيضًا، تمالك نفسه وذهب بخطوات بطيئة نحوها وهي مازالت ساكنة في مكانها تنظر له بلهفة لم تستطع أن تخفيها وهي تقول:

_ إزيك يا مصطفى؟

_الحمدلله، إنتي أخبارك إيه؟. ....

قالها بفتور على عكس بركانه الداخلي الذي انفجر للتو

_ الحمدلله... أنت لسه بتيجي هنا؟

_ يعني... أحيانًا..... لا.... أقصد يعني بقالي فترة ماجيتش، بنتك دي؟

سألها وهو يحاول أن يخفي تعابير وجهه المؤلمة بابتسامة مرتبكة

_ لا لا دي مش بنتي، دي بنت رانيا.

أجابته باستنكار كأنها تنفي تهمة خيانته، لتتذكر أنها بالفعل خانته.. نعم فعلت، فهي الآن زوجة تسكن بين أذرع شهاب وليس مصطفى

_ آه، أمورة ماشاء الله... أنا بقى خلفت وجبت سليم.....

وقعت على رأسها كلوح ثلج في يناير، قالها مصطفى ببعض التشفي وهو يواري دمعته بعيدًا حتى لا تظهر حقيقة ما يشعر به الآن

_ سليم ده......

وفجأة ظهرت رانيا من العدم وهي تسأل بدهشة:

_ مش معقول.... مصطفى!!

من الجيد أن تملك الكثير من الأقنعة لتخرجها أينما ووقتما تريد، هكذا تعجبت إيناس من دهشة رانيا وسعادتها بلقاء مصطفى

مد يده يصافحها وهو يقول:

آه بالظبط، صدفة سعيدة جدًّا إني قابلتكم... أنا هستأذن بقى. _

_ طب ماتقعد تشرب حاجة معانا.... آه صحيح ألف مبروك على المعمل معلش جت متأخرة الفيسبوك مش بيخفي حاجة دلوقتي... قالتها رانيا ببعض الود المصطنع

_ ميرسي... الله يبارك فيكي، ثم نظر لساعة يده لتجد إيناس هديتها لازالت في معصمه ثم قال معتذرًا وقد غفل هو أن يداريها..... للأسف مش هقدر علشان ورايا ميعاد مهم لازم ألحقه، فرصة سعيدة.

لمحت الساعة... رأتها تحتضن معصمه.. رأت هديتها التي أهدتها إليه في عيد ميلاده قبل أن ينشق البحر وتفصلهم يابسة جدباء... تلك الهدايا التي لم يستطع كلاهما أن يعيدها للآخر بل لم يرد وكأن روحه تعلقت بها.. وكأنها جزءًا من الحبيب لا يمكن التفريط بها.... ذكرى يمكن أن يحتفظ بها ولا يتركها، هكذا وجد هو ساعتها ووجدت هي هداياه وزهوره.

ثم غادر على الفور وهو يركض إلى الخارج بهرولة وفي طريقه لمح عزت فقال في عجالة:

_ هاتلي القهوة تحت يا عزت من فضلك......

رغم اشتياقه لها لا يدري لما حين رآها تذكر كل لحظات الخزي والألم التي مر بها أمام والديها، تذكر تلك الفجوة في صدره وباتت تدمي مرة أخرى بغزارة، عينه كادت تنطق وتعاتبها بشدة على ما فعلته في حقها وحقه ولكنه هرب أخيرًا قبل أن ينهار أمامها ويبوح بكل ما أخفاه تلك الشهور والأعوام.

يعلم أنه لو ترك لسانه ينزلق كان سيلومها بقوة حبه لها سيعاتب ويعاتب ويعاتب ويذرف الدموع إلى أن تغسل جرحه وتضمده، كان يريد أن يريح صدره ليشفى من علته ويعود كما كان لها حبيبها فقط لكنه في النهاية أدرك أنه بات لغيرها وباتت هي لغيره، ما عادت له وما عاد لها ولا جدوى للوم ولا العتاب، حتى أنه وقع بلسانه وأخبرها باسم ابنه سليم، ذلك الاسم الذي اختارته إيناس يومًا ما ليكون اسم ابنهما، كانت رغبتها في الأساس ليجد نفسه يحققها مع أخرى!

لا بأس لن يلوم نفسه على تلك الحادثة فسبق وفعلتها هي حين رقصت مع زوجها على أغنية قد اختارها مصطفى معها ليرقصا عليها سويًا في ليلة زفافهما.

كانت مفاجأة لقائها صادمة لم يتوقعها على الرغم من أنه عالقًا في صفحتها إلا أن منشوراتها باتت شحيحة، كما أنه لا يتذكر أنها نشرت عن حضورها لمصر شيء.... ليته لم يستمع لدعاء وذهب.

فقد ذهب بوجع في رأسه ليرجع بوجع في قلبه ورأسه ورجة في كيانه بأكمله وجرح قديم عاد ينزف من جديد.

عاد بعدها مصطفى لدعاء في العيادة وهو في حالة من الشرود والضيق البادران على وجهه دون أن تعرف السبب، طمأنهما الطبيب بأنها أعراض دور برد وسجل لهما الدواء ثم غادرا في صمت تام، تمنت أن تعرف سبب شروده لكنه رفض الحديث متعذرًا بوجع رأسه أمامها وانفطار بقلبه من خلفها.

(٢٨)

لم تتخطى إيناس ذلك اللقاء قط، ظل عالقًا في ذهنها طويلًا... رائحته، حديثه، طلته، نظرة عينه، ساعتها في يده، واسم ابنه الذي اختارته يومًا ما إيناس ليكون اسم ابنها منه، لم تستطع أن تنسى تلك التفاصيل أو تتغافل عنها ظلت حبيسة غرفتها تفكر وتفكر وهي تستمع لأغنيتها المفضلة ولكنها لا تلائم أحاسيسها المضطربة الآن فاختارت أخرى من قائمتها المفضلة وجلست محاصرة بعالمها تستمع ل

Adele

وموقظة كل الحقائق

I heard that you're settled down
That you found a girl and you're married now
I heard that your dreams came true
Guess she gave you things, I didn't give to you
Old friend, why are you so shy?
Ain't like you to hold back or hide from the light
I hate to turn up out of the blue, uninvited
But I couldn't stay away, I couldn't fight it
I had hoped you'd see my face
And that you'd be reminded that for me, it isn't over
Never mind, I'll find someone like you
I wish nothing but the best for you, too
"Don't forget me, " I beg I remember you said
"Sometimes it lasts in love, but sometimes it hurts instead"

هبطت دموعها بغزارة وهي تشاهده من بعيد، ترى نفسها وهي تدفع حبه بعيدًا عنها بحماقة وتركله كثري متعجرف يركل أحد المتسولين ليتخلص منه،

دفعته لأخرى تعتني به، وتعطيه ما يستحق، ذلك التقدير الذي حرم منه معها، هي من اختارت أمامها وتركته خلفها يعاني لماذا تشعر بندم الآن؟ لماذا نيرانها تشتعل كلما تذكرت أنه مع غيرها ؟!!!... من تستحقه بالفعل....

ولكنه يبدو أنه لايزال يحبها، رأت ذلك في عينه ولغة العيون لا تكذب أبدًا، هي الوحيدة التي ستفهم نظراته، لايزال يحبها بدليل عطره الذي لم يتغير لأعوام والذي اختارته له إيناس يومًا ما، وساعتها التي حول معصمه، وسليم! ذلك الاسم الذي تمنت أن تسميته لابنها منه، بالتأكيد يحبها، لم تعد تتحمل أكثر فمنذ أن افترقا والتعاسة تلازمها أينما ذهبت... حاولت وحاولت أن تساير حياتها مع آخر ولكنها لازالت تعيسة، لا أحد يعوض غيابه ولا أحد يشبهه.

، قالتها لتجيب على الأغنية نعم لم تجد مثله ولا أحد يملأ مكانه الخاوي في قلبها أو عالمها، لا أمل في وجود آخر مثله.

***

خرجت إيناس مندفعة وبرأسها قرار تصر على تنفيذه فوجدت والدتها تجلس في الصالون تحتسي قهوتها وهي تتصفح الفيسبوك، ظلت تدور حولها في توتر ثم نطقت أخيرًا وقالت:

_ أنا عايزة أطلق.

فزعت فريدة من جملتها فألقت الهاتف جوارها وهي تقول بصياح:

_ نعم! إنتي بتقولي إيه؟

_ بقول عايزة أطلق.

_ إنتي إتجننتي ولا إيه؟! طلاق إيه ده اللي طلع فجأة وليه أصلًا؟

نهرتها فريدة بقسوة أم تنهر وليدها الذي يقترب من ألسنة النار..... نعم فالطلاق بالنسبة لها ما هو سوى نيران تشتعل وتستعر بألسنة وأفواه جميع من في العائلة، ومن بين الألسنة الحمراء ترى وجوه كثيرة تبتسم بتشفي معلنة هزيمة فريدة وسقطة أخرى لها على يد ابنتها، الجميع يرغب في سقوطها ولو أظهروا العكس... بالطبع لن تقبل ولو احترقت هي بنيران العالم ستصمد ويجب

أن تصمد أيضًا إيناس فلن تدع ابنتها تقدمها كفريسة سهلة بين فكي الهزيمة ...

_ أنا تعبت مش قادرة أكمل مع شهاب.

_ فجأة كده وبدون سبب تعبتي ومش قادرة تكملي؟!

_ مش مبسوطة معاه حاسة إني تعيسة ومخنوقة، إحنا حتى بنشوف بعض قليل جدًّا انا طول الوقت لوحدي، هو في عالم وأنا في عالم تاني...

_ إنتي ما حملتيش ليه لحد دلوقتي ها؟

_ تاني يا ماما؟

_ تاني وتالت وعاشر.... أنتوا مأجلين من ورايا ولا هو مش عايز ولا إيه.... أنا هكلمه أسأله..

وهنا رن جرس الباب وفتحت الخادمة لتجدها رانيا، دخلت رانيا بعجالة تتفقد خالتها التي تصيح بالداخل في غضب وما أن رأتها فريدة حتى استنجدت بها:

_ تعالي يا رانيا ألحقيني.... إيناس بتقولي عايزة تتطلق!

_ ليه يا بنتي إيه اللي حصل أنتوا اتخانقتوا ولا إيه؟

_ هو ليه محدش حاسس بيا بقول إني مش مبسوطة معاه وتعيسة... قالتها إيناس بصوت متهدج

_ ماهو حضرتك رافضة تشتغلي في مجالك وقررتي تقعدي في البيت رغم كل الفرص اللي وفرنهالك، وكمان كل ما أكلمك في الخلفة تتهربي مش فاهمة ليه.

_ فعلًا يا إيناس إنتي حاسة بملل لإنك لوحدك طول الوقت لو خلفتوا هتتشغلي ومش هتبقي فاضية خالص، هو مش عايز دلوقتي ولا إيه؟

أخفت عيناها عنهم حتى لا يلمحوا كذبتها فهي من تؤجل وليس هو، ولكنه أيضًا لم يطلب قط طوال العامين، بل لم يحادثها في الإنجاب أبدًا كعقيم يعرف حقيقة عقمه....

_ معرفش هو ماطلبش حاجة زي دي.

_ ليه هي الحاجات دي محتاجة طلب، هو أنا لما خلفتك إنتي وأخوكي استنيت زاهر يطلب... ,من بكره تروحي تكشفي وأنا هاجي معاكي وكمان هكلملك شهاب وأشوف الموضوع ده معاه، لازم يهتم شوية بالموضوع ده.

_ يا جماعة بقولكم مش مبسوطة، ليه أخلف من واحد مش عايزة أكمل معاه ومش بحبه؟!

_ إوعي تكون الأفكار دي جتلك بسبب اللي حصل في الكافيه؟

شعرت إيناس بغصة لمجرد ذكره، فسألت والدتها بفضول وغضب:

_هو إيه اللي حصل في الكافيه انطقوا؟

نظرت لهما رانيا في تردد تخشى البوح وإشعال نيران خالتها وتخشى الكتمان أيضًا وتخريب حياة إيناس بتلك الهلاوس التي تدور بعقلها وفي النهاية قالت:

_ أصلي إحنا كنا في كافيه وقابلنا مصطفى خطيب إيناس الأولاني صدفة.

تقوس ظهرها فجأة في تحفز كنمر سيبيري يتأهب لينقض على فريسته وصرخت:

_ اللي بتقوله رانيا ده صحيح؟ انطقي.....

_ لا طبعا.... أنا بس مش حاسة إني مبسوطة في حياتي مع شهاب وده مالوش علاقة بمصطفى... الموضوع ده انتهى خلاص..

" كاذبة مخادعة " هكذا همس صديقها الخفي إليها في تلك اللحظة ثم توارى خلف والدتها ليكمل مراقبته في صمت

تعلم أنها كاذبة بل وجبانة ترضخ وترضخ... تذعن وتذعن... تستسلم وتستسلم دون محاولة واحدة للقتال، فقالت والدتها بغضب وصيحاتها تدب في الأرجاء:

_ وإنتي فاكرة إنك هتبقي مبسوطة مع الدليفري بتاعك ده؟! شيلي القرف ده من دماغك وأحمدي ربنا إني شهاب وافق عليكي.... هو في حد كان راضي بيكي؟! مش كفاية اللي حصل من تحت راس الولد ده، أنا مش هسمحلك تخربي كل اللي عملته، عايزة ترجعي لفشلك تاني؟! الخلفة هي الحل... هي اللي نقصاكي

وهي اللي هتشغلك، حياتك كلها هتتغير بعدها ومش هتلاقي وقت تفكري في الهبل اللي في دماغك ده ولو عايزة إني أكلم أنا شهاب أكلمه، المهم اللي حصل إنهارده ده مايتكررش تاني ولا أسمعه مرة كمان، أنا مش عايزة فضايح في العيلة تاني كفاية فضايحك زمان اللي بحاول لحد دلوقتي أمحيها.

***

(٢٩)

جلست إيناس على كرسي الطائرة المتجهة إلى دبي، ثم طلبت من إحدى المضيفات ورقة وقلم وبدأت تدون رسالتها الثانية

"عزيزتي جولييت"

انتظرت ردك على رسالتي الأولى كثيرًا ولكنه لم يأتي، يبدو أن حالتي معقدة، ولكن صدقيني لن تكون أكثر تعقيدًا من مشاعري الآن، لقد قررت الرحيل والهروب مرة أخرى بعد أن قطعت إجازتي التي خططت أن أقضيها مع عائلتي، لم استطع التحمل، رؤيته في ذلك اليوم زادتني تخبط على الرغم من اشتياقي له، لم أعد أعلم حقيقة شعوري تجاهه ولا حتى حقيقة شعوره هو تجاهي، بدا في ذلك اليوم في صورة رائعة.. يبدو سعيدًا، لقد أصبح أبًا أيضًا، جانبه المشرق أشعرني بأنه لم يتأثر بفراقنا قط... وكأنني لم أكن في حياته يومًا، ولكن هناك جانب آخر ما إن لمحته حتى زاد الصورة قتامة، لازال يرتدي ساعتي، لازال يضع عطري المفضل ولازال ينظر لي نفس نظراته السابقة التي تأسرني إلا من نظرة اللوم التي اختلطت بها، ماعدت أدري على أي خط أسير ولا أي درب أسلك، لست سعيدة مع شهاب ولكن كما قالت لي رانيا، ربما لم أعطي لتلك العلاقة الفرصة لتنجح، ربما لأني لم أتقرب من شهاب وأحاول معه بناء حياة سعيدة، والدتي ووالدته رأتا الحل في الانجاب، كما أن مصطفى أنجب أيضًا سليم، أتدري حتى اسم ابنه سليم كان اختياري من قبل لاسم ابننا، تلميحاته متناقضة يا جولييت تثير جنوني، فقدت تقدير كل الأمور، ولكنه لم يعبر عن شيء بشكل صريح حتى لم يلقى عليا باللوم أو العتاب بشكل مباشر، ربما بالفعل تلك هلاوس اختلقتها لأفسد حياتي مع شهاب، ربما أنا أسأت الاختيار كما يقولوا أردت فقط أن أشعر بالحب وإني شخص مرغوب به لا أكثر هكذا قبلت به لأنه الخيار الوحيد، لم أعد أعلم ياجولييت، فكما تقول والدتي إني دومًا فاشلة أخفق دومًا ولا أستطيع أن أنجح بأي شيء هل سأفسد حياتي هذه أيضًا، يبدو أن عليّ أن

أتبع تعليماتهم تلك المرة كعادتي، يجب أن أصحح الأمور وأعمل بنصيحتهم وأن أعطي فرصة لتلك العلاقة ربما بالفعل ينقصني طفل سيجلب معه السعادة كلها لي ولشهاب، هو اختار في النهاية حياته ويبدو أنه سعيد بها وعلي أنا الأخرى أن أتذوق بعضًا من السعادة التي أفتقدتها، هذا ما ينقصني يا جولييت وهكذا ستكون حياتي مثالية..... أليس كذلك؟!

***

ثم طوت رسالتها الثانية ووضعتها مع الأولى بداخل الكتاب الذي لا يفارق حقيبة يدها قط منذ أن تزوجت، فأينما ذهبت يذهب معها، يتنقل فقط من حقيبة لآخرى حتى يتسنى لها قراءته متى أرادت دون أن تسأم منه أبدًا.

***

ذهبت إيناس من المطار لشقتها بعد أن أرسلت لشهاب رسالة تخبره بأنها تريده بشكل هام في المنزل، ألقت كل أقراص موانع الحمل التي كانت بحوزتها باستمرار وقررت أن تغير خططتها المقبلة وتنسى كل ما مرت به في تلك الزيارة، اجتمعا سويًا على مائدة الطعام ولم يبد شهاب أي انطباع عن عودتها سوى أنه قال بهدوء:

_ حمدلله على السلامة، رجعتي بسرعة يعني... شكلك ما انبسطيش؟

لم تستشعر براحة تجاه تلميحاته أبدًا، كان دومًا شخص لعوب يعشق المعاني المزدوجة في الكلمات التي تثير القلق فأجابته وهي تحاول أن تبدو هادئة:

_ بالعكس انبسطت أوي... هو شهر مش كفاية ولا أنت عايز تخلص مني؟

_ أبدًا، أخبار دكتور زاهر وفريدة هانم إيه؟

_ بخير الحمدلله ومامتك بتسلم عليك كتير وبعتالك معايا هدايا كتيرة، كان نفسها تشوفك جدًّا في الواقع بدل محادثات الفون دي.... صحيح أنت عامل إيه في شغلك؟

ابتسم نصف ابتسامة وهو يرفع حاجبيه باندهاش وقال:

_أول مرة تسأليني عن شغلي لوحدك، دايمًا الكلام في شغلي ومواضيع

العمليات والجراحة بيدايقك، بس واضح إني الإجازة دي غيرت حاجات كتير، عموما يا ستي الشغل تمام جدًّا ولولا توصيات الدكتور زاهر ماكنتش عارف هعمل إيه، آه صحيح عينوا دكتورة مساعدة ليا جديدة اسمها دارين أهلها من مصر بس هما عايشين هنا بقالهم كتير وهي درست طب في ألمانيا، دكتورة شاطرة ونشيطة وبتحب شغلها جدًا، أول مرة ألاقي حد بيشاركني شغفي في حب المجال ده مش مجرد دراسة وشغل بس لا عايزة تتعلم وتدرس أكتر.... بنت حقيقي جميلة ومتفوقة وكمان كا....

_ أنت ليه ماطلبتش أننا نخلف من ساعة ما أتجوزنا؟! قاطعته دون مبالاة بحديثه

_ نعم!!! قالها وهو ينظر لها في ذهول

_ اللي سمعته.....

_ ودي صفقة بردو من صفقات فريدة هانم ولا إيه؟

قالها بتعجرف أثار حنقها فأجابته بنفاد صبر

_ مش ماما بس اللي عايزة، دي رغبة مامتك بردو اللي كلمتني عنها كتير أوي في إجازتي وحتى قبل ما أسافر.

_ مش فاهم يعني عايزة إيه؟ قالها وهو يغرز شوكته في قطعة اللحم أمامه

_عايزة أعرف ليه ماطلبتش ده قبل كده؟

_ علشان مشغول وطول الوقت في الشغل، وبعدين ده اختصاصك مش اختصاصي.

قالها ببعض الحدة في صوته وظهر على وجهه الانزعاج، فسألته إيناس بغيظ

_ يعني أنت مش فارق معاك ولا مش عايز تبقى أب؟

ألقى الشوكة من يده ونظر لها شزرًا وهو يحاول أن يتمالك نفسه وقال

_ أنتي عايزة إيه دلوقتي؟

_ أنا قررت أخلف وناوية أروح للدكتور.

_ براحتك..... ..

ثم نهض من مقعده وتركها دون اكتراث دون انطباع دون اهتمام وكأنه مومياء محنطة على وضع اللامبالاة لا يبدي على وجهه أي شيء...

***

وبالفعل حاولت إيناس تنفيذ خطتها منذ الشهر الأول لعودتها ولكنها للأسف بائت بالفشل، ولأنها شخص يخشى الفشل وتكرار المحاولة قررت أن تستعين بطبيبة أفضل تساعدها في تنفيذ خطتها.

ذهبت إلى طبيبة اختارتها بنفسها ولم تقبل باختيار زوجها الذي نصحها بأكثر من واحدة، خشيت أن يفتضح أمرها في تلك الحبوب التي كانت تبتلعها لمدة عامين من وراء ظهره هو وعائلتها وفضلت طبيبة لا يعرفها زوجها، وحين ذهبت لها أخبرتها بكل شيء منذ أن تزوجت وتلك الحبوب التي تناولتها، فنصحتها الطبيبة بالصبر وتكرار المحاولة دون أي تدخل طبي فجميع فحوصاتها سليمة ولكن إيناس أخبرتها بأهمية التعجيل بالأمر وفضلت أن تتناول تلك المنشطات التي قرأت عنها في منتديات الأمومة وكأنها هي السبيل لتجد سعادتها المفقودة بانجاب طفل كما أخبروها، فاستسلمت لها الطبيبة ودونت أسماء المنشطات كما طلبت منصاعة لرغبتها.

وبعد مرور شهرين وجدت إيناس أخيرًا شرطتين في اختبار حملها، لتبدأ مرحلة أخرى تنسى بها كل ما عانته من قبل.

فرح الجميع بخبر حملها ففرحت مثلهم محققة انجازًا ومطلبًا للجميع، كم أسعدها ذلك، ورغم كون الجميع قد فرح بهذا الخبر السعيد إلا أن شهاب استقبله بفرحة انجاز مهمة أخرى، وعقد صفقة جديدة تزيد من حب والدها له وبالتالي سينال من خلفها الكثير سيرقد تحت الشجرة الكبرى الآن ليستظل بأغصانها كما يريد وهي تسقط عليه أشهى ثمارها، لم تدرك إيناس أن حملها هذا سوف يفتح لها أبواب الاكتئاب على مصرعيها هكذا تكون الحياة فلا جائزة دون ثمن.... وكان الاكتئاب على رأس قائمتها المفضلة لتدفعه ثمن لجائزتها، فبعد أن كانت سعيدة بحملها تبدد هذا الإحساس فجأة وانقلب حالها أكثر مع كل يوم

جديد، عادت لانطوائها وحزنها وصمتها وما إن تذكرت شيء حزين في الماضي حتى انفجرت في البكاء وما أكثر ذكراها لمصطفى وأيامها معه، زادت مراقبتها له..... منعت نفسها كل يوم عن مهاتفته وهي على أعتاب الضغط على زر الاتصال، لامت نفسها كثيرًا في كل مرة أفصحت عن اشتياقها له..... جلدت نفسها كثيرًا حتى استسلمت لذكرياتها بانهزامية، حتي عادتها القديمة هجمت عليها بشراسة وهي تجذب شعيرات حاجبيها باستمرار حتي كادت جفونها تنخلع.

كادت أن تفقد عقلها في الشهور الأولى من الاكتئاب والغثيان، لم تعد ترى شهاب كثيرًا من كثرة نومها الذي أفقدها مواقيت اليوم، لم يهتم شهاب لحالتها النفسية مادامت أسبابها لا تخصه وأصبح يقضي معظم وقته في العمل وأبحاثه ودراساته، لم تشغله إيناس لطالما لم تطلب منه مساعدة ومكتفية بذاتها تذهب وتتابع بمفردها دون أن تطلب منه الحضور، وبالفعل كانت إيناس مكتفية بنفسها ولم ترد أن تطلب منه شيئًا فتلك الأشياء لا تطلب بل تفعلها بغريزتك وحسب ولكن يبدو أن غريزته الوحيدة تعمل لطموحه لا أكثر فقررت أن تكتفي بسعادتها بما حققته وإتمام الأمر بمفردها فقد قام هو بدوره بالفعل ليساعدها في نيل سعادتها.

أما باقي الأمور فهي من اختصاصها كما قال لها من قبل، ولكن ما كان يقلقها أنها لاحظت اهتمامه الزائد مؤخرًا بمساعدته الجديدة دارين، بات يتحدث عنها كثيرًا كلما سنحت فرصة للتحدث عن العمل، أما هاتفه فلا يهدأ من رسائلها الكتابية والصوتية قط، ذكر كثيرًا طموحها الذي يشبه طموحه، ذكر أفكارهما المتقاربة وانسجامهما سويًا في العمل، وكأنه يبرز كل عيوب إيناس في مميزاتها بمكره المعهود.

رأتها إيناس كثيرًا في صور شهاب في المستشفى بالمعطف الأبيض، دومًا تقف بجواره وقفة بثقة في نفسها، ظهر مستقيم كحد السيف ورأس عالية، شعرها أسود طويل وبشرتها بيضاء، ترتدي تنورة قصيرة فوق الركبة دائمًا وحذاء بكعب عالي وتضع نظارة فوق أنفها المستقيم كظهرها تتوارى خلفها العدسات الرمادية

وهي تكسو عيون حرباء، كانت تمتلك كل شيء لا تمتلكه إيناس من حيث الثقة في النفس والطلة الملفتة والشغف والطموح دون حدود ودون سقف، فتاة يمكن أن توقف القلوب في غرف الجراحة للمرضى والأطباء معًا.... في الصباح طبيبة وفي الليل تصلح لعاهرة محترفة تسحبك خلفها كالماشية دون أدنى مقاومة، فتاة مجرد تخيل مجابهتها تبوء بالفشل الذريع، وأنت تراها تلتف بلسانها الذي يشبه الأفعى حول عنقك وتبتلعك كالفريسة السهلة، ولكن لن تهتم إيناس بأمرها كثيرًا بل لم تحركها من موقعها كمساعدة لزوجها لا أكثر، ربما لأنها لم تشعر قط بالغيرة تجاه زوجها، ربما لأنها لم تشعر به من الأساس، هو فقط نتاج رغبتها في إرضاء عائلتها لا أكثر، نتاج بحثها عن سعادتها وبدء حياة جديدة، نتاج تخطي الفشل والبحث عن الكمال لا أكثر هكذا كان شهاب بالنسبة لها وهو أيضًا لم يخرج بأفعاله من تلك المنطقة قط فهو قتيل طموحه ولو كلفه روحه.

في الحقيقة لم يهمها أمره كثيرًا وخاصة بعد حملها الذي أبعدها عن الجميع وزاد من وزنها فوق العشرون كيلو جرامًا وجعلها تعود لبخاختها بشكل مستمر متفادية صعوبة التنفس حتى لا تؤثر على جنينها، ورغم كل ذلك كانت متلهفة لشخص واحد فقط، هو من ترغب في رؤيته كثيرًا لا غيره، فهذا سببها الوحيد لتتمسك بتلك الحياة الآن باحثة من خلاله عن تعويض لما مرت به، نعم... هو صبي وقررت أن تسميه سليم أيضًا كما أرادت من قبل، سيصبح هو مصدر أمانها وسعادتها..... معه ستنسى العالم بما فيه، هو تذكرتها الوحيدة لتعبر الضفة الأخرى هناك حيث ستنال بعض الراحة والفخر أمام عائلتها لما وصلت إليه وحققته، ستذكره لمصطفى كما ذكر ابنه أمامها بتلك الابتسامة حين تراه مرة أخرى بكل فخر، ولكن هل ستجمعهما صدفة أخرى يومًا ما؟!

ليت..... ..

تخطت إيناس أسبوعها الثاني والعشرون... وبات حملها أثقل فقد شارفت أن تكمل ثلثي حملها قريبًا، كثرت ركلاته وزاد ثقل وزنها أكثر وأكثر بسبب نهمها للأكل في تلك الشهور على عكس ثلثها الأول.

جلست إيناس على مائدة الطعام بجوار شهاب يتناولان غدائهما سويًا بعد أن عاد شهاب مبكرًا من عمله على غير عادته، جلس يأكل في سكون بجوارها ولكن هاتفه لم يكف عن الاهتزاز وكأنه زلزال لا يسكن أبدًا، ذبذباته المتتابعة أثارت ضجرها بينما هو لا يلقي بالًا بل على وجهه ابتسامة تعرفها جيدًا، يبدو أن رسائله جميعها سعيدة خاصة وهو يحملق بها فترات طويلة فسألته إيناس في فضول:

_ مين بيبعتلك كل الرسايل دي؟

_ الشغل.

قالها باقتضاب دون أن ينظر لها وكأنه يحشر لسانها المفرود بداخل كهفها الأجوف، ويعطيها جرعة مكثفة من الخرس الزوجي.

انهت إيناس أطباقها وجمعتهم ونهضت وهو لازال يحملق في هاتفه، فتمر من خلفه متجهة إلى المطبخ دون أن تنظر نحوه ولكن المرآة التي خلفه أبت تجاهلها وأرادت أن توضح لها أمر تلك الرسائل المضحكة التي تأتيه من الشغل!!!!!!!!!!!!!!!!!!! لتجد أمامها صورة لدارين وهي ترتدي!!!! في الواقع لم تكن ترتدي؟!، تذبذب عالمها فجأة وهي تقف خلفه وتنظر في المرآة، لولا المرآة ما رأت الحقيقة التي تسعده بهذا الشكل، بالفعل كما قال لها الشغل..... هل هذا هو الطموح الذي لطالما ذكره عنها؟!!!!

لا ربما العهر شغفها وليست الجراحة.

أكملت طريقها للمطبخ وهي تحاول التماسك وعدم إظهار شيء أمامه، الصدمة أشعرتها بارتباك أوقف كامل حواسها، وبالكاد أصدر عقلها إشارات لقدمها بالتحرك نحو المطبخ، حاولت هناك أن تتمالك أعصابها.... شربت كوب من الماء بعد أن ألقت الأطباق المتسخة كعالمها من يدها ثم أخرجت من جيبها البخاخ وبصقت منه في فمها كما بصقت المرآة الحقائق في وجهها وهي تبتسم بخبث لتضعها في اختبار من العيار الثقيل أمام نفسها؟ تريد أن ترى تصرفها حكيمًا كان أم متهور.....

جلست في غرفتها بعد أن غادر لوجهةٌ يخفيها وباتت تعرفها، فقبعت في غرفتها وقد أغلقت على نفسها الباب وجلست على فراشها في حالة من الهذيان، تركت دموع صدمتها تهبط غاضبة ثائرة على كرامتها التي هدرت، عادت أصابعها مرة أخرى تزحف نحو حاجبيها كأنهم يعرفون وجهتهم مخرجة بهما غيظها المكتوم، نعم.... هي غاضبة وحانقة وكارهة لما رأته كيف تجرأ على هذا الفعل، كيف طعن كرامتها وخانها، تعلم أن العلاقة بينهما ليست جيدة، ليست كالمحبين والمتفاهمين لا طالت زواج صالونات ولا زواج عن حب بل كانت معلقة بينهما في إطار منفرد مدون أعلاه زواج مصلحة " صفقة البائسة " كما تطلق عليها فريدة هانم، ولكن رغم ذلك كانت مخلصة له..... ضميرها يجلدها في كل مرة تفكر في مصطفى وهي في عصمته، أين حق ابنه الذي تحمله في رحمها، وأين حق جميل والدها الذي لازال غارقًا في نعمه، هل نسي كل هذا أم شبع منه، بالتأكيد لن تسكت على هذه الخيانة فهي الأن لا طالت روحها التائهة خلف حبيبها، ولا كرامتها التي بددها زوجها، ولا حتى خرجت من الفشل الغارقة به أمام عائلتها وأذاقتهم شراب الفخر بدلًا من الخزي الذي لطالما ابتلعوه جراء أفعالها كما تخبرها فريدة دومًا.

هكذا وجدت حظها من السعادة حظ البغل في التناسل..... ... .

ولكن عندما يتعلق الأمر بالخيانة فلا مجال للصمت أبدًا لابد أن تنطق لتجد نفسها لأول مرة ترى زوجها كالضرس الفاسد الذي لا يمكن إصلاحه ومعالجته أو حتى ترميمه فلابد من اقتلاعه بجذوره حتى لو كانت آلامه مبرحة فلن تكون أسوأ مما تشعر به الآن.

ففي هذه الدنيا نوعان من البشر... بشر نحبهم وبشر يدفعونا على أن نمد يد العون للوحل لكي يبتلعهم وربما بعدها نمرر له كوب من الماء لتنزلق تلك الغصة العالقة ببلعومه حتى لا يموت مختنقًا بعظامهم الصلبة.... وقد كانا شهاب وعشيقته من نوع الغصة.

.... وهنا خرج الخوف من مخبأه ليفاجئها بعباءته السوداء يسير بتؤدة

وفي رزانة تعجبت منها إيناس ثم جلس بجوارها وأردف بتمهل وحكمة:

_ هتعملي إيه في المشكلة دي؟

_ مش هسكت طبعًا، هكلم أهلي وأقولهم كل حاجة، لازم يعرفوا حقيقة شهاب؟

قالتها باستنكار صارخة في وجهه، في تلك الأثناء ركلها ابنها ركلة لم تلتفت لها، فقال الخوف بنفس الهدوء:

_ تفتكري هيصدقوكي؟ يعني مثلًا واحدة أول إجازة ليها حنت لخطيبها وفكرت في الطلاق بعدها، تفتكري رد فعلهم على خيانة شهاب إيه، هل هيصدقوكي؟! مش يمكن إنتي عاملة الحوار ده كله علشان تنفذي اللي في دماغك وتتطلقي؟

_ بس أنا شيلت الفكرة دي من دماغي وسمعت كلامهم وجريت ورا الخلفة لغاية ما بقيت حامل علشان أرضيهم وده إثبات إني مش عايزة أطلق ولا إيه؟

_هو إثبات اه.... بس يا ترى فريدة هانم هتسمح للموضوع ده ولا هتعترض وإنتي عارفة إنها مش بتستحمل تسمع شكوى واحدة منك عن شهاب ما بالك الطلاق بقى ثم أخرج عصاه السحرية وبدأ يرسم في الهواء وهي تنظر له في دهشة، رسمها وهي تشكو ورسم والدتها وهي تنفي شكواها بعدم تصديق أو ربما ستتهمها بأنها السبب الرئيسي لذلك فهي من أهملت في حقه، لن يخرج الزوج ويبحث عن الحب في الخارج وهو غارق فيه مع زوجته، إذًا فهى الملامة وهي التي فشلت في بناء أسرة سعيدة، ماذا لو وبخوه على فعلته قليلًا ثم أعادوها إليه لتذعن لأمره مرة أخرى، ظل يرسم لها سيناريوهات كثيرة جميعها بنهاية مؤسفة لا تنصفها واحدة، أما أن تخسر كرامتها وتتحدث وأما أن تكتم قهرتها وتصمت، وحفظًا لماء وجهها لابد أن تصمت، فإذا لم تقبل والدتها الطلاق وهي بدون أطفال ماذا ستفعل وابنتها حامل في طفلها في الشهر السادس، ربما تصنف تلك الحادثة مجرد نزوة لا أكثر ولا داعي بأن تزيد الموضوع سوءًا بذكره،

رأت نفسها مطأطأة الرأس وهي تعود لحضنه مرة أخرى، ولكن هل حينها سينظر لها كما كان ينظر من قبل؟، يبدو أن الحياة تريها اللون الأغمق من الأسود الذي تحبه، ولا جدوى من ذكر الحوار فهناك أمور ما إن خرجت عن نطاق صدرنا حتى باتت الفرقة واجبة وإلا فلن نستطيع النظر في مرآتنا مرة أخرى.

أنهى الخوف عروضه بعصاه السحرية وخفض ذراعه ثم قال:

_ أنا شايف إنك تشيلي الفكرة دي من دماغك أفضل وماتجبيش سيرة لحد، بدل ما ترجعي تندمي على اللي هيحصل وإنتي شوفتي إيه اللي هيحصل قدامك أهو، يعني كده كده مافيش مفر أقبلي برضاكي بدل ما تقبلي بردو غصب عنك وساعتها هتكرهي تبصي لنفسك في المرايا.....

ظلت ساكنة في مكانها تفكر في كلماته، الحيرة تزداد وتزداد كالجبال على كاهلها، لاتدري عواقب كشف الأمور ولكن باتت تعرف الآن جزءًا من ردود الأفعال التي ستحدث... بالتأكيد شهاب سيلين أمام والدها ووالدتها لكي يعود لها حتى لا يفقد امتيازاته وبالتالي ستعود هي الأخرى فلن تقبل والدتها بغير ذلك، همس لها الخوف ناصحًا بأن تشغل عقلها بأي شيء آخر حتى لا تتهور وتزداد نيرانها اشتعالًا، سحبت هاتفها وظلت تدور في صفحاتها من صفحة لأخرى، ولكن أنفاسها بالكاد تخرج وهي تحاول إرغام نفسها على تخطي ما رأته، لمحت أمامها إعلان مسابقة الأزياء التي تقام سنويًا وقد قررت أن تشترك بها قبل أن تفارق مصطفى بيوم، على رأس الإعلان دون " اليوم فتح باب التسجيل في المسابقة ولمدة ثلاثة أشهر كاملة "، رأت حلمها وشغفها المنسي يصرخ بصوت مكتوم يرجها صداه رجًا، هل تتذكريه؟ رأت زر التسجيل فضغطت عليه ودخلت.... ثم خرجت.... ثم دخلت..... ثم خرجت..... ثم دخلت..... ثم خرجت..... مشوشة فاقدة التركيز والرؤيا... صورة جسد عاهرته العاري تتلاعب بعقلها وأنفاسها مضطربة.... ثم دخلت.... ثم خرجت بسرعة وقد تذكرت أن ليس هناك مصطفى ليشجعها على تلك الخطوة، من سيختار معها التصاميم

التي ستشارك بها غيره، لا أحد يؤمن بها من الأساس فتلك الموهبة العبثية لا يجب أن تتعدى خيالها، نزعت الفكرة من عقلها كما نزعت حلمها القديم وألقته في الفضاء الشاسع البعيد..... يبدو أنها بالفعل كما يراها شهاب بلا طموح وليست مثل فتاته المتفانية في طموحها، خروجها من الصفحة كلفها بخة من بخاختها مرة أخرى بينما صدرها يزداد صريره، كانت متألمة بحق، كيف لها أن تنازع بمفردها حقيقة خيانته لها، كيف لها أيضًا أن تتقبل وتتعايش خشية على كرامتها... ماذا لو شعر بأنها تعلم خيانته وفضلت التقبل والصمت على أن تثأر لنفسها؟!!

أين مصطفى من كل هذا؟ تريد أن تركض إليه وتلقي نفسها بين ذراعيه وتخرج كل ما كتمته من قهر، تبكي وتبكي وتبكي وهي تبوح بكل شيء، نعم مصطفى هو من يحبها بصدق ولم يفكر يومًا في خيانتها أبدًا...... كم تريد أن تحادثه.... ستشكو له وهو سيستمتع لها.... نعم فهو الوحيد من أحبها لشخصها ولم يستغلها يومًا كما فعل شهاب، ذهبت لصندوق الرسائل وهي تنظر إلى لوحة المفاتيح ودموعها تشاركها اللحظة... ترى ماذا ستكتب إليه؟ هل ستخبره أن ذلك الطبيب الذي فضلته عليه يخونها..... بأى وجه حق ستشكو له ؟! ركلة أخرى وأخرى.... لامست بيدها بطنها وهي تتوسل له بأن يهدأ قليلًا..... ثم تذكرت صمتها يوم قدومه وعرض فريدة لصفقتها أليست هى من وافقت عليه وقبلت به، وأذعنت لأهلها ورغباتهم، أليست هي من بحثت عمن يناسبها ويناسب عائلتها أكثر؟! كيف ستشكو إليه الآن من ذلك المثالي اللائق الخالي من العيوب.

خرجت أيضًا من صندوق الرسائل بعد أن ودعت حلمها ومصطفى بحزن ودموعها لم تهدأ، شعرت ببعض الألم في بطنها، فتركت الهاتف من يدها وحاولت الاسترخاء على الفراش وهي تأخذ أنفاس عميقة لعل جنينها يهدأ قليلًا، ستشغل عقلها بأي شيء أفضل، فتحت التلفاز وبدأت تبدل بين قنواته بطريقة هيستيرية فاقدة لأي منطق إلى أن وقفت على إحدى قنوات الأغاني، حاولت الهدوء قليلًا وهي تستمع لأغنية

scared to be lonely

فهناك أوقات تشرح الأغاني ما نعجز عن إخراجه من داخلنا، فعانقتها كلمات الأغنية كأنها كتبت لها الآن في حالتها هذه..... ... .

Now we're picking fights and slamming doors

Magnifying all our flaws

And I wonder why, wonder what for

Why we keep coming back for more

Is it just our bodies? Are we both losing our minds?

Is the only reason you're holding me tonight

'Cause we're scared to be lonely?

Do we need somebody just to feel like we're alright?

Is the only reason you're holding me tonight

'Cause we're scared to be lonely

أكدت لها الأغنية حقيقة ظنونها، في الواقع لم يكن شهاب هو من يفقد عقله أو حتى يشعر بشيء ولكنها هي من فقدته، ويبدو أنها ستصمت وتعود راضخة قانعة لأنها هي من تحتاج إليه بالفعل، فلا أحد يخشى الشعور بالنفور والنبذ والوحدة مثلها يكفيها ما عانته في الماضي، كيف ستجرؤ وتعود لهم مرة أخرى بخيبة جديدة تضيفها إلى قائمة خيباتها السابقة التي لا تنتهي.

يكفيها ما عانته في الماضي......

قطعت الأغنية ولم تكملها وعادت تدور في القوائم من جديد إلى أن لمحت مشهد قد رأته من قبل في فيلم تعرفه جيدًا أثار فضولها فاضطرت للعودة للخلف مرة أخرى لتتحقق من أمره وبالفعل وجدته

"the fault in our stars "

رأت أغسطس وهو ينظر لهايزل أثناء الاجتماع وهم يجلسون في حلقة دائرية، كان الفيلم في بدايته فتركته يدفع كل الذكريات إليها، تذكرت وهي

تشاهده في السينما بصحبة مصطفى، تذكرت حزنها الشديد ودموعها في النهاية، لماذا كل ذكرياتها تدور حول مصطفى؟؟؟

كيف لها أن تعيش وسط كل هذه الآلام والأصوات الصاخبة في رأسها..... ألم فقد مصطفى من زاوية وألم خيانة زوجها من زاوية وألم!.... ألم!... نعم تلك بطنها، تشعر بأن تقلصاتها بدأت تزداد أكثر وأكثر ظهرها هو أيضًا بدأ يشاركها في الوجع، أراحته للخلف وهي تضع خلف ظهرها وسادة تريح آلامها قليلًا وظلت في مكانها تشاهد الفيلم وتستعيد معه كل الذكريات التي مهما جلبت من ألم لن يكون جزءًا مما تعيشه الآن.

لم تستطع كبت دموعها مرة أخرى وهي تشاهده بكت على فراق أغسطس وفراق مصطفى وفراق حلمها، ولكن دموعها لم تأتي بمفردها تلك المرة بل أحضرت المزيد من التقلصات بينما طعنات ظهرها باتت لا تحتمل، نهضت بصعوبة وهي تزحف نحو حافة الفراش لتذهب إلى المرحاض ربما حمام ساخن سيريح آلام ظهرها قليلًا، فرفاهية مسكنات الألم في الحمل صعبة المنال، كان الليل قد انتصف فلا مجال بأن تستشير طبيبتها، لا بأس ربما الوجع سيزول قريبًا أو ستتعايش معه كما إعتادت هكذا أقنعت نفسها وهي تذهب إلى المرحاض.

ألقت جسدها في مغطسها تحاول الاسترخاء بداخل بركته الفاترة، نظرت لمياهه فرأت صورتها، رأت تلك الفتاة منزوعة الكرامة وهي تخشى توبيخ وتأنيب عائلتها، تخشى الوحدة ولوم نفسها، لذلك قبلت أن تنصاع لخوفها، نعم أمام نفسها بلا كرامة ولكن أمام شهاب فهي لا تدري عن الأمر شيئًا، وهذا أفضل كثيرًا من أن يراها تلك التي ألقت بها عائلتها ليتخلصوا من لعنتها ولو كلفهم الأمر بسحق كرامتها تحت أرجلهم، هكذا رأت صورتها لتلمح بجوارها صورة الخوف تطفو معها والذي يبدو أنه يقف خلفها.... وكأنه جاء ليطمئنها، نقرت بطرف إصبعها انعكاس صورتها في الماء فتلاشى انعكاس الخوف معها بين الموجات الهادئة واختفى.

***

هدأت تشنجات رحمها قليلًا وسكن الألم فارتدت ملابسها وعادت لغرفتها مرة أخرى، انقضت ليلتها بالكامل مستيقظة فقد أبت العيون أن تغفو... وتركت الدموع تنساب...... فليس من اليسير عليها أن تتقبل طعنة الخيانة وكأن شيئا لم يكن؟!

عادت التشنجات في الصباح مرة أخرى ولكن تلك المرة جاءت بكل ثقلها، ألم ظهرها لا يحتمل لو طالت لانتزعت كامل عمودها الفقرى ونثرت فقراته أرضًا... كما أن حركة جنينها ساكنة منذ أمس، ربما هو يركل ولكنها لا تشعر وسط هذا الألم، أرسلت لطبيبتها رسالة ولكنها لم ترها بعد، قررت أن تستعين بزوجها وتهاتفه ولكنها تراجعت مرة أخرى في اللحظة الاخيرة، وفي منتصف النهار بينما كانت تجاهد لتتحمل الألم قررت أن تخرج قليلًا بعد أن بحثت عن سبب التقلصات في محرك البحث فوجدت أن هناك ما يدعى بتقلصات" براكستون هيكس " من المحتمل أن تحدث في الثلث الثاني من الحمل بسبب كبر حجم الجنين واتساع الرحم، كما أنها تقوم بالتدريبات لمرحلة المخاض... إذًا لا شيء يستدعي القلق، فقررت أن تأخذ بعض نصائحهم في التمشية وتغيير وضعها ربما حينها ستقل التشنجات قليلًا.

لم تستطع الاتصال بشهاب فهي لا تطيق سماع صوته واكتفت بإرسال رسالة له تخبره بأنها ستذهب للتمشية وربما شراء بعض الأغراض من الماركت ثم خرجت بعد أن طال انتظارها لرده الذي لم يأت، فالانتظار والألم لا ينسجمان سويًا لذلك غادرت.

سارت قليلًا في الشوارع على هوادة تحاول شغل عقلها عن التركيز في الألم بتأمل الطرق والمحلات حتى لمحت أحد الكافيهات فدخلت تقضي بعض الوقت وسط ضجيج العامة وشرب كوب عصير.

في تلك الأثناء كان ألم ظهرها يزداد أكثر حتى بات الجلوس أمرًا مستحيلًا فتركت الكوب كما هو ونهضت تاركة المال على المنضدة وغادرت على الفور، التمشية زادت الأمر سوءًا؟؟، أم أنها قامت بها بشكل سيء؟؟ لا تدري، انقباضات

رحمها لا تدل على أنها مجرد تدريبات بل الأمر أسوأ، جاهدت لتصل للحي الذي يحوى البناية التي تسكن بها وعلى أطرافه وقفت تلهث من شدة الألم لهاث قطة تلد، تريد أن تصرخ بقوة.... التشنجات لا تحتمل وهنا شعرت بسائل لزج ينساب من بين ساقيها فأخرجت هاتفها وضغطت على اسم شهاب وبعد رنين طويل قالت بكل ما تملك من طاقة متبقية "شهاب.. الحقني" فجاءها صوته وهو ينطق بأنفاس ملتهبة باسم "دارين" بينما أنفاس الأخرى الساخنة شعرت بأنها تلفح وجهها، يبدو بأنه لم يقصد أن يجيب رنينها بل قصد كتمانه والذي فضح أمره، اتضح لها أن ليالي عمله بالفعل شاقة، في تلك اللحظة لم تقوى على الصدمة ولم تقوى على شيء... لتجد يدها تسقط من على أذنها بالهاتف الذي سقط بالفعل على الأرض بجوارها، وصوت إمرأة يأتي من بعيد وهي تركض نحوها ورأسها ترتطم بالأرض..... .. ثم شاشة سوداء.

***

(٣٠)

أدركت إيناس أنها لم تكن مجرد تقلصات "براكستون هيكس" بل كانت سقطة جديدة تقع بها.... هوة غوْر... نعم إنه الحضيض بذاته.

رأت هذا بعد أن استعادت بعض الوعي لتجد نفسها على أحد أسرة المستشفى ذات العجلات وهو يجري بها في صالة كبيرة لا ترى بها سوى ضوء أبيض يعلوها ينتقل بها بين الممرات وهناك أصوات كثيرة من حولها تأتيها من عالم آخر وكأنها في جوف بئر والأصوات خارجه، رأت طيف ممرضة هايزل في الفيلم وهي تسألها على مقياس الألم وترفع كفيها أمام أعين إيناس تنتظر منها إشارة ثم فجأة تلاشت صورتها من أمامها قبل أن تشير على تقيم آلامها على أصابعها وهي تفقد وعيها مرة أخرى لتجد نفسها تغرق في بحر مظلم واسع تسقط وتسقط ولكنه عميق عمق لم تعهده من قبل، وهنا رأت جنينها وهو يصعد لأعلى في الجهة الأخرى وكأنه يطفو، كان صغيرًا عاريًا ورغم كونه وسط مياه إلا أن جسده ملطخ بالدماء الكثيرة حاولت أن تقاوم غرقها وتذهب في جهته إلا أنه سبقها لأعلى وهو ينظر لها كأنه يودعها ويبتسم.... نعم رأته يبتسم لها..... ولكنها لازالت تغرق وتسقط للأسفل إذًا هي تقاوم الغرق ولكنه صعد والطفو يعنى؟؟؟؟؟؟

الموت!!!

عاد وعيها فجأة على صوت أنثوي مدوي وهي تقول " مافيش نبض مافيش نبض"

وآخر يقول " على غرفة العمليات " فتقاطعه أخرى النزيف مش عايز يقف.

وفجأة ترى فوقها كشاف غرفة العمليات ثم تنقطع الإشارة بالكامل.

***

استفاقت إيناس في صباح اليوم التالي، بدأت في فتح عيناها بثقل ولازالت الرؤية غير واضحة، لم تكن تتذكر شيء من ليلة أمس، شعرت بأصابع أحدهم تطوق كفها فنظرت بجوارها لتجده زاهر والدها، ابتسم زاهر على الفور حين أفاقت وهي تنظر إليه فقبل رأسها في حنان وهو يقول:

_ حمدلله على السلامة يا إيناس.

لا تدري لما استشعرت ببعض الأسى في صوته، كادت أن تجيبه لكن صوتها يخرج متحشرج كأنه يخرج من داخل صخور كهف، ابتلعت ريقها وهي تحاول التحدث مرة أخرى فنطقت في فتور ووهن بصوت مجهد:

_ أنا فين؟

_في المستشفى ياحبيبتي.... الحمدلله ولاد الحلال أنقذوكي إمبارح وجابوكي المستشفى.

حينها دخل شهاب الغرفة وهو يحمل في يديه كوبين من القهوة فتفاجأ بإفاقتها وهو يقول:

_ حمدالله على السلامة يا إيناس.

لم تجبه، بل تحسست موضع جنينها بعد أن تذكرت لمحات من أحداث أمس وتلك التشنجات التي عانت منها، لازالت تشعر ببعض منها الآن ولكن تحتمل.... خفض بروز بطنها قليلا فبدأت تبحث عن جنينها في الغرفة ربما تجده على أحد أسرة الأطفال بجوارها، ولكنها لم تجد شيء، فسألت والدها بارتباك:

_ هو سليم فين... في الحضانة ولا إيه؟!

أشاح بنظره بعيدًا عنها ببعض الأسف بينما شهاب الذي يقف بجواره يجيبها بنبرة حزن:

_ الجنين يتعوض يا إيناس المهم إنتي......

بدا حنونًا أمام والدها، وهنا ربت والدها على يدها وهو يقول:

_ قدر ولطف يابنتي، إن شاء الله تتعوض المهم إنتي وصحتك... الحمدلله إني لحقوكي في الوقت المناسب.

فتهجم وجهها فجأة وهي ترى حادث أمس يمر أمام عينيها، ترى نفسها تسير في الشوارع والألم لازال يحاوطها وشعرت بنزيفها السخي وأضواء المستشفى وصخب التمريض والأطباء من حولها ثم تردد على ذهنها جملة "مافيش نبض، مافيش نبض " ثم "على غرفة العمليات "، حدث كل شيء في لمح البصر، أجفل قلبها متألمًا حين تذكرت كل ما مرت به بالأمس واحتقنت عيناها بالدموع وهي تنظر إلى شهاب بكل حنق وغضب تكاد تفتك به فأنفاسه وأنفاسها لازالت عالقة في أذنها لم تخرج بعد، لم يبدو عليه أي حزن على ما فقده ولكنه بارع في دور الزوج المخلص أمام والدها، رن هاتف والدها ليجده من فريدة، كم هي في أمس الحاجة لوالدتها الآن، تتمنى لو تجدها بجوارها وتضمها إلى صدرها لتطمئنها بأن كل شيء سيصبح أفضل، تريد أن تلقي من على كاهلها كل تلك الأحمال وتبكي على كتفها إلى أن تشفى، لن تستطيع أن تتخطى كل هذا بمفردها، فالطعنات كثيرة وجميعها ينزف بغزارة، لم تعد تقوى على تضميد تلك الجروح المدمية، شعرت وكأنها طفلة في العاشرة تريد أن تضمها والدتها وتطمئنها لتجد والدها بالفعل يمد يده بالهاتف إليها ويقول:

خودي كلمي ماما يا إيناس قلقانة عليكي.... _

التقطت إيناس الهاتف منه بوهن وحاولت أن تعدل من رقدتها لتستطيع التحدث وأجابت بصوت متهدج:

_ألو....

_ أيوه يا هانم....

اندهشت إيناس من صوتها وهي تستمع لها في ذهول

_ إنتي عملتي في نفسك إيه يوصلك للمرحلة دي، حتى ابنك مش عارفة تحافظي عليه وقتلتيه.... حتى الحمل اللي الحيوانات بينجحوا فيه إنتي فشلتي فيه.... دايمًا فضحاني قدام الناس.... هتفضلي كده لحد أمتى لا يعتمد عليكي وفاشلة في كل حاجة، كويس إني جوزك ماخربش الدنيا إنك ماحافظتيش على ابنه... ده ماصدق إنك حملتي وكان طاير من الفرحة، طول عمرك بتخذلينا

وبتخذلي كل اللي حواليكي.....

انهمرت الدموع على وجهها بقهرة وهي تكتم شهقتها بيدها، ثم صاحت فجأة وهي تلقي الهاتف على الفراش في وجه أبيها وشهاب وتصرخ:

_ اطلعوا برة..... مش عايزة حد هنا.... أمشوا اطلعوا برا.....

فسحب زاهر الهاتف وهو يرتجف وأشار لشهاب بالخروج لتهدأ قليلًا وليستدعي لها التمريض ربما تعطيها بعض المهدئات.

ظلت إيناس في مكانها تجهش في البكاء، تكاد تمزق أحشائها الآن وتبحث عن من فقدت، أين سليمها، هل هي من قتلته؟، هل هي من تخلت عنه؟... بالتأكيد، كما تتخلى عن كل أحبائها وتخذلهم بدم بارد، صرخت بأعلى صوتها وهو تنادي "سليييييم"، لما أحلامها السعيدة غير مكتملة تفارقها دومًا سريعًا بالكاد تكمل الستة أشهر، أي ذنب اقترفته في حقهم، وحق نفسها، نعم هي فاشلة في كل شيء.... والدتي محقة هكذا أقنعت نفسها... ليتني مت وكنت نسيًا منسيًا.... نعم.. الموت هو الحل هو من سيشفي جروحها ويعفيهم من خزيهم، ما عادت تطيق تلك الحياة، فلتنهيها أفضل للجميع... بحثت بجوارها عن أي شيء تنفذ به جريمتها ولكنها فشلت في إيجاد دواء أو آلة حادة تساعدها على فكرتها ولكنها لمحت هاتفها على الكومود، مسكته فوجدت شروخ جرابه الزجاجى الذي تضرر من سقطة أمس، اقتلعت منه بقايا الجراب على الفور وكسرت منه الجزء الحاد المدبب ونهضت وهي تئن إلى المرحاض.

دخلت إيناس المرحاض تتكأ على كل حائط قليلًا من شدة الألم إلى أن وقفت أمام الحوض الذي تعلوه مرآة بيضاوية، نظرت إلى وجهها المكفهر لم تجد تلك الشابة البائسة صاحبة النحس والعتب السيء المدمرة لأمجاد عائلتها وجالبة لهم العار.... الفاشلة في كل شيء، تلك التي ما إن حاولت النهوض مرة حتى سقطت على عنقها كسرته فأصبح يصعب التئامه من كثرة وقوعها، بل وجدت تلك الفتاة الصغيرة ذات التسعة أعوام بزي النحلة الأصفر وأجنحة مكسورة بينما شوكتها ملتوية تنغرز في جسدها وتبث السم فيه، نظرت لنفسها بألم وخيبة في حياة

بأكملها لم تذقها سوى السم المدسوس في كل لقمة تمنت أن تشبع جوعها.... ستكتفي بما عانته وستنهي كل شيء الآن لتريح الجميع من عارها وترحل.

جلست على حافة البانيو وغرست في معصمها سن القطعة الزجاجية بعمق وهي تكز على أسنانها فخرجت منها آهة مبحوحة وهي تكتم أنفاسها لعلها تفنى من عالمهم .... كانت ترى الدم ينبثق من جرحها فتزيد عرضه وعمقه أكثر بلا رحمة لتزداد معه نافورة الدماء أكثر، ظلت تتأمل دمائها وهي تهجرها في صمت بينما تسمع صوت والدها في الخارج وهو يبحث عنها ويصيح باسمها " إيناس "!!!!

ركل والدها الباب بقدميه فتكسرت أقفاله التي أغلقتها إيناس من الداخل بعد أن عجز عن فتحه ليجدها قد ودعت كل شيء وقررت الرحيل.

***

(٣١)

رمشت بأهداب عيناها في تردد ثم فتحتهما مرة واحدة، لتجد نفسها تقف خلف كواليس المسرح يبدو كأنه مثل مسرح مدرستها القديمة.. الإضاءة من حولها خافتة وأصوات خطوات أقدام كثيرة من حولها، وفجأة تلمح والدها يمر من أمامها وهو يبتسم لها ويدخل إلى المسرح الذي فتحت ستائره الحمراء ليظهر من خلفها والدها الذي كان يرتدي بدلة لا تختلف عن زي " تشارلي شابلن " الممثل الصامت، سمعت صوت تصفيق حار له في الخارج من الزوار والمشاهدين، شكرهم كثيرًا وهو ينحني لهم ثم قال بصوت جهوري تقديمي:

"_ عرضنا اليوم غير كل العروض، عرض بيلعب بالخيوط، خيوط حياتك وأوتارك بين الكفوف، مين قال إن الخوف وحش، ده حتى من خاف سلم، ضيوفنا الأعزاء عرضنا اليوم هيلمسكم وهيلمس حياة كل واحد فيكم، لأنه شبهكم، بطلته بارعة في دورها وعارفة هتلعبه إزاي، أنا مش هتكلم كتير ولكن خليني أبدأ عرض مسرحية " نظرية الماريونيت ".

وهنا أشار لإيناس بأن تدخل لعتبة المسرح، سارت نحو المسرح ولكن بخفة غريبة، تشعر بأن أقدامها أكثر حرية، يبدو كأنها تحررت أخيرًا، ما عادت تشعر بتلك الأصفاد الحديدية الثقيلة التي تطوق كاحليها، تشعر بقدميها وهما يطيران في الهواء في خفة وانسيابية.... تحسست أسفلهما لتتأكد من خفتها فوجدته خواء وفجأة وجدت نفسها في منتصف المسرح والكل يصفق لها بحرارة، مالت بنصفها العلوي لهم لتحييهم، ولكن هل هي من انحنيت بالفعل، كيف وهي لم تطأ أرضًا بعد ولازالت معلقة في الهواء؟!!!

معلقة في الهواء!!

رفعت رأسها لأعلى لتتأكد من طيرانها لتجد نفسها معلقة في خيوط هي من دفعتها انحناءة، ووالدتها من تمسك تلك الخيوط وتحركها، نظرت نحو قدميها وذراعيها بتعجب لتجدهم جميعًا من الخشب، وفي الحقيقة والدتها هي من تحركها رأتها بنفس هيبتها ترتدي فستان من الحرير الأخضر المطرز

وتسريحة شعر مرفوعة فوق رأسها بمشبك أخضر أيضًا، ثم بدأ عزف مقطوعة موسيقية لا تدري من أين جاءت وظلت فريدة تراقصها في الهواء بما يناسب العزف ومعها يرقص والدها، نظرت إيناس إلى مقاعد الزوار لتجد في الصف الأمامي تجلس عائلتها بأكملها، خالتها وزوجها ورانيا وآسر وأخيها بينما المنتصف فارغ أما المقاعد الخلفية فجميعها شاغرة أيضًا ماعدا واحدًا يجلس في زاوية مظلمة يشاهد في صمت ويبدو على وجهه بعض الأسى وكأن العرض لا يعجبه على الإطلاق، كان ذلك الشخص هو مصطفى الذي ظلت عيناها معلقة به رغم حركاتها الفجائية التي تقوم بها فريدة كل لحظة، ثم فجأة تلمح شهاب يدخل هو الآخر إلى المسرح ويرقص معهم بسعادة لتتبعه باقي عائلتها التي تغادر المقاعد وتصعد على المسرح لتشارك في تلك الرقصة بفرحة، رأتهم جميعًا وهم يلتفون حولها ويحاولون تحريك خيوطها، الجميع يرغب في تحريكها كما يحلو له وصديقها الوفي من بينهم يشارك بمنتهى اللذة والاستمتاع حتى وجدت أياديهم بدأت تشدها في كل الاتجاهات وكأنهم يتصارعون عليها وبدأت أطرافها في التحطم والتمزق، رأتهم جميعًا يحطمونها بسعادة غامرة وقهقهة عالية.... وهنا رأت دمعة ترقرقت في عين مصطفى وهو ينهض ويغادر دون أن يكمل العرض بكل حزن وأسف بينما الآخرون أصوات ضحكاتهم تصدع في الأرجاء بطريقة هيستيرية ودمعة حانقة غاضبة تخرج منها بصمت.... وهنا تستيقظ إيناس والدموع تجري على وجنتيها وهي تفتح عيناها في ذهول مما رأت، الغرفة تبدو مظلمة، لازالت في المستشفى على فراشها ولكن بمفردها، رأته يقف أمام فراشها وجذوره السوداء تدب في الأرض أسفله وتصعد على الحوائط من حوله كشجرة لبلاب سوداء تملأ الغرفة ظلامًا، يقف بوجه متهجم.... يبدو بأن هناك ما يحزنه ورغم ذلك بدا قاسي في ظهوره وهو ينبثق من كل مكان ويتشعب ليملأ الغرفة من حولها، ثم قال بصوت خفيض وغليظ:

_ عاملة إيه إنهارده؟

حاولت إيناس أن تعدل من جلستها وهي تجيب بغضب:

_ أنت جيت ليه؟!

نظر لها بتعجب وقال:

_ جاي أطمن عليكي يا إيناس....

_ قصدك تشوفني وأنا مكسورة ومدمرة تاني، أنا عمري ماهسامحك في اللي أنت عملتوا في حقي، أنت السبب في كل اللي وصلتله، أنت دمرت حياتي كلها...

_ أنا خايف عليكي، وعايز أحميكي... أنا عمري ماحاولت إني أضرك بالعكس أنا موجود علشان أحافظ عليكي.....

_ بس أنت ضرتني ودمرتني، من ساعة ما ظهرت في حياتي وأنا عمالة أقع وأقع لحد ما كرهت حياتي كلها... خوفك خنقني وكتم أنفاسي، كتفتني طول حياتي ومنعتني من حاجات كتير كانت ممكن تكون الصح، كان كل همك إنك تسيطر على حياتي مش تساعدني.

_ أنا كنت بعمل اللي أنتي كنتي عايزاني أعمله، مش أنتي اللي كنتي بتوكلي ليا الأمور دي وبتطلبي نصيحتي؟!.....

_ بس أنا خلاص مش عايزة أعرفك تاني، ومش عايزة أشوفك في حياتي أبدًا، أنت كنت أسوأ صديق أشوفه في حياتي والصداقة دي انتهت خلاص....

نظر لها بكل أسف مكسور العنق، فتجاهلت نظراته، حاول أن يقترب منها ليعتذر على سوء معاملته فأبعدته بيدها وهي تشير له نحو الباب ليخرج منه مهزوم لأول مرة منذ أن عقد صداقته معها وأصبح ظاهرًا ورفيقًا في حياتها.

لم تتردد إيناس في طرده وإنهاء تلك العلاقة المؤذية، فلا قيمة لشيء بعد كل ما خسرته جراء معرفته.

ثم فتحت عيناها مرة أخرى لتدرك أنها وقعت رهينة أحلامها التي تذكرها بواقعها الأليم وما تعيشه الآن.

***

(٣٢)

Lily was a little girl
Afraid of the big, wide world
She grew up within her castle walls
Now and then she tried to run
And then on the night with the setting sun
She went in the woods away
So afraid, all alone

They warned her, don't go there
There's creatures who are hiding in the dark
Then something came creeping
It told her don't you worry just ...

Follow everywhere I go
Top over the mountains or valley low
Give you everything you've been dreaming of
Just let me in, ooh
Everything you wantin' gonne
Be the magic story you've been told
And you'll be safe under my control
Just let me in, ooh
Just let me in, ooh

She knew she was hypnotized

And walking on cold thin ice
Then it broke, and she awoke again
Then she ran faster and
Start screaming, is there someone out there?
Please help me, come get me

***

حلمها الثالث كان مختلفًا، رأت نفسها حبيسة قلعة كبيرة نشأت بين جدرانها، لم تطأ قدمها عشب الأرض الخضراء التي تحيطهم يومًا، تشبه "رابونزل" إلا أنها لم تكن مخطوفة أو لديها شعر سحري طويل بل تلك كانت حياتها سجينة بداخل زنزانتها الموصدة، الجميع يحذرها من الخروج وعلى رأسهم والدتها التي قصت لها عن كل تلك المخلوقات الشريرة الخطرة التي تملأ الغابات من حولهم، كم تمنت أن تغادر أسوار قلعتها إلا أن مجرد تخيل تلك المخلوقات التي ستنهشها تجعلها تعدل عن قرارها وتتراجع مليون خطوة للخلف، لا تعلم إذا ما كانوا حقيقيون أم لا بل لم تكن تعرف إذا كانت والدتها بنفسها قد رأتهم من قبل أم لا فهي لا تطأ الخارج قط أيضًا، ربما تلك أساطير وخرافات يغرسوها في عقلها لتصدقها ولتصدها كلما حاولت مخالفتهم وبالفعل رأت نفسها هشة خائفة من مجرد تخيل تلك المخلوقات البشعة التي استمعت لوصفهم دون أن تراهم، ليصبح المجهول دومًا نقطة مرعبة لا يمكن الاقتراب منها هكذا عاشت وهكذا تعلمت بصحبة الخوف فقط طوال سنوات عمرها، ورغم أنه كان أنيسها الوحيد في حبسها إلا أنه كان يؤكد نظرية والدتها كلما طرأت على رأسها فكرة التجربة ليرسم لها عالم محفوف بالمخاطر والوحوش تحاوطها في كل مكان حتى ملأ عالمها بأكمله بالمخاوف ما إن خالفت رأي والدتها أو عائلتها... ورغم تحذيراتهم جميعًا من فكرة خروجها لذلك العالم المجهول إلا أن الفكرة كانت تكبر معها يومًا بعد الآخر وفي أحد الأيام قررت أن تشبع رغبتها الملحة والشديدة لتك التجربة فتخرج إلى ذلك العالم الخطر بعد أن سأمت عالمها، سارت بخطوات حذرة بين الأشجار

بعد أن خرجت خلسة من قلعتها، نصفها مرتعب من المخاطر والوحوش التي سمعت عنها ونصفها الآخر يستمتع بكل لحظة تقضيها في تحقيق حلمها وفضولها وهي تتحسس العشب بأصابعها باستمتاع.... وبينما هي تسير في الغابة لم تلمح تلك الحفرة التي اقتربت قدماها العارية منها فانزلقت بها وسقطت........

أطلقت صرخة متألمة وهي تسقط لتجد نفسها في حفرة عمقها لايتراوح أكثر من مترين، حاولت التحرك ولكن ساقها تؤلمها بشدة، تأوهت وهي تعتدل وتحاول النهوض ثم بدأت تستغيث وتطلب النجدة بأعلى صوتها ولكن لا أحد يسمع ولا أحد يستجيب، ظلت هكذا حتى انقضى النهار وحل الليل وهي لازالت ساكنة في حفرتها تنتظر المساعدة وصور الوحوش لا تغادر ذهنها...... ليتها لم تخرج... ليتها انصتت لتحذيراتهم..... ... .

لم تكن تعلم أن هناك نوع آخر لم يذكر لها في قصصهم، نوع يمكنه أن يقاتل الوحوش بدلًا من الهرب دومًا من مواجهتها، ذلك النوع الذي طمر عمدًا في القصص والأساطير وأصبح شيء خفي لا يذكر في قصصهم المحفوفة بالمخاطر ليردع فضولهم ورغبتهم في الاختلاف، النوع الذي لا يقبل بالخسارة والهزيمة ذلك النوع الذي أخفوه على مدار عقود وعقود كما ذكر في رواية "ظل الأفعى"، ذلك الذي يستطيع إخضاع تلك الوحوش لهم، أين ذهبن من يمتلكن زمام الأمور وحرية القيادة والسلطة؟! أين ذهبت تلك الندوب التي نتفاخر بها بعد كل معركة نقاتل فيها وحوشنا وننتصر عليهم؟!

كانت تلك الجروح مصدر للفخر دومًا، كنا نضع أنيابهم في قلادة حول أعناقنا ونتباهى بها وسط الجموع ونحن نتشح بفرائهم فوق ظهورنا، حتى أننا استأنسنا الذئاب وصنعنا منها نسلًا من الكلاب الوفية، أين ذهبت لحظات المجد التي نبغاها ونحن ننتصر على تلك المخاوف التي تلاحقنا، أصبحنا ضعاف حتى بتنا نخشى مواجهة أنفسنا أكثر مما نخشى مواجهة صعاب الحياة فليس العالم هو أكبر مخاوفنا بل أصبحنا نحن أكبر ما نهابه، ذلك المسخ الذي نلمحه في

مرآتنا، الشخص المدنس الذي بتنا عليه هو من يرعبنا ونخشى رؤيته، ولكن يبدو أن الخروج من قوالبهم ليس بالأمر السهل فهو يسقى بالإرادة.

فهل كانت تمتلك البعض؟!!!!

ظلت في حفرتها ترتجف ساكنة في زاوية ضيقة بداخلها تنتظر ربما يمر من سيخرجها من تلك الضائقة وحينها ستهرول إلى بيتها ولن تخرج منه أبدًا.

***

(٣٣)

جلس مصطفى على مكتبه وهو يمسك بهاتفه ويضع السماعات في أذنه يستمع إلى قائمة أغانيه المفضلة، كان يظهر على وجهه القلق الشديد رغم محاولاته الكثيرة لإخفائه حتى لا تلحظه دعاء، يتصفح صفحة إيناس المختفية منذ أكثر من أسبوع هكذا مدون عن آخر ظهور لها، لم يعتد غيابها عن صفحتها بتلك المدة، كان الأمر يقلقه، فظهورها بشكل مستمر كان بمثابة فرصته الوحيدة ليطمئن عليها والآن لا وجود لأي خبر أو منشور منها، ربما غيرت تلك الصفحة وأنشأت واحدة أخرى، بحث باسمها في صندوق البحث لعله يجد لها صفحة أخرى ولكنه لم يجد فزاد البحث قلقه، ذهب متضرر إلى صفحة زوجها ليجد صوره كالعادة تملأ الصفحة وهو ينشرها من مكان عمله وخاصة في المستشفى وغرفة العمليات وكذلك بعضًا من عملياته الناجحة كدعاية لبراعته واستعراض لقواه الخارقة في ترك ندوب في القلوب ولو أصلحها ستظل ندوبه موجعة، مجرد النظر في وجهه وتلك الابتسامة التي تعلو ثغره كانت تشعر مصطفى بالاشمئزاز، فكيف لذلك الوغد أن يعانق زهرة الياسمين؟!

لم تعد إيناس موجودة في صوره ولم يعد لها ظهور في صفحتها ولكنها لازالت زوجته وهو زوجها في الحالة الاجتماعية.... ترى أين اختفت؟ ظل يدور في صفحتها الشخصية لعله يلمح ما يطمأنه ولكنه لم يجد شيء سوى وجه شهاب المنفر.

وهناك شيء آخر ما إن وقعت عليه عينه حتى شعر بغليان دمائه وهي تلك الشهادات التي حصل عليها من جامعة ستانفورد، لازال جرحه يؤلمه والمقارنات مع ذلك الأحمق الأرعن لم تنتهي.... ألم يأخذ منه فتاته لأنه الأجدر بها... نظر مصطفى حوله في معمله وحدث نفسه... هل وصل لحلمه بالفعل؟ وهل انتهى كل شيء هنا؟ نعم هو حقق حلمه بالفعل ولكن هناك حلم أعظم سلب منه وترك خلفه خواء لا يمتلأ أبدًا وكأنها بركان يلتهم قلبه... وشعور

بالدونية يلمحه في مرآته دومًا منذ أن تركها وكأنه قناع التصق بوجهه، نعم حقق حلمه، نعم أصبح أفضل من حاله من قبل وهو معها ولكن هذا كله حدث بعد فوات الأوان، وهل حلمه المتواضع هذا كان سيكفيهم؟ بالطبع سيطلبون منه المزيد والمزيد، يشعر بأنه لازال في المرتبة الدنيا وهو يعلوه، لا لم تنتهي الحياة هنا وأحلامه الصغيرة في ذلك المعمل، لابد أن يبحث عن المزيد، سيظل يجاهد إلى أن يعلوه أكثر وأكثر ويمحو شعوره بالنقص الدائم الذي يركض خلفه كوحوش الظلام المخيفة المسعورة.... لن يتركه ينتصر عليه سيركض ويركض خلف أحلام جديدة لينال حقه في الشعور ببعض الرضا الذي حرم منه.... حقه في أن ينزع ذلك القناع المزري ورؤية وجهه الحقيقي الذي ودعه منذ تلك اللحظة.... خرج من صفحته وبحث عن المنح الدراسية والدراسات العليا في الخارج، ليجد عدة جامعات يمكنه أن يلتحق بها وهنا قرر مصطفى أن يبدأ رحلة جديدة مع أحلام أخرى لعلها تعيد له بعض الثقة في النفس التي فقدها، ثم قرر مصطفى في تلك اللحظة أن يغادر أما هجرة أو دراسة ربما يستطيع في يوم ما أن يرمم أجزاء روحه المتآكلة ببعض الأحلام الأخرى... سيخبر مينا بقراره ويصطحب دعاء وسليم معه ليبدأ في مكان آخر حياة أخرى غير تلك التي علق بها كالخرقة البالية.

***

أفاقت إيناس من حادثة انتحارها بعد مرور يومين وبعد أن أنقذها والدها في لحظتها الأخيرة بنفسه وقلبه يتمزق عليها حتى أنه تبرع لها بالكثير من الدم الذي فقدته، وجدت نفسها بنفس غرفتها على فراشها وضمادة تحيط بمعصمها الذي شقته من يومين، تذكرت أحلامها التي كانت تزورها في نومها وتلك الحقائق التي أفصحت عنها... تحسست بيدها بروز بطنها واستعادت ذكرى جنينها حتى أنها شعرت بركلة قدمه الصغيرة ولكن تلك المرة كانت وهمية.... فأيقظت الحنين لأيام حملها وهنا سمعت طرقات على باب غرفتها فرفعت يدها كأنها تسمح للطارق ثم أدركت بأنه لن يلمح إشارتها وعليها أن تخرج صوتها المسجون بداخلها فأجابت بصوت بالكاد يسمع:

_ أتفضل.

فتح الباب ودخل شاب صغير أدركت أنه طبيب من ردائه الأبيض، يرتدي أسفله تيشيرت باللون الأبيض أيضًا عليه رسمة صغيرة لميكي ماوس ويرتدي سروال من الجينز، قصير بعض الشيء، أسمر اللون وشعره أسود كيرلي، خطى الشاب ببطء وحذر وهو يسألها:

_الدكتورة إيناس؟

هزت رأسها إيجابا وهي تقول " مش دكتورة أوي أنا سبت طب الأسنان من فترة " قالتها في حالة من الاسترخاء اكتسبتها من المهدئات التي تحقن بها من بعد حادثة الانتحار

فلفظ الآخر أنفاسه وعدل من مظهره وهو يقول بنبرة ساخرة:

_ آسف جدًا، أنا الدكتور أحمد العسال معالج نفسي، معلش أصلي أنا جديد هنا، والدكاترة بيحبوني أوي لدرجة إني كل واحد أساله على رقم الأوضه بتاعة حضرتك يقولي في دور غير التاني.... بيوجبوا معايا بقى.

ابتسم فابتسمت هي الأخرى على حسه الفكاهي ثم أردفت:

_ بس أنت مش شبههم!!!

_ هما كانوا كتير؟

_ تؤ.... واحد بس.....

_كان سيء أوي كده؟ ثم لمح أحد المقاعد فذهب نحوه وسحبه بجوار سريرها وسأل...

_ تسمحيلي؟

هزت رأسها بنعم فجلس عليه ثم أردف:

_ ممكن تحكيلي عنه؟

_مايستهلش إني أتكلم عنه كتير.... كان مجرد شخص عابر مر عليا.... المفروض كان يساعدني بس الحقيقة كان بيساعدهم هما، ماما وعيلتي أقصد.... كان شبهم وعايزني أبقى شبهم، بس الأسوأ أنه كان فتان أوي، مش المفروض

الدكتور النفسي مايطلعش أسرار المرضى بردو؟!

_ أيوه طبعًا.

_ هو بقى كان بيعمل العكس، بيحكي لماما كل حاجة وترجع تعايرني بيها بعد الجلسة، كان دايمًا يحسسني بالتأنيب، ونبرته مليانة لوم... ماما هي اللي اختارته علشان يحفظ سرها هي بس ومحدش يعرف إني رحت لدكتور نفساني في العيلة أحسن يقولوا عليا مجنونة، انا فضلت معاه سنة وبعد كده قررت إني أوهمه إني كل حاجة اتحلت علشان ماروحش تاني عنده..... ده كان من سنين كتير أوي بس لسه فاكره، أنا قررت من ساعتها مكررش التجربة دي وأروح لدكتور نفسي تاني لأنها تجربة فاشلة من الأول...

_ تجربة سيئة فعلًا... بس ده مايدلش إني كل التجارب ممكن تكون زيه أو سيئة وتفشل بردو...

_ يمكن، وأنت بقى ماما اللي بعتتك أو بابا المرة دي، أوعى يكون شهاب؟!

_ في الحقيقة أنا لسه متعين جديد وأنتي أول حالة ليا كلفني بيها رئيس القسم مش حد من العيلة ماتقلقيش، هو أقنع الدكتور زاهر بس إني أنا اللي أتولى المهمة دي لما عرف حالتك، بيختبرني ياستي علشان يعرف إني أقدر أعالج من غير أدوية ولا لا، وحضرتك بالنسبالي أول اختبار ليا... بس أنا متفائل...

_هو أنا حالتي صعبة أوي كده ومحتاجة دكتور نفسي؟

_ والله بعد اللي حصل واختيارك للانتحار أكيد الدكاتره مش هيوافقوا يخرجوكي من غير ما يطمنوا عليكي ولا أنتي رأيك إيه؟

نظرت إيناس نحو معصمها بحزن ثم أردفت:

_ أنت عايز تعرف إيه؟

_ اللي أنتي عايزه تقوليه، اعتبريني حد بتفضفضي معاه، وبيسمعك وعايز يساعدك.

لم تجد أمامها مفر سوى أن تقبل به بعد أن أضاعت المهدئات قوى المقاومة لديها، كما أن ما مرت به في الأيام القليلة الماضية قد أفنى كل طاقتها فما عاد

لديها سوى أن تقبل بذلك الطبيب لعله يعالج بعضًا من جروحها الغائرة... فهو سبيلها الوحيد الآن بعد أن ودعت كل السبل......

_ هما أنقذوني ليه، أنا كنت عايزة انتحر... كنت عايزة أموت وارتاح من العذاب اللي عايشة فيه... رجعوني الحياة ليه تاني.... كنت هريحهم من فشلي خالص ؟!

_ طب ممكن أعرف كنتي عايزة تنتحري ليه؟

_ وأعيش ليه؟

_ لأسباب كتيرة أوي.... أنا عارف إنك مريتي بحادثة إجهاض خلال الأيام اللي عدت، بس تفتكري كل واحدة مرت بتجربة حمل وفشلت أنها تنهي حياتها قصادها بسهولة كده؟!!!..... ... .

_ الفشل هو المشكلة.... أنا بكره الفشل... وبخاف منه.. دايمًا بيجي يبوظلي حياتي رغم إني بحاول أتجنبه طول الوقت، هو أنا ليه فاشلة زي ما ماما بتقولي طول الوقت، مش بعرف أحقق أي حاجة هما عايزينها رغم إنها سهلة... دايمًا بحاول أرضيهم ومش بعرف والدنيا تبوظ مني، ليه دايمًا بفشل، حتى الخوف اللي عايش معايا طول الوقت بيحسسني بكده إني بردو هفشل... أنا كرهته هو كمان وقولتله يبعد عني أنا مش عايزة أشوفه تاني..... ..

وهنا استحضرت حلمها معه، لم تدرك هل بالفعل تلك المشاجرة كانت في واقعها أم مجرد حلم فظهر أمامها الخوف في ركن الغرفة أمامها يجلس في مواجهة الحائط كطفل تم تذنيبه في الفصل.... يجلس خلف مقعد الطبيب فتتأكد حينها أن حلمها كان حقيقي.

_ أهو زعلان مني ومش عايز يبصلي، أنا كمان زعلانة منه ومش عايزاه تاني في حياتي...

نزع الدكتور أحمد ورقة من دفتره المدون به ملاحظاته وأعطاها قلم وهو يسأل:

_ شيفاه إزاي ممكن ترسمهولي؟

_ أرسمهولك إزاي؟
_زي ما أنتي شيفاه بالظبط غمضي عينك واستحضري صورته وإرسميه..

بدأت إيناس في تنفيذ طلبه وهي ترسم شكل خوفها الذي لطالما رافقها طوال أعوام حياتها الماضية، وما إن انتهت حتى ناولتها له فوجد شجرة سوداء كبيرة متفرعة في أنحاء الورقة بأكملها فناولها ورقة أخرى وقال:
_ طب دي صورته اللي بتشوفيه بيها، ممكن ترسميلي صورة خيالية تحبي تشوفيه بيها.
_ هو أنا لازم أشوفه، مافيش حاجة تخليني ماشفهوش تاني؟
_ للأسف لازم وهوضحلك إزاي، بس حاولي ترسمي الأول وصف تحبي تشوفيه بيه، يعني تخيليه حيوان جماد نبات أي وصف أنتي حباه.....
فكرت إيناس طويلًا إلى أن وصلت إلى رسمة لكلب من فصيلة الذئاب من حلم الغابة التي تمنت يومًا أن تكون قوية لمواجهته بل وترويضه أيضًا.
ثم أعطتها للدكتور أحمد نظر بها طويلًا ثم وضعها على قدمه وسأل:
_ إحكيلي عنه، اتقابلتوا أول مرة امتى وفين، ويعني إحكيلى أكتر عنه في كل حاجة ما بينكوا.
قصت له إيناس منذ لحظة ظهوره الأولى في حياتها وهي على المسرح وعلى وشك أن تقوم بقفزتها فتلمحه لأول مرة وهو ينصحها بأن لا تفعل، ذكرت له الكثير من المواقف مرورًا بمصطفى وحتى خيانة شهاب لها حين حذرها من الإفصاح عن الأمر وربما هذا الأمر هو من أودى بحياة جنينها لتأتي محادثة والدتها وتقضي على ما بقي، مرت ساعتين وإيناس تقص له علاقتها بصديقها الذي لطالما كان بالنسبة لها أوفى الأصدقاء إلا أن علاقتها به بعد آخر حادثة باتت مستحيلة بعد أن سقطت سقطة هشمت صمودها المتبقي بأكمله.....
استغرقت الجلسة ساعتين وهي تقص عليه الكثير من خبايا حياتها التي تكتمها في جوف باطن أرضها، بعد أن شعرت بارتياح تجاهه لم تستشعره من

قبل مع شخص آخر سوى مصطفى ربما لأنه لا يشبه عائلتها .... وبعد أن انتهت... حمل على كفيه رسمتيها وسأل

_ شايفة إيه في الاتنين دول... اوصفيلي؟

_ شايفة في الأولى كائن ضخم شبه الشجرة عمال يكبر ويتفرع أكتر في حياتي... لونه أسود.. أنا آه بحب الأسود، بس ده قاتم أوي وكئيب بيخنقني، وعايز يسيطر عليا بأي شكل... بيحب يتحكم في حياتي دايمًا وكل تصرفاتي....

_ طب والتانية؟

_ معرفش أنت قولتلي إرسمي شكله اللي حابة أشوفه بيه... فرسمت كلب وفي بيحبني وبحبه وبيحميني دايمًا بس مش بيسيطر عليا زي الرسمة الأولى، هو أنا ليه لازم أشوفه تاني.

_ هو ده اللي أنا عايز أوصلهولك، الخوف غريزة بنتولد بيها وليها دور مهم في حياتنا وهي أنها تحمينا زي ما أنتي رسمتيها بالظبط وتخيلتيه كلب وفي بيحبك وبيحافظ عليكي من أي خطر، الخوف شبه الكلب بس الكلاب في منها شرس وفي منها أليف وهادي، الخوف بردو في منه الخيالي والحقيقي... أنتي من غير ما تدركي شرستي كلبك وخلتيه أقوى بكتير منك لدرجة أنه هو اللي سيطر على حياتك مش أنتي، بقى هو اللي يوجهك ويقولك تعملي إيه وطبعًا في عوامل كتير ساعدت في ده زي خوفك من الفشل وخوفك من النقد واللوم، كل العوامل دي كانت زي أكل بتقدميه ليه وبيكبر بيه... بتغذيه يعني، إحنا دورنا دلوقتي نروض الكلب ده لأني مش هنعرف نتخلص منه بس ممكن نستفيد من وجوده أكيد، يعني اللي أقصده إني هنحاول نتعامل مع عوامل الخوف... وخاصة الخيالي وهو ده اللي بيصورلنا حاجات كتير رغم أنها ممكن ماتحصلش وده هيحتاج شوية شغل وهنكمل لسه جلسات تانية.

_ طب أنا عايزة أمشي، هخرج إمتى من المستشفى؟

_ والله ده ينطبق على الجلسة الجاية ومعدل التحسن بس لو ساعدتيني صح هتخرجي في أسرع وقت... وخليكي فاكرة إني قرار تعيني معتمد عليكي بردو

قالها وهو يمزح... ثم نهض وأخذ دفتره وودعها على أمل للقاء بعد ثلاثة أيام مرة أخرى.

غادر الدكتور أحمد وتركها في غرفتها تفكر في تفسيره لخوفها يبدو كما وصفته بالضبط... الخوف كالكلب البري يحتاج إلى من يروضه، هي من تغذيه فإذا أرادته هاديء ووفي كصديق أطعمته بالحب والإحتواء وإذا أرادته ثائر مسعور أطعمته برهابها ودماء قلبها المحتقن بالرعب هكذا يكون ترويضه.....

نظرت صوب الخوف القابع في الركن مكانه لم يتحرك وكأنه ينتظر إشارة منها أو أن ترفع عنه العقاب ولكنها لم تهتم لأمره وتركته يتألم كما تألمت.

***

زارها والدها في اليوم التالي زيارة سريعة خالية من التوتر ووالدتها، حتى لا تزداد حالتها سوءًا، يكفيه ما يسمعه هو من فريدة وصيحاتها التي تشق أذنه كل ساعة على الهاتف، ثم ودعها على أمل في لقاء آخر قريبًا في منزلها بعد أن اطمأن عليها قليلًا عقب جلستها الأولى مع المعالج النفسي، حاول أن يخفف وطأة الموقف أمامها بإنه أوصى شهاب كثيرًا عليها فلولا أعماله الكثيرة ما غادر بدونها وعاد لمصرحتى شهاب أصبح يزورها كل يوم بضع دقائق يقضيها بصمت وعين زائغة كمن يهرب من فعلته الشنيعة، وفي الحقيقة لم تعبأ إيناس بوجود أي أحد منهم ولا بفعلة زوجها الشنيعة... هي قبلت بالمعالج النفسي فقط بعد أن أنفقت كل طاقات التحمل والصبر، ما عاد لديها شيء تخسره أكثر من ذلك، غادر حبها وجنينها وأهلها وحلمها وزوجها فمن المتبقي؟!

***

قالت إيناس وهي تجلس على أحد المقاعد في حديقة المستشفى وبجوارها المعالج النفسي الذى أصر على أن تكون الجلسة في مكان مفتوح ليخرجها من عزلة الغرف:

_ أنا عملت كل حاجة ليهم، كنت دايمًا بحاول أرضيهم ومازعلش ماما أبدًا، بس في كل مرة كنت بفشل أكتر من الأول، مافيش حاجة بعملها بقت بتعجب

ماما حتى ذوقي في اللبس وشكلي، دايمًا في مقارنات مع رانيا... بس أنا مش عارفة أبقى زيها، وياريت بوظت حياتي بس أنا بوظت حياة كل اللي قربوا مني، حتى مصطفى بوظت حياته وخذلته وسيبته بعد ما خوفت إني أقف في صفه، هو عمل كل ده علشاني بس أنا قررت إني أنقذ نفسي وأرضيهم على حسابي، حاسة إني بقيت تايهة لا أنا ناجحة في اللي عايزينه ولا حتى اللي أنا عايزاه، حتى ابني ماعرفتش أحافظ عليه، هو أنا ليه بفشل في كل حاجة زي ما ماما بتقولي؟

_ طب أنتي جربتي كل حاجة علشان ترضيهم ومافكرتيش في نفسك، مش يمكن محتاجة تغيري مسارك شوية؟

_ إزاي؟

_ مواقفك اللي أنتي فشلتي فيها كلها منها بتبني خبرتك في الحياة، أنتي مش عارفة تنجحي لأنك دايمًا حاطة الفشل قدام عينك مش النجاح بالتالي طاقتك متوجهة غلط، حلو إنك تخافي من الفشل بس لو ده هيبقى حافز للنجاح وهيبقى هو اللي بيسلط الضوء على أي غلطة ممكن تعمليها فتحاولي تتفاديها علشان تحققي نجاحك، مافيش حد في الكون مافشلش قبل النجاح اللي وصله في أي خطوة في حياته، مش معنى إنك فشلتي مرة إنك فاشلة في المطلق، الفشل دايمًا بيبقى أول عتبات النجاح، شعورك بإنك عايزة الأحسن دايمًا ومن أول مرة وإنك عايزة توصلي للكمال دايمًا في كل حاجة حلو بس لو إتوظف صح وده اللي إحنا هنشتغل عليه الفترة الجاية.

_ هو ينفع نكمل الجلسات أونلاين، أنا مش عايزة أكمل في المستشفى....

_ أنتي زهقتي مني بسرعة كده؟!

لا أبدًا بس أنا اتخنقت من قعدة المستشفى. _

_ خلاص يا ستي هحاول أكتبلك على خروج بس لازم نعمل جلساتنا في ميعادها وأتابع معاكي أول بأول ولو حسيتي بأي أفكار سلبية أو انتحارية تكلميني فورًا.

وافقت إيناس على الفور بكل شروطه مادامت ستغادر تلك المستشفى.

وبالفعل غادرت إيناس المشفى بعد بضعة أيام بينما كلمات الطبيب لا تغادر رأسها، نعم فعلت لهم كل شيء وأيضًا خسرت كل شيء، ماذا عن رغباتها هي وأحلامها المهدرة؟

يمر يومًا بعد الآخر وهي تركض خلف إرضاء من لا يرضوا أبدًا، هل ستظل مهمشة طوال حياتها، لا أحد يهتم بأمرها ورغباتها، لا أحد يراها ولا يسمع صوتها، نسخة مشوهة صنعوها لا تستطيع أن تنظر في مرآتها، يجب أن تخرج صوتها المكتوم وتصرخ، يجب أن تخبرهم بأنها ليست جزءًا من صفقة أو آلة يحركونها كما يريدون، ليست عروس ماريونيت بائسة خيوطها بأصابعهم يراقصونها كما أرادوا، لن ترضخ لهم مرة أخرى ولن تجعلهم يتلاعبون بخيوطها كما يحلو لهم، ماذا لديها لتخسره بعد كل مافقدته؟! بالطبع لا شيء لقد أهدرت من أجلهم كل شيء حبها وقلبها وحلمها، حتى طالت خسائرها جنينها الذي تمنت أن تولد السعادة معه ولكنه هو الآخر تركها بمفرها.

فلا عجب في انفصال جنينها عنها.... ربما هو من قرر المغادرة والفرار... فمن لم يغادر حينما اقترب منها جالبة البؤس والشقاء... ربما قرر أن ينقذ نفسه من عالمها المظلم.... سيشنق عنقه بحبله السري أو يفصل مشيمته ويقطعها بأسنانه اللبنية التي لم تخلق بعد كأسنان حبها الأول التي لم تكتمل.... وبالفعل هو تحرر وفصل مشيمته هكذا أخبرتها الممرضة سبب إجهاضها... ويبدو أنه قرر أن يسلك طريقًا آخر ويتحرر منها ويفر بنفسه بعيدًا عن لعنتها.... الجميع اختاروا الفرار وكأن مسًا شيطانيًا قد أصابها.

فالأرض القفر وإن طرحت طرحها عطب.....

نعم الجميع قرر الرحيل وغادروا بعد أن تركوها ملقاة على قارعة الطريق بمفردها تتألم وتصرخ ولا أحد يبالي، فإذا لم يبالوا بها في أحلك أوقاتها وأشدها ضعفًا.. لماذا تبالي هي بإرضائهم وسعادتهم دومًا؟!

توجهت صوب منزلها وما إن وصلت لغرفتها حتى أخرجت صندوق تصاميمها من الخزانة في إصرار واختارت منه ثلاث تصاميم أرفقتها في ملف

وسجلت بياناتها في المسابقة التي لطالما حلمت بالاشتراك بها ثم أتممت الاشتراك فشعرت بعدها ببعض الراحة، فهي لأول مرة تلبي نداء واجب لموهبتها وتنصت لها.... ليته بجانبها يشاركها في تلك اللحظة السعيدة، كم تمنت أن ترسل له الآن وتخبره بذلك الانجاز تخيلت كم سيكون متحمس لتلك المسابقة وهو يدفعها بكل قوته نحو تحقيق شغفها ومجدها بكل سعادة.. لا أحد كان يقدر موهبتها مثله، لا أحد يؤمن بها مثله، ولا أحد يستحق أن تحبه وتقدره وتحزن على غيابه سواه... وجوده في حياتها كان المكسب الوحيد دومًا والمنفذ الذي يبقيها على قيد الحياة حتى الآن، ستسعى خلف حلمها وتختار لنفسها طريقًا تسلكه هكذا تمنى مصطفى وهكذا يجب أن تفعل من أجلها وأجله، وقبل أن تضع هاتفها من يدها تذكرت شيئًا يجب أن تقوم به على الفور فذهبت نحو المكالمات المسجلة، تلك الخاصية التي قامت بتفعيلها لتسمع صوت نيلي كلما اشتاقت لها لتجد تلك المكالمة الأخيرة مع شهاب، تذكرت أوجاعها في تلك اللحظة، نداء جنينها الأخير قبل أن يرحل مقتطع جزءًا من روحها لن تعوضه الأيام، مر المشهد أمام عينيها وهي تطلب منه النجدة بينما هو في عالمه الخاص يستمتع، لا أحد يعلم بخيانته حتى الآن خوفها حذرها من البوح حفظًا لكرامتها، ولكنها قررت أن تحافظ هي عليها بمنطقها وتعلن كل شيء للجميع، ستكشف لهم وجهه الحقيقي وتنزع عنه قناع المثالية الذي لطالما اختبأ أسفله، ستخبر الجميع أنها عندما كانت تصرخ من الألم كان هو صارخ بالمتعة يلهو تحت غطاء العمل والطموح، لا بد أن تفضح أمره أمامهم وتثأر لنفسها وروحها فضغطت علي زر إرسال وأرسلتها في جروب العائلة ثم أرسلت " أنا هطلق"، غادرت بعدها المجموعة على الفور قبل أن تتهافت عليها المكالمات من شتى الأنحاء وأغلقت هاتفها.

بدأت بعدها في جمع كل ملابسها ومتعلقاتها من المنزل وحجزت تذكرة طيران على أول طائرة مغادرة لمصر بعد بضع ساعات قليلة، وبينما هي منشغلة بجمع أغراضها سمعت صوت شهاب يدخل ويغلق الباب خلفه، دخل الغرفة في

غضب بعد أن وصلته تفاصيل رسالتها عن طريق والدته، ليجد إيناس قد جمعت حقائبها بالكامل وخزانتها خاوية وقبل أن يبادر بادرت هي بوجه صارم:

_ تبعتلي ورقة طلاقي في أقرب وقت ثم سحبت حقائبها وهو لايزال في مكانه ينظر لها في ذهول ثم توقفت فجأة أمامه وقالت:

" آه صحيح... مصطفى كان بيدرس وبيشتغل وبيسعى ورا حلمه بنفسه ماستغلش بابا علشان يحققله طموحه ويركبه الموجة... كان راجل بجد وبيحبني بجد... وأنا لسه بحبه لحد دلوقتي أنا مش عارفة سبته وأتجوزتك أنت إزاي ".

غادرت بعدها دون أن تلتفت إليه وهي ترمق الخوف الذى يقف خلفه بنظرة اشمئزاز بينما الآخر غارقًا في الندم، الآن فقط تشعر بأنها استعادت كرامتها مرة أخرى، إحساسها بالزهو يغمرها... تركته بعد أن نزعت عنه كل امتيازاته التي لم يستحقها يومًا وسحبت من أسفل قدميه البساط السحري ليهوى على الأرض، من الأفضل له الآن أن يبحث على صفقة أخرى تنجده، ربما دارين تساعده بشغفها وطموحها في منصبه الجديد، أما صديقها السابق فتركته يعاني هجرها كما عانت من تسلطه عليها.

*****

(٣٤)

جلس مصطفى على القهوة ينتظر قدوم مينا، يبدو على وجهه القلق والارتباك يخشى عاقبة قراره الأخير ورد فعل صديقه عندما يعلم بما أقدم على فعله، احتسى الشاي وهو مترقب حضوره وفي تلك الأثناء وصل مينا المقهى وجلس بجواره وهو ينادي:

_ ياعسيلي هاتلي واحد شاي.

ثم نظر لمصطفى وأردف:

_ ها ياسيدي إيه الحاجة المهمة اللي عايز تكلمني فيها بعيد عن المعمل؟

سحب مصطفى نفس عميق ثم قال:

_ بص أنا الصراحة قررت قرار...

_ بقلق من قراراتك!!!

_ أنا قدمت على دراسات عليا ودكتوراه في كذا جامعة بره وكمان قدمت هجرة واللي هيجيلي الأول هكمل فيه.

نظر له مينا في ذهول وهو يقول باستنكار:

_ فجأة كده قررت؟!!! طب الحلم اللي فضلنا سنين نسعاله لحد ماوصلنا ليه، هتسيب كل ده ليه ده كان طموحك يا مصطفى؟!

_ حاسس إني لسه ماحققتش اللي أنا عايزه، كل ده مش كفاية.

_ مش كفاية ليك ولا ليها؟

_ مش كفاية ليا وليها يا مينا... مش كفاية تسد إحساسي بالنقص وإني قليل أوي قدام نفسي وقدامهم، كل ما أبص في وشي أفتكر كسرتي قدامهم وعيني في الأرض، آه حققت طموحي بس ده كان قبل ما أعرفها... دلوقتي كل ده مش كفاية لازم أوصل لمكانة أعلى وأعلى، مش هرتاح غير لما أمحي الكسرة اللي أتكسرتها.

_ يا بني إنساها، هي أتجوزت وأنت أتجوزت وخلفت ودعاء بتحبك

وبتقدرك.

_ بس أنا لسه بحبها... بعدين اللي أتجوزتوا ده اختاروه علشان هو أحسن مني دكتور ودارس بره وعنده واسطة، لكن أنا ولا حاجة جنبه، حاسس إنها اتاخدت مني في وقت ضعفي ومعرفتش أبقى أد المسؤولية، كان نفسي أسمع كلامها ونهرب، بس مقدرتش أقلل منها وأقلل مني أكتر من كده... هو أنا كنت قليل أوي يا مينا مش كده؟

شعر مينا بغصة في قلبه وهو يجيبه:

_ أنت عمرك ما كنت قليل يا مصطفى أنت عملت اللي عليك لآخر لحظة والحياة مش بتكمل بمجهود طرف واحد بس لازم تفهم كده.... طب أنت قدمت ورقك خلاص؟

_ آه... وماشي في شوية إجراءات كده.

_ والمعمل؟

_ هخلصلك كل الورق علشان تبقى أنت المسئول عنه والتصاريح تبقى باسمك.

_ طب ماتفكر تاني يامصطفى؟

_ أنا فكرت وقررت خلاص، أنا مش طايق أكمل وأعيش هنا... عايز أهرب في أي مكان يمكن أرتاح.

_ ودعاء... تعرف اللى انت بتعمله ولا لا؟

_ لا... لسه علشان كده قولت أكلمك في القهوة أفضل، مش عارف لسه هقولها إمتى وإزاي بس أكيد قريب.

***

(٣٥)

"إن شكوكنا خائنة تسلب النجاحات التي نستطيع تحقيقها إن لم نخشى المحاولة "

ويليام شكسبير

***

مكثت إيناس في إحدى الفنادق بعد أن قررت أن تبدأ محاولة جديدة في حياتها، ستبدأ مرحلة أخرى بنفسها وبمفردها ستحاول إيجاد روحها المفقودة وغايتها في الحياة لن ترضخ لهم مرة أخرى ولن تعود، هكذا قررت بعد أن خاصمت الارتياب، اسم صديقها الجديد الذي أطلقته عليه بعد أن أخبرها الطبيب عن خوفها الخيالي الذي تنسجه هي بعقلها عند مواجهة أمر لا تعلم عواقبه في المستقبل، لم تنقطع إيناس عن جلسات طبيبها كل أسبوع بل واظبت عليها بعد أن استشعرت فيها بالكثير من الراحة، لازالت تعاقب صديقها رغم أنه يتبعها في كل مكان بصمت وندم يتوسل لها بعينه أن تسامحه فتتجاهل توسلاته لتذيقه من آلامها، مكثت في الفندق تنتظر رد المسؤولين على المسابقة فجاءها الرد بعد أسبوعين من تسجيلها بالموافقة والقبول حينها شعرت بالسعادة تغمرها وهي تخطو خطواتها الأولى نحو حلم تجاهلت ندائه لأعوام فها هي تلبيه أخيرًا، تعلم أنها لازالت مذبذبة، تسير بخطوات حذرة تخشى أن تتعثر، لازالت حبيسة تلك الحفرة التي سقطت بها تحاول الخروج منها بنفسها بعد أن فشلت في إيجاد المساعدة.

كوابيس الفشل تراودها من حين لآخر ورؤيا سقطاتها لا تنقطع، تعلم أنها تسير في طريق معاكس وتجازف الآن بكل ما بقي لديها من قوة، ولكنه هو طريقها الوحيد الآن للنجاة، بعد أن جربت أن تسير على خطاهم وخسرت بها كل عزيز وغالي لتخرج بنصف روح تناضل لتحيا بعد أن فارقها النصف الآخر مع حبيبها وجنينها دون عودة، كانت تحاول أن ترمم عالمها المهدوم، تسعى لبداية تشعرها ببعض الراحة والرضا، فما عاد لديها شيء تخسره سوى نفسها ومن حقها

أن تحيا كما تحب، ورغم أن الطريق الذي تسلكه وعر إلا أنها قد سلمت للسهل مسبقًا وتعلم عواقبه، ساعدتها كثيرًا تمارين الطبيب التي أوصاها بها لتهدأ أصواتها قليلًا وتعيد بناء أفكارها بإيجابية، تعلم أن كل الطرق لها ضريبة ستدفعها، ولكن هذا الطريق نالت به جزءًا من حريتها والقليل من الشعور بالرضا والراحة، قررت أن تستأجر شقة صغيرة بعد أن باعت جزءًا من مدخراتها ومجوهراتها لتسكن بها بمفردها وتعمل على حلمها في المسابقة بذهن صافي بعيدًا عن نقدهم اللاذع وتوبيخهم المستمر، بالتأكيد لوعادت لن تتركها والدتها تنعم ببعض الراحة وتكمل طلاقها، وفي الحقيقة لن ترضى إيناس بغير هذا، لذلك فضلت ولأول مرة أن تخالف كل أصواتها وتحقق شيء تريده بشدة فرغم صوته المنخفض هي تسمعه الآن جيدًا، اشترت بجزء من أموالها سيارة صغيرة صيني لو رأتها والدتها لبصقت عليها، ووضعت المتبقي في حساب بنكي ليساعدها على الحياة وخاصة في فترة المسابقة، لم ترد أن تأخذ من أموال عائلتها أي نقود، فحاجتها لهم تعني رضوخها لسلطتهم، وهي تبحث عن الحرية الآن ولن تذهب لعرين الأسد فريسة مرة أخرى، ولكنها على يقين أنها ستعود يومًا ما تحمل نفس أنيابهم.

سكنت في الشقة الصغيرة بعزلة تامة عن عالمهم، الكل يبحث عنها ما عدا والدها الذي ساعدها بكلماته الداعمة، حاول كثيرًا أن يساعدها بالأكثر ولكنها رفضت، أرادت أن تجرب تلك الحياة التى تبنيها بساعدها.... حياة بها روح المجازفة لتتصالح مع نوبات رهبتها من الفشل، لن تقبل بالهروب مرة أخرى، فالخيار الأسهل عواقبه أشنع بكثير، ستجرب واحدًا أصعب تواجه به حقائق تخشى مواجهتها، سترى العالم من منظور مصطفى وتسعى خلف حلمها بنفسها دون مساعدة، ستعيد ترتيب أفكارها وعالمها بالإيجابية كما علمها طبيبها، سترى النجاح وتتجاهل كل أشباح الفشل التي تسعى للنيل منها، سترى منها جانب واحد ذلك الذي يسلط الضوء على أخطاء ربما تقع فيها فتحاول تصحيحها أو تجنبها، ذلك الجانب فقط من يستحق أن تراه.

بدأت إيناس في ورشة التدريب للمسابقة بكل طاقتها وعزمها، بعد أن أصبحت تقضي ساعة في الصباح تركض في الهواء الطلق كما نصحها طبيبها، كانت سعيدة مرحة تملؤها الطاقة والحماس وسط زملائها، نسيت ما تعلمته في طب الأسنان بأكمله واعتادت يدها أن تمسك المقص والأقمشة وكأنها ولدت وهي تنسج خيوط الحرير وتحيكها معًا، كانت تقضي يومها في الورشة تتعلم من مدربيها الذين ساعدوها كثيرًا بدعمهم الإيجابي لها وإيمانهم بموهبتها، حينها تأكدت من أن مصطفى كان محق في كل كلمة قالها في حق موهبتها بالفعل، كان يجب من البداية أن تؤمن بنفسها وقدراتها وتسعى خلف شغفها جاهدة وطالبة للوصول مهما كلفها الأمر، في كل مرة كانت ترى نجاح خطوة تخطوها ولو صغيرة ترى الفشل يصغر ويصغر والخوف يخشع ويخشع...... والحلم يكبر ويكبر...

علمت أن ليس هناك ضرر من الخوف مادام يحمينا ولا يقيدنا ويضعفنا، ليس هناك ضرر من أن نخشى الفشل مادامت أعيننا تلاحق أحلامنا لا خيالاتنا المذعورة، فالتدع المستقبل للمستقبل وتسعى فقط خلف ما تريد دون أن تخشى السقوط، فذلة القدم تأتي عندما نصنع الحفرة في خيالنا.

فالخيال دومًا أكثر قوة من المنطق......

***

(٣٦)

جلس مصطفى أمام حاسوبه في مكتبه يسجل بعض البيانات في أوراق تقديمه على الدراسة في الخارج، يضع في أذنه السماعة ويستمع لقائمته التي تشاركه أغلب أوقاته وربما كل يوم، في العادة لا يبخل عليها ويضيف إليها أغنية أو اثنين فهو يشفق على انهاكها ودخولها طور الرتابة، نادت عليه دعاء من المطبخ تسأله: تحب أحضرلك العشاء دلوقتي؟

لم يجبها، فعلمت أنه لا يسمع صوتها من الأساس بسبب تلك السماعات، خطت بهدوء من خلفه ثم سحبت أحد المقاعد دون أن يشعر وجلست بجواره، أخذت من أذنه اليمنى طرف من سماعته ووضعتها بأذنها وهي تقول بصوت هاديء باغته فجأة: بتسمع إيه؟

ليأتيها الرد من الأغنية التي كان يستمع لها

Feeling used
But I'm
Still missing you
And I can't
See the end of this
Just wanna feel your kiss
Against my lips
And now all this time
Is passing by
But I still can't seem to tell you why
It hurts me every time I see you
Realize how much I need you……

تفاجأ مصطفى بوجودها وهي تستمع لتلك الأغنية التي بدأت تصغى لمعانيها باهتمام، دومًا تسأله لما قائمة أغانيه تحوى كل هذا الكم من الألم فلا يجيبها، يعلم أنها تشعر بكل شيء مهما حاول إخفائه ليفاجأ باسم صفحة إيناس زاهر التي تلازم حاسوبه أو هاتفه وهو يراقبها كل يوم تظهرفي إشعار جانبي فأغلق شاشة الحاسوب فجأة حتى لا تراها دعاء والتي بالفعل قد رأتها وأوجعتها كما أوجعتها كلمات الأغنية التي يستمع لها مصطفى...

I hate that I love you
Don’t want to, but I can’t put
Nobody else above you
I hate you I love you
I hate that I want you
You want her, you need her
And I’ll never be her

نزع مصطفى السماعة من أذنه على الفور وألقاها جانبًا وهو يتجاهل نظرات عيناها التي تبوح بما ينكره، قد شارفا على إنهاء عامهما الثالث معًا ومازال لا يستطيع النظر بعينيها أبدًا فالعين لا تضمر سرًا وكأنها خلقت بفطرة طفل لا يعرف الكذب فضاحة، يخشى بما ستبوح به، لا يريد أن يجرحها رغم أنه يجرحها بالفعل في كل يوم يراقب إيناس من بعيد ويتخيل حضورها وبين ذراعيه دعاء، يأبى أن يعترف بظلمه لها ولا يملك بيده سوى ظلمها بالفعل.

نعم يعلم أنها لن تصبح إيناس أبدًا.... وذلك أسوأ ما في الأمر لكليهما.

حاول أن يشتت انتباهها بحديث آخر يبعده عن نظراتها التي تزيد من وجع ضميره فهو لا يملك لها سوى بعض الضمير، ثم قال:

_ صحيح كنت محتاج منك تجهزيلي شوية ورق مهم.

وضعت دعاء السماعة جانبًا وهي تلاحظ ارتباكه فأجابته متظاهرة بالغباء الذي فرضه عليها ذكائها في حل الموقف وقالت:

_ ورق إيه؟

_ يعني محتاج جواز سفرك... شهادة التخرج والدبلومة أصلي أنا مقدم على هجرة ودراسة بره.

سألت بتعجب:

_ هجرة إيه ودراسة إيه؟.. مش فاهمة حاجة.

_ أنا قررت إني أكمل دراسة بره علشان أحسن من فرص شغلي وكمان علشان سليم يبقاله فرص أفضل في التعليم والحياة وأنتي كمان ممكن تكملي معايا بره.

_ طب ماقولتليش ليه؟

_ أنا قولت أكيد مش هتمانعي في مستقبل أفضل لينا كلنا.

_ أكيد آه، بس أنا كنت فاكرة إنك هتكتفي بحلم المعمل ودراستك هنا، وبعدين أنا هسيب ماما وبابا لوحدهم إزاي، كمان الماجستير بتاعي هسيبه كده وأمشي؟!

_ متهيألي لو أخدتيه من أي جامعة بره هيبقى أفضل.... ومامتك وباباكي ياستي أوعدك إني أبعت وأجيبهم لحد عندك أول مانسافر ومش هخليهم يسبوكي.

تنهدت بعمق ثم قالت:

_ طب ماتفكر تاني... أنا الحقيقة اتفاجأت وأنت لغبطتني خالص بالقرار ده.

_ أنا فكرت كويس يا دعاء والحقيقة أنا قررت خلاص وماشي في الموضوع... أنا شايف إنها هتكون بداية كويسة لينا كلنا.

لم تعقب سوى بهز رأسها إيجابًا ثم الصمت.

لم تتوقع دعاء أن معركتها ستدوم معها طويلًا، معركة تحاول بها أن تلفت

أنظاره المسلوبة منه، تشعره بوجودها في حياته، نعم نجح التخاطر باستقطاب جسده لكنه فشل في جذب قلبه إليها، في كل محاولة كانت تقوم بها تحلم بنتائج ترضيها فبالتأكيد سيشعر بوجودها يومًا ما، سيقع بحبها يومًا ما، فهي من بقيت بجواره وأعطته الحب والسعادة والابن وليست إيناس التي تركت ورائها جرح غائر تعالجه دعاء بكل صبر وحب، كانت تعلم أن معركتها صعبة وطويلة وتحتاج لأنفاس مديدة، ولكن إلى متى؟ ستطول أنفاسها... تخشى أن تنقطع منها في منتصف الطريق، هل ستظل هكذا على الدوام على أمل أن يفتح قلبه يومًا ما لها.... أم ستجف بحور عطائها في أحد الأيام ويخشى القلب المهانة أكثر من ذلك، لم تنكر أبدًا أنه زوج رائع وأب عظيم كما يقول الكتاب، لا يبخل عليها.. يقدرها...

ويحترمها... ويساعدها في عملها وبناء مستقبلها... ويتركها تنعم بحريتها كما تريد دون أي قيود، حتى ابنه سليم لم يبخل في عطائه له يومًا ما فهو الحياة بالنسبة له وسبب ضحكته أيضًا، استطاع أن يعطيها كل شيء عدا قلبه ليكون لها كل شيء عدا حبيب تمنته دومًا... وكيف سيعطيها ماهو ليس ملكه؟! بدأت تشعر بأنها منهكةُ تركض في مضمار سجنت روحها به وسلسلت قدماها بأرضه، تركض وتركض، ولا تصل لخط النهاية أبدًا حتى جهلت أوله من آخره وبقي الخيار لطاقة صبرها.

ولكن إلى متى ستصمد في عشق قلب مسكون بغيرها؟

إلى متى ستهوى من لا يهوى سوى الأوجاع؟!

ليتها تملك إجابة لقلبها المتعب.

***

(٣٧)

"

A good therapist teaches you to use the Tools you already have to Help yourself."

المعالج النفسي الجيد هو الذى يعلمك كيف تستخدم الأدوات التي لديك بالفعل لكي تساعد نفسك.

وهذا بالفعل ما قام به المعالج النفسي مع إيناس لتحقق حلمها مستعينًا بتلك المقولة الشهيرة في الطب النفسي، كان يدفعها نحو إيجابيات الكمالية في حفاظها على الأداء الجيد في ما تعلمته من مدربيها وكيف توظفه في مكانه الصحيح، خوفها من الفشل ساعده كثيرًا وضبط نظرتها نحو النجاح وتخطي العقبات بل والتعلم من الأخطاء، أخبرها بأن كل سقطة بداية لنجاح ما إن استغلتها جيدًا.

معه أصبحت تقبل التحدي والمجازفة، مقبلة على المواجهة لا الهرب، آمنت أخيرًا بموهبتها واختارت طريقها الذي تناسبه ويناسبها وهي تسير عليه بخطى واثقة، كانت سعيدة بكل خطوة تقوم بها في هذا الطريق رغم وحدتها بعد أن ابتعدت عن كل أوجاعها وموجعيها كما كانت تراهم، لم تعد تماطل حلمها وتسوفه، كفاها صبرًا على تجاهلها وكفاها عطاءً لمن لا يستحق، تعلمت أيضًا أن تستمتع بكل ما تفعله دون أن تخشى النقد السيء والهادم فالكمال ماهو إلا خدعة وطوق يخنق أحلامنا ويحيل بيننا وبين أي نجاح نسعى لتحقيقه، فما علينا سوى السعى والتعلم من الأخطاء، وترك أفعالنا هي من تفصح عنا.

***

كانت إيناس تستعد للخروج من شقتها ترتدي فستان سهرة قصير صنعته بيدها من التل الأسود المطرز وبطانة ستان سوداء، اليوم هو يوم عرض أزياء المتسابقين وسيحضره لجنة التحكيم والكثير من المشاهير والفنانين، كانت إيناس

متوترة بشدة، تشعر بأن الكون بأكمله يترقب عرضها، تناضل أفكارها للهروب وأناملها التي تزحف نحو حاجبيها فتبعدهم على الفور وهي تتأمل حسن فستانها في المرآة، كم اشتاقت ليوم كهذا ترتدي به على ذوقها وبصنع يدها، وفجأة سمعت صوت جرس الباب بينما هي تنهي لمساتها الأخيرة في طلتها، خرجت على الفور لتفتحه فوجدت رجلًا يحمل دفتر ويرتدي نظارة، متعطر بعطر موظفي الحكومة فسألها على الفور متعجلًا:

_ مدام إيناس؟

_ آه.

_حضرتك هتستلمي الورقة دي ووقعيلي هنا.

_ ورقة إيه؟

_ طلاق يافندم.

أخذت إيناس الورق وتحققت من بياناتها ثم وقعت اسمها وقبل أن تغلق الباب أشارت له بالانتظار لحظة ثم عادت له بالبشارة، نظر لها وهو يتعجب من اتساع بسمتها وهي تناوله ورقة نقدية كمن أنهى مدة سجنه للتو وسيخرج ليرى وسع السماء والأرض فتناول المال ولم يعقب على سعادتها.. ثم بادلها المباركة بطريقة هزلية وغادر، لا سعادة تضاهي سعادتها باستعادة حريتها، ركضت إلى غرفتها غير مصدقة أنها أخيرًا تحررت من قيودهم، ولم تعد جزءًا من صفقاتهم بعد.

لن تقبل أن تلعب أدوار ثانوية مرة أخرى، ستختار دورها بنفسها... دور يليق بها وبموهبتها، تألفة ويألفها.

أخذت بعدها إيناس حقيبتها وغادرت لتلحق بالمسابقة وقد غمرتها روح التفاؤل بقدوم هذا المحضر يحمل مفاتيح بعضًا من أغلالها الثقيلة التي تحررت منها للتو.

***

وقفت إيناس بجوار عارضة الأزياء التي ترتدي تصاميمها خلف المسرح لا تنفك عن هندمة الفستان بتوتر وارتباك، دقات قلبها متسارعة، وهي تسمع أصوات سقطاتها تأتي من بعيد فتتجاهلها، تريد أن تعود ولكن لا مجال للعودة، ثلاثة أشهر بأكملهم قضتهم في تدريبها من أجل تلك اللحظة، مروا أمامها كأنهم دهرًا من الجهد ولحظات من السعادة، ولكنه كان جهدًا يستحق... أعطاها أسباب حقيقية لتحيا من أجلها، ستعاني نعم ستعاني ولكنها على يقين أن لحظة نجاحها ستمحي كل لحظات التعب... أشارت لها منسقة الحفل بالاستعداد لدورها القادم، فشعرت بارتباك أكثر وظلت تعدل فستانها ويدها ترتجف، لاحظت العارضة الأجنبية توترها الشديد بينما المنسقة تشير إليها بـــ كفيها لتدخل بعد عشرة ثواني، ولكنها كلما خطت نحو المسرح أوقفتها إيناس بتردد وهي تقول " ثواني، لا خلاص... لا هنا مش مظبوط... لا. طب.. " وهنا لمحت ظل والدتها وهي تراقصها كدمية، ثم رأتها تنظر إليها شزرة غاضبة وأصداء صوتها يتردد بقولها المعتاد "هتفضلي طول عمرك فاشلة " ثم صوت مصطفى وهو يصف الحلم وصوت دكتورها الذي يحفزها دومًا كل هذا يدور في رأسها وتتخبط بينهم في آن واحد، نظرت أمامها فوجدت المسرح وفجأة سقط جسدها وسط المسرح يتدلى من أعلى لتجد نفسها لازالت دمية ماريونيت معلقة في خيوطها بينما والدتها تعلوها بسطوتها وقوتها وهي تحركها كما يحلو لها.... هزت رأسها بعنف مغمضة العينين وهي تردد: كل ده مش حقيقي.... كل ده مش حقيقي.

لم تفهم العارضة من كلماتها شيئًا إلا أن الشعور بالارتباك والخوف ورجفة قلبها ويدها لا يحتاجان لترجمة فأمسكت بيد إيناس لتجدها كقطعة ثلج ثم قالت بهدوء:

_Breath .

وهي تسحب نفس عميق إلى صدرها، تجاوبت معها إيناس دون مقاومة فهي في أمس الحاجة لبعض الهدوء ثم أكملت العارضة وهي تقول:

_Don't worry your Dress is perfect

ثم تركتها وخطت بثقة نحو المسرح، وقفت إيناس مكانها ترتعش وهي ترى تلك الفتاة ذو التسعة أعوام التي ترتدي زي النحلة تطوف حولها ولازالت عاجزة عن أداء قفزتها، يدها الخربة تتحرك نحو حقيبتها تبحث عن بخاختها بحركة لا إرادية لم تكن لتتخطاها بسهولة لتتذكر أنها لم تعد تستخدمها بعد تمارين التنفس التي باتت تقوم بها، ورغم كل ما يدور في ذهنها في تلك اللحظة إلا أن وصف عارضة الأزياء أراح إيناس كثيرًا وهي تشاهد ما صنعته يسير نحو النجاح أخيرًا، يبدوبأنها اقتربت من نجومها البعيدة، راقبت العارضة وهي تسير بخطى ثابتة بفستانها الذي أسمته

" black Rose "

وبالفعل ألوانه كانت لها حظ من اسمه، وصفته إيناس بأنه يحمل الكثير من مراحل حياتها وما مرت به، لكل لون قصة يحكيها، لم تصدق عيناها وهي ترى تفاعل المدعويين معه وانبهار الوجوه حتى لجنة التحكيم لمحت على وجوههم الرضا

ثم تجد اللجنة وهي ترفع علامات التقييم على لوحاتها وهنا توقف الزمن وهي ترى تقييماتهم مدونة على اللوحة، فاجأها كثيرًا تقييمهم لموهبتها وتصميمها، وقفت تنظر لهم في ذهول، بينما خلف الستار ظلت ترقص فرحًا بدرجاتها العالية، ولأول مرة تشعر بخفة قدميها لقد تحررت أخيرًا من أغلالها وباتت حرة طليقة حتى أنها وجدت قدميها تدفعها لقفزة لم تقم بها وهي في التاسعة لتفعلها الآن وقد تخطت الثلاثون... ذاقت طعم النجاح أخيرًا ووجدت لنفسها الطريق الصحيح رغم كل الأوجاع التي مرت بها، ولكن لولاها لما وصلت لتلك اللحظة أبدًا، وقفت بين الفائزات والجميع يصفق من حولها بعد أن حصد تصميمها على المرتبة الثالثة، أبهرها نجاحها دون أن تلتفت لكونها ليست الأولى ولا المثالية، لا يهم لكونها في المرتبة الثالثة... وهذا يعنى أن أمامها فرصة لتتعلم أكثر وتسعى نحو حلمها أكثر إلى أن تحقق مبتغاها في الرضا عن ذاتها وأدائها

وليست المثالية، كم تمنت أن توثق تلك اللحظة في حياتها بوجود عائلتها وخاصة مصطفى، لن يفرح أحدًا بنجاحها مثله، لن يشجعها على المزيد من النجاحات غيره، ولكن لا بأس بغيابه مادام سعيدًا في حياته ولطالما له الفضل الأول في ذرع نبتة الثقة في موهبتها خلال ربيع أيامهما معًا، هكذا اقنعت نفسها وهي تنظر للوجوه السعيدة بنجاحهم من حولها لتجد من بينهم وجه لم تتوقع وجوده أبدًا وهو صديقها الذي جاء ليحضر ولأول مرة نجاحًا جاء على حسابه، فلولا أنها خالفته لما وصلت لتلك اللحظة، فاجأها تصفيقه الحار وابتسامته الواسعة، كان ولأول مرة سعيد بحق رغم أنه لم يكن يومًا مؤيدًا لها، يبدو أنه يسعى لعقد صلح معها وبدء بداية جديدة تمحو كل أخطاء الماضي التي اقترفها في حقها، نظرت له إيناس باعتزاز وهي ترفع رأسها بكل فخر لما صنعت بينما تتجاهل نظراته بكل كبرياء.

***

Falling too fast to prepare for this
Tripping in the world could be dangerous
Everybody circling, it's vulturous
Negative, nepotist
Everybody waiting for the fall of man
Everybody praying for the end of times
Everybody hoping they could be the one
I was born to run, I was born for this

”I was born to run, I was born for this“

(٣٨)

كان مصطفى يجلس أمام حاسوبه عندما جاءه إشعار بوجود فيديو جديد على حساب إيناس الشخصي، كان هذا الإشعار الأول لها على صفحتها الشخصية بعد غياب دام أكثر من أربعة أشهر دون أي ظهور سوى لمبة وجودها المضيئة باللون الأخضر الذي بدأ تواجدها بشكل مستمر منذ ثلاثة أشهر، كانت تلك النقطة المضيئة هي النقطة الوحيدة الكفيلة على طمأنة قلبه، لولاها لغرق في عالم من القلق والتساؤلات والتخبط كما كان بالفعل في أيام غيابها في المستشفى، ذهب مصطفى على الفور إلى الإشعار والفيديو وبدأ في مشاهدته على الفور ليجد إيناس في مسابقة تصميم الأزياء وهي تنال جائزة المركز الثالث على تصميمها وبجوارها تقف عارضة الأزياء التي ترتدي فستانها، كانت سعيدة مبتسمة، كم اشتاق لرؤيتها وبتلك البسمة، خسرت بعض الوزن منذ آخر مرة رآها بينما وجهها أصبح أكثر إشراقًا، كاد يقفز من مقعده من فرط سعادته برؤيتها ورؤية نجاحها، علم الآن سبب غيابها كل هذه المدة، لتعود مرة أخرى وهي تحقق حلمها وبنفسها، لم يلمح بجوارها أحد من عائلتها ولا حتى زوجها، ذهب على الفور إلى صفحته ليتأكد ما إذا كان حاضرًا معها أم لا، ليفاجأ بتغيير الحالة من متزوج إلى علاقة مفتوحة، هرع نحو صفحة إيناس مرة أخرى ليتأكد مما رأى ليجدها علاقة معقدة.... لم يفهم حينها وضع تلك العلاقة ولكنه لم يهتم في تلك اللحظة سوى بنجاحها وتحقيق حلمها الذي لطالما تمنته.

****

في يوم عيد الأم

وقفت إيناس أمام منزل والدها وبيدها بوكيه من الورد البنفسجي وحقيبة صغيرة بداخلها زجاجة عطر والدتها المفضل، نظرت إلى الباب بتردد وحيرة، كلما رفعت إصبعها نحو الجرس أبعدته مرة أخرى، لا تعلم إذا ما كانت قادرة على مواجهتها أم لا؟؟؟

فهي لم تقابلها منذ أن حطت قدميها مصر، تعلم أنها على علم بما يدور بحياتها ولكنها لم تجرب مرة أن تحادثها أو تسأل عنها بنفسها، تكتفي فقط بسؤال زاهر عليها من حين لآخر لا أكثر هكذا يخبرها والدها بأنها تسأل دومًا عليها وتبلغها السلام، ولكن لماذا لم تحاول إبلاغها السلام بنفسها أو تهاتفها وتسأل عليها بنفسها، هل هي من تستحق أن تشعر بالغضب أم إيناس؟! من منهما من خسر في تلك الصفقة؟! ومن منهما من واجه مخاوفه بنفسه؟!

الانفصال عن القطيع ليس أمرًا سهلًا كما نظن وإنما حينها نختبر الكثير من قوانا وعلاقتنا بالآخرين، من سيصمد ومن سيركض ومن سيدعم ومن سيحبط ويلوم، لقد تخطت فترة عصيبة بمفردها بعد أن تخلى عنها الجميع ظنًا منهم أنهم الأصح وهي الخاطئة تركوها وأكملوا طريقهم وهم ينظرون إليها من حين لآخر ويراقبون سقطاتها وهفواتها ليثبتوا لأنفسهم صحة أفكارهم أكثر وأكثر، فكلما سقطت ابتسموا وهم يظنوا أنهم على الصواب وهي من سلكت الطريق الخطأ، فالتسقط ولتتحطم فمن يخالف تعاليمهم يستحق أن يسحق أكثر وأكثر دون رحمة، لم يدركوا حينها أنها تعلمت أن لولا تعثراتها لما أدركت قوتها، لما أدركت بقدرة قدميها على النهوض مرة أخرى وساعدها وهي تستند عليه فيدعمها بكل صدق وحب، فكل فشل يتبعه درس تتعلمه وكل شيء يحدث بسبب، فجميع تجاربها لها الفضل في ما وصلت له الآن، فلولا طب الأسنان ما علمت بشغفها وحبها للأزياء وليس الطب، ولولا مصطفى ما ذاقت الحب الحقيقي الصادق في حياتها دون زيف أو مصالح ولولا شهاب ما تيقنت من وجود علاقات سامة في الحياة نفضل أن نعيش بمفردنا على أن نستمر بها، نعم فليس باليسير أن تختلف وليس باليسير أن تغير أفكارًا كبرت ونضجت معك وقد تغذت بعمرك، ولكن ليس من العسير أن تصيب محاولاتك في النهاية فلا شيء يحدث هباءً على الإطلاق..... ... في النهاية قررت إيناس أن تضغط على الجرس وتواجه، وما إن ضغطت وفي اللحظة الأخيرة كانت قد وضعت هداياها أمام الباب وهرولت نحو سيارتها وهي تلهث.

كانت فريدة في تلك اللحظة تجلس على كنبة وثيرة في غرفة نومها وهي تمسك بهاتفها وتقلب بين صور عزة أختها ومن حولها رانيا ونيلي وآسر وهادي، الجميع حولها في صورها على الإنستجرام يحتفلون جميعًا بعيد الأم بين أجواء تملؤها السعادة والضحكات والأحضان، كانت تتأملهم وهي تندب حظها في حياتها وأبنائها بعد أن فارقتها إيناس وعصت أوامرها ونكست رأسها أمام العائلة معلنة تمردها، ليتبعها أخيها مراد بعد أن أعلن تمرده هو الآخر وقرر الدراسة في الخارج رغم رفض والدته لهذا القرار لتجده في النهاية يسحب حقيبته خلفه دون علمهم وهو يقول لها بملءِ فمه " أنا مش هسمحلك تدمري حياتي زي مادمرتي إيناس"

لماذا كل هذا الجحود؟، لماذا لا أحد يقدر مجهوداتها معهم وهي ترسم لهم طريقًا أفضل لحياتهم؟

ما الذي اقترفته في حياتها لتحصد هذا الكم من البطران ونكران الجميل، لم تكن في نواياها سوى أن توصلهم للقمة لتتباهى بهما أمام الجميع، تريد أن تحصد لقب أحسن أم لها وأفضل سيدة في العائلة بينما هما يحصدان أعلى المراتب دون مقارنة، هل اقترفت ذنب في حق ابنتها حين زوجتها من هو أفضل من اختيارها، من يناسب العائلة واسمها.... وهل يحق لابنتها أن تدمر سمعتها وسمعة والدتها أمام العائلة لمجرد خيانة زوجها، ألم يكن واجبًا عليها أن تتحلى بالصبر على تلك الغلطة الصغيرة لتحافظ على حياتها ومظهرها أمام الناس، تلك الأخطاء لا تظهر على الملأ ولا تفسد العلاقات وتنهيها بالانفصال، الجميع الآن يتحدث عنها، صارت لقمة في أفواههم وهم يذكرون تلك السيدة الحزينة التي ابتعد عنها أبنائها وتركوها وهربا كلًا منهما في طريقه، ستظل عزة أفضل منها في حظها وسعادتها وهي تحظى ببر أبنائها واستقرار حياة ابنتها مع زوجها وحفيدتها، وكأن النحس لا يرى سواها وكأن هدفه في الحياة هو أن ينكس رأسها في الأرض أكثر وأكثر.

وعلى الرغم من اشتياقها لإيناس ومراد إلا أن كبريائها كان من يطغى على كل لحظة ضعف تحن بها لسماع صوتهما والاطمئنان عليهما، وتكتفي بسؤال زاهر عليهما في وسط حديث طويل تختلقه لتصل لتلك اللحظة وتحظى بمرادها ثم تهدأ، ظلت تشاهد الصور ليقطع مشاهدتها جرس الباب فتذهب حينها الخادمة وتفتح الباب فلا تجد أحد وقبل أن تغلق أبوابها مرة أخرى تلمح بوكيه الورد والحقيبة على الأرض فتحملهم وتدخل وتكمل طريقها لغرفة فريدة هانم ثم تناولها الهدايا وتغادر، حملت فريدة بوكيه الورد وهي تلتقط من داخله كارت فتفتحه لتجد " كل سنة وحضرتك طيبة يا ماما... بحبك... إيناس".

ورغم جمود قلبها ووجهها من أي تعابير إلا أن تلك الهدية قد أشعرتها ببعض الراحة ثم بدأت في فتح الحقيبة الأخرى لتجد زجاجة عطرها المفضل، لم تستطع إخفاء ابتسامتها التي تكابد لتخفيها، ثم قالت هامسة وهي تعيد الزجاجة بداخل الحقيبة " كويس.. لسه فاكرة مامتك وذوقها في العطور كنت خايفة تكوني نستيني ".

***

_ ها عملتي إيه؟! سألها معالجها النفسي وهي تجلس في سيارتها، ولازالت أمام منزل والدها فأجابته بتوتر:

_ ماقدرتش أقابلها، حطيت الهدايا قدام الباب وجريت...

_إحنا قولنا الهروب مش حل، كان لازم نواجه ومافيش فرصة أفضل من دي نستغلها.

_ مقدرتش..... فجأة شوفت حياتي معاها كانت عاملة إزاي، خوفت أدخل سجنها تاني ومعرفش أطلع منه، ماما مش سهل إنها تتقبل فكرة إني ليا رأي وحياة، هترجعني لعبة تاني بتعمل اللي عايزينه وبس، أنا مش مستعدة أواجهها إنهارده.

_ إيناس لازم تعرفي إن الأفكار اللي في دماغك دي أنتي اللي بتزرعيها بنفسك، محدش بيجبرك على حاجة، أنتي بتعملي اللي عايزينه علشان قبلتي

بكده.... لازم تكوني نفسك بأفكارك وحلمك.... لو آمنتي بنفسك الكل هيؤمن بيكي، أنتي اللي بتزرعي صورتك في عقول اللي حواليكي بأفكارك عن نفسك ونظرتك ليها.

_ بس ماما مش هتتخلى عن تسلطها على حياتي وتدخلها في كل حاجة بدماغها.

_ كل واحد ليه طريقة في التعبير عن الحب، هي بتحبك وخايفة عليكي علشان كده كانت فاكرة إنها بتختارلك الأفضل دايمًا، يمكن طريقة التعبير عن الحب دي غلط.... بس أنتي لازم تعرفي هي بتفكر إزاي وشايفة الأمور من منظورها إزاي، إحنا متفقين إن كل حاجة ليها سبب، لازم تفكري بطريقتها وتحطي نفسك مكانها ساعتها هتعرفي كويس أوي هي شايفة الأمور إزاي، مش لازم نلوم ونعاتب ونتخانق.. طالما ممكن نوجد نقطة مشتركة نتشارك فيها.

_ هحاول، بس مش إنهارده.

_ وأنا مش هضغط عليكي.... أنا واثق إني هتقدري تواجهي وقريب كمان.

فهمست لنفسها تقول مؤكدة كلماته " أكيد هقدر ".

ثم أدارت محرك سيارتها وغادرت.

***

(٣٩)

جلست إيناس على منضدة صغيرة تتوسط صالة شقتها، وضعت عليها وجبة متواضعة تتمثل في ربع دجاجة وطبق من الأرز وآخر من السلطة ابتاعتهم من أحد المطاعم الصغيرة القريبة من شقتها التى حولتها بعد المسابقة لورشتها الخاصة لتصميم الأزياء.

اتخذت هذا القرار بعد مرور شهرين من فوزها بالمركز الثالث في المسابقة وقررت أن تضع كل أموالها بهذا المشروع، نعم تخاطر بكل ما تملك من أجل حلمها فلن تبخل عليه مرة أخرى وعلى مستقبلها بالتحدي والمجازفة، كان سيطها قد بدأ يذاع على مسامع المشاهير بعد فوزها وبدأ معجبوها يحفزوها لتلك الفكرة، لم تنكر ترددها إذا ما كانت ستنجح بها أم سيفشل الأمر كله، إلا أن أحد مدربيها حين استشارته شجعها على الفور لتأخذ تلك الخطوة وتستمر في ورش التعلم والتدريب أكثر وأكثر لتطور من موهبتها، فقررت حينها أن تفتح مشروعها الخاص وتنشأ علامتها التجارية تحت اسم

"black Jasmine"

كانت تلك الخطوة أكثر خطوة جنونية قامت بها في حياتها، ولكنها كانت في غاية الحماسة لها وهي تستعد لخوض التجربة بأقصى طاقتها.

هذه الساعة كانت ساعة راحتها لتناول الغداء قبل أن تستكمل تصميماتها التي تعرضها على صفحة الإنترنت، والتي بدأت تنال إعجاب الكثيرين ويتابعها المعجبون من كل مكان، وبينما هي تتناول طعامها، كان هو يتوارى خلف أحد الأبواب ينظر لها بتوسل، لم ينقطع عن تتبعها في كل مكان، تشعر به ولكنها تتجاهله فيزداد شعوره بالندم والخزي... كانت لأول مرة تراه بهذا الضعف وتنعكس الأدوار، لطالما كانت هي الأضعف دومًا، ولكن الآن الحال تبدل، صار هو من ينتظر غفرانها ويتوسل إليها أن تسامحه فيزداد إعراضها عنه..... نظرت له إيناس بطرف عينيها وهي تنهي طعامها وتنهض ثم تشير له بأن يتبعها.... فيفعل، ظلت صامتة وهي تغسل يدها بينما هو يقف خلفها منكس رأسه ينتظر

أمرها التالي حتى انتهت وغادرت عائدة لعملها فتبعها الخوف وهو يمتثل لها صامتًا في رضوخ، وقفت إيناس بمنتصف الصالة وهي تقول:

_أنت عايز إيه بالظبط؟ شهور وأنت ماشي ورايا ومش عايز تسيبني، ها عايز إيه؟

_ عايزك تسامحيني.

_ موافقة... بس بشرط؟

_ اللي أنتي عايزاه... أنا موافق عليه.....

_ تعترف أنك خسرت قدامي وأنا اللي كسبت؟

_ آه... اعترف....

_ وهتعترف إنك بتغلط ومش طول الوقت رأيك صح؟

_ آه... اعترف...

_ وأنك مش هتدخل في قرارات تاني بطريقة تضرني؟

_ بس مش هبطل احميكي.

بطريقتي مش طريقتك. _

_ حاضر.... ها سامحتيني خلاص؟

_ آه سامحتك... وأنا كمان هعترفلك باعتراف أظن من حقك تعرفه بعد المدة دي كلها... أنا ماكنتش فرحانة بغيابك بالعكس كنت مفتقداك جدًا.... ثم نظرت له نظرة جريئة وهي تقول: تيجي نرقص؟

هز رأسه إيجابًا بفرحة عارمة، بينما هي تقوم بتشغيل الأغنية يذهب هو ويطوقها بذراعه ويضمها إليه في حب وهما يتراقصان على أنغام أغنية اختارتها له بعناية لتناسبه..... ... .

I Used to be so happy but without you here I feel so low

I watched you as you left but I can never seem to let you go

Cause once upon a time you were my everything

It's clear to see that time hasn't changed a thing

It's buried deep inside me but I feel there's something you should know

I will never forget you

You will always be by my side

From the day that I met you

I knew that I would love you 'til the day I die

وهنا سمعت إيناس صوت جرس باب الشقة، فأغلقت الأغنية وركضت نحو الباب لتفتحه لتفاجأ بوقوف رانيا أمامها

_ رانيا!!!

_ آه ياستي... رانيا، إيه ماكونتيش عايزة حد مننا يعرف العنوان ولا إيه؟

_ أنتي عرفتي العنوان منين؟

_ طب مش تدخليني الأول، ولا أمشي؟!!!

_ آسفة معلش، تعالي أدخلي....

دخلت رانيا بخطوات حذرة وهي تدور بعينيها في الأرجاء مشغولة باستكشاف معالم المكان، لم يبد على وجهها السعادة مما تراه فالمكان أشبه بشقة متواضعة يستحيل أن تقبل أن تسكنها يومًا، فكرت بأن ربما يسكنها جرذان أيضًا فشعرت بقشعريرة بمجرد تخيلها، كان أثاث المكان متواضع، قديم ولكن بحالة جيدة، جلست على مقعد الأنتريه وجلست بجوارها إيناس، التفتت رانيا إلى معصم إيناس المعقود به إسفنجة مستديرة مغروس بها سنون الدبابيس وحول عنقها شريط قياس، أشارت نحوهما وهي تقول بتعجب:

_ ده اللي إحنا سمعناه طلع حقيقي بقى؟!

_ إيه ده أنتوا سمعتوا بس وماشوفتوش؟! قالتها ببعض التهكم ونصف ابتسامة من لم يعد لديه ما يخسره....

_ أنا شوفت بس ماصدقتش عنيا.... أنتي إتغيرتي أوي يا إيناس!!!!
_ ماقولتليش عرفتي العنوان منين... بابا مش كده؟
_ هو أونكل زاهر عارف عنوانك وماقلناش، ده كل اللي أعرفه أنه بيتواصل معاكي فون بس، بس عمومًا مش أونكل زاهر لا، وبعدين عنوانك دلوقتي مش حاجة صعبة ده أنتي بقيتي من المشاهير في عالم الأزياء خلاص والكل عارف عنوانك... وعمومًا إحنا عرفنا العنوان من شهاب، مش أنتي اللي بعتيله العنوان ده علشان يبعتلك عليه ورقة الطلاق؟
_ آه... هو كلمكم؟
_ لا أنا شوفته في النادي صدفة... على فكرة هو إتجوز دارين وشوفتها معاه هناك، بس أنتي ليه ماقولتليش على حوار دارين ده؟
_ وإيه اللى هيتغير لو قولتلك؟
_ أكيد كنا هناخد موقف يا إيناس ونلحق الموقف بدل ما يوصل للطلاق، خالتوا من ساعتها وحالتها النفسية زفت وأنتي كمان مش بتسألي عليها خالص....
_ أولًا ماكنش ينفع أكمل مع شهاب لأنى قولتلكم إني مش بحبه، وأكيد ماكنتش هكمل معاه بعد خيانته وكونه سبب في اللي حصلي وموت ابني، ثانيًا أنا بطمن على ماما وبسأل عليها بابا دايمًا وهو بيزورني كتير أوي، بس هي مافكرتش لا تتصل مرة ولا تزورني مرة أو حتى معاكي؟
_ زعلانة يا إيناس، وده من حقها، أنتي اتمردتي عليها وكسرتى كلمتها وكمان إتطلقتي من غير ما تقولي....
_ رانيا تشربي إيه.... عندي عصير.....
_ تمام... هقفل الموضوع ومش هتكلم تاني فيه، وهاتي ياستي العصير اللي عندك.
غابت إيناس لحظات ثم عادت تحمل كوبين من العصير ناولت واحدة لرانيا وهي تسأل:
_ صحيح نيلي فين وحشاني خالص؟

_ مع ماما سبتها شوية قولت ارتاح منها، أنا حاسة إني تعبت ومابقاش فيا أي طاقة، الصراحة أنا كمان بفكر انفصل!!!!

_ نعم، أنتي بتهزري ولا إيه؟

_ ياريت... بس حقيقي العلاقة بيني وبين آسر مابقتش زي الأول، أنتي علشان بقالك كتير أوي بعيدة عننا، هو طول الوقت مشغول وأنا طول الوقت مع نيلي وطلباتها اللي مش بتخلص، حتى اهتمامي بنفسي قل، حاسة إني آسر زهق مني، وأنا زهقت من حياتي بالشكل ده، بقينا كل ما نجتمع نتخانق على أتفه الأسباب... أنا حاسة إني أتسرعت في قرار الجواز والمسؤولية وبدأت أندم وهو كمان شكله بدأ يندم.

_ ماتفكريش كده.... دي بس ضغوط الحياة مش أكتر، آسر بيحبك يارانيا، بس يمكن أنتي محتاجة تغيري في حياتك شوية يعني الاهتمامات والهوايات، حاولي تشغلي نفسك بحاجة بتحبيها.....

_ إتغيرتي أوي يا إيناس كأني بشوفك لأول مرة... بس التغيير ده عاجبني...

شعرت إيناس ببعض الفخر من مدحها، من الآن يثنى على من؟! انقلبت الأيام وانقلبت معها الأحوال والأدوار، هل كانت إيناس تتخيل يومًا أن رانيا تحادثها عن سقطاتها وهي تتظاهر دومًا بأنها شامخة عالية كقمة جبل إفريست بين قمم الجبال من حوله... دومًا متألقة ومحط كل الأنظار، لتأتي اليوم تثني على إيناس وتغييرها، نعم شيء عظيم يستحق أن تعجب به وله أيضًا....

يبدو أن هناك من تقبل تغييرها وأعجب به فكما وصف لها المعالج النفسي التغيير في الأفكار مثل أن تزرع وردة وسط حقل من الصبار، في البداية ستجد أن الأمر غير مألوف ولكن عندما تراه كل يوم ستعتاد عينك عليه وتألفه، كذلك تغير أفكارنا ستشعرك بالغرابة في البداية كغرابة الأزهار مع الصبار ولكن مع تكرار غرابتها ستتوطن عالمك وتترسخ في ذهنك وتعتاد عليها.

نهضت رانيا من المقعد واتجهت نحو مانيكان يرتدي فستان سواريه من الستان الرمادي تعمل إيناس على إنهاء تصميمه ثم تقول بنظرة متفحصة:

_الفستان ده ناقصه إكسسوارات باللون الفضي، هتخلي شكله تحفة.... بصي ثواني أنا لسه مشترية حاجة أونلاين فضة واستلمتها قبل ما أجيلك على طول.

ثم اتجهت نحو حقيبتها وأخرجت منه عقد من الفضة مطعم بأحجار حمراء وضعته حول عنق المانيكان ليتدلى حول عنق الفستان ثم سألت بحماس:

_ إيه رأيك؟

انبهرت إيناس بالشكل العام وهي تقول بإعجاب:

_ تحفة يارانيا.... تصدقي كده أحلى بكتير

_أي خدمة... أنتي عارفاني في الإكسسوارات والمجوهرات دي هوايتي

وهنا طرأت على إيناس الفكرة فقالت على الفور:

_ طب إيه رأيك تشتغلي معايا وتعملي لنفسك براند في الإكسسوارات وتصاميمها.

_ إيه ده بجد، أنا عمري مافكرت في حاجة زي دي رغم إني بعشق الإكسسوارات، بس تفتكري هنفع؟

_ وليه لأ؟

_ بس خايفة ماحدش يوافق على حاجة زي دي، أنتي عارفة ماما وحماتي وآسر، خايفة معرفش أواجه زيك؟

_ حاولي وشوفي... يمكن الموضوع يبقى سهل ويوافقوا بسرعة، بلاش تحكمي غير لما تجربي....

_ خلاص أنا هعمل بنصيحتك وهجرب، ويارب يوافقوا

ثم نهضت وهي متقدة بالحماسة واتجهت نحو الباب وهي تكمل:

_أنا همشي بقى علشان أقترح عليهم الفكرة دي... أنا متحمسة أوي ليها، أنتي مش متخيلة الفكرة عجبتني إزاي......

ثم قبلت إيناس وغادرت وهي تتقافز في سرور

لم تستطع إيناس أن تكتم ضحكتها العالية وهي تشعر ببعض الانتصار، فاليوم هي من يضرب بها المثل في القوة، أصبحت مصدر إلهام ولها رأي ومشورة

ونصيحة، بعد أن كانت بالأمس مصدر البؤس والشقاء تسمع وتنفذ دون أن تخرج حرفًا بانصياع... ظلت إيناس تقهقه وتقهقه ولم تستطع أن تواري تلذذها بتلك اللحظة... فاليوم هي من أصبحت المؤثرة وليست التابعة.

*****

(٤٠)

دخل مصطفى منزله ليجد الهدوء يعم الأجواء استقبلته دعاء بفستان وردي طويل وقد أعدت مائدة من أشهى الأطباق، ثم دعته ليجلس على المائدة وتفوهت بابتسامة عذبة:

_ أنا وديت سليم عند ماما إنهارده علشان محتاجة أتكلم معاك شوية في موضوع مهم... بس طبعًا بعد الأكل...

ثم ناولته الطبق وبدأت في تقديم الطعام على طبقه، انتهى عشائهما سويًا ثم ساعدها مصطفى في حمل الأطباق إلى المطبخ وحين انتهى جلسا حول السفرة مرة أخرى وأمامهما كوبين من الشاي ثم بادر مصطفى بالسؤال:

_ ها يا ستي إيه بقى الموضوع؟

ارتبكت دعاء قليلًا، ولمح مصطفى نظرة غير مريحة ثم نطقت أخيرًا قائلة:

_ أنا قررت إننا ننفصل......

_ نعم!!!... أنتي بتهزري صح، اللي حصل إمبارح ده كان...... كان ذلة لسان مش أكتر.

تذكر أمس وهو يحتضن دعاء بين ذراعيه، ويهمس في أذنها باسم إيناس، تمنى في تلك اللحظة أن يتبخر من الوجود أو أن تكون دعاء غابت عن الوعي، تمنى وجود أي حل ينقذه من تلك الورطة ولو حتى أصابها صمم لحظي يخلصه من بعثرة لسانه بكل ما يدور في عقله ومخيلته، ذلك اللئيم الذي لا يبطن أسراره... ارتبك كثيرًا حتى تلاشت اللحظة فظن أن دعاء لم تلحظ الأمر....

_اللي حصل إمبارح ده مش أول مرة يحصل يا مصطفى...

الأمر ليس كما تمنى، يبدو أنه سيستقبل الآن طعنة أخرى لتكمل طعنة إيناس....

_ أنت عارف من ساعة ما أتخطبنا وإتجوزنا ناديتني إيناس كام مرة؟

وقف مصطفى ينظر لها في ذهول يخشى سماع ما توشك على قوله، أيقن

هنا أن دعاء ليست ككلب أليف تنتظر أن يمسح على رأسها، أو صخرة لا تنطق، ها هي تنطق.... وما طوته في قلبها لأعوام سيخرج الآن في وجهه كألسنة اللهب
_٦٧ مرة يا مصطفى.... ٦٧ مرة بإيناس، حفظاهم وعداهم وحافظة كل موقف فيهم.

بل وتشعر بخناجرهم.. ؟!

_دعاء... أنا...

_ من فضلك أسمعني.... أنا مش عارفة ممكن أجمع القوة دي تاني ولا لا، أنا عارفة يا مصطفى إني أنا اللي قبلت إني أدخل الدايرة دي وأدخلك معايا... كنت فاكرة الأيام وحبي هينسوك، أنا عارفة إني مش بإيدك تنسى ولا بإيدك تغير اللي في قلبك واللي بتحبها بس أنا طمعت في حاجة مش من حقي، طمعت فيك تكون ليا، واتمنيت إنك تكون معايا أنا.....

علشان أنا اللي أستحقك وأنا اللي بحبك، بس قراراتي كلها طلعت غلط... قلبك اختار وده غصب عنك، مش سهل تشيل اللي بتحبه من قلبك وتحط حد تاني مهما مرت السنين والأيام، يعني أنا لو حد قالي هتحبي حد غيرمصطفى مش هصدقه!!!

_ طب ما أنتي بتحبيني أهو عايزة تسيبيني ليه؟!!!!

_ أنا اللي بحبك يا مصطفى، أنت قولتها أهو مش أنت؟ أنت معايا بجسمك بس، لكن كيانك كله معاها، أنا حاولت كتير بس تعبت، نفسي في حياة هادية وحد يبقى بيحبني وحاسس بيا، هفضل لحد أمتى أجبرك على حبي وإنك تكمل معايا؟!

أنا مش مجبر يا إيناس... آسف يا دعاء.... _

ابتسمت دعاء بقلة حيلة وأكملت:

_ قولتلك مش بإيدك يا مصطفى، مش بإيدك تحبني ولا بإيدي إني أكرهك، بس بإدينا نحافظ على العشرة الطيبة واحترامنا لبعض حتى قدام ابننا، ده أحسن قرار لينا إحنا التلاتة.

_ لا مش أحسن قرار، حتى علشان سليم... هيتربى بينا إزاي؟!

_ هيتربى على الحب اللي شافه واللي هيشوفه مننا ليه، أنا مش هعرف أسعد ابني وأنا مش سعيدة، أنا قررت يا مصطفى علشان أنت تشوف حياتك وأنا أشوف حياتي...

_ يا دعاء إحنا كنا هنسافر سوا ونبدأ حياة جديدة مع بعض وأوعدك هحاول أعوضك على قد ما أقدر.

_ ما تكدبش على نفسك يا مصطفى، وبعدين أنت اللي قررت تسافر مش إحنا، أنا مش هسيب حياتي هنا وماما وبابا، أنت عايز تهرب وتدور على حاجة أنت مش عارفها وتعوض إحساسك بفقدانها، بس أنا مش محتاجة كل ده أنا بحب هنا وعايزة أكمل مستقبلي هنا مع أهلي وماتقلقش سليم هيبقى وسطنا طول الوقت ومش هتحس أنه بعيد أبدًا..

_ بصي أنا خارج وعايز أرجع البيت ألاقي كل الأفكار دي شيلتيها من دماغك أنا مش عايز أطلقك، من فضلك يا دعاء إهدي وأديني فرصة تانية.

ابتسمت دعاء بتهكم وعيناها تلمع بالدموع وقالت:

_ أنا أكتر واحدة عايزة الفرصة دي يا مصطفى، بس أنا أكتر واحدة عارفة نتيجتها بردو...

لم يعقب مصطفى على قسوتها وغادر وهو يصفق الباب من خلفه، لا يعلم إذا ما كان غاضبًا أم متفاجأ، تتملكه الحيرة، يد تطلق سراحها ويد تمسك بها، ليت روحه من تمسك الآن ليغادر هذا العالم ربما يجد الراحة في عالم آخر، جلس على الرصيف المقابل لبنايته التي يقطن بها، يتأمل ضوء نافذة غرفة نوم سليم، هل سيتركها تنطفأ هي الأخرى كعالمه المظلم؟ أم سيقاتل من أجله وأجلها... لا يظن أنه يقوى على القتال بسيف ثلم، أين ذهبت طاقته؟!!!!

أهدرها على نيل قلب فارقه حين خسر جولته الأولى..... ..

نظر إلى سمائه العليا ليجدها باللون الرمادي تملؤها سحب ضبابية وأشباح أدخنة رمادية، كان وقتها المغيب وقد شارفت السماء على بلع ما تبقى من ضوء

النهار، وجد نفسه حبيس ذلك الوقت الذي لا يمر أبدًا.. لا هو نال ضياء شمسه ولا هدوء وجمال قمره.

لا عزاء لقلب هائم في ظلمته، أبله وأناني، أعمى البصيرة، يدب في آراضٍ غير آراضيه ويترك آراضيه العامرة مرعى للغربان السوداء تنهشها، يأبى العطاء لمن أعطوه ليعطي من بخلوا عليه، اليوم الحجارة نطقت والعواصف هبت والبحار هاجت وماجت، اليوم خالف كل توقعاته في حياة تسير على وتيرة متطفل يمتص الرعاية والحب من أحبائه دون مقابل، قلبه فضل عتمة حبه المجهول على ضياء حب يشرق في ظلمته، سيظل يدق على أبواب لا تفتح بمفتاحه الصدىء فإن لم يكن براقًا لامعًا لن يليق بأبوابهم، فالتجوب العالم بحثًا عن البراق ولتترك من بروك ولم تبرهم وأحبوك ولم تحبهم وأعطوك فجفت بحور عطائك على أعتابهم لعلك تجد ضالتك...... لعلك!!!!!!

أرسل لدعاء رسالة أخيرة يتوسل إليها " من فضلك فكري تاني "
وكأن الطفيل لم يقبل بتمرد العائل

لتجيبه " من فضلك يا مصطفى ماتصعبش الأمور أكتر من كده... ده قراري".

لا عائل لك الآن، فلتعول نفسك بنفسك فمادمت لا تعطي فلا يحق لك أن تأخذ أو تملك وجهًا لتطلب!!!!!!.....

***

(٤١)

لم يهدأ هاتف إيناس منذ أن أعلنت افتتاح ورشتها لتصميم الأزياء بشكل رسمي، انهالت على رأسها الكثير من الرسائل يوميًا من معجبيها، بعد أن تألق اسمها بين مشاهير مصممي الأزياء الموهوبين وأصبح اسمها يتناقل بين أفواه الكثير من الفنانين والممثلين، كانت تعيش وسط حلمها في أزهى عصوره، حلم لم تكن تتخيل أنه سيشرق له صباح يومًا، كانت تأتيها الكثير من الرسائل التي تشعرها أنها على الخطى الصحيحة.... تشجعها وتدفعها كل يوم إلى الأمام، فنصحها معالجها النفسي ألا تعتمد في طاقتها الإيجابية على تلك الرسائل كثيرًا حتى لا تقع في شرك أن ترى نفسها بعيون الآخرين مرة أخرى، فقناعتك بنفسك ونجاحك لابد أن يظل كامنًا بداخلك، ليمد لك يد العون في السقطات، كانت إيناس حريصة على جلسات علاجها معه، فلم تعد تراه معالجها بل صديق واعٍ يحاول دومًا أن يقدم يد العون لها.

ولكن ما أذهلها حقًا أنها تفاجأت في الأيام الأخيرة برسائل كثيرة من فتيات العائلة، تحمل الكثير من التهنئة والمباركات لما وصلت له وحققته، أصبحن يتغزلن في أزيائها وتصاميمها البديعة التي لم يكن ليلقين عليها نظرة خاطفة مجاملة من أعوام مضت، ولكن بعد أن سُلط الضوء عليها تغير الأمر، كانت الرسائل تبدأ بالتهنئة ثم الثناء على تصاميمها ثم تحديد موعد قريب وفي النهاية قبل الوداع تختتم برجاء ألا تبلغ أحد بتلك الرسالة حتى لا يدري كبار العائلة بفاجعة إعجابهم بمتمردة خرجت عن طوعهم، أعجبها جزء الرجاء كثيرًا وهي تسخر من كل رسالة تحمل هذا الرجاء، فسر الإناث رغم كتمانه لابد أن يتخطى صداه الأرض ليصل للمريخ، كان هذا حالها معهن يطلبن منها كتمان السر ويذعن هن السر بكامل إرادتهن.

وفي أحد الأيام بينما إيناس تقرأ بعض الرسائل توقفت أمام واحدة في دهشة، كانت رسالة غير متوقعة من شخص تعرفه جيدًا رغم أنها لم تره سوى

مرة واحدة في حياتها.... الرسالة أرسلت إليها منذ ثلاثة أيام ولكن بسبب ضغط عملها وتزاحم الزبائن وطلباتهم لم تكن تتصفح رسائلها كل يوم... ضغطت على الرسالة بحذر فاتسعت بملىء الشاشة ثم بدأت تقرأها في ترقب ودهشة

"إزيك

أنا دعاء معرفش إذا كنتي فكراني ولا لا؟، بس الحقيقة إني أنا مانسيتكيش من أول مرة شوفتك فيها مع مصطفى في الكافيه، أنا اللي إتجوزت مصطفى خطيبك السابق، معرفش أنا ببعتلك ليه دلوقتي، ولا أعرف إذا كنتي تعرفي إن أنا ومصطفى انفصلنا من مدة ولا لا، هو إحنا فعلا انفصلنا وآه بسببك، يمكن لأني حاولت معاه كتير أنه يحبني وبكل الطرق إلا إنه كان ومازال بيحبك أنتي رغم كل اللي قدمتوا ليه! مصطفى مبطلش يتابع أخبارك يوم واحد بس هو ميعرفش أنك انفصلتي زي ما أنا أعرف يمكن علشان متابع الأكونت بتاعك بس وخايف يسأل عليكي أي حد، أنا مش عارفة إذا كنت بكرهك ولا لا بس متأكدة إني مش بكره مصطفى رغم كل اللي حصل، المشكلة كانت من البداية فيا لما حاولت آخد حاجة مش بتاعتي وكانت ملكك، ورغم كل الألم اللي سببتهوله إلا أنه عمره ما خرجك من قلبه وعلى فكرة لسه محتفظ بشجرة الياسمين وبيعتني بيها علشانك والساعة والبيرفيوم اللي بيرفض يغيره والصور وخاتم الخطوبة وكل تفاصيلكم سوا أنا حتى عارفة هو شايلهم فين بس كنت بحاول أعمل إني مش عارفة ومش فاهمة ومش شايفة، عمومًا أنا عايزة أبلغك إن مصطفى قرر يهاجر وطيارته يوم الإربعاء الساعة ٥ مساءً صالة ٢ يمكن تحبي تودعيه ".

أنهت إيناس رسالتها ولكن الدهشة لم تنتهي بعد، نعم أخفت حالتها الاجتماعية ولم تبوح بانفصالها حتى لا تعكر صفو حياته بالفعل، فربما هو لازال يفكر بها كما هي تفعل، فرغم كل ما مرت به والنجاح الذي جاء ليعوضها ما عانته إلا أن مصطفى وذكراه لازالت جرحها الذي لا يندمل أبدًا كجرح جنينها، مواقفه معها لا تفارق مخيلتها وصارت محفورة بها رغم أنها لم تكن لتتذكر موقفًا واحدًا يجمعها بشهاب وكأنه لم يكن، لماذا قرر الهجرة الآن ولماذا لم يخبرها بانفصاله؟!

كلاهما يراقب من بعيد ويخشى أن يخطو في اتجاه الآخر... هل قرر أن يغادر الآن بعد أن بدأت إيناس للتو أن تستشعر بحياتها وتخطو بنفسها بعد أن نزعت خيوطها من أيديهم وتحررت أخيرًا من قبضتهم المستعصية، ماذا عليها أن تفعل، هل ستتركه يضيع مرة أخرى من بين يدها، هل ستظل تخشى المواجهة والاعتراف؟

أنتِ بالفعل حصدتي لقب متمردة، لماذا لا تكوني متمردة وسعيدة بعد أن تستعيدي حبك الحقيقي؟!!!

هكذا همست لنفسها...... ، نظرت إيناس ليوم السفر لتفاجأ بأنه اليوم، والساعة الواحدة ظهرًا الآن، لا وقت أمامها.... تأملت الرسالة بارتباك إلى أن تذكرت معالجها، ستذهب وتستشيره، حاولت الاتصال به مرات عديدة ولكنه لم يجبها، لم تعتد أن تحادثه في غير موعد الجلسة ولكن الأمر طارىء لم يعد هناك سوى أقل من أربع ساعات، في النهاية فشلت في الوصول إليه فإزداد ارتباكها ماذا عليها أن تفعل؟ تخشى المواجهة وتخشى أن تضيع فرصة ربما لن تكرر مرة أخرى، دعاء تخبرها في الرسالة بأنها هجرة، لقد انتوى أن يفارق دون عودة، ماذا لو كانت فرصتها الأخيرة لتلقاه، هل ستتحمل اللوم في أن تضيع منها مثل تلك الفرصة لتبوح بما أخفته لأعوام، لما كل شيء يحدث بشكل معاكس فحين تتلقى خبر انفصاله وتتأكد بأنه لازال يحبها يقرر الهجرة وتتلقى هي الرسالة قبل سفره ببضع ساعات أي حظ هذا؟!!!!!

وكأنه القدر يريد أن يتلاعب بأعصابها لآخر نفس.... ماذا عليها أن تفعل الآن؟!!!!

تذكرت حينها جملة ترددت على مسامعها من فيلمها المفضل حين قرأت كلير رسالة جولييت لها

" تحتاجين الشجاعة وحدها لتتبعي قلبك "

حضرت الجملة في ذهنها لتنقذها من حيرتها ثم قالت فجأة " الرسالة.... الكتاب"

ركضت نحو حقيبتها وأخرجت منه الكتاب يحوى رسائلها لجولييت وأخرجت ورقة وقلم وقبل أن تشرع في كتابة رسالتها وجدت معالجها النفسي يتصل بها فأجابته على الفور:

_ ألو... أيوه يا دكتور....

_ إزيك يا إيناس؟

_تمام... بس مش تمام!!!!!!

_مالك قلقتيني؟! إنهارده مش ميعاد الجلسة......

_ في رسالة جاتلي من دعاء مرات مصطفى أو طليقته دلوقتي بتقولي أنه مسافر إنهارده وهجرة، هما انفصلوا من مدة وقالتلي بسبب أنه لسه بيحبني.... بس أنا مش عارفة أعمل إيه..... حقيقي متلخبطة....

_ فكرتي في إيه؟

_ مش عارفة أفكر...

_ طب هترتاحي لو ماشوفتيهوش؟

_ لا حاسة إني ممكن أندم على إني ضيعت الفرصة دي من إيدي العمر كله....

_طب ما أنتي جاوبتي السؤال أهو.... وهنا سمعت صوت ذكوري ينادي " دكتور... من فضلك عايزينك".

معلش يا إيناس أنا مضطر أقفل دلوقتي... سلام. _

محادثته أشعرتها ببعض الارتياح..... فركضت على الفور نحو الورقة والقلم وهي تردد "تحتاجين الشجاعة وحدها لتتبعي قلبك"

هناك فرص إن أهدرتها ستظل مابقي من عمرك تتمنى رجوع الزمن إليها مرة أخرى ولن تترك إيناس تلك الفرصة تضيع من يدها كما أضاعت الكثير، يكفيها ما فقدت، لن تدع الخوف يسلبها فرصتها الأخيرة... نعم ستتحلى بالشجاعة....

***

جمعت إيناس حقيبتها بسرعة وركضت لتلحق بموعد طائرته ربما تستطيع أن تصلح جزءًا من ما تسببت به، ولكن حين وصلت لباب شقتها رأت الخوف يقف في تحفز أمامها... لم تسمع صوته ولكنها نظراته التي لم تطمئنها، هل سيقف في وجهها، تذكرت معاهدة السلام التي عقدتها معه لم يمض عليها سوى بضعة أشهر هل سينقلب عليها؟. .. هل سينقض المعاهدة ويعود معلنًا هيمنته على حياتها.... وتفقد فرصتها الأخيرة ويضيع مصطفى إلى الأبد وهنا جاءها رده لتساؤلاتها ليفاجئها وهو يفتح الأبواب على مصرعيها ويشير لها بكل حماس لتنطلق... وبالفعل انطلقت بنفس حماسه.....

***

(٤٢)

كان مصطفى يقف أمام إحدى صالات السفر بصحبة نادر ومينا اللذان حضرا معه ليودعانه، لم يتحمل وداع والديه له في المطار فاكتفى بتوديعهما قبل أن يغادر وكذلك سليم ابنه ودعاء على أمل للقاء قريب يجمعه بهم ما إن يصل ويستقر في عالمه الجديد، وقفت إيناس أمام الصالة رقم ٢ أخيرًا بعد أن كادت في أن تتسبب بهلاك نفسها من شدة سرعتها في القيادة، تخشى فقدان فرصتها وفقدانه معها، لتجده يقف على بعد أمتار مع مينا ونادر... أطالت النظر له من خلف الزجاج قبل أن تسحب شهيق طويل ثم تفتح باب سيارتها وتهبط لتجد قدميها يعرفان وجهتهما دون تعثر، وعلى بعد خطوات قليلة منه لمحها مصطفى تقف أمامه وهي تبتسم، انسحبا صديقاه في هدوء جانبًا بينما إيناس أكملت خطاها نحوه وهو يقف مندهشًا، لم يتوقع أبدًا أن تأتي إيناس لوداعه رغم أنه لم يتمنى وجود أحدًا في تلك اللحظة غيرها ليكون وجهها هو آخر ما يراه قبل أن يرحل... اقتربت منه فاقترب هو الآخر خطوة وقال بدهشة:

_ إيناس؟!... بتعملي إيه هنا؟

_ جيت أشوفك قبل ما تسافر، إيه ماكنتش عايز تشوفني؟

_ أنا... أنا بس ما توقعتش إنك هتعرفي بسفري، صحيح هو مين اللي قالك؟

_ مش مهم أجاوب على الأسئلة دي دلوقتي.... المهم أعرف أنت خلاص هتمشي؟!

قالتها وهي تحبس دموعها وصوتها بدأ يتهدج ويختنق

_ للأسف آه... محتاج أبعد شوية عن هنا، مابقتش لاقي نفسي هنا....

اغرورقت الأعين بالدموع وقبل أن تنطق إيناس لمحت نادر ومينا يشيران له ليلحق بموعد الطائرة حتى لا تفوته الرحلة فنظر لإيناس وقال:

_ أنا مضطر أمشي دلوقتي علشان ألحق ميعاد الطيارة

_ طب ثواني خد ده.... وهي تمد يدها بظرف يحوى ورقة مطوية... ثم أكملت... لو قبلت هتلاقيني مستنياك في عربيتي هناك.... سلام يا مصطفى.....

أخذ مصطفى رسالتها في تعجب وودعها بعينيه ثم ودع صديقيه بالأحضان وأخذ حقائبه ودخل الصالة..... ..

***

جلس مصطفى في صالة الانتظار وأخرج الظرف من جيب جاكتته ثم فتحه وبدأ يقرأ خطابها:

"عزيزي مصطفى... لست عزيزي بل حبيبي الذي لم يدق قلبي لسواه.....

لم أكن أتمنى أن أحيا تلك اللحظة التي سأرسل لك فيها خطاب.. ولكنني أحياها الآن وفي الحقيقة أنا من تسببت بوجودها أيضًا....

فاجئني قرار رحيلك وانفصالك، في وقت كنت أجاهد نفسي لكي لا تركض إلي أحضانك.... ظننت أني حينها سأدمر حياتك المستقرة، ولكن يبدو أنني دمرتها بالفعل مسبقًا... أعتذر على كل أذى تسببت به لك، أعلم أن اعتذاري قد تأخر كثيرًا، ولا أعلم هل يحق لي الاعتذار أم لا؟

فهل خلق اعتذار لمحطمي القلوب ومخذلي المحبين من لم يستطيعوا مواجهة مخاوفهم؟.. لا أظن.... ولكن ربما خُلِق من يمكن أن يقبل بهذا الاعتذار.. ربما. أعلم أني خذلتك وتركت يدك في وقت كان يجب أن أمسكها جيدًا، لكني فشلت وتركت مخاوفي تغزو عالمي وتفرض سيطرتها، لم أنل الراحة منذ أن تخليت عنك، وكأن قلبى كتب عليه شقاء دائم!!!! حتى القدر لم ينفك عن صفع وجهي وكأنه يصر على إيقاظي من تلك الغفلة، آخر صفعة كانت مؤلمة بشدة لم أتمنى وجودك في حياتي كما تمنيت في مثل ذلك اليوم حين فقدت جنيني، منذ ذلك الحين لم يعد الأمر كما كان أبدًا وباتت فكرة مغادرة الحياة أمر حتمي، أعلم أن كل هذا لم يكن لديك به علم، لأني لم أوثق تلك الأمور على حسابي الشخصي لأن هواجسي أخبرتني إنك لازلت تتابعه أيضًا أوهكذا تمنيت مثلما كنت أتابعك أنا في صمت.... صمت أحمق أخرسني وسلبني حبك، منذ تلك الأزمة وأنا أقوم بجلسات علاج نفسي، ربما بدونها لم أكن لأكتب ذلك الخطاب الآن أو ألحق بك في آخر فرصة لأراك، لقد مررت بالكثير وكنت معي دومًا في كل

لحظة في حياتي، أهرب إلى ذكرياتنا سويًا وصورنا لأحتمي بها من قسوة الحياة....

the fault in Out Stars هل تذكر ذلك الفيلم الذي شاهدناه سويًا في السينما؟ كان به اقتباس مدون على حائط منزل أغسطس ذكرته هايزل في جنازته يقول " إن أردت رؤية قوس قزح فعليك احتمال المطر".

"If you want the Rainbow , you have to Deal the rain"

لا أعلم لما علق ذلك الاقتباس في ذهني في تلك اللحظة، ولا أدري حتى ما مغزاه... ولكن الأيام كانت أفضل معلم لي لتريني المغزى الحقيقي في كلماته البسيطة.... أنا من لم تستطع أن تصمد تحت الأمطار لتنعم بالحياة، كنت أظن أن الأمان يكمن في مناخي المستقر، لأجد في النهاية أنه أكبر فخ وقعت به، أنت كنت بالنسبة لي قوس قزح ذلك الذي يجب أن أتحمل من أجله الأمطار ولكني فضلت الهروب وترك يدك وتركتك بمفردك تحتها تغرق وحيد مكسور القلب، ولكن للأسف الوقت الذي أدركت به معاني الدرس قررت أنت الرحيل... لازال القدر يتحداني... ولكن لن أترك تلك الفرصة تضيع هي الأخرى... ربما إيناس القديمة كانت ستتركها، ولكن إيناس الحاضرة الآن قادرة على أن تقاتل من أجلك مهما كلفها الأمر، فهي لا تخشى خسارة شيء الآن سواك.... أعتذر في أني لم أدرك جمالك الحقيقي في كونك مختلف عنهم ولا تشبههم... وأردت تزييفه لكي تصبح مثلهم وأنال أنا رضاهم...

وتلك كانت أسوأ خطوة قمت بها في حياتي...

مصطفى إذا قبلت اعتذاري وأتوسل أن تقبله لا ترحل.... لن أقوى على رحيلك مرة أخرى.... دعني أعوضك عن أخطائي السابقة في حقك... إذا قبلت أخرج وستجدني في انتظارك هنا وأعدك لن أرحل مجددًا ".

***

جلست إيناس في سيارتها وعيناها لازالت عالقة بمدخل الصالة تنتظر خروجه في أي لحظة، لم تكن تتحمل فكرة أن ذلك اللقاء سيكون آخر لقاء بينهما، تمنت أن يقبل اعتذارها ويخرج الآن ولا يرحل، لتجد هاتفها يرن معلنًا عن رسالة جديدة وصلتها، فتحتها على الفور حين وجدتها من مصطفى وقرأت:

"حبيبتي إيناس

لطالما كنتي وستظلي حبيبتي الوحيدة مهما فرقت بيننا الأيام.... يبدو أنكِ بدأتي التحدث إلى جولييت!!!...... رؤيتك اليوم كانت كترياق أحياني مرة أخرى، أسعدتني رسالتك كثيرًا، وأسعدني أنك وجدتي من ينير لك دروبك المظلمة، وأسعدني تحقيق حلمك أخيرًا في تصميم الأزياء والفوز في المسابقة، في الحقيقة نعم أتابعك ولم يمض يوم بدونك منذ أن افترقنا، كنتِ حاضرة معي دومًا في كل لحظاتي، أحزنني كثيرًا ما مررتي به بعدي وأتمنى أن تجتازي الأمر وتشفى جراحك قريبًا.

أقبل اعتذارك... في الحقيقة قلبي لن يقوى على رفضه، علمت منذ فترة بخبر انفصالك بالصدفة وأنا أتابع تعليقات الأصدقاء على منشوراتك، لا أعلم لما ارتجف قلبي حينها وكأنه يدفعني لأركض نحوك وأعيدك إلي مرة أخرى، ولكني تلك المرة أنا من خشيت تلك الخطوة، خشيت أن تديري لي ظهرك مرة ثانية وقلبي لن يقوى على جرح آخر لذلك انتظرت حضورك ليتيقن قلبي بأنك لازلتي ترغبي بحبه، كم تمنيت أن أعود للخلف وأقبل بفكرتك في الهروب سويًا ولكني كنت أخشى أن أخذلك مرة أخرى أمام نفسك وأمام أهلك... لم أرغب أن يسوء الأمر أكثر رغم أن الغضب بداخلي كان يدفعني بكل قوة وهو يصرخ قائلًا فاليتحطم العالم بأكمله في سبيل أن تحصل عليها، كنت أخشى تهوري.....

لم يتركك الخوف يا إيناس ليهرب بل تركك ليركض نحوي بكل قوة ويحتضني، أرغب في العودة الآن ولكن أخشى أن تجدي ذلك الشبح الهائم الضال الذي أصبحت عليه، لم أعد أنا كما كنتِ تعرفينني، الشاب الطموح المفعم بالأمل، من يملؤه الشغف المندفع على الحياة والمقدم على أحلامه، إنما أصبحت شخص

منطفئ، مؤذي لنفسه وللآخرين، لا يندفع سوى للأسفل ولا يقدم سوى على فعل الأخطاء... منذ رحلتي وحياتي أصبحت كثقب أسود يبتلع كل شيء في جوفه بمرارة... يقبح كل جميل ويدنس كل طاهر، لم يعد لحياتي معنى وقيمة... لا أرى في وجهي سوى نظرة الخزي والانكسار..... أشعر بأنني لم أعد كافي لشيء ولا شيء أصبح يكفيني وكأن بيننا مساحة شاسعة أترنح وأتخبط بها، لقد فقدت شيئًا من روحي أجهل مكانه وأصبحت كالروح الضالة بين العوالم، بدون ذلك الجزء الحياة لا قيمة لها، لم أعد راضيًا عن حياتي بأكملها، الأحلام والطموحات التي حققتها لم يعد لها مذاق، لم تكفيني، أصبحت أبحث عن شيء وأجاهد الوصول إليه وأنا لا أعرفه، شيئًا يمحي نظرة الانكسار التي أراها على وجهي، لذلك قررت أن أبحث عنها في دروب أخرى لعلي أجدها، ربما سأحتاج للتواصل مع طبيبك النفسي يومًا ما لعله يرشدني لدربي المفقود..... فأنا لا أريدك أن تقتربي من ذلك الشخص المظلم الآن... حقًا أخشى عليكي منه....

نعم... لم يجمعنا الماضي يا إيناس، ولكن هناك لحظة في مستقبلنا ستجمعنا بالتأكيد ما إن وصلت لضالتي سأعود....

أعدك إني سأعود يومًا ما وأرجو أن تظلي في انتظاري لحين أعود نسخة مصطفى التي تستحق أن تحظى بها إيناس الحقيقية... أنتِ... حبيبتي".

أرسل مصطفى لها رسالته ثم أتبعها بأغنية يستمع إليها الآن في سماعات الأذن، ليتخلل نغماتها نداء الاستعداد لرحلته، فينهض ويسحب حقائبه ويغادر.....

بينما جلست إيناس تقرأ رسالته في السيارة ودموعها تودعه، وما إن انتهت منها حتى بدأت في سماع الأغنية وهي تدير سيارتها وترحل.

I'm fighting a battle
I'm fighting my shadow
Heard fears like they're cattle
I'm fighting a battle
I'm fighting my ego
Lost youth, where did we go wrong?
I'm fighting for me, though
I'm lighting the long way home
Oh, the past it haunted me
Oh, the past it wanted me dead
Oh, the past tormented me
Oh, the past it wanted me dead
Oh, the past it haunted me
Oh, the past it wanted me dead
Oh, the past tormented me
But the battle was lost
'Cause I'm still here

***

تمت بحمد الله

للتواصل مع الكاتبة

https://www.facebook.com/Yousraelnoby